ت. أ. لورنس

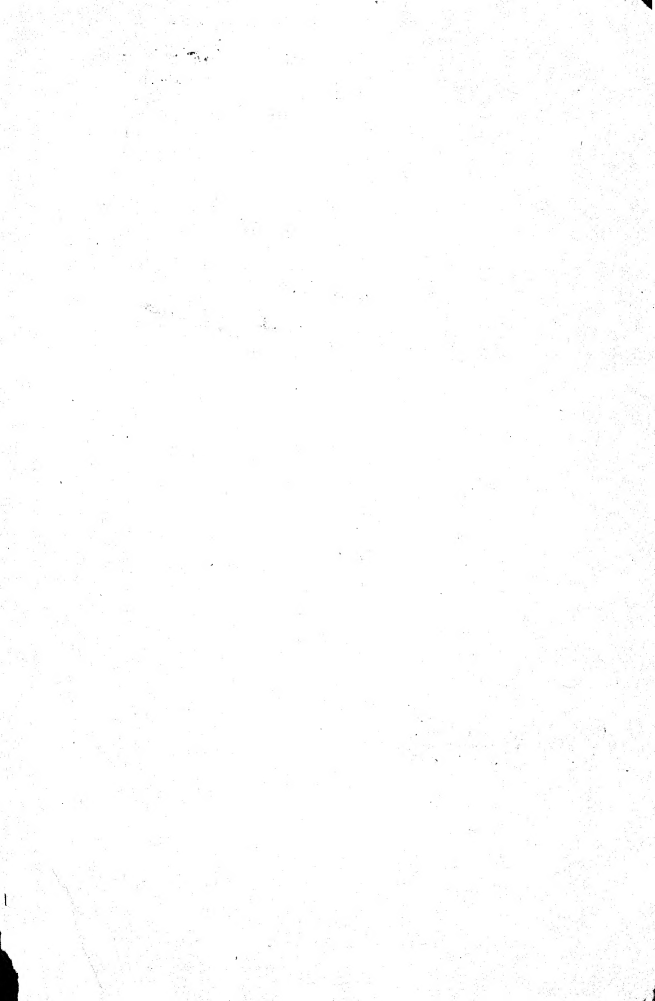
أعمدة الحكمة السبعة

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، شباط (فبراير) ١٩٦٣

أعمدة الحكمة السبعة



الإهداء

الى س. ا.

لقد أحببتكِ ولذلك جذبت بيدي هذه الجموع من الناس مسطّراً إرادتي بالنجوم عبر السماء ، كي أستحصل لك على الحرية ، المنزل الجدير بك ، منزل الاعمدة السبعة ، لعلّ عينيك تشعّان من أجلي عندما أجيء .

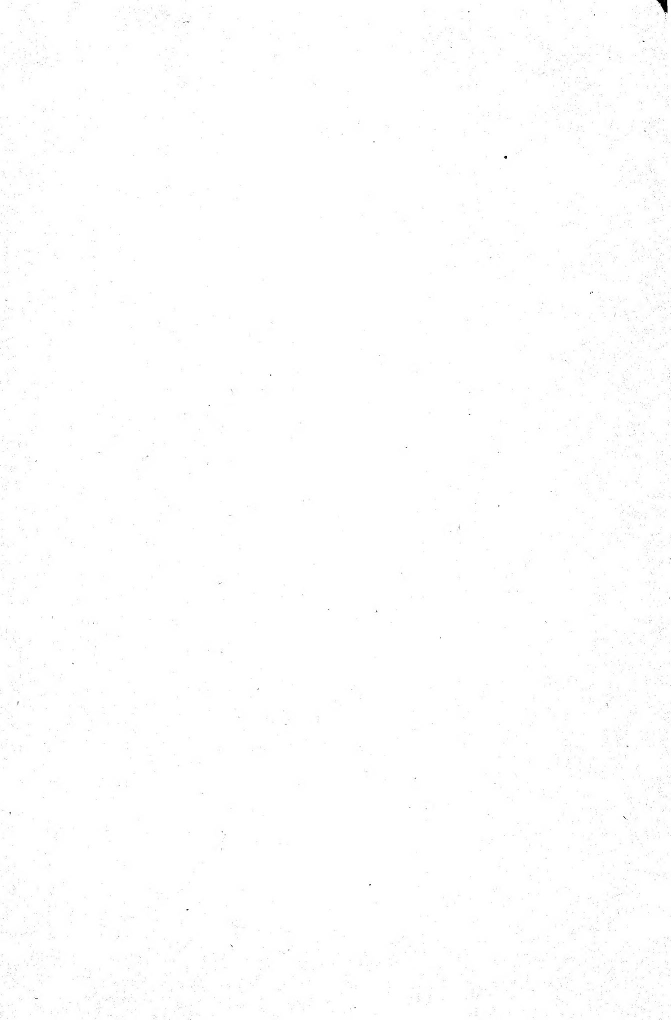
لقد بدا لي الموت خادماً في الطريق إلى أن اقتربت ورأيت من تنتظرين . لقد تبسمت حين سبقني اليك مدفوعاً بغيرته الحزينة ، ليحملك ويلقي بك في سكينته .

لقد تلمس الحب طريقه متعباً حتّى وصل إلى جسدك ، وذلك حين سبقت يد الارض الطرية الممتدة لتستطلع شكلك وقبل ان تزداد الديدان العمياء شحماً من جوهرك .

لقد رجاني الناس كي أقيم من عملنا بيتاً مَصوناً تخليداً لذكراكِ ، ومع ذلك حطّمتهُ قبل أن يُنجز .

والآن تزحف الكائنات الصغيرة لتصنع لنفسها في الظلام خرائب من أطلال ما وَهَبتُكِ إيّاه .

لورانس

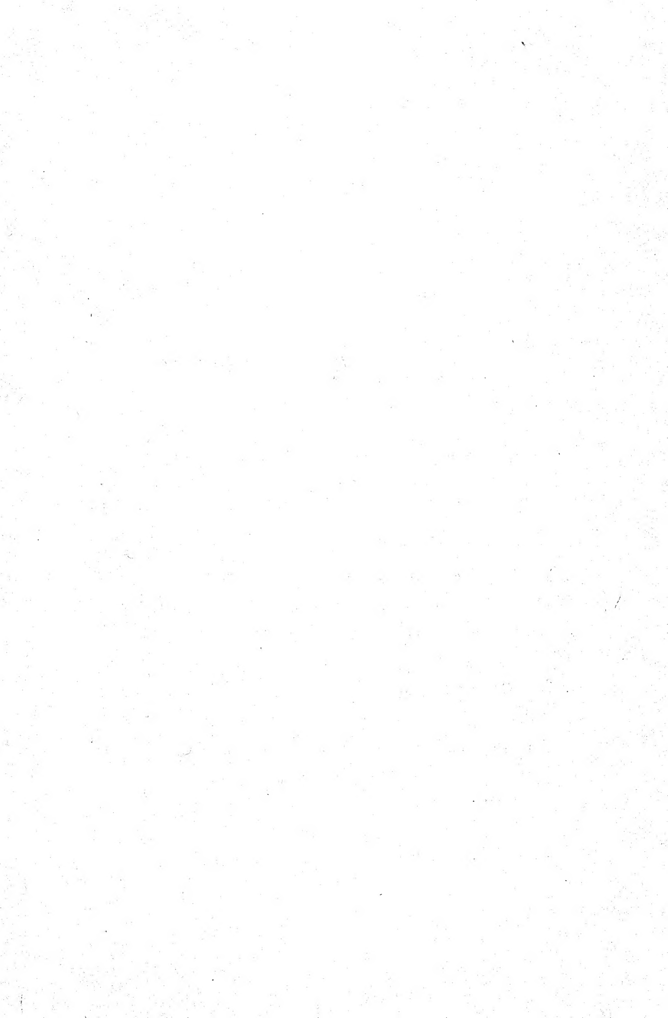


مقدمة

قاعدة الثورة

لقد اعتقد نفر من البريطانيين وعلى رأسهم « كيتشنر » ان من شأن ثورة العرب على الاتراك ان تُتيح الفرصة لانكلترة كي تنتصر على تركيا حليفة المانيا العدو اللدود آنذاك .

وكانت الروح العاصفة في الشعوب الناطقة بالعربية إلى جانب قوة تلك الشعوب وموقع بلدانها الجغرافي من بين الاسباب القوية التي حملت على الاعتقاد بامكانية نجاح هذه الثورة . لذلك ترك اولئك النفر من البريطانيين الحركة العربية تولد وتنمو وتمتد بعد أن استحصلوا من الحكومة البريطانية على وعد صريح بمساندتها وتغذيتها ودعمها . غير ان الثورة الشريفية هذه كانت مفاجأة كبيرة للكثيرين لأن الحلفاء لم يكونوا مستعدين لها ، الامر الذي جعلها تُثير مشاعر متضاربة ، وتكسب صداقات متينة تقابلها عداوات ضارية عنيفة دفعت بها وسط هذا الصدام العنيف للغايات والاهواء إلى طريق الضلال والضياع .



١

من العناء الذي رافق هذه القصة هناك بلا ريب قسط كبير يمكن ان أعزوه إلى الظروف . لقد عشنا سنوات طوالاً جنباً إلى جنب في صحراء قاحلة عارية أثناء النهار نكتوي بنار الشمس المحرقة وموجات الرياح اللافحة . وفي الليل كان يغمرنا الطل وكم من مرة اعترانا الخجل وشعرنا بأننا لا شيء يذكر أمام هذا السكون الرهيب الذي تفرضه النجوم المتلألئة . لقد كنا جيشاً منطوياً على نفسه دون استعراضات ولا تحركات ، مخلصين كل الاخلاص للحرية التي هي أسمى القيم .

وشيئاً فشيئاً كبرت الرغبة في ان نكافح من أجل هذا الهدف الاسمى حتى أصبحت وسواساً مسلماً به يروّض شكوكنا ويحثها ويكبح جماحها . وطوعاً أو كرهاً وجدنا في ذلك معتقداً . وقبلنا أن نكون عبيداً له . وربطنا أنفسنا بسلاسل عبوديته ، وارتضينا أن نبذل جهدنا لخدمة غايته المقدسة . وخلافاً لعقلية العبيد العادين الذين يمنحون أجسادهم فقط منحنا نحن أجسامنا وأرواحنا لهذا النهم المسيطر إلى النصر ، حتى أصبحنا كأوراق الخريف في مهب الرياح .

وكانت حرباً طاحنة قاسية جردتنا من كل قلق على حياتنا خاصة بعد الأثمان الباهظة التي وضعها العدو لرؤوسنا والمصير الذي كان يواجهه من يقع منا في يد الاتراك . وكنا في تلك الاثناء نعيش على أعصابنا

باستمرار لا نعرف ما يخبئه الغد لنا .

وفي حياتنا هذه لم يكن لدينا مكان مقفل نلجأ اليه طلباً للانفراد والتأمّل .

لقد انتدبتُ للعيش مع هؤلاء العرب كغريب عاجز عن مجاراتهم في التفكير والمعتقد ، مجبراً على تدريبهم وتوجيههم في الاتجاه الذي يتفق مع مصالح بريطانيا المتحاربة مع عدوهم . وإذا كنت قد عجزت عن تفحص شخصيتهم ، فقد نجحت على الاقل في اخفاء شخصيتي عنهم واستطعت أن أندمج كلياً في حياتهم دون احتجاج ولا انتقاد . وبما انني كنت رفيقهم فلن أحاول اليوم وقد عدت إلى ارتداء الزي البريطاني الثناء عليهم أو الدفاع عنهم . بل سأحرص على أن أصوّر الاحداث كما عشتها بالفعل .

٢

إن أمر تعريف العرب يُعتبر من أولى صعوبات الحركة العربية . واسم هذا الشعب كثيراً ما تغيّر معناه مع السنين . فقد عنَى فيما مضى العرب الذين كانوا يقطنون بلاداً عرفت باسمه « الجزيرة العربية » إلا ان هذه التسمية لم يعد لها عندنا أي معنى اليوم . وأصدق تعريف لهذا الشعب هو ما زودتنا به اللغة العربية . فهي اللغة السائدة في كل من سورية وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية . قبل الاسلام كان يأهل هذه الاقطار شعوب مختلفة تتكلم لهجات متفاوتة ولكنها من ارومة واحدة اتفق المؤرخون الاورويبون على تسميتها خطأ بالشعوب السامية . ومهما يكن من أمر فأن اللهجات : العربية ، والاشورية أو البابلية ،

والفينيقية والعبرانية والآرامية والسريانية كانت متقاربة وتكاد تكون من أصل واحد زاد من تقاربها وتفاعلها ان الشعوب القاطنة في هذه الاقطار حالياً والتي تتكلم اللغة العربية المعروفة متشابهة في الشكل وفي العادات وفي طرق التفكير ، على الرغم مما مرّ عليها خلال تاريخها الطويل .

ولدى قبولنا هذا التعريف نلاحظ ان مناطق اللغة العربية في آسيا تشكل متوازياً للاضلاع . يبدأ ضلعه الشمالي عند الاسكندرونة على البحر المتوسط وينتهي عند نهر دجلة عبر بلاد ما بين النهرين (العراق) ، ويحاذي الضلع الجنوبي شاطىء المحيط الهندي من عدن إلى مسقط . واما الحدود الغربية فيشير اليها شاطىء المتوسط وقناة السويس والبحر الاحمر حتى عدن . بينما يشير إلى الضلع الشرقي مجرى نهر دجلة والخليج العربي حتى مسقط . هذا المستطيل الذي تزيد مساحته على مساحة الهند كان يشكل موطن الساميين . ولم يستطع أي عنصر آخر تثبيت أقدامه فيه نهائياً . مع ان الفراعنة والحثيين والفلسطينيين والفرس واليونان والرومان والاتراك والفرنجة (الفرانك) حاولوا جميعاً على مرّ التاريخ اجتياحه . ولكن تلك المحاولات باءت كلها بالفشل على المدى الطويل وتشتت عناصرها كي تذوب في خضم المميزات الوطنية للعنصر السامي . هذا وقد حاول الساميون بدورهم تخطي الحدود واحتلال بلدان حوض المتوسط وأقاموا لهم هناك العديد من المستعمرات والجاليات ، ولكنها ذابت كلها هي الاخرى في خضم تلك البلدان .

لقد كان أصل هذه الشعوب بالنسبة لنا نحن ، معشر الاوروبيين ، قضية اكاديمية . واما بالنسبة لروح الثورة فقد كان من التفاوت الاجتماعي والسياسي الحالي الحاصل بينها الفائدة القصوى . والجغرافية فضلاً عن ذلك تفرض مثل هذا التفاوت . فالقارة العربية تقسم إلى مناطق طبيعية يفرض تباينها على الاهالي عادات وتقاليد غاية في الاختلاف . ففي

الغرب من الاسكندرونه إلى عدن ترتفع سلسلة جبلية متوسط ارتفاعها ألف متر ، وتصل بعض قممها إلى ثلاثة أو أربعة آلاف متر مفتوحة على البحر المتوسط من الغرب ، وهي غزيرة الامطار وكثيفة السكان .

وهناك سلسلة جبلية آهلة أخرى في مواجهة المحيط الهندي ، تشكّل الحافة الجنوبية لمتوازي الاضلاع العربي . واما الحافة الشرقية فتضم في الشمال سهلاً رسوبياً يعرف ببلاد ما بين النهرين ، وفي الجنوب شاطئاً منخفضاً حتى قطر يعرف بساحل الكويت والاحساء . والقسم الاكبر من هذا السهل آهل بالسكان أيضاً . وفي الوسط ترى حوضاً صحراوياً يضم عدداً من الواحات (تضم الرياض) المأهولة . والصحراء هي التي احتضنت الروح العربية وأبقتها نقية من كل شائبة خارجية معطية بذلك للبلاد خاصتها المميزة .

والصحراء نفسها التي قامت بهذه المهمة خير قيام هي فضلاً عن ذلك ذات طبيعية متباينة . فإلى الجنوب من الواحات حتى المرتفعات الجنوبية يمتدّ بحر شاسع من الرمال يتعذر اجتيازه ، لذلك بقيت تلك المرتفعات معزولة عن مجرى التاريخ العربي لترتبط بتاريخ جزر جنوب شرقي آسيا . وإلى الغرب من الواحات باتجاه الحجاز الجبلي تمتد صحراء نجد البركانية الكثيرة الحصى . وإلى الشرق باتجاه الكويت تمتد صحراء أخرى من الحصى مخضبة بجبال من الرمال المتحركة تجعل المواصلات فيها محفوفة بالكثير من المخاطر . وأخيراً إلى الشمال من الواحات يجد المسافر حزاماً من الرمال ، ثم سهلاً شاسعاً من الحصى والمقذوفات البركانية يملأ الفراغ بين الطرف الشرقي من سورية ومجرى الفرات الطرف الغربي لبلاد ما بين النهرين . وكون هذه البادية الشمالية صالحة لتنقل الاشخاص والحيوانات والسيارات هو الذي ساعد على نجاح الثورة العربية .

وقد كانت الجبال الغربية والسهول الشرقية على مر التاريخ أكثر المناطق حيوية في بلاد العرب وأصلحها للحياة . فالغرب وبصورة

خاصة جبال سورية وفلسطين والحجاز واليمن دخلت مراراً عديدة في مجرى التاريخ الاوروبي . وكان سكانها ولا يزالون يتطلعون إلى حوض المتوسط في أعمالهم الحضارية والتوسعية والتجارية ، الأمر الذي جعل عرب الداخل يتوافدون على موجات متتالية إلى المناطق الغربية والشمالية الغربية .

٣

إذا كان هناك تفاوت اجتماعي واقتصادي بين الحضري والبدوي في آسية العربية فان هناك تشابهاً عظيماً في طرق التفكير والنشاط الروحي .

ومن الوهلة الأولى نلاحظ عندهما صفاء غريباً وصلابة فريدة في في المعتقد . وهما يريان العالم في ألوانه الأصلية ، بل في لونيه الرئيسيين : الأبيض والأسود ، وفكرهما الجازم يحتقر الشك ولا يقبل مطلقاً التردد الذي تسلحنا به نحن الاوروبيين لمواجهة شؤون ما وراء الطبيعة ، كما يأبى القبول بقلقنا النفسي . فهو يعرف بكل بساطة ما هو حق وما هو باطل ، ما هو إيمان وما هو إلحاد .

هذا الاسود والابيض للنظرة العربية نجده في عالمي الروح والفكر . وبسبب الأسود والأبيض هذا يحبّ الشعب الجلاء والوضوح . وهذا الشعب ذو الأفق الضيّق في التفكير يمكنه أن يترك الذهن جانباً وينقاد بصورة عفوية وراء حب الاستطلاع . خياله خصب ولكنه ليس خلاقاً . وهناك نزر يسير من الفن العربي في آسيا لدرجة يمكننا معها أن نتجاهله إلا أن كبار القوم الموسرين من العرب شجّعوا مختارين مواهب جيرانهم وعبيدهم ومواليهم في شتى أنواع الفنون والصناعات . إلا ان الصناعة

الكبرى غريبة عنهم .

وفي حقل الفلسفة لم يسبق للعرب أن وضعوا نظماً فلسفية أو ميتولوجية معقدة . بل اتبعوا دائماً الطريق الضيقة القصيرة بين اصنام القبيلـة . وبوصفهم أقل الشعوب مرضاً واعتلالاً قبلوا هبة الحياة على انها حقيقة بديهية لا تقبل الشك والجدل . والوجود في نظرهم حق انتفاعي مفروض على الانسان ، هو رهن بمشيئة القدر الذي لا سلطان لأحد عليـه . واستناداً إلى ذلك لا يخطر الانتحار على بال أحد . والموت لا يُنظر اليه على انه شرّ .

والعرب شعب الانفعالات والثورات والألهامات والوحي ، وعنصر العبقريات الفردية . وأكبر صناعات العرب صنع المعتقدات التي تكاد تكون احتكاراً لهم . ثلاثة من تلك الاديان وُلدت عندهم ، واثنان من هذه الثلاثة استطاعا أن ينطلقا إلى ما وراء الحدود وينتشرا عند الشعوب غير السامية . فالمسيحية بعد أن تُرجمت إلى اليونانية واللاتينية والجرمانية بسطت سلطانها على قارتَيْ أوروبا واميركا . والإسلام على دفعات متتالية اقتحم القسم الاكبر من قارتي آسيا وإفريقيا . هذا ويدّعي العرب ان عدد أنبيائهم قد ناهز الاربعين الفاً . أثبت التاريخ لنا سيرة بضع مئات منهم على الاقل . وهذه السيرة تكاد تكون واحدة . يُولد النبي بين الجماعة ، وما ان يشبّ حتى يشعر بدافع خفي يشده إلى الصحراء ، فيهجر القوم اليها ، ويقضي فترة من الزمن في التأمل وقهر الجسد . وأخيراً ، بعد أن يهبط الوحي عليه ، يعود إلى رفاقه القدامى يبثّهم رسالته المبددة لشكوكهم . وقد مرّ أصحاب البيعات السماوية الثلاث في هذه الحلقة الحياتية . كما ان القاسم المشترك في المعتقدات السامية الناجحة وغير الناجحة كان دائماً وأبداً احتقار العالم الدنيوي والعزوف عن المادة وبهرجتها إلى العمل لكسب العـالم الآخر الأبـدي ، حيث السعادة الحقيقية .

٤

لدى الفتح العربي الكاسح بعد الاسلام ، ظهرت للعالم لفترة من الزمن ، القوةُ العظمى لهذا العنصر . ولكن ما إن خمدت جذوة الحماسة حتّى اتضح بنفس الجلاء ان ذلك الشعب كان ينقصه التبصر وروح التنظيم . فالمناطق المحتلة أهملت بسبب كره العرب لنظام الحكم . ولإدارة شؤون امبراطوريتهم غير المتجانسة اضطروا إلى اللجوء إلى رعاياهم أو إلى أجانب أكثر عنفاً منهم . وهكذا منذ فجر الاسلام خلال القرون الوسطى ، استطاع الاتراك أن يتسللوا إلى جسم الدول العربية كخدم أولاً ثم كشركاء ، واستطاعت شبكتهم الطفيلية في النهاية أن تقضيَ كلياً على الجهاز الاداري القديم لتُقيم على أنقاضه جهازها الخاص بها . وكانت المرحلة الاخيرة في هذا التطور حرباً مكشوفة رأينا فيها هولاكو وتيمورلنك يتركان العنان لغرائزهما الدموية ويحرقان أو يتلفان كل ما يقف في طريقهما بحجة تفوّق مزعوم .

لقد كانت الحضارة العربية حضارة فكرية أخلاقية معنوية أكثر منها عملية . وانعدام وجود روح العنصر المسيطر ، سرعان ما جعل الميزات الخاصة السامية عديمة الفائدة . ولحسن حظ الانسانية ان الحضارة العربية في الحقبة التي تفتحت فيها استطاعت أن تقدّم للانسانية خدمات جلى في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في دياجير الظلام والقرون الوسطى . وما ان طغى الاتراك واستأثروا بما كان للعرب من حول وطول حتّى انقلب حسن الطالع ذاك إلى سوء . وتباعاً كان على كلّ سامي آسيا ان يرضخوا للنير التركي الذي كان أشبه ما يكون بموت بطيء بالنسبة لاولئك الساميين . فقد انتزعت منهم ممتلكاتهم ، وفرض عليهم الاتراك قانوناً بوليسياً صارماً جمّد تفكيرهم وشلّ حركاتهم وتصرفاتهم . كما عوّد



التركيُّ العربيَّ على تقديم مصالح الطائفة على مصالح الوطن ، وتقديم الاقليمية على القومية والتابعية الوطنية . وعن طريق التباين الزهيد بذَر الترك بذور الشك والحذر بين العرب . واللغة العربية نفسها تعمّد الاتراك القضاء عليها ومنعوا استخدامها في الدواوين والمحاكم والمدارس العليا لعلّهم بذلك يقضون على العنصر العربي . إلا ان العرب لم يستكينوا وردّوا على هذه الاساليب الحسيسة بثورات عارمة حفظت لهم لغتهم وحضارتهم وميزاتهم ومكّنتهم من تطعيم اللغة التركية البدائية بالكثير من الالفاظ العربية المهذبة .

صحيح ان العرب فقدوا ، في ظل الحكم التركي الجائر ، معناهم الجغرافي وذكرياتهم العنصرية والسياسية والتاريخية ، ولكنهم تمسّكوا بلغتهم وجعلوا منها تجسيداً لكل ما يقدّسون ، فباتت شكلاً من أشكال الوطن . ولما كان من أول واجبات المسلم دراسة القرآن ، كتابه المقدس وأكبر سفر في الأدب العربي ، فقد تيسّر بذلك للغة العربية أن تعيش وتتغلب على الاهواء والاعاصير .

ثم جاءت الثورة العثمانية وتبعها سقوط عبد الحميد وانتصار جماعة « تركيا الفتاة » فانفتحت أمام العرب آفاق جديدة . وذلك لأن حركة جماعة « تركيا الفتاة » كانت ثورة على المفهوم المألوف للاسلام وعلى المرامي الاسلامية العالمية الجامعة عند السلطان عبد الحميد الذي كان يسعى لأن يكون الزعيم الديني والدنيوي المطلق للمسلمين جميعاً .

لقد رمت الثورة بالسلطان في السجن ، وعملت لاقامة دولة على أسس دستورية حديثة . وفيما كانت أوروبا تخرج من طور القوميات لتدخل في طور العالميات التي هي فوق العناصر ، كانت آسيا الغربية على العكس من ذلك تعيش في حمى الغليان القومي ، تندلع الثورات هنا وهناك ، وكلها ترمي إلى إقامة دول قومية على أسس دستورية مكان الامبراطورية التركية التي قامت على أساس القوة ووحدة الدين . وعلى

نداء الطورانية وتتريك تركيا ردّت العناصر الأخرى بنداءات مماثلة ، وهبّت شعوب البلقان تسعى إلى التحرر والاستقلال ، ثم تبعها الارمن والعرب والاكراد . غير ان جماعة تركيا الفتاة سرعان ما تناسوا الدوافع الدستورية وراحوا يقمعون تلك الثورات بشدة لم يعرف عهد السلاطين مثيلاً لها . وأصاب العرب من هذا القمع أشده لأنهم كانوا يشكّلون أكبر أقلية في جسم الدولة العثمانية ، ولكنهم لم يستسلموا ، بل لجأوا إلى العمل السرّي ، وأسسوا الجمعيات القومية السرية في الداخل والخارج وراحوا يبثون الدعاوة القومية بشتّى وسائل النشر والاعلان المتيسرة لهم. ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى وانجرفت تركيا إلى دخولها كان الاتراك موقنين تماماً بأن العرب ليسوا معهم . فعمد جمال باشا إلى الفتك بزعمائهم ومصادرة أملاكهم ومحصولاتهم والرمي بأبنائهم في اتون الحرب . وفي الوقت نفسه تلقّى شريف مكة دعوة من الخليفة التركي لاعلان الجهاد المقدس .

٥

كان وضع شريف مكة غامضاً . ولقب شريف يدلّ على ان حامله ينحدر من نسل النبي محمد (صلعم) . وقد دُوّنت أسماء الشرفاء في شجرة العائلة . وهي عبارة عن ملف اسطواني ضخم يحفظه الشريف المنتخب .

وقد حكمت أسرة النبي مكة نحو تسعمئة سنة وتجاوز حكامها الالفين عدداً . وكانت الحكومات العثمانية المتعاقبة تنظر إلى هؤلاء الاشراف نظرة هي مزيج من الاحترام وعدم الثقة . وبما ان الاتراك كانوا بحاجة إلى

الحجاز ليُضفوا على دولتهم رداءً اسلامياً ، لذلك اهتموا بهذا القطر أكثر من غيره . وقد مكّنهم افتتاح قناة السويس من تحصين المدن المقدسة وتخطيط الخط الحديدي الحجازي ، كما سعوا إلى توسيع مجالات نفوذهم بين العشائر مستخدمين لهذا الغرض الرشوات والدسائس والحملات العسكرية .

ونتيجة لازدياد نفوذ الاستانة أخذ السلطان يؤكّد وجوده إلى جانب الشريف الحاكم في مكة ذاتها ، حتى انه في بعض المناسبات بدأ يغامر فيعزل شريفاً بارزاً ليعيّن خلفاً له من فخذ منافس . وأخيراً لجأ السلطان عبد الحميد إلى تدبير فريد ، فنقل بعض أعضاء الأسرة إلى الآستانة واحتفظ بهم كرهائن معزّزين . وكان الحسين بن علي الحاكم المقبل لمكة أحد اولئك الرهائن .

وقد اغتنم فرصة وجوده في العاصمة العثمانية فعمل على تربية أبنائه : علي وعبد الله وفيصل وزيد ، تربية حديثة زوّدتهم بالخبرة اللازمة التي مكّنتهم فيما بعد من قيادة الجيوش العربية . وعندما سقط عبد الحميد أقدم خلفاؤه من رجال جمعية تركيا الفتاة الذين كانوا دونه دهاءً على قلب سياسته رأساً على عقب ، فأرسلوا الشريف حسين بن علي حاكماً على مكة . وما كاد الشريف حسين يتولى سلطانه حتى أخذ يبذل كل جهده لإعادة ما كان لامارة مكة من نفوذ وسلطان مستخدماً ابنه عبد الله نائب رئيس مجلس النواب التركي ، وفيصلاً ممثل جده فيه ، للابقاء على علاقات الودّ بالحكومة التركية . وكان عبد الله وفيصل على اتصال دائم بوالدهما . وكانا يطلعانه بصورة مستمرة على مختلف التيارات والافكار السياسية حتى نشوب الحرب حيث عادا مسرعين إلى مكة .

وعندما استعرت الحرب برزت المصاعب في الحجاز ، إذ توقّف تدفّق الحجاج عليها ، فنضبت عائدات الحج وتعطلت الاعمال في المدينتين المقدستين وانقطعت شحنات الاغذية المستوردة من الهند . وذلك لأن

الحجاز أصبح بعد اندلاع الحرب من الوجهة الفنية بلداً معادياً . ونتيجة لذلك كان على الحجاز ان يعتمد اعتماداً كلياً على النيات الطيبة للاتراك الذين صار في مقدرتهم أن يفرضوا المجاعة على البلاد بواسطة اغلاق الخط الحديدي الحجازي ، وقد اغتنموا هذه الفرصة السانحة ليُرغموا الشريف حسين على اعلان الجهاد المقدس إلى جانبهم .

ولكن الحسين كان رجلاً شهماً ذكياً عنيداً متديناً ، وقد أدرك ان الحرب المقدسة التي يريد منه الاتراك ان يباركها لا تتفق والحـرب العدوانية ، كما ان المانيا المسيحية كانت حليفة لتركيا المسلمة ، لذلك رفض الحسين الطلب التركي ووجه نداءً رزيناً إلى الحلفاء يناشدهم فيه ألاّ يُقدموا على تجويع بلاده من أجل خطأ لم يُسهم فيه شعبه . فما كان من الاتراك عقب هذا النداء إلا أن أوقفوا المواصلات على الخط الحديدي الحجازي وفرضوا رقابة شديدة على حركة النقل عليه .

لم يكن طلب الاتراك من الحسين اعلانَ الجهاد المقدس هو السبب الوحيد الذي جابهه الحسين ساعة نشوب الحرب . ففي كانون الثاني عام ١٩١٥ اتصل بالحسين ياسين الهاشمي زعيم الضباط العراقيين وعلى رضا الركابي زعيم الضباط الدمشقيين ، وعبد الغني العريسي إحدى الشخصيات المدنية البارزة ، وعرضَ هؤلاء عليه اقتراحاً مفصلاً كاملاً يرمي إلى قيام تمرد عسكري في سوريا ضد الاتراك . وكان شعبا العراق وسوريا المضطهدان قد توجها بالحاح من جمعيتي العهد والفتاة إلى الحسين بوصفه أباً للعرب ليُقدم على إنقاذهم من المشروعات الخطيرة التي أعدّها طلعت وجمال . وقد اضطر الحسين بوصفه زعيماً سياسياً وروحياً للعرب ان يُصغي إلى هذا النداء ، فأرسل بفيصل نجله الثالث ممثلاً له إلى دمشق كي يبحث مع قادة العرب هناك خططهم وبرامجهم . ومن ثم بعث بنجله الاكبر علي إلى المدينة وكلفه بتجنيد رجال العشائر وإعدادهم للقتال ساعة يطلب فيصل ذلك . اما عبد الله السياسي فطلب منه ان يجسّ نبض الانكليز

ليتعرف على موقفهم إذا نشبت ثورة عربية ضد الاتراك .

رفع فيصل في كانون الثاني عام ١٩١٥ تقريراً إلى أبيه يقول فيه ان الاوضاع الداخلية في سوريا أوضاع ملائمة للثورة ، وان تكن ظروف الحرب العالمية لا تبعث على الامل . ففي دمشق ثلاث فرق عسكرية عربية مستعدة للثورة وفي حلب فرقتان عسكريتان منتشيتان بخمرة القومية العربية .

ويقابل هذه الفرق العربية الخمس في سوريا فرقة عسكرية تركية واحدة . لذلك فأن النصر مضمون للعرب فيها . وكان في رأي العسكريين العرب ان المانيا ستربح الحرب سريعاً . وعلى كل حال إذا ما أنزل الحلفاء الفرقة الاسترالية التي يعدُّونها في مصر على ساحل الاسكندرونة كي يحموا الجناح السوري ، عندئذ سيكون من مصلحة العرب أن يغامروا ليفرضوا على الاتراك صلحاً منفرداً .

إلا ان هذه الخطة لم تُنفّذ وهاجم الحلفاء الدردنيل واستطاعوا أن يحطموا ما تبقى من جيش الخط الاول العثماني . وكانت الخسائر التي نزلت بالاتراك فادحة بحيث حملت فيصلاً على ان يأتي سريعاً إلى دمشق واثقاً من ان اللحظة المناسبة قد أتت .

غير انه وجد الاوضاع الداخلية غير مناسبة لاشعال نيران الثورة ، وألفى أصدقاءه يساقون إلى المشانق قافلة تتلو قافلة ، كما لاحظ ان الفرق العسكرية العربية قد نقل بعضها إلى جبهات نائية وذوّب البعض الآخر في الفوهة التركية . ورأى سوريا ترسف في اغلال الطاغية جمال باشا . وهكذا تبخّرت أرصدة فيصل وانهارت آماله .

فرفع إلى والده تقريراً ينصحه فيه بالتريث حتى تستكمل بريطانيا استعداداتها وتستنزف تركيا آخر قطرة من قواها . غير ان بريطانيا كانت آنذاك لسوء الحظ في حالة يرثى لها ، إذ كانت قوتها العسكرية تتراجع مهزومة في جبهة الدردنيل وكانت مسألة « الكوت » تجتاز آخر

مراحلها . أضف إلى ذلك ان ثورة السنوسيين ودخول البلغار الحرب، إلى جانب المانيا كانا يشكّلان خطراً داهماً يهدّد أجنحتها الجديدة .

كان موقف فيصل آنذاك حرجاً . إذ كان عليه بوصفه ضابطاً عثمانياً ان يقيم في القيادة العليا للجيش التركي في دمشق . وهناك كان يستمعُ إلى الاهانات التي يصبها جمال الطاغية على العرب . وكثيراً ما كان جمال باشا يستدعي فيصلاً ليرافقه لدى شنق أصدقائه من السوريين. وهؤلاء الضحايا لم يجرؤوا على اظهار حقيقة مشاعر فيصل وآماله وعقائده ، كما ان فيصلاً لم يجرؤ هو أيضاً على اظهار شعوره الحقيقي لعلمه ان كلمة واحدة ستؤدي إلى ادانة عائلته أو شعب بأسره .

ومرة واحدة فقط انفجر فيصل وهو يرى المآسي والطغيان في سوريا ، إذ صاح في وجه جمال باشا قائلاً : « ان تلك الاعمال ستكلفه غالياً ولن يستطيع بواسطتها ان يتجنب ما يريد تجنبه » . وكاد فيصل ان يدفع ثمن هذه الكلمات غالياً . ولكن بعض أصدقائه من العسكريين الاتراك في الآستانة تشفعوا به . وكانت مكاتبات فيصل ورسائله إلى أبيه هي أيضاً مغامرة محفوفة بالمخاطر وكان يحملها بعض الاتباع من خدم وحشم ممّن لا ترقى اليهم الشبهات . وكان هؤلاء يمتطون القطار المسافر إلى الحجاز ويخبئون تلك الرسائل الخطيرة في اغماد السيوف أو داخل الكعك أو يضعونها بين نعلي الحذاء ويخيطونهما . وفي بعض الاحيان كانت هذه الرسائل تكتب على أغلفة الطرود بحبر سري خفي .

وعلى الرغم من ذلك كله لم تضعف عزيمة الحسين إذ كان يرى في الاتراك من أعضاء جمعية تركيا الفتاة ، رجالاً ملحدين طماعين . ومع انه كان آنذاك يتجاوز الخامسة والستين من عمره ، فقد كان مصمماً على اشعال ثورة لاهبة معتمداً في ذلك على ما تقدّمه له عدالة قضيته من عون ومساعدة .

وكان مقتنعاً بسبب من إيمانه الديني ان الحجاز بامكاناته الحربيــة المحدودة يستطيع أن يحــارب تركيا ويخرج منتصراً في بلده . ولذلك ارسل رسولاً إلى فيصل مع كتاب غامض يقول فيه ان جميع الاعدادات العسكرية قــد تمّت وانه لهــذا السبب يدعوه إلى القدوم ليفتش القطعات العسكرية قبل ارسالهــا إلى الجبهة . ولكن فيصلاً اطلع جمال باشا على هذه الرسالة ، فساورته الشكوك وأجاب ان أنور باشا القــائد العــام للجيوش التركية سيصل قريباً دمشق ومنها سيتوجه إلى الحجاز . لذلك من المستحسن أن ينتظر فيصل وصول أنور باشا كي يرافقه في زيارته للحجاز .

وأردف جمال باشا قائلاً : انه هو نفسه قد يرافق فيصلاً وأنور في هذه الزيارة . وقــد جاء قول جمال باشا هذا مخيباً لآمال فيصل ، إذ ان الأمير كان عازماً حــال وصوله المدينة على مباغتة الاتراك برفع الراية الحمراء ضد الاتراك . وهكذا وجد فيصل نفسه عقب ما قاله له جمال باشا مرغماً على مرافقة ضيفين ثقيلين يحرم عليه قانون الضيافة العربية أن يلحق بهما ضرراً .

وفعلاً سافر الثلاثة إلى الحجاز ، وحضروا العرض العسكري الذي كان مظهراً من مظاهر القدر المفرط في سخريته . وبعد أن استعرض الضيفان العدوان باهتمام الجيش العربي وحركات الفرسان من راكبي الخيول والجمال وهي تثير سحب الغبار ، التفت أنور إلى فيصل وسأله عما إذا كان قــد أعدّ جميــع هؤلاء المتطوعين بغية اشراكهم في الحملة العسكرية ضدّ قنال السويس فأجابه فيصل : نعم ...

فأردف أنور يسأل فيصلاً :

— « وهل هــذا الجيش مستعد لأن يحــارب حتى النهــاية ضدّ الكفّار ؟ »

فرد عليه فيصل : « نعم . »

وعقب نهاية العرض بينما كان فيصل يقدّم رؤساء العشائر إلى أنور وجمال ، أمسك الشريف علي بن الحسين بيد فيصل وانتحى به جانباً وهمس في أذنه :

— « هل نجهز الآن يا سيدي على هذين العدوين اللدودين ؟ »

فرد عليه فيصل قائلاً :

— « لا . إنهما ضيفان ، وتقاليد الضيافة تحرم علينا ذلك . »

وقد أبدى آنئذ رؤساء العشائر امتعاضاً شديداً من موقف فيصل هذا . وعقدوا الأمر فيما بينهم على قتل هذين الطاغيتين . لذلك اضطر فيصل لأن يتوسل بكل حيلة ليحول دون قتل أنور وجمال اللذين ساقا أصدقاءه إلى المشانق في دمشق ، حرصاً على تقاليد الضيافة العربية . وفي النهاية كان على فيصل ان يتذرّع بمختلف الاسباب كي يعود بالضيفين إلى المدينة حيث اوكل حراستهما إلى أتباعه الاوفياء . ومن ثم اضطر إلى ان يرافقهما في عودتهما إلى دمشق .

وقد أثارت التدابير التي اتخذها فيصل لحماية انور وجمال الشبهات في نفسيهما ، فلم يكن منه إلا أن برّرها بقوله انه من عادات العرب ان يغمروا ضيوفهم بالسخاء والكرم واضعين تحت تصرفهم جميع ما يملكون من امكانات مادية ومعنوية . غير ان جواب فيصل هذا لم يبدّد المخاوف في نفسَيْ انور وجمال . فما كادا يصلان حتى فرضا الحصار على الخط الحديدي وأرسلا حامية تركية قوية إلى المدينة ، وحاولا ان يستبقيا فيصل رهينة في دمشق . غير ان البرقيات الواردة من الحجاز كانت تلحّ على فيصل بالحضور حالاً إلى الحجاز كي يحول دون تفشي الفوضى في صفوف الجيش العربي ، فوجد جمال باشا نفسه مضطراً للسماح لفيصل بالعودة إلى المدينة . واحتفظ ببعض رجال حاشيته رهائن في دمشق .

ولما وصل فيصل إلى المدينة ألفاها تغصّ بالجنود الاتراك ، إذ كان

يحتلها جيش تركي كامل هو الجيش الثاني عشر بقيادة فخري باشا الجزار الذي اشتهر بتطهيره الدامي لمدينتي زيتون واورفه من الارمن . وكان هذا الجيش في حالة تأهب وحذر من العرب ، لذلك تحطمت آمال فيصل في احتلال المدينة دون قتال .

ولم تكد تمضي على وصول فيصل المدينة أربعة أيام حتى ركن رجال حاشيته الذين استبقاهم رهائن عند جمال باشا إلى الفرار على ظهور الخيل مخترقين الصحراء لائذين بحماية نوري الشعلان . وعندما أيقن فيصل من نجاة حاشيته جهر برأيه ضدّ الاتراك ورفع راية الثورة .

وبذلك انهارت الدولة الاسلامية التي طالما عمل على تدعيمها السلطان وذابت أحلام قيصر المانيا في تعاون المسلمين معه على تنفيذ مشروعاته العالمية .

٦

أمضيتُ سنوات طويلة قبل الحرب وأنا أذرع بلاد الساميين شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، لأتعلّم عادات القرويين وتقاليد العشائر والحضريين في كل من سوريا والعراق . وقد أرغمني فقري على معايشة الطبقات الدنيا التي نادراً ما التقى أبناؤها بالاوروبيين من مسافرين وسياح . ومكّنتني خبرتي التي اكتسبتها من مخالطتي للطبقات الفقيرة من ان أنظر إلى مشاكل الشرق من زاوية غير عادية وجعلتني قادراً على ان أفهم وأفكر من أجل الجهلة والعارفين معاً .

أضف إلى ذلك ان سفراتي تلك زودتني بمعرفة واسعة بالقوى السياسية التي كانت حبيسة في الشرق الاوسط والتي كانت تُشير جميعها إلى انحلال

تركيا الامبراطورية .

لم يكن في نظري من فائدة في كسب تركيا إلى جانبنا بسبب ضعفها وانهيارها الحتمي . وكنتُ أرى في الشعوب العربية من القوى المستترة ما يفي بغايتنا ، إذ ان هـذه الشعوب السامية الاصل عظيمة في عقائدها الدينية نشيطة مثابرة ذات ذكاء حاد ومقدرة سياسية . وهي تتوق اليوم بعد أن أمضت مـدة تزيد على الخمسمئة سنة تحت النير العثماني إلى الحرية . لذلك عندما أعلنت تركيا الحرب على بريطانيا انطلقنا نحن الذين نؤمن بالعرب لنعمل على تركيز الجهود البريطانية وخلق عالم عربي جديد في آسيا . ولم يكن عددنا كبيراً بل كنا قلائل نلتف حـول « كلايتون » رئيس قلم الاستخبارات المدنية والعسكرية في مصر .

والحقيقة ان « كلايتون » كان يتمتع بجميع المزايا اللازمة للقائد الناجح . فهو رجل هادئ ثاقب النظر تبلغ شجاعته حدّ التهور في تحمّـل المسؤوليات ، يشجع من يعمل معه ويفتح أمام مرؤوسيه جميع الابواب والسبل . وكان أشبه ما يكون بالمـاء أو الزيت في تفشّيه ، إذ يزحف بسكون وهدوء ومثابرة إلى كل شيء . لذلك لم يكن في الامـكان ان نعرف عمـا إذا كان « كلايتون » يختبئ وراء هـذا العمـل أو ذاك ... وهو لم يتولّ أبـداً القيادة بصورة مكشوفة ظاهرة .

كان اولنا « رونالد ستورز » السكرتير الشرقي لدار المعتمد البريطاني وهو أشد الانكليز في الشرق الادنى ألمعية وذكاء ، وذو كفاءة نادرة . وعلى الرغم من ان حيويته كانت موزعة بين حبه للموسيقى والآداب والنحت والتصوير فقد جنينا نحن ما بذره ستورز الذي كان دائماً الرجل العظيم بيننا ، وكان ظلّه يغطينا ويغطي السياسة البريطانية في الشرق كأنه الجلباب الفضفاض .

ومن ثم يأتي « جورج لويد » الذي أوحى دخوله حلقتنا الثقـة إلى نفوسنا ، وكان اطلاعه الواسع على شؤون النقد بمثـابة الدليل والمرشد

لنا في دهاليز التجارة والسياسة ، ولولا مشاركته لنا في أعمالنا لما كان في استطاعتنا أن ننجز بصورة سريعة مثل هاتيك الاعمال الجمة . غير انه كان لجوجاً ، ولذلك لم يمض وقتاً طويلاً معنا .

وبعد لويد يجب أن أذكر « مارك سايكس » ذا الاطلاع الشامل على الحركات العالمية ، والخيال الواسع . إلا انه كان رساماً « كاريكاتورياً » أكثر منه سياسياً . فقد كان يرى الاعوجاج في كل أمر ويعجز عن رؤية المستقيم في كل شيء . وكان في استطاعته ان يرسم بخطوط قليلة عالماً جديداً يعج بالحركة والنشاط وان يكن غير متوازن في جزئياته وكلياته .

وإنني أعترف بأنني ورفاقي لم ننصفه كما ينبغي . ومن المؤسف أنه توفي سريعاً ، فكان موته بمثابة مأساة المآسي بالنسبة للقضية العربية .

ومن بين الرفاق العاملين كان « هوجارث » الذي لعب دور الرجل الناصح والمدرّس الذي يضرب لنا الامثلة التاريخية . وكان يقف وراء هوجارث « كورنواليس » ، وهو شخص صلب بارد في الوقت ذاته .

هذا وكنا نسمي أنفسنا بالعصابة المتطفلة التي تريد ان تخترق الاسوار لتدخل قاعات السياسة البريطانية المرسومة وتبني شعباً جديداً في الشرق بالرغم من الحواجز التي أقامها أسلافنا في هذه الطريق . وهكذا بدأنا في مكاتب الاستخبارات (المدنية العسكرية) في دائرتنا الكائنة في القاهرة لاقناع جميع الرؤساء القريبين والبعيدين بتبني القضية العربية . وكان السير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، أول من توجهنا اليه . وقد استطاع بما يملك من ذكاء ونظر ثاقب ان يحكم على مشروعنا بأنه مشروع مفيد . أما الآخرون من أمثال ويمس ، ونيل وملكولم ، وونجيت فلم يقدّموا يد العون الينا إلا عندما شاهدوا الحرب تتخذ

مجرى إيجابياً .

وسرعان ما وضع مكماهون الحجر الاساسي للتفاهم مع شريف مكة . وكانت آمالنا قبل إنجاز الاتفاق مع شريف مكة تتجه نحو العراق حيث بدأت أولى الحركات الاستقلالية العربية بقيادة الزعيم العراقي السيد طالب النقيب، ومن ثم بقيادة ياسين الهاشمي والعصبة العسكرية . وكان عزيز علي المصري الذي يعيش في مصر بمثابة المثل الاعلى للضباط العرب وقد اتصل به اللورد كتشنر في الايام الاولى للحرب ، مؤملاً أن يستطيع بواسطته كسب القوات العسكرية العربية في الجيش التركي إلى جانبنا . غير ان بريطانيا لسوء الحظ كانت آنذاك تأمل في تحقيق نصر سريع على تركيا . لذلك وقفت حكومة الهند موقف المعارض من إعطاء أي وعود للوطنيين العرب ، وقطعت المفاوضات ورفضت مقترحات عزيز علي المصري ، واعتقلت السيد طالب الذي كان قد وضع نفسه تحت تصرفها ، واقتحمت البصرة بالقوة الوحشية . وكانت قوات العدو في العراق تتألف في مجموعها تقريباً من العرب الذين ينظرون إلى الاتراك نظرة الكراهية الأمر الذي قضى على كل حماسة في نفوسهم . فانتقل الجيش الهندي لهذا السبب من نصر إلى نصر ، حتى خيل إلى العسكريين البريطانيين ان الجيش الهندي يفوق الجيش التركي مقدرة على القتال . ولما وصلت قواتنا إلى قرب الكوت قابلت هناك قوات عسكرية وعازمة على القتال فأنزلت بجيشنا هزيمة فادحة واضطرته إلى التراجع . وهنا بدأت مأساة الكوت .

عندئذ ندمت حكومتنا على قطع مفاوضاتها مع العرب . ولاسباب تتصل بسقوط ارضروم أرسلتني إلى العراق كي استكشف الحالة واستنبط ما يمكن أن نقدمه بصورة غير مباشرة لتخفيف وطأة الحصار عن قواتنا في الكوت . وقد قابل البريطانيون المقيمون في العراق زيارتي تلك بالامتعاض ولم يتورع جنرالان بريطانيان عن وصف مهمتي بالمهمة

القذرة .

وتبين لي ان الظروف المحلية في العراق ظروف مثالية ممتازة لنشوء حركة عربية ضد الاتراك . وكان سكان النجف وكربلاء البعيدون عن مؤخرة جيوش خليل باشا ثائرين ضده ، وكان الجنود العرب في جيشه لا يخفون عواطف البغضاء لتركيا . وكان في امكان قبائل الحي والفرات ان تُغيّر مجرى الحوادث في العراق لو انها لمست لدى البريطانيين عطفاً وتفهماً لأمانيها . ولو اننا أعطينا آنذاك الوعود التي بذلناها لشريف مكة أو أصدرنا بياناً مماثلاً للبيان الذي أصدرناه يوم احتللنا بغداد لأقدمت هذه القبائل على توجيه الضربات القاصمة لخطوط مواصلات الجيوش التركية بين بغداد والكوت ، ولتوجّب على العدو عقب بضعة أسابيع من اشتراك القبائل معنا في الحرب ان يرفعوا الحصار المضروب على قواتنا .

وبما ان الاحوال جميعاً لم تكن على ما ذكرت في العراق ، لذلك عدت إلى مصر ، وبقيت القوات البريطانية في العراق كقوات أجنبية تغزو بلداً معادياً . ولهذا اتخذ الشعب منها موقفاً سلبياً . ونتيجة لهذا الواقع فقدت قواتنا حريتها في الحركة والمرونة التي وجدها الجنرال اللنبي في سوريا .

٧

كانت دراستنا لأوضاع العراق مخيبة للآمال ، فتابع مكماهون مفاوضاته مع شريف مكة . واستطاع أخيراً أن يتوّجها بالنجاح على الرغم من جلائنا في غاليبولي ، واستسلام قواتنا في الكوت ووضعنا العام الحربي

المكفهر العابس .

وقليلون من المطلعين على المفاوضات مع شريف مكة هم الذين كانوا يعتقدون بأن الشريف سيقدم فعلاً على محاربة الاتراك نظراً للظروف العسكرية غير الملائمة . ولذلك جاءت ثورة الشريف وفتح شواطئه أمام سفننا مفاجأة مذهلة لنا . وهنا بدأت المصاعب تعترض طريقنا إذ اطلّت الغيرة برأسها . فالجنرال السير ارشيبالد موري القائد العام في مصر يرفض أن يكون له منافسون أو مزاحمون . وكانت كراهيته للسلطة المدنية تشدّه إلى الجنرال مكسويل . لذلك لم يكن في امكاننا ان نوكل القضية العربية اليه .

وبالاضافة إلى ذلك كان جميع الضباط الاركان غير ميالين للتعاون مع المناوب السامي أو موظفيه السياسيين ما عدا « وينجيت » الذي كان ملماً إلماماً واسعاً بشؤون الشرق الاوسط . فقد كان يقدّر قيمة الفوائد التي يمكن ان تنجم عن صداقة العرب .

وبما ان « وينجيت » كان هو المشرف على التعاون العسكري بيننا وبين الشريف فقد أنزل عدداً من الجنود في منتصف الطريق بين المدينة ومكة ليحول دون تقدّم محتمل للقوات التركية نحو مكة .

ونتيجة للآراء المتضاربة أمسى مكماهون حائراً في أمره . وهذا مما جعل الجنرال موري يصخب محتجاً على عدم ثباته على رأي واحد . وبدت الثورة العربية ثورة فاشلة في نظر الكثيرين من ضباط الاركان الذين كانوا يتنبأون بهزيمة الشريف قريباً وتعليقه على أعواد المشانق . ولم يكن وضعي آنذاك بالوضع السهل إذ كنت بوصفي ضابط استخبارات في الدائرة العسكرية التابعة للجنرال موري مكلفاً بالحصول على المعلومات المتعلقة بتوزيع القوى .

وقد أضفت دونما تكليف من أحد إلى مهامي هذه مهمة إصدار نشرة عربية سرية اسبوعية تعالج سياسة الشرق الاوسط ، الامر الذي

حمل « كلايتون » على أن يتمسّك بي أكثر فأكثر في الجناح العسكري من المكتب العربي ، من أجل مكايهون .

فيما بعد نُحّـِي « كلايتون » عن منصبه وأخرج من الاركان العامة . وحلّ محلّه الكولونيل « هولديتش » ضابط موري للاستخبارات في منطقة الاسماعيلية وأصبح هذا رئيساً لنا . وكانت أولى رغائبه تتمثل في الاحتفاظ بخدماتي . ولـما كان من الواضح انه ليس في حاجة إليّ ، لذلك فسّرت رغبته هذه بأنها وسيلة لابعادي عن المكتب العربي . ولذلك عزمت على التخلص نهائياً من هذا المأزق ، فطلبت نقلي من مكتب الاستخبارات . ولكن طلبي رفض ، فلجأتُ إلى المراوغة حتّى أصبحت رجلاً لا يطاق من قبل ضباط الاركان .

وحتّى أزيد في إغضابهم أخذتُ أشير إلى الاخطاء اللغوية التّي يقترفها الضباط في كتابة تقاريرهم وأقوم بتصليحها ولفت نظرهم اليها . وأخيراً علمت أن « ستورز » ينوي السفر إلى جدة ، فاغتنمت هذه الفرصة السانحة وطلبت ترخيصاً لمدة عشرة أيام لمرافقته ومباحثته في بعض الأمور . وما كاد الطلب يصل إلى رئيسي حتّى وافق عليه آملاً في ألا أعود إلى مركزي ثانية .

ولست في حاجة إلى القول بانني لم أكن أنوي أبداً ان اهيء لهم مثل هذه الفرصة لعزلي . لذلك ذهبتُ إلى كلايتون واعترفت لـه بمصاعبي ومشاكلي ، فأبرق من دار الاقـامة البريطانية إلى وزارة الخارجية ليصار إلى نقلي إلى المكتب العربي . ووزارة الخارجية هي التّي ستتصل مباشرة بوزارة الحرب لتحقيق هذا الطلب . وهـذا الامر سيتّم دون اطـلاع القيادة العـامة في مصر حتّى تصدر الاوامر بنقلي . عقب وعد كلايتون لي خرجت مع « ستورز »، مغتبطين لأنني تخلصت من المـأزق وأصبح في امكاني ان اقدّم المشورة اللازمة للثورة العربية كما أتمنى .

٨

الاتصال الأول بالعرب

كانت الباخرة الحربية الصغيرة « لاما » تنتظرنا في عرض البحر قبالة السويس فأقلعت بهـا سريعاً. وسفرات بحرية قصيرة كهذه على مراكب حربية كانت بمثابة تغيير شهي بالنسبة لنا نحن الركاب. غير ان رحلتنا لم تكن خالية من الاحراج لبحارة السفينة إذ عكرنا عليهم صفو حياتهم التي ألفوها فاضطر ذوو الرتب الدنيا فيها إلى اخلاء غرف النوم والتنازل لنا عن أسرّتهم .

وعلى ظهر السفينة التقينا بعزيز علي المصري الذي ترك الجيش التركي حيث كان يشغل رتبة كولونيل ليلتحق بالجيش العربي . لقد كان في طريقه إلى مكة ليبحث وأميرهـا أمر تسليح الجيش النظامي ، فتعرفنا إلى بعضنا وشرع الضابط الشركسي المستعرب يتكلم بلغة ألمـانية طليقة .

كان الجو هادئاً طيلة رحلتنا إلى جدّة . ولم يكن طقس البحر الاحمر الجميل شديد الحرارة . وفي النهار كنا نضطجع في الظل . وفي الليل كنا نذرع سطح السفينة المبلل جيئة وذهاباً تحت النجوم المتألقة . وأخيراً بدت لنا جدّة . وأحسسنا بأشعة الشمس وكأنها سيف مسلط .

وبينما كانت السفينة تتدحرج على الماء لترسو والرياح المتقطعة تقذف بالحرارة إلى السماء بدت لنا في شمال جدّة مجموعةٌ من البيوت البيضاء والسوداء تتحرّك في السراب كأنها المداخن في ارتفاعها وهبوطها . وكان كل ما حولنا مخيف المظهر . فبدأ يخالجنا شعور بالألم من الطبيعة .

وفيما نحن كذلك وصل يخت الكولونيل ولسون ممثل بريطانيا لدى الدولة العربية ونقلنا إلى الشاطئ . ولم يكد يمضي نصف ساعة على نزولنا إلى الشاطئ حتى أقبل روحي بك عبد الهادي مساعد المستشار الشرقي فيها يعانق ستورز رئيسه القديم بحرارة . بينما شكل ضباط البوليس السوريون المعينون حديثاً في وظائفهم حرس شرف لاستقبال عزيز المصري واداء التحية له .

وبعد ان استرحنا قليلاً علمنا ان عبد الله ، النجل الثاني للشريف حسين ، هو في طريقه الينا من مكة . وهو الشخص الذي كان يتوجب علينا أن نقابله ونتحدث اليه . لذلك كان توقيت وصولنا توقيتاً موفقاً .

ترجلنا من اليخت واخترقنا صفوفاً من المنازل البيضاء مارين بسوق المواد الغذائية في طريقنا إلى القنصلية . وصلنا القنصلية فألفينا ولسن يجلس في غرفة مظلمة أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها كي يرحّب بنسمات البحر التي تأخر هبوبها . وقد قابلنا بجمود شأن كل جنتلمان انكليزي . ومع ذلك فقد قام بالمهمة التي أوكلت اليه خير قيام ، إذ أجرى الاعدادات اللازمة لمحادثتنا مع عبد الله وأبدى كل استعداد لمساعدتنا

في إنجاز ما جئنا من أجله .

بعد قليل وصل عبد الله يمتطي فرساً بيضاء ترافقه مجموعة من العبيد المسلحين تسليحاً كاملاً ، وكان نشوان بخمرة النصر الذي حقّقه في الطائف . وكانت هـذه هي المرة الاولى الـتي أقابله فيها . أما ستورز فكان صديقاً قديماً له وكانت تشدّه اليه روابط الود . وبينا كان يتحدث مع ستورز لمست في خلقه مرحـاً دائماً . وكانت عيناه ترافق بغمزها حديثه ، ومع انه لم يكن آنذاك يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فقد كان يبدو سميناً مترهل الجسد . وربما يعود هـذا الامر إلى اكثاره من الضحك ، فالحياة تبدو بهيجة له . وهو قصير القـامة قوي البنية أبيض البشرة ذو لحية صغيرة شُذّبت بعنـاية فائقة . أما أخلاقه فكان طابعها الصراحة وكان ساحراً في كسب الاصدقاء .

وعندما بدأنا بحث الامور الخطيرة أخـذ حذره وشرع يختار كلماته بتروّ وإمعان . كان العرب يعتقدون أن عبد الله رجل دولة بعيد النظر وسياسي داهية . والحق انـه كان داهية . ولكن لم يبلغ دهـاؤه ما قيل عنه . وقـد صنعت منـه الاشاعات العقل المفكّر لأبيـه وللثورة العربية . وفي الواقع كان دون مـا صنعته الاشاعات رتبةً ومركزاً .

كنتُ أثناء الحديث أقوم بدور المراقب النـاقد ، إذ ان ثـورة الشريف خـلال الشهور القليلة المـاضية لم تقم بأي عمـل فعّال . وكانت شكوكي تتجمّع في قناعتي بأن مـا ينقص الثورة هو الزعامة لا المواهب العقلية أو الحكمة السياسية . وبكلمة أخرى كان ينقصهـا شعلة الحماسة الـتي تلهب الصحراء وتحيلها ناراً متقدة . وكان كلمـا امتد بنا الحديث مـع عبد الله ازددت يقيناً بأن عبد الله بمنطقـه القوي وبرودته الجليدية ومزاحه المفرط لا يصلـح لأن يكون ذلك القـائد الملهم .

بدأنا حديثنا مع عبد الله عن أوضاع جدّة والادارات العامة فيها . وقد قال عبد الله بهذا الصدد إن الحرب ومشاكلها لا تسمح لهم حالياً بالالتفات إلى موضوع الحكومة المدنية . لقد ورثوا عن الاتراك أنظمتهم في إدارة المدن وهم لا يزالون حتّى اليوم يتابعون العمل بهذه الانظمة ولكن وفق أسلوب أكثر بساطة .

ومن مجرى الحديث لاحظتُ أن الرأي العام في مكة وجدّة كان ضد الحكومة العربية . وسبب ذلك أن الاكثرية في هاتين المدينتين تتألف من الهنود والافريقيين والجاويين وعناصر أخرى ، ولم يكن في إمكان عناصر كهذه أن تقف على آمال العرب ولا سيما القائمين لتحقيقها من رجال العشائر الذين كانوا يبادلون سكان المدينة الكراهية .

والجدير بالذكر أن أبناء العشائر كانوا المحاربين الوحيدين في جيش الشريف . وعليهم كان يتوقف مصير الثورة . وكان الشريف يزودهم بالاسلحة ويدفع لهم المرتبات السخية ويطعم عائلاتهم عندما يكونون متغيبين عن مضاربهم ، ويستأجر منهم الجمال ووسائل المواصلات والنقل لامداد جيشه المرابط في مختلف الجبهات بالمواد والاعتدة الحربية . ونتيجة لذلك كانت تسود البادية في الحجاز حالةٌ من الرخاء بينما كانت حالة المدن على العكس من ذلك تماماً .

بعد ذلك انتقل الحديث إلى الوضع العسكري فأشركني ستورز في المناقشة كي أتمكن من اطلاع القيادة العامة في مصر عليه . فإذا بالجدّ يرتسم فجأة على وجه عبد الله ويقول : « إن إهمالنا لقطع الخط الحديدي الحجازي قد مكّن الاتراك من زيادة حاميتهم في المدن وإمدادها بالأسلحة والمواد الغذائية وهم اليوم يقومون بإعداد فرقة من مختلف الاسلحة لغزو رابغ . »

إن العرب المعتصمين بالتلال في حالة متزايدة من الضعف بسبب

امتناعنا عن تزويدهم بالرشاشات والمدافع . وآل حرب قد التحقوا بالاتراك وهم على استعداد لمساعدتهم لدى تقدمهم نحو رابغ . وإذا احتلوا رابغ وزحفوا إلى مكة عندئذ لم يعد أمام الشريف حسين إلا ان يقاتل حتى الموت ويستشهد دفاعاً عن المدينة المقدسة .

في هذه اللحظة رن جرس الهاتف وكان الشريف حسين يطلب التحدث إلى نجله عبد الله ، فأخبره بما وصلت اليه محادثاتنا .

لدى انتهاء المكالمة الهاتفية عـاد الينا عبد الله وعلى شفتيه ظل ابتسامة ليقول ان علينا ان نحول دون وقوع مثل هـذه الكارثة . وذلك باعداد فرقة بريطانية من جنود مسلمين نأتي بهم من السويس ، مع كل مـا تحتاج اليه من وسائل نقـل . وذلك كي نكون على اهبة لانزالهم في رابغ حالمـا ينطلق الأتراك من المدينة في طريقهـم إلى غزو مكة .

فأجبت عندئذ أن هذا الاقتراح يجابهه الكثير من المصاعب ، إذ أن النقل البحري في الوقت الحاضر ذو أهمية شديدة ونحن لا نستطيع أن نحتفظ بالسفن فارغة في السويس إلى أجل غير محدود . أضف إلى ذلك أن جيشنا لا يشتمل على أية وحدات عسكرية مسلمة . ومن المستحسن الاعتماد على العرب في هذا المضمار .

كان عزيز المصري يؤلف من المتطوعين السوريين والعراقيين أفواجاً نظامية في رابغ . وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء أسرى الحرب من العرب المعتقلين في الهند ومصر فأنه يتوفر عندئذ لدينا من الجنود ما يتجاوز عدد اللواء المنشود .

اقترحت ذلك ، ولكن عبد الله رفض . فأجبت اني سأعرض آراءه على القيادة العامة في مصر .

عندئذ تدخل « ستورز » وقال : « انه من الضروري أن أكون فكرة عن الاوضاع في رابغ . ولا بدّ لتحقيق ذلك من السفر اليها . »

فلم يكن من عبد الله إلا أن هبّ من مقعده واتجه إلى الهاتف ليتصل بأبيه ويحصل لي على اذن بالتجوال في البلاد .

وبعد محاورة طويلة تخللها التردد واشترك فيها ستورز بنفسه وافق الشريف على سفري . وطلب من ابنه عبد الله أن يكتب إلى عليّ بذلك وان يرفقني بحرس أمناء موثوقين ، وكان هذا كل مـا أريده ونصف ما يريده ستورز . وبعد ذلك انتقلنا برفقة عبد الله إلى قاعة الطعام لتناول الغداء .

٩

لقد سررنا بمشهد جدّة عندما كنا في طريقنا إلى القنصلية . وعقب تناولنا الطعام بدا الطقس أقلّ حرارة فخرجنا من القنصلية لمشاهدة جدّة وزيارة أسواقها وأحيائها . وكان مرشدنا في جولتنا هذه أحد الشباب من مساعدي ولسون .

والحق أن جدة مدينة عجيبة جداً ، فشوارعها أزقة وسوقها الرئيسية مسقوفة بالخشب ومنازلها تتألف من طوابق أربعة أو خمسة وقد شيدت من الحجارة المرجانية ودعمت بعضاضات مربعة وزينت بالنوافذ الخشبية الواسعة الكبيرة التي ترتفع من الارض حتى السطح .

لقد بدت لنا جدة مدينة ميتة خـالية من الحياة هادئة هدوءاً عجيباً ، وقد كست الرياح شوارعها بالرمال الرطبة التي تراكمت مع مرور الزمن طبقة فوق طبقة حتى انه ليخيل إلى السائر على دروبها انه يمشي فوق بساط . وكانت النوافذ الخشبية تخنق كل انعكاس للصوت . ولم تكن هناك عربات ، فشوارع جدة لا تتسع لمرورها . كما وأنه لم تكن تسير

على شوارعها أية حيوانات ذات سنابك . وكانت الابواب تغلق بلطف كلما مررنا بها .

أما الناس القلائل الذين شاهدناهم ، فكانوا هزيلي الاجساد كأن وباءً قد عمل في أجسادهم وأسرف . أما بشراتهم فكانت خالية من الشعر وتغوص في وجناتها ندبات عميقة . لم نجد في السوق سلعة واحدة تستحق أن نشتريها ، لذلك قفلنا عائدين إلى دار القنصلية .

وفي المساء قرع جرس الهاتف وطلب الشريف التحدث إلى ستورز وسأله عما إذا كنا نرغب في الاستماع إلى جوقته الموسيقية التي أسرها من الحامية التركية في الطائف حيث كانت تعزف ألحان النصر فاستحسن ستورز الفكرة . فلم يكن من الشريف إلاّ أن وضع سماعة الهاتف على الطاولة كي تنقل الينا نحن الموجودين في جدّة الالحان التي كانت تعزفها الجوقة في ساحة قصره في مكة . واستمعنا الواحد عقب الآخر بالهاتف إلى أنغامها .

في اليوم التالي لوصولنا قام ستورز بزيارة عبد الله في خيمته المضروبة بالقرب من قبر « أمنا حواء » ، ثم ذهبا معاً في جولة تفتيشية تفقدا فيها المستشفى والمعسكرات ومكاتب الادارات في المدينة . وتحدثا في أمور كثيرة ، أما أنا فلم أشترك في أي منها لأنني كنت منذ محادثتي في اليوم الأول لوصولنا قد وصلت إلى قرار نهائي بيني وبين نفسي بأن عبد الله لا يصلح لأن يكون قائداً للثورة .

وفي المساء جاء عبد الله ليتناول طعام العشاء والكولونيل « ولسون » فاستقبلناه في باحة القنصلية ونحن وقوف على سلم المنزل . وكان يسير وراءه عبيده وخدمه ويتبعهم جهاز من الرجال باهتي اللون ، ملتحين ، هزيلي الاجساد ، ذهبت الهموم بوجوههم ، يرتدون أزياء عسكرية بالية ويحملون الأبواق النحاسية والطبول .

فأجلسناهم على مقاعد في الباحة وأرسل اليهم ولسون بلفائف التبغ ثم صعدنا نحن إلى غرفة الطعام حيث ألفينا الشرفة مفتوحة لتستقبل بنهم نسمات البحر العليلة . ومـا كدنا نجلس حتى بدأت الجوقة تحت تهديد سيوف عبد الله تصخب دونما انسجام بألحان تركية نشاز تؤذي القلب والاذن بينما كان عبد الله ينظر الينا فرحاً ويقول: «هذه موسيقاي ! » .

حقاً كان جمعنا تلك الليلة جمعاً غريباً من الناس . فهذا عبد الله النائب السابق لرئيس مجلس المبعوثان التركي ووزير الخارجية الحالي للدولة العربية الثائرة . وذاك ولسون حاكم مقاطعة البحر الاحمر السودانية والوزير المفوض لحكومة جلالته لدى شريف مكة . وهذا ستورز السكرتير الشرقي في القاهرة . وذاك السيد علي فهمي اللواء في الجيش المصري الذي أرسل من قبل السردار على رأس فوج عسكري ليساعد الشريف في الايام الأولى للثورة . وهذا عزيز علي المصري رئيس أركان حرب الجيش الشريفي النظامي ومنافس انور باشا سابقاً في قيادة السنوسيين في ثورتهم ضد الطليان ورأس الضباط العرب المتآمرين على جمعية الاتحاد والترقي التركية .

انتهت الموسيقى التركية ، فطلبنا الاستماع إلى بعض الالحان الالمانية . وخرج عزيز علي المصري إلى الشرفة ليطلب من الجوقة باللغة التركية تحقيق رغبتنا هذه . فإذا بالجوقة تفاجئنا ، وذلك حالما طلب شريف مكة الاشتراك في حفلتنـا عن طريق الهـاتف بعزف النشيد الوطني الالماني : « ألمانيا فوق الجميع » .

وقبل أن تنجز عزف هذا النشيد ماتت أصوات الآلات الموسيقية وساد عدم الانسجام بين الأبواق والطبول وذلك بسبب تمدّد جلود الطبول نتيجة لرطوبة هواء جدة ، فصاح أفراد الجوقة طالبين النـار لتدفئة جلود طبولهم فتراكض خدم ولسون وعبيد عبد الله يحملون اليهم حزماً من القش وبعض العلب الكرتونية ، فأضرموا فيها النار وأخذوا

يديرون الطبول أمام اللهب ، ثم انفجروا يعزفون لحن « الغضب » ! ولم يستطع أحد منا ان يكتشف في هذا اللحن أياً من الايقاع الاوروبي فالتفت السيد علي نحو عبد الله وقال له ان هذا اللحن هو « نشيد جنائزي» فاتسعت حدقتا عبد الله غضباً ، غير ان ستورز سارع لانقاذ الموقف بضحكة مرتفعة .

أمضينا سهرتنا على هذا المنوال . وفي صباح اليوم التالي غادرت جدة على ظهر الباخرة متجهاً إلى رابغ .

١٠

كانت ترسو في ميناء رابغ السفينة الهندية « نورث بروك » وكان على ظهرها الكولونيل باركر ضابط الارتباط بين حكومتنا والامير علي الذي زودني عبد الله بكتاب اليه يطلب منه تأمين سفري في الحال إلى معسكر فيصل . وقد دهش علي من اسلوب الكتاب الشديد في حرصه على تنفيذ الاوامر ، غير انه لم يستطع إلاّ ان ينفذ ما جاء فيه . وذلك لأن اتصاله التلغرافي بمكة كان يتم بواسطة لاسلكي الباخرة التي نملكها . لذلك خجل من أن يرسل برقية تتضمن شؤوناً عائلية يكون بامكان الغرباء ان يطلعوا عليها . لهذا حاول أن ينفذ الاوامر الصادرة اليه على أحسن وجه ، فوضع تحت تصرفي ناقته الخاصة وأسرجها بسرجه الخاص ذي « الطراحة » الجلدية البديعة الصنع وقد غطّى السرج « شرشف » تتدلى منه أهداب مختلفة الالوان وطلب من ابنه مرافقتي مع جندي آخر اسمه طفس الرشيد .

وقد قام علي بكل هذه الخدمات لي بتأييد من نوري السعيد الضابط

الركن البغدادي الذي سبق لي ان تعرّفت اليه مؤخراً عندما كان مريضاً في المستشفى في القاهرة . وكان نوري السعيد يمثّل المركز الثاني بعـد عزيز علي المصري في قيادة القوات العربية . وصادفت أيضاً صديقـاً آخر في بلاط الشريف علي هو فايز الغصين أحد مشايخ العشائر في حوران والموظف السابق في الحكومة التركية . ولقد سبق له ان فرّ من مركز عمله واخترق ارمينيا ووصل بغداد واتصل بالآنسة « جرترود بل » التي أرسلته مشفوعاً بتوصياتها الحارة .

أعجبت بعلي إعجاباً عميقاً . فقد كان مربوع القـامة ذا عينـين واسعتين وأنف دقيق وشفتين تتدليان حزينتين على فمه ، ولحية سوداء ويدين مفرطتين في نعومتهما . أمـا أخلاقه فكانت تغلب عليها الرزانة والهدوء .

وبالاضافة إلى ذلك كان الامير علي شغوفـاً بالمطالعة عالمـاً بالقانون والدين ، ومندفعاً حتى التعصب . ولذلك رأيت انه إذا ما تبيّن لي عجز فيصل عن القيام بدور القائد فأن الثورة العربية تستطيع عندئذ أن تخطو إلى الامام بقيادة علي وزعامته . فهو كما أعتقد أكثر اصالة في عروبته من أخويه عبد الله وزيد .

حضر علي وزيد ونوري السعيد وعزيز إلى بساتين النخيل بعـد دعوتي . وكان زيد شاباً خجولاً هادئاً ، دون ما لحية ، متردداً ، لما يتجاوز التاسعة عشرة من عمره بعد . وقد لاحظت فوراً انه غير متحمس للثورة . ولا عجب في ذلك لأن والدته كانت تركية العنصر .

لم يسمح لي علي ان أبدأ سفري قبل غروب الشمس وذلك كي لا يراني أحـد من أتباعه وأنا أغادر معسكره ، وأبقى نبأ سفري سراً حتى عن عبيده . وأعطاني لباساً وعباءة وغطاء رأس عربي كي استر ردائي الرسمي . ولم أكن أحمل معي طعاماً . لذلك أمر علي طفس – مرافقي – ان نتزوّد بالطعـام في « بئر الشيخ » الواقع على مسافة

ستين ميلاً من رابغ كما أمره ألا يجيب على أي سؤال قد أطرحه عليه خلال السفر ، وأوصاه بأن نتجنب المرور بمضارب العشائر والقرى .

كان نشاط آل حرب الضاربين في قطاع رابغ يقتصر على تزويد علي بأنباء تحركات الاتراك والتجسس على قواتهم العسكرية . وكان ولاؤهم الحقيقي موقوفاً على حسين مبيرق الرئيس الطموح لهذه العشيرة . وكانت الغيرة من شريف مكة تأكل صدره ، لذلك تخلى عن مناصرة قضية الشريف ولجأ إلى التلال الشرقية . وإذا كان أبناء عشيرته يعطفون على الاتراك فأنهم كانوا يدينون لرئيسهم هذا بالولاء . ولو ان هذا الشيخ علم برحلتي لأمر أبناء عشيرته بايقافي .

كان طفس ينتمي إلى عشيرة « الحازم » لذلك لم يكن على وفاق وقبيلة « حرب » وهذا ما جعله في نظرنا موثوقاً . والثقة في الصحراء ضرورية لا بدّ منها وإلاّ حدث ما لا تحمد عقباه . ومما يروى ان أحد أبناء عشيرة حرب كان قد وعد انكليزياً يدعى « هوبر » بمرافقته إلى المدينة المنورة . وخلال السفر اكتشف هذا البدوي ان هوبر كان مسيحياً فقتله وواراه التراب وعندما علمت عشيرة حرب بما فعله أحد أبنائها استاءت منه ونبذته على الرغم من ان القتيل كان مسيحياً . وقضى بقية حياته وحيداً في التلال .

بدأنا رحلتنا فاخترقنا بساتين النخيل التي بدت لنا كأنها عقد يطوق بلدة رابغ وخرجنا من البساتين لنتوغل في ساحل تهامة حيث تتألق النجوم فوق رؤوسنا . وكانت هذه القطعة الصحراوية في الارض العربية مملة مجردة من كل ما يسر العين ، شديدة الحرارة نهاراً . ولم يكن أمامنا غيرها من سبيل لأن سير الجمال باتجاه الشمال أو الجنوب أمر عسير .

جاء هواء الليل عليلاً منعشاً عقب المحادثات الطويلة التي أجريتها

في رابغ ، وكان طفس يقود الجمال على الرمال الناعمة المنبسطة وهو صامت لا ينبس ببنت شفة . وكانت خواطري تدور حول هذه الطريق التي نسلكها فهي طريق الحجاج القادمين من الشمال طيلة أجيال عديدة لزيارة المدينة المقدسة ، يحملون معهم هدايا الايمان إلى الحرم .

سرنا ساعات طويلة سيراً رتيباً دون ما تفكير . ثم توقفنا قبيل منتصف الليل ، وترجلنا عن مطايانا وشددت بعباءتي حول جسدي واخترت حفرة رملية تتسع لجسدي ورحت في نوم عميق مريح حتى قارب الفجر . وحالما شعر طفس بالهواء يزداد برودة هبّ من نومه وما هي إلا دقيقتان حتى كنا على ظهور جمالنا نتأرجح بها . وعقب ساعة من الزمن بدأ النور يغمر الكون فألفينا أنفسنا نتسلق رابية بركانية أغرقتها الرياح بالرمال .

وفيما نجتاز الرابية أخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال طفس : إن على مسير ساعتين من التلال الصوانية قرية تدعى « خريبة » وان الماء والآبار متوفرة في هذه القرية حيث يزرع سكانها القلائل الذين يتألفون من عبيد طلقاء أشجار النخيل وبعض المزروعات الأخرى .

لقد كانت هذه المعلومات هامة جداً بالنسبة إليّ ، لأنني لم أطلع على ان مجرى « وادي فورة » يشكل طريقاً مباشراً يبدأ من جوار المدينة ويمتد حتى ضاحية رابغ . وعبد الله لم يعلمنا بوجود قرية « خريبة » ، مع ان لهذه القرية أثراً عسكرياً بالغاً على مواقع رابغ . وذلك لأنها تشكل مورد ماء محتمل للعدو . وهذا المورد بعيد عن تدخلنا وناء عن مدافعنا ومدافع سفننا الحربية . ففي خريبة يستطيع الاتراك أن يحشدوا قوة عسكرية ضخمة للهجوم على اللواء البريطاني الذي طلب عبد الله انزاله في رابغ .

وجواباً على سؤال آخر كشف لي طفس عن سر جديد ، وهو انه يوجد في موقع « الحجر » القائم في التلال شرقي رابغ مورد

آخر للماء يسيطر عليه آل المصروع وهم فخذ من عشيرة « حرب » وهذا يعني انه كان في امكان القوات التركية ان تنطلق من المدينة إلى مكة تاركة رابغ على جناحيها دون أن تستطيع القوات العربية أن تلحق بها ضرراً .

ولهذا فأن حماية مكة تستوجب وجود قوات عسكرية كافية تستطيع ان تغطي دائرة عمليات قطرها عشرون ميلاً كي تحول دون تزود القوات التركية بالماء من الموارد المذكورة .

أخذت مطايانا تحثّ خطاهـا فيما كانت الشمس ترسل خيوطهـا الذهبية الاولى ، واخترقنا المساكب الرملية المفزعة متجهين إلى بئر المستراح الذي يعتبر نهـاية المرحلة الاولى من طريق الحج الممتدة من رابغ .

وما هي إلا ساعات قليلة حتى وصلنا بئراً تقع على الضفة الشمالية للمستراح ، وإلى جانبها وجدنا جداراً حجرياً لبناء متنوع تقابله مظلات صنعت من سعف النخيل يجلس تحتها رجال قلائل من أبناء البادية . لم نلق بالسلام عليهم بل سار طفس بنا إلى اطلال الكوخ حيث ترجلنا . ومن ثم قـاد الجمال إلى البئر ليسقيها وليشرب وولده ويحمـل إليّ جرعة ماء .

لفّ رفيقي اردانه المتطـايرة حول كتفيه ورفع طرف ثوبـه ثم ربطه بحزام الرصاص ونزل إلى البئر وأخـذ يغترف الماء منها ويصعد ليسكب المـاء في خـابية حجرية اقيمت إلى جانب البئر لتشرب منها الجمال .

جلسنا في الظل هادئين نستنشق الهواء الذي يهبّ من جهة البحر ، وأشعل رفيقي لفافة مكافئاً نفسه على تعبه في اغتراف المـاء . وجـاء بعض رجال عشيرة « حرب » يسوقون أمامهم قطيعاً كبيراً من الجمال ، وبدأوا يسقونها وهم يحدون الاغاني البدوية ذات اللحن الرتيب . وأخذنا

نراقبهم بحذر وخشية ، فهؤلاء من فخذ « المصروع » ورفيقي من فخذ بني سالم ، ومع ان حالة سلم تسود الآن بين الفخذين ، وفي امكان ابناء كل فخذ أن يتجولوا في منطقة الفخذ الآخر ، غير ان هذا السلم كان سلماً وقتياً فرضه الشريف بسبب حربه ضد الاتراك .

بينما كنا نراقب هؤلاء البدو شاهدنا رجلين يمتطيان جملين ويتجهان من الشمال نحونا . وكان كلا الرجلين شاباً . وكان الاول منهما يرتدي ثياباً كشميرية غالية الثمن ويضع على رأسه عقالاً مذهباً ، أما الثاني فكانت ملابسه من القطن الابيض وعلى رأسه كوفية قطنية حمراء . توقف الرجلان جانب البئر ، وترجّل الاول ذو الثياب الغالية الثمن عن جمله دون أن ينيخه ورمى برسن مطيته إلى مرافقه وهو يقول له آمراً : « اسقِ مطيّتي بينما أنا أرتاح هناك في الظل . »

ثم سار إلى الحائط وجلس في ظلاله بعد أن ألقى علينا نظرة عابرة . ثم قدّم إليّ سيجارة بعد أن لفّها وبادرني قائلاً :

— « إنك قادم من سوريا ، أليس كذلك ؟ »

— « لا شك انك من أهالي مكة .. »

غير انه لم يجب على سؤالي هذا . ثم أخذنا نتحدث عن الحرب وأنبائها وعن هزال نياق فخذ « المصروع » بينما وقف رفيقه ممسكاً برسنَي الجملين . وربما كان ينتظر دوره ليسقي المطيتين بعد ان ينتهي أبناء عشيرة حرب من ارواء جمالهم . وهنا صاح السيد الشاب برفيقه :

— « ما بك يا مصطفى ؟ اسق الجملين حالاً . »

فأجابه الخادم قائلاً بأسى :

— « إنهم لا يسمحون لي بذلك . »

فقفز السيد الشاب وضرب بعصاه رفيقه على رأسه وكتفيه وهو يصيح : « اذهب واطلب منهم ذلك . » فحدجه مصطفى بنظرة غاضبة

وبدا كأنه يعزم على ضرب السيد الشاب ، غير انه تراجع عن عزمه وذهب بالجملين إلى البئر . وعندما عرفه البدو هبّوا مذعورين خائفين وأفسحوا له مكاناً وسقوا جمليه من دلائهم . وأخذوا يتساءلون عن شخصية السيد الشاب فأجابهم مصطفى انه قريب شريف مكة . وحالما عرفوا ذلك تراكضوا إلى جانب الخابية وعادوا بحزم من العشب وألقوا بها امام الجملين . وكان الشريف الشاب يراقبهم مرتاحاً مغتبطاً . وعندما انتهى الجملان من التهام ما القي لهما من علف هبّ الشريف الشاب وأمسك برقبة مطيته وقفز إلى سرجه وجلس عليه بتراخ ثم ألقى علينا تحية وداع باردة وغادرنا وهو يبتهل إلى الله أن يعيد الهدوء والسلام إلى العرب . ثم اتجه جنوباً بينما قام رفيقي عبد الله باحضار جمالنا فامتطيناها واتجهنا شمالاً . وبعد دقائق سمعت رفيقي طفس يقهقه ضاحكاً فسألته :

— « ما بك يا طفس ؟ »

فأجابني :

— « أرأيت ذينك الفارسين على البئر ؟ »

فقلت :

— « الشريف وخادمه ؟ »

فأجابني :

— « نعم ، ان أحدهما هو الشريف علي بن الحسين بن مدهج والثاني هو ابن عمه . وهما أميرا آل حارث أعداء فخذ بني « المصروع » وقد خشيا ان يطردا عن الماء فيما لو عرفهما الاعراب . ولذلك تظاهرا كسيد وخادم من سكان مكة . »

ثم أردف طفس يقول :

— « ألم تر كيف ان محسن غضب غضباً شديداً عندما ضربه علي . إن علياً لشيطان . ويروون عنه انه عندما كان في الحادية عشرة من

عمره فرّ من دار والده ولجأ إلى خاله الذي كان يعيش على سلب الحجاج وبقي يشارك خاله هذه المهنة حتى أمسك به أبوه . »

ثم استطرد طفس يقول :

— « إن آل حارث هم أبناء المعارك . »

١١

فيما كنا نتجاذب أطراف الحديث أخذت جمالنا تخترق بنا السهل الذي أمسى خالياً من الاشجار . كانت الارض التي نسير عليها طبقة رملية صلدة من الصخور والحجارة ، وأمامنا على بعد ثمانين ميلاً بدت القمة الهائلة لجبل رضوى تطل من وراء بلدة « ينبع » وتختفي في بخار خاطف للبصر يحجب سفحها . وبالقرب من السهل انتصبت تلة عديمة الشكل تدعى « حسناء » بدت كأنها تريد أن تسدّ علينا الطريق . وعلى يميننا ظهرت هضبة « النبي أيوب » ، ذات الانحدار الشديد ، وهي القسم الاول من سلسلة الجبال الممتدة بين نجد والمدينة .

بعد قليل من الزمن اتجهنا يميناً وتركنا طريق الحج إلى درب يختصره ويخترق هضبة دفنت تحت رمالها حجار صوانية . بدت الوديان في خطوط واضحة محددة تغطي مجاريها رمال وحصى نظيفة ملساء ، وتقوم فيها هنا وهناك بعض الصخور التي جرفتها اليها السهول وأطلت منها علينا أدغال رمادية خضراء ترتاح لها العين تصلح جذوعها وأغصانها حطباً للوقود ، ولكنها لا تصلح علفاً للماشية ، فانحدرنا إلى تلك الوديان وانطلقنا منها إلى طريق الحج الرئيسي ، وتابعنا السير على هذه

الطريق حتّى غروب الشمس حيث شاهدنا عن بعد مزرعة « بئر الشيخ ». وعندما خيم الظلام على الكون رأينا ألسنة النيران تشتعل داخل هـذه المزرعة ، فأسرعنا حتّى وصلناها . عندئذ توقفنا في إحدى طرقهـا العريضة وترجل طفس من على مطيته ، ودخل أحد الاكواخ البائسة من أكواخها العشرين ، فهمس في أذن صاحبها ببعض الكلمات وعاد إليّ يحمل طحيناً فعجنه وصنع منه كعكة تبلغ سماكتها إنشين ومحيطها ثمانية انشات ، ثم دفنها في رماد نار خابية قدمتها اليه زوجة صبح التي بدا لي ان طفس على معرفة بها . وعندما نضجت الكعكة التقطها من النار ونفض الرماد عنها ثم اقتسمناها بيننا ، بينما كان رفيقنا يفتش عن تبغ يدخنه . وأثناء ذلك أخبرني بعض سكان القرية ان هنالك بئرين حجريتين في المنحدر الواقع جنوبي القرية . غير انني لم أرغب في مشاهدتهما بسبب سفرتي الطويلة ذاك اليوم ، إذ شعرت بعضلاتي التي لم تعتد ركوب الجمال منهوكة القوى ، ففضلت ان أرتاح وأمضيت جالساً ساعتين من الزمن .

ثم ترجلنا جميعاً وامتطينا جمالنا لنستفيد من برودة الليل ونقطـع مسافة جديدة . وعقب منتصف الليل توقفنا نهائياً ونزلنا عن مطايانا . وقبل أن ينيـخ طفس جمالنا كنت التف بعباءتي واستسلم في قبر رملي لسبات عميق .

وبعد ساعات ثلاث بدأنا السفر ثانية ، وكان القمر يرافقنا بأنواره الاخيرة ، فاخترقنا « وادي مارد » الذي ترتفع على جانبيه تلك التلال ذات القمم المدببة الـتي تبدو في الهواء المنهوك بيضاء سوداء وتنتصب على سفوحها وقممها أشجار كثيرة . وأخيراً جاءنا الفجر فهبّت رياح خفيفة أخذت ترسم على سطح الارض المستوي بالغبار دوائر بيضاء . ثم شرعت الشمس ترسل أشعتها الذهبية على رؤوس الجبال والصحراء المديدة . عندئذ أقبل نحونا رجل هرم يركب جملاً وانضم إلى ركبنا

وادّعى ان اسمه « خلاّف » وهو اسم محبب . فألقى بالتحية الـتي رددنا عليها .

ثم حاول أن يستدرجنا إلى الحديث ، غير ان طفس لم يُرِد رفقته . لذلك كان يجيب على أسئلته بأجوبة قصيرة . غير ان خلاف أصرّ على التحدث الينا ولكي يجعلنا نرتاح اليه مدّ يده إلى الخرج وأخرج كعكة عجنت بالسكر والسمن ثم ناول كل واحـد منـا قطعة منها فأكلت قليلاً من قطعتي . أمّا طفس وولده فالتهما قطعتيهما بشهية واضحة .

وهكذا أصبحنا رفاق طريق مع خلاّف الذي حدّثنا كثيراً عن أنباء المعارك الاخيرة بـين العرب والاتراك ، واطلعنا على نبأ الهزيمة الـتي نزلت بفيصل أمس الاول . وبدا لنا من كلامه ان فيصلاً قد طُرد من موقعَي « الخيف » في وادي صفرا ، وانه يعسكر الآن في الموقع المعروف باسم « حمرا » الذي لا يبعد عنا إلا قليلاً .

وأردف خلاّف يقول ان المعـارك لم تكن ضارية وان الاصابات القليلة الـتي نزلت بقوات فيصل كانت محصورة برجال عشيرتي طافس وخلاّف .

وأخذ يسرد علينا أسماء المصابين من جرحى وقتلى . وكنت أنا أثناء حديث خلاّف وطفس أجول بنظري أستطلع الصحراء طولاً وعرضاً وأشعر بلذة تجتاحني إذ أجد نفسي في أرض جديدة . فالرمال الـتي صادفناها بالامس في « بئر الشيخ » قـد اختفت ونحن نخترق الآن وادياً يبلغ عرضه بين ٢٠٠ – ٥٠٠ ياردة فُرشت أرضه بالحصباء ، على جانبيه نبتت أشجار كثيرة بعضها من أشجار السنط المخشوشبة الـتي تتجاوز الثلاثين قدماً طولاً ، وغيرها من أشجار الأكاسيا . وكانت جميعاً توحي لنا اننا نخترق حديقة بأشجارها الوارفة في هذا الصباح المبكر .

سرنا في هذا المكان الجميل مسافة تقارب سبعة أميال تحدثنا خلالها

عن أشياء كثيرة . وقد فهمت من خلاّف انه سبق له أن زار دمشق والآستانة والقاهرة وان له في القاهرة أصدقاء كثيرين هم من الشخصيات المعروفة . ثم أردف يستنطقني إذا كنت أعرف أحداً هناك من الانكليز ، وأخذ يردد بعض العبارات باللهجة المصرية مؤملاً ان اعترف فأكشف حقيقتي له . غير انني عندما أجبته بلهجة حلبية بدأ يتحدث عن بعض الشخصيات السورية البارزة .

ثم انتقل ليوجّه لي بعض الاسئلة الحذرة الدقيقة بصورة غير مباشرة عن الشريف وأولاده وعما ينوي فيصل ان يقوم به من أعمال في المستقبل لكنني كنت أقل معرفة منه في هذا الموضوع . وهنا تدخّل طفس لانقاذي ، ونقلنا إلى موضوع آخر . وقد علمنا فيما بعد ان « خلاّفاً » كان جاسوساً للقيادة التركية في المدينة واعتاد أن يرسل تقارير عديدة إلى الاتراك عما يمرّ من امدادات ببئر حسنة إلى القوات العربية .

بعد قليل ألفينا أنفسنا في بقعة خصبة من بقاع « وادي صفرا » . وكانت هذه البقعة وادياً صلداً يفوق التلال المحيطة به اخضراراً ، وبدت لنا إلى الغرب بساتين النخيل ، وأخبرت بأن هذه البساتين هي ملك لسكان قرية « الجديدة » إحدى قرى العبيد في « وادي صفرا » .

اتجهنا يميناً ثم اجتزنا التلال لنجد أنفسنا فجأة في وادي صفرا ، الوادي الذي نفتش عنه ونقصده حيث تتربع في منتصفه أكبر قرية فيه : « الواسطة » .

بدت لنا « الواسطة » تتألف من بيوت تلتصق إلى جوانب التلال ، وتركنا لجمالنا العنان لتمد بأعناقها إلى الماء وتروي ظمأها . وقد كان منظر العشب مريحاً لأعيننا عقب يوم شاقّ قضيناه ونحن في الحصباء المتوهجة .

حول السور الطيني للقرية تابعنا سيرنا في ظلال النخيل حتى وصلنا أكواخاً لا يربط بينها رابط ، فقادنا طفس عبر دروب ضيقة وتوقّف بنا أمام أحد الاكواخ ثم ترجل عن جمله وقرع باب الكوخ ففتح له أحد العبيد . وبحذر تام دون أن ينتبه أحد دخلنا الكوخ وقادنا العبد إلى غرفة الضيوف في المنزل . وكانت هذه الغرفة نظيفة صغيرة بنيت من الطين وسقفت بسعف النخل والطين المضغوط . وجلسنا على حصيرة حيكت من الالياف والنخيل . كان النهار حاراً جداً فاضطجعنا قليلاً لنرتاح .

١٢

قبل أن نستيقظ أعدّ لنا أهل المنزل وجبة من الطعام مؤلفة من الخبز والتمر . وكان التمر تمراً « طازجاً » يذوب كالسكر في أفواهنا . ولم يسبق لي ان ذقت له مثيلاً . وكان رب البيت وجيرانه من عشيرة حرب متغيبين عن منازلهم وملتحقين بخدمة فيصل ، والنساء هنّ اللواتي قمنّ بالعناية بمواشيهم من جمال وماعز وأغنام . وكان من عادة رجال العشائر ألاّ يقيموا في منازلهم في القرى أكثر من خمسة أشهر من السنة . وكانوا يعهدون ببساتينهم إلى العبيد في الاشهر الاخرى . وكان هؤلاء العبيد غليظي الشفاه ، أقوياء ، شديدي السواد يختلفون في مظهرهم عن العربي الذي يبدو كأنه العصفور لخفته . وقد أعلمني طفس بأن هؤلاء العبيد جاءوا من افريقيا وقد استحضرهم الاتراك وهم أطفال إلى الحجاز مدّعين تبنيهم لهم ثم باعوهم في سوق مكة ببيع السائمة أثناء موسم الحج .

وكان عددهم ضخماً كبيراً اذ انهم كانوا يسكنون ثلاث عشرة قرية من قرى وادي صفرا ، وهكذا وجدوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم وعاشوا الحياة وفق أمزجتهم . وكان عملهم قاسياً غير ان الرقابة عليهم كانت ضعيفة وكان الفرار نتيجة لذلك أمراً ميسوراً لهم .

وكثيرون منهم كانوا يملكون أراضي يزرعونها بالبطيخ الاحمر والشمّام والخيار والكرمة والتبغ لحسابهم الخاص بالاضافة إلى النخيل الذي كانوا يصدّرون منه الفائض إلى السودان بواسطة سفن شراعية ويستوردون الحبوب والاقمشة من افريقيا وأوروبا .

وعندما جاء الاصيل وبردت الشمس نوعاً ما امتطينا جمالنا وسرنا بمحاذاة الجدول الصغير حتى تركناه يختفي وراء الاسوار الطينية الـتي جففتها الشمس .

واصلنا طريقنا داخل القرية ومررنا بسوقها الرئيسي ، ولم تكن دكاكينها تحتوي إلا على القليل جداً من السلع . وبدا لنا كل ما رأيناه متداعياً . فمنذ جيل واحد كانت قرية «الواسطة» تعج بالسكان (لقد قيل لي انها كانت تتألف من ألف منزل) ، ولكن حدث في أحد الايام أن داهمتها سيول وادي صفرا فهدمت أسوار البساتين واقتلعت النخيل من جذوره وأغرقت بعض البيوت وغمرتها بالطين والطمي . وعادت البيوت إلى أصلها فذابت وأصبحت طيناً فقتل داخلها الكثيرون من العبيد التعساء .

وكان في الامكان ان تعوض الخسائر في الرجال والبساتين ، لو ان التربة بقيت صالحة خصبة ، غير ان أكثر أراضي البساتين التي بذلت لاستصلاحها الجهود المضنية ملئت بالحجارة والحصى .

بعد الخروج من «الواسطة» بمسافة قليلة وصلنا واحة «خرما» ، ومن ثم بدت لنا «حمرا» ذات الصخور الحمراء الاخاذة بمنظرها . وهنا بدأنا نشاهد بعض أرتال قوات فيصل وتطالعنا قطعان من الجمال

ترعى في المروج . وما كاد الجنود يشاهدون «طفس» حتى أخذوا يرفعون عقيرتهم بتحيته ، فلمست الحياة تدبّ من جديد في جسده .

رأينا «حمرا» إلى شمالنا مدفونة في بساتين النخيل تحيط بها روابي من الطمي تبلغ العشرين قدماً ارتفاعاً . خضنا جدولاً صغيراً وسرنا في درب مستور تحفّ بنا الاشجار حتى ارتقينا إحدى تلك الروابي حيث توقفنا أمام باب منزل طويل منخفض فترجلنا عن رواحلنا ، وأقبل طفس على عبد يحمل سيفاً مذهباً وأسرّ اليه كلاماً ففتح لنا الباب وقادنا إلى داخل الباحة ومنها إلى قاعة كبيرة ، فدخلتها لأشاهد شخصاً طويلاً أبيض يقف إلى جانب باب اسود ينتظر وصولي بلهفة وشوق .

وما كاد نظري يقع عليه حتى أيقنتُ ان هذا هو الشخص الذي جئت بلاد العرب لأبحث عنه . وآمنت بأنه هو الزعيم الذي سيسير بالثورة العربية إلى هدفها المنشود .

كان فيصل طويل القامة كأنه العمود ، نحيفاً . ورأيته مفرطاً في النحافة يرتدي ثياباً حريرية بيضاء ويستر رأسه بكوفية رمادية وضع فوقها عقالاً تتخلله خيطان ذهبية .

بادرته بالتحية فأفسح لي الطريق إلى الغرفة وجلس على بساط فرش بالقرب من الباب . ولما ألِفَتْ عيناي ظلال الغرفة شاهدت فيها أشخاصاً غيرنا يجلسون هادئين صامتين ويحدقون في وجهي ووجه فيصل . أما فيصل فبقي خافض النظر يحدق في يديه اللتين كانتا تداعبان ببطء قراب خنجره . وأخيراً التفت إليّ وسألني بصوت ناعم عن رحلتي . فتحدثت عن المصاعب التي صادفتها . ثم أردف يسألني :

— « هل تحب مكاننا هذا في وادي صفرا ؟ »

فأجبته :

— « انه حسن . لكنه بعيد عن دمشق . »

نزلت كلمتي هذه كأنها السيف ولمست رعشة تنتاب أجساد الحاضرين.. وبعد صمت رهيب تطلع فيصل نحوي وابتسم في وجهي وقال :

— « الحمد لله ، فإنه يوجد أتراك أقرب إلينا من دمشق . »

عندئذ شاركناه جميعاً الابتسام . ثم وقفت واستأذنت منه لمدة وجيزة .

١٣

تحت مظلات صنعت من سعف النخيل ، وفي مرج مخضوضر أنيق ناعم وجدت معسكر الجنود المصريين بقيادة الرائد (الماجور) نافع بك الذي أرسله السير « ريجالد وينجيت » من السودان ليقدم العون إلى الثورة العربية . وقد غمرني الرائد نافع بك بكرمه وسخائه على الرغم من اعتلال صحته وحنينه الشديد إلى وطنه .

جاء فيصل ومولود مخلص . وهذا الاخير عربي متطرف من بلدة تكريت في العراق . انزلت رتبته مرتين في الجيش التركي بسبب عواطفه القومية المتأججة واضطر أن يمضي سنتين في المنفى في نجد كسكرتير لابن الرشيد . وبينما كان يقود فرقة الخيالة التركية في معارك « شعيبة » بالعراق اسرته القوات الهندية ، وحالما سمع مولود مخلص بأنباء الثورة العربية التي أضرمها الشريف تطوع وكان أول ضابط نظامي يلتحق بجيش فيصل . ويعمل الآن مرافقاً له .

أخذ مولود مخلص يشتكي من سوء التسليح بمرارة . وكانت هذه هي المشكلة الرئيسية التي تشغل الخواطر . فالشريف يدفع شهرياً للجيش

ثلاثين ألفاً من الجنيهات للحصول على قليل من الدقيق والارز والشعير وبعض البنادق وكميات ضئيلة من الذخيرة والعتاد .

وهنا قاطعت مولود مخلص قائلاً : « ان السبب الرئيسي لقدومي اليهم هو معرفة ما ينقصهم ووضع تقرير مفصل عن هذا الامر إلى رؤسائي . » ثم أردفت قائلاً : « بأنني مستعد ان أتعاون معهم شريطة ان يوضحوا لي الحالة العامة . »

وافق فيصل على ما أبديت وبدأ يرسم لي صورة للثورة منذ ولادتها . كان الهجوم الاول على المدينة عملاً يائساً إذ كان العرب مسلحين تسليحاً رديئاً وكانت القوات التركية قوات ضخمة لا سيا وان فرقة فخري باشا المكلفة بمرافقة « فون شتسنجين » إلى اليمن كانت لا تزال معسكرة في المدينة . وكانت الخسائر فادحة لأن المدفعية التي استعملها الاتراك خلقت الذعر في نفوس العرب ، كما ان جنود فخري باشا لم يتورعوا عن ارتكاب أشنع الجرائم بعد هزيمة القبائل المهاجمة .

لذلك انسحب العرب من السهل المنبسط حول المدينة إلى التلال عند « الطريق السلطاني » وأقاموا معسكراتهم حول قرى « عار » و « رّها » ، و « بئر عباس » ، وأخذ فيصل وعلي يرسلان الرسول تلو الرسول إلى بلدة « رابغ » قاعدتهم الحربية ليستعلما عن موعد وصول المال والسلاح .

كانت بداية الثورة العربية بداية مرتجلة . والشريف حسين عندما أعلنها لم يتداول مع أبنائه لوضع المناهج والخطط . لذلك كان الجواب الذي حمله الرسول إلى فيصل من رابغ كمية قليلة من الطعام عقبها بعد مضي وقت قليل شحنة ضئيلة أخرى من البنادق اليابانية ، وكان معظمها مخرباً أو معطوباً . وقد اضطر فيصل إلى أن يملأ صندوقه الحديدي بالحجارة

واضعاً عليه حراسة شديدة كي يوهم الجيش ورجال العشائر ان المال لا يزال متوفراً لديه .

وأخيراً اضطر علي ان يسافر إلى رابغ لينظر في الامر وليرى ما هو سبب توقف امدادهم بالمال ، فوجد ان حسين مبيرق زعيم المنطقة قد انحاز إلى الاتراك وسطا على الامدادات البريطانية . فلم يكن من علي إلا أن طارده وهاجم قراه . وحين تفتيش منازلها وجد فيها كميات ضخمة من الاسلحة والطعام تكفي القوات العربية مدة شهر كامل .

وفيما كان علي يفعل ذلك اتصل فيصل بالكولونيل ولسون الذي وصل « ينبع » وطلب منه بعض الامدادات واعطاه بطارية من المدافع الجبلية . وقد غمرت العرب حماسة شديدة عندما شاهدوا بطارية المدافع هذه واعتقدوا انهم بواسطة هذه المدافع سيصبحون اكفاء للاتراك . غير ان تلك المدافع كانت مدافع قديمة صنعتها مصانع « كروب » منذ ربع قرن ، ولم يكن مداها يتجاوز ثلاثة آلاف ياردة .

وعلى كل حال قامت الجيوش العربية وهي تجرّ هذه المدافع الاربعة أمامها باقتحام المراكز الامامية للقوات التركية وأخذت تتقدّم من نصر إلى نصر مما حمل فخري باشا على تقوية حامية بئر عباس التّي ارتفع عدد جنودها إلى ثلاثة آلاف ، فزوّدها بمدافع أبعد مدى . وكان ان سقطت إحدى القنابل بالقرب من خيمة فيصل بينما كان هو داخلها مجتمعاً إلى قادة جيشه . وهنا طلب الجنود العرب من المدفعيين الذين معهم ان يضربوا الاتراك بمدافعهم . غير ان هؤلاء افهموهم ان المدافع التي يملكونها مدافع عتيقة وان مداها يقصر عن تسعة آلاف ياردة حيث يتمركز الاتراك .

فتراجعت جموع فيصل عن المواقع التّي احتلتها وتدهورت المعنويات

العربية . وبهذا أُرغم فيصل على تحمّل عبء القتال وحده ، بينما كان عبد الله يمرح في جدّة وزيد وعلي يتمتعان بالحياة الهادئة في رابغ . وأخيراً سحب قواته الرئيسية من أمام بئر عباس وأبقى بعض فرسان آل « حرب » معتصمين بالتلال وكلفهم بمتابعة هجماتهم على خطوط مواصلات الاتراك وقوافل تموينهم .

هذا ومن وقت لآخر بعد تبادل الشتائم كان العرب يشتبكون ليلاً بالايدي مع الاتراك حينما لا تتمكن المدافع من رؤية أهدافهم .. وقد بدا لي هذا النوع من القتال بدائياً شاذاً .

سألت فيصل عن خططه فأجابني انه ما دام لم يسترجع المدينة فأنه سيبقى في الحجاز . وكان يعتقد ان الاتراك يهدفون إلى اعادة احتلال مكة فقواتهم الرئيسية اليوم هي قوات متحركة ، وفي استطاعتهم أن يوجهوها ضد رابغ .

وقد دلت معركة تلال صبح ذات طابع الدفاع السلبي على ان العرب لم يقوموا بدور المقاوم السلبي على خير وجه ، فلا بدّ اذن من الهجوم على المدينة . قال فيصل انه سيقوم على رأس المجندين الجُدُد بالتقدّم شرقاً نحو الخط الحديدي الحجازي وراء المدينة ، وفي هذه الاثناء يزحف عبد الله على رأس جيشه في الصحراء البركانية ليهاجم المدينة من الشرق . على ان يشغل زيد القوات التركية الضخمة في بئر عباس ، وذلك كي يمنعها من الاشتراك في المعركة الرئيسية .

وبموجب هذه الخطة تصبح المدينة مهددة من جميع الجوانب ، ومهما يكن مدى النجاح الذي قد يحققه هذا الهجوم فان حشد القوى في الجوانب الثلاثة سيحطّم الهجوم التركي المرتقب . وهذا يمكّن جنوبي الحجاز من استعادة أنفاسه وتسليح أبنائه وإعدادهم من أجل دفاع فعّال أو هجوم مضاد .

كان مولود مخلص يستمع إلى حديثنا البطيء الطويل متبرماً . وأخيراً لم يستطع أن يكبت انفعالاته فصاح بي :

— « لا نريد أن تكتب تاريخنا . إن ما نحتاج اليه هو الحرب ، والحرب حتى نقتلهم . اعطني بطارية من مدافع شنايدر الجبلية ورشاشات وأنا أكتب خاتمتهم بيدي . إننا نتكلم كثيراً ولا نفعل شيئاً . »

* * *

كانت محادثاتي مع فيصل بمثابة استجمام له . فقد ملأ حضوري ، الذي لا قيمة له ، قلبه يقيناً . كانت عيناه السوداوان قانيتين من الاجهاد ، ومع ذلك بدا عليه الهدوء والاتزان . ولا عجب في ذلك لأن فيصل قد أعدّته التجارب في الآستانة ودمشق ليكون القائد المنتظر . وفي سبيل هدفه كانت تهون المصاعب . وقد حكى لي بعض مرافقيه أنه بينما كان يقوم على رأس رجاله في موقعة طويلة الاجل يشجعهم بأقواله وافعاله خانته قواه واغمي عليه فنقل من وسط المعمعة والزبد يتدفق من شدقيه .

لقد كان أكثر مما أملنا وأكثر مما يستحق شوطنا المتوقف . لقد تحققت الغاية من وراء رحلتي ، وأصبح من واجبي أن أسلك أقصر السبل إلى مصر أحمل معي الاخبار والمعرفة التي اكتسبتها في تلك الامسية لنباشر ما اعتزمنا تنفيذه .

ما كاد الظلام يرخي سدوله حتى جاءنا جمع من العبيد يحملون المصابيح سائرين على الدرب المتعرج بين جذوع النخيل . فنهض فيصل ورفاقه وقفلنا عائدين من الحديقة إلى الدار الصغيرة حيث وجدنا قاعاتها غاصة بالرجال . ومنها دخلنا القاعة المخصصة للمقربين حيث وجدنا صينية تحتضن الارز واللحم وضعها العبيد فوق البساط طعاماً لعشائنا .

١٤

كانت حلقتنا مزيجاً غريباً . فهي تضم نفراً من الاشراف والوجهاء وشيوخ القبائل من « جهينة » و « عتيبة » وكنت أثير عمداً موضوعات الخلافات الحادة بينهم كي أتعرّف إلى مشاربهم وعقائدهم دون ابطاء . وكان فيصل الذي يكثر من تدخين لفائف التبغ يسيطر على المحادثات حتى في ذروة تأزمها مظهراً فناً رفيعاً في ضبط مشاعر الرجال .

لقد كان فيصل حقاً محبوباً من رفاقه . ولا غرابة في ذلك لأنه قد أعدّ إعداداً لأئقاً ورُبّي تربية حسنة من قبل والده . وإذا كان والده الشريف حسين ذا نفسية لا تخلو من التناقض بسبب أمّه الشركسية والمدرسة التركية السياسية التي نشأ فيها فهو على العكس بريء من كل ذلك .

لقد عمل الحسين على ان تكون ثقافة أولاده عامة طيبة ، وعندما عادوا إلى الحجاز كأفندية يرتدون الملابس الاوروبية متطبعين بطباع الاتراك أمرهم بارتداء الملابس العربية وعيّن لهم مرافقين من أهل مكة وأرسل بهم إلى البادية مع قوى الهجانة لحماية الحجاج كي يتقنوا اللغة العربية .

كانت المناقشة عقب العشاء مناقشة لطيفة سارة . وبوصفي « سورياً » أخذت أبدي حزني على الزعماء السوريين الذين أعدمهم جمال باشا في دمشق . وهنا ثارت في وجهي زوبعة عاتية ، إذ كانت الصحف قد نشرت ان هؤلاء الزعماء كانوا على اتصال بحكومات أجنبية مما يشكل جرماً في حق القومية العربية .

فابتسم فيصل وهو يغمز بعينه إليّ ثم قال :

— « ألا ترى ان الضرورة تشدّنا إلى بريطانيا ؟ إننا لمسرورون

ان نكون أصدقاءهم وممتنين لمساعدتهم . غير اننا لسنا بالرعايا البريطانيين . وكم نكون سعيدين لو كان بيننا وبين بريطانيا توازن في القوى ... »

لقد أدهشني رجال العشائر ذوو الالبسة المهلهلة باطلاعهم الواسع وادراكهم العميق للمفاهيم القومية التي يتعذر حتى على الطبقات المثقفة هضمها . وكي أسبر غور هؤلاء الحاضرين طرحت عليهم هذا السؤال :

— « ترى بعد انتصار الثورة هل تحكم دمشقُ الحجازَ ؟ أو هل يحكم الحجازُ دمشق ؟ »

والجواب كان ان هذه المسألة لا تعنيهم كثيراً « فالمهم أن يتخلّص العرب من المتطفلين الذين يتحكمون بهم . »

أما العراقيون والسوريون المنخرطون في الجيش العربي فكانوا يؤمنون ان مشاركتهم في ثورة الحجاز تقدّم كل المبررات للحقوق العامة للعرب في تجسيد الوجود القومي العربي . وسواء لديهم أكانت الدولة العربية المنتظرة دولة وحدوية أو اتحاداً كونفيدرالياً ، فقد كانوا يتطلعون نحو الشمال راغبين في ادخال دمشق وبغداد في الاسرة العربية .

لم ألمس سوى أثر ضئيل للتعصب الديني بين العرب . ولقد رفض الشريف مراراً وتكراراً أن يضفي على ثورته رداءً دينياً . لذلك كان جوهر ثورته جوهراً قومياً . فالعشائر كانت تعرف ان الاتراك مسلمون، والانكليز مسيحيون . ومع ذلك ثاروا على الاتراك وقبلوا محالفة المسيحيين .

إن كل ما يريده العرب هو حكومة مستقلة تدافع عن حقوقهم وقوميتهم وتمكّنهم من أن يعيشوا بسلام .

١٥

استيقظت باكراً في صباح اليوم التالي وأخذت أتفقد قوات الشريف المعسكرة في «الخيف» ، بل حاولت أن أجس نبض هـذه القوات وأستطلع حقائقهـا مستعيناً بالمناورات الـتي طبّقتها ليلة الامس على الوجهاء والشيوخ . وكان الوقت عاملاً جوهرياً بالنسبة إليّ إذ كان عليّ أن أعرف في مـدة من الزمن لا تتجاوز عشرة أيام أشياء وأشياء لم يكن من الممكن أن أصل اليها في أسابيع طويلة إذا عمـدت إلى التدقيق والبحث .

لقد كنتُ اؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً ، وكنتُ واثقـاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة الـتي ستمزق تركيا شذر مذر . غير أن الآخرين في مصر كان ينقصهم مثل هذا الايمان ولم يعلموا شيئاً طيباً عن العرب . فإذا ما استطعت أن أستثير رومنتيكية البعض من هؤلاء الذين يسكنون القاهرة فعندئذ سيكون في امكاني ان أكسب عطفهم على مشروعاتي الرامية إلى مساعدة العرب .

استقبلني جنود فيصل بترحاب وحماسة . وكانوا جماعات جماعات وكل جماعة منهم تتمدّد في ظل صخرة كبيرة كأنهم العقارب الكسالى ترتاح من الحرارة . وقد خالوني حينما شاهدوني أرتدي ألبسة كاكية انني أحـد الضباط الذين فرّوا من الجيش التركي والتحقوا بهم . لذلك اغتبطوا اغتباطـاً عميقاً بمشاهدتي لكنهم كانوا حائرين في الطريقة التي يعاملونني بهـا . كان أكثر هؤلاء الجنود فتياناً في مطلع العمر . ومع ذلك كانت ملامحهم خشنة قاسية وأجسادهم نحيلة ضامرة ، لكنها تختزن حيوية ومرونة كأنها الزيت . وكان يلذ للمرء أن يمتع ناظريه بمرآهم وهم يتحركون . ولم يكن في الامكان ان يخلق رجال أصلب من هؤلاء عوداً . فهم يقطعون المسافات الخيالية على ظهور مطاياهم يوماً بعد يوم

ويسيرون حفاة الاقدام على الرمال المحرقة والصخور الحادة المدببة ويتسلقون التلال كأنهم الماعز ، وكانت ثياب الواحد منهم تتألف من ثوب فضفاض وكوفية تستر رأسه كمنشفة أو منديل وكانت تستعمل كيساً إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وكانت الحرب بالنسبة لهم أكثر الأوقات رخاء ، إذ أن الشريف لم يكن يطعم الرجال المقاتلين فحسب ، بل كان يدفع للشخص الواحد منهم جنيهين ذهبيين مرتباً شهرياً ويستأجر الجمل الواحد بأربعة جنيهات. ولم يكن هناك من وسيلة غير هذه يمكن بها ان تتحقق الاعجوبة في بقاء جنود العشائر طيلة شهور في ميدان القتال . لقد كنا نسخر في السابق من حبّ الشرقيين للمرتبات والمال ، غير ان حملة الحجاز كانت برهاناً قاطعاً على خطأ نظرتنا هذه ، إذ ان الاتراك كانوا يقدّمون الرشاوى الطائلة ليحصلوا على خدمات لا تذكر . وكانت العشائر تقبل على عطاء الاتراك وتجازيه بشكر اللسان لتتصل بفيصل وتقاتل في صفوفه لقاء دريهمات قليلة معدودة . وكان الاتراك يذبحون أسراهم ذبح النعاج بينما كان فيصل يعطي جائزة عالية قدرها جنيه واحد لكل من يعود بأسيره سالماً . كما كان يدفع الجوائز عن الخيول والاسلحة التي يستولى عليها . وكان الوالد يتبادل الخدمة وولده في جيش فيصل ، فالعائلة التي تملك بندقية حربية يتعاقب الشباب على استخدامها . وكان المتزوجون من العشائر يوزعون أوقاتهم بين المعسكرات ومخادع زوجاتهم . وكانت السياسة تقضي بأن يقدم فيصل بين حين وآخر بعض المال كمرتبات إلى رؤساء العشائر . وكان هذا المال بمثابة رشوة تعطى بصورة مهذّبة كدليل على الود والصداقة .

ومع ان الجميع كانوا يحاربون الاتراك بعزم نابع من أعماق قلوبهم فأن هذا كان لا يمنع فرداً من أبناء العشائر فيما إذا رأى الظروف مؤاتية من أن يأخذ ثأراً عائلياً . لذلك استنتجت ان رجال العشائر يصلحون

للدفاع فقط . وكان تهورهم الجموح يجعلهم بارعين لنسف الخطوط الحديدية وسلب القوافل والجمال .

لكنه كان من الصعب عليهم ان يحتملوا قيادة عامة . وهؤلاء الابطال كما بدوا لي غير قابلين للتدريب . ومن رأيي انه إذا ما استطعنا ان نمدّهم بالاسلحة الرشاشة الخفيفة من طراز « لويس » ودربناهم على استعمالها فبامكانهم ان يخلقوا من هذه التلال حاجزاً قوياً يمكّننا من بناء قواتنا وراءه . وربما كان في استطاعة لواء نظامي سيار في رابغ ان ينزل الهزيمة بلواء تركي يماثله .

إن الحرب في الحجاز حرب بسيطة غير معقدة . فهي قتال يدور على سفوح الجبال الصخرية والاراضي المجدبة . والحزام الذي تشكله التلال فردوس بالنسبة للقناصة . والعرب قناصة ماهرون . وبامكان مائتين أو ثلاثمائة من القناصة ان يوقفوا تقدم طابور تركي وذلك لأن التلال منحدرة بصورة تجعل من الصعب على الاتراك تسلقها . والصخور الصوانية التي لا ترحم قاسية كالمعدن مدببة حادة كالموسى . وقد بدا لعيني ان الخيانة وحدها ، خيانة العشائر ، هي التي يمكنها ان تسمح للقوات التركية باختراق هذا الحزام والتقدم . وحتى لو جاءت الخيانة حليفاً للاتراك فإنه لمن الخطر الشديد عبور هذه التلال . فالعدو لا يكون أبداً واثقاً من أن السكان المتقلبين لن ينقلبوا ضده .

والبادرة التي أخافتني وأزعجتني هي ذعر العرب الشديد من المدفعية التركية وقد لاحظ عزيز علي المصري البادرة ذاتها خلال حربه ضد الطليان في ليبيا .

لقد خيل إلى اولئك البدو ان الطاقة التدميرية للسلاح تقاس بالدوي الذي يحدثه . فهم لم يكونوا يخافون الرصاص ولا يهابون الموت ، غير ان منظر الموت بالقنابل كان منظراً لا يطاق بالنسبة اليهم . لذلك اعتقدت ان الوسيلة الوحيدة لرفع معنوياتهم هي الحصول على مدافع ذات

دوي هائل .

وعندما أخبرتهم بنبأ انزال مدافع هويتزر في رابغ فرحوا جميعاً لهذا النبأ وهللوا .

لقد أحدثت ضخامة الثورة العربية في نفسي أثراً عظيماً . فقد لمست عزماً أكيداً على طرد الاتراك وانزال الهزيمة بهم . ومع ان سكان الصحراء لم يكونوا يحاربون وفقاً للاساليب والخطط التي نحارب نحن بموجبها ، غير ان قتالهم لم يكن أبداً أقلّ من قتالنا ضراوة وعزماً .

عدت لأقابل فيصلاً مرة أخرى ولاعدَه بأن أبذل جهدي واعمل كل ما أستطيع عمله من أجله وأخبرته ان روءسائي سيقيمون قاعدة في « ينبع » حيث تختزن فيها المواد اللازمة التي توضع تحت تصرفه المطلق . وسنرسل ضباطاً متطوعين من الاسرى العرب الذين وقعوا في أيدينا خلال معارك العراق والقنال ، وسنقوم بتشكيل وحدات للمدافع والمدافع الرشاشة من بين صفوف المعتقلين العرب وستزودهم بجميع ما تصل اليه أيدينا في مصر من مدافع جبلية ومدافع رشاشة . وبالاضافة إلى ذلك سأنصح القيادة البريطانية بارسال ضباط خبراء بريطانيين ليقوموا بمهام ضباط الارتباط بيننا وبينه .

كان لحديثي وقع طيبٌ في نفس فيصل ، فشكرني شكراً حاراً ووجه إليّ دعوة لزيارته مرة ثانية . وقد شرحت له ان واجبي في القاهرة خارج أعمال الميدان . وربما سمح لي روءسائي بزيارته من جديد .

وقبل أن نفرغ من حديثنا عين فيصل حرساً موءلفاً من اربعة عشر رجلاً جميعهم من أقارب محمد علي بن بيصاوي أمير جهينة لمرافقتي في طريق عودتي . وكان عليهم ان يوصلوني إلى ينبع فيسلموني إلى عبد القادر العبدو حاكمها .

١٦

قبل ان يرخي الليل سدوله غادرنا « الحمرا » وأخذنا نهبط وادي صفرا عائدين . وما كادت قرية « خرما » تطل علينا حتى انحرفنا يميناً إلى وادي تنمو بـه أشجار شائكة حيث أخذنا نتمهل في سيرنا لنجنب رواحلنا وخزات الشوك . وبعد ان قطعنا مسافة تقارب ميلين بـدأنا نصعد درب « دفران » الضيقة . وهذه الدرب كما يظهر كلفت كثيراً من الجهود ، فقد مهدت بالايدي واقيم جداران من الحجارة على جانبيهـا كي يحمياها من السيول ، وكانت تكتنف هذه الدرب مدرجات بنيت من ألواح حجرية يتجاوز اللوح منها ثمانية أقدام طولاً .

استمر صعودنا على هذه الدرب ميلاً آخر . وأخيراً استوت الطريق فألفينا أنفسنا في أرض ارتاحت اليها الجمال . وبعد ان قطعنا في ظلمة الليل مسافة سبعة أميال وصلنا إلى بئر المرة حيث وجدنا قلعة قامت تحدق في السماء المرصعة بالنجوم . والارجح ان المماليك هم الذين شيدوا القلعة وشقوا الدرب لقوافل الحجاج القادمة من ينبع .

توقفنا عند البئر لنمضي ليلنا ونمنا مدة ست ساعات . وبعد ذلك استيقظنا وأخذنا نضرب في الليل بين الاخاديد الصغيرة حتى أرشدنـا الفجر اللطيف إلى الوديان الرملية التي تمتد على جوانبها تلال بركـانية صغيرة الحجم غريبة الشكل . ولم تكن الاحجار البركانية هنا شبيهة بالحجارة البركانية الخامدة الزرقاء البيضاء التي سبق لي ان شاهدتها في حقول رابغ بل كان لها لون الصدأ ، تتراكم صخورها بعضها فـوق بعض في اكوام ذات سفوح تنحني وتميل .

وفي الساعة السابعة بدا لنا سهل رملي زجاجي اللون خالطته الحصى وانتشرت فوقه ابسطة من الاعشاب الطويلة وأدغال الشوك وأشـجار الأسل . فأخذت رواحلنا تسرع بخطاها في هذا السهل حتى تصبّب العرق

من جبيني إذ انني لم أكن معتاداً على ركوب الجمال .

تابعنا سيرنا حتى استسلمت رمال الوادي استسلاماً مطلقاً للحصى والحجارة التي اجتمعت وتكتلت لتكوّن مجرى صلباً لوادٍ واسع منحدر إلى البحر .

ارتقينا هضبة واطللنا منها على دلتا « وادي ينبع » العريضة الواسعة وهي أكبر وديان الحجاز الشمالي . وشاهدنا إلى يمين الوادي بساتين نخيل قرية « مبارك » التي يملكها فخذ « بني ابراهيم » من عشيرة جهينة . ورأينا أمامنا جبل رضوى الشاهق يغطي ينبع مع انه يبعد عنها مسافة تزيد على عشرين ميلاً . وقد تمكنا من مشاهدته في المستراح فشعر رفاقي انهم قد أصبحوا في وطنهم .

وبما ان السهل كان يعكس حرارة لا تطاق لذلك سرنا في ظلال شجر الأسل النابتة على جوانب الوادي . وفي الاصيل سقينا جمالنا من حفرة صغيرة متهدمة تجمعت فيها بعض المياه . ثم ترجلنا فأضرم أبناء جهينة النار ليخبزوا لنا خبزاً ويسخنوا قهوتهم . ونمنا نوماً هادئاً بينما كانت ريح البحر الحاملة الرطبة تداعب وجناتنا الملتهبة .

استيقظنا في الساعة الثانية صباحاً ودفعنا برواحلنا مسرعين نجتاز السهل المليء بالحصى المشبع بالرطوبة ميممين شطر « ينبع » التي انتصبت أمامنا بأسوارها وأبراجها على شعب مرجانية تتجاوز الخمسة وعشرين قدماً ارتفاعاً .

دخلنا المدينة في دروب متهدمة خاوية إذْ انّها بدأت تلفظ أنفاسها بعد انشاء الخط الحديدي الحجازي . وما هي إلا لحظة حتى وصلنا منزل « عبد القادر » عامل فيصل فيها ، فألفيت عبد القادر رجلاً واسع الاطلاع كفوءاً هادئ الطبع مهيب الجانب . وقد سبق لنا ان تبادلنا معه الرسائل حينما كان يشغل منصب مدير البريد في مكة . وكنا نحن آنذاك

نقوم باعداد الخرائط للدولة الجديدة .

مكثت في بيت عبد القادر الجميل ، المطل على الساحة الخاوية حيث شاهدت العديد من القوافل تنطلق إلى المدينة ، مدة أربعة أيام أنتظر قدوم الباخرة التي بدا لي انها لن تحضر في الموعد المتفق عليه .

وأخيراً جاءت « سيوى » وكان يقودها القبطان « بويل » وأبحرت برفقته إلى جدّة . لقد كانت تلك هي المرة الاولى التي أقابل فيهـا « بويل » الذي سبق له أن أنجز الكثير من المهام في بدء الثورة . لذلك كانت علاقتي به فاترة . لا سيما انني كنت أرتدي على رأسي الكوفية العربية الامر الذي لم يستسغه .

وصلنا جدة فوجدنا السفينة « يوريال » ترسو في الميناء وعلى ظهرهـا اميرال البحر « ويمس » الذي كان يقصد السودان لزيارة السيد « ريجنالد وينجيت» في الخرطوم . قبل ذلك كان وينجيت يشغل منصب سردار الجيش المصري . اما الآن فقد كلف بالاضافة إلى عمله هـذا بادارة الشؤون العسكرية المتعلقة بالثورة العربية بينما حصرت مهام مكماهون في توجيه الشؤون السياسية لهذه الحركة .

لذلك كان من الضروري جداً أن أقابل السير « ريجنالد وينجيت » وأحادثه بشأن الثورة العربية ، فوجدت الفرصة مناسبة ورجوت الاميرال أن يسمح لي بالانضمام إلى حاشيته والاقلاع على ظهر سفينته الميممة شطر السودان . وقد استجاب إلى طلبي سريعاً بعد أن استنطقني بنفسه . ولاحظت أنه شديد الاهتمام بالثورة العربية . فلقد زار جدّة مراراً على سفينته ليقدّم العون إلى العرب في ثورتهم ضد الاتراك . وقد قام بهذه الاعمال أكثر من عشرين مرة مع العلم بأنه كان من المتوجب عـلى الجيش والاسطول أن ينجزها . وقـد أعطى العرب المدافع والرشاشات وقدّم لهم المساعدات الفنية ، وأمر الاسطول أن يبذل كل مـا يستطيعه من جهد لتقديم كل عون لازم للعرب . ولولا المساعدات القيمة التي

أسداها الاميرال « ويمس » والكابتن « بويل » للعرب لقضت غيْرَة
« السير ارشبالد موري » القائد العـام في مصر على ثورة الشريف حال
نشوبها ...

وصلنا بور سودان فشاهدنا فيها ضباطـاً بريطانيين ملحقين بالجيش
المصري ينتظرون سفينةً تحملهم إلى رابغ . وقـد أنيطت بهؤلاء الضباط
إمرة القوات المصرية العاملة في الحجاز وتقديم كل عون لازم لمساعدة
عزيز علي المصري في تدريب القوات العربية النظامية . وكانت هذه هي
المرة الاولى التي أقابل فيها « جويس » و « دافنبورت » هذين الضابطين
اللذين لعبا دوراً لا ينكر في ثورة العرب .

كان جو الخرطوم رطباً بالنسبة لجو الجزيرة العربية . وهذا
ممـا أثار حيويتي لإطلاع السير « ريجنالد وينجيت » على التقارير التي
كنت وضعتها في ينبع ، ففعلت ذلك وأكدت له ان الوضع العـام مليء
بالامل . وان أهم مـا يحتاج اليه العرب هو المساعدات الفنية وان
الثورة مقدّر لهـا النجاح المحتوم فيما إذا ألحق بها ضباط بريطانيون
يتكلمون العربية ليُسْدوا إلى قادتهـا النصائـح اللازمة .

سر « وينجيت » بنظرتي المتفائلة . فالثورة العربية كانت حلمه الاكبر
منذ سنين طوال . ولحسن الحظ لعب القدر لعبته ، فنقل مكماهون من
القاهرة لأن الدسائس ضده آتت أكلها فاستدعي إلى بريطانيا وعيّـن
« وينجيت » في منصبه . ومـا هي إلا أيام ثلاثة أمضيتها مستجماً في
الخرطوم وأنا أطالع كتاب « موت آرثر » حتى عدت إلى القـاهرة
وأنا واثق من ان الرجل المسؤول قـد اطلع على جميع ما أحمله من
أنباء وتقارير .

كانت القيادة في « مصر » كعادتها مشغولة بمسألة « رابغ » . فلقد
أرسلت إلى رابغ بعض الطائرات . وعقِب إرسالها مناقشاتٌ طويلة

عما إذا كان من المستحسن إتباع هذه الطائرات بلواء بريطاني . وكان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جدّة الكولونيل « بريموند » يلحف في النصح الشديد بانزال القوات المتحالفة في الحجاز . وكي يغرينا بقبول نصائحه استحضر إلى السويس المدافع والرشاشات وبعض جنود الخيالة والمشاة ، وكان هؤلاء جميعاً من المسلمين الجزائريين وبقيادة ضباط فرنسيين . ولو أن هذه القوات الحقت بالقوات البريطانية لكان للقوة المشتركة عندئذ لون دولي .

وكانت لتقارير « بريموند » التي تصف خطورة الاوضاع العامة في الحجاز اثر لا يستهان بـه في نفس « وينجيت » وكاد يميل إلى النصح بالتدخل المباشر . ولما كانت خبرتي الخاصة في الشعور العربي العام في منطقة عشائر حرب قـد زودتني بخبرة كافية ، لذلك رفعت إلى الجنرال « كلايتون » الذي كان يشرف على المكتب العربي ، هذا المكتب الذي نقلت اليه الآن رسمياً مذكرة عنيفة عن جميع الامور المتعلقـة بهذا الموضوع .

وقد سُرّ كلايتون بآرائي التي تقول بأن العشائر تستطيع أن تدافع عن رابغ لمدة شهور طويلة إذا أعطيت المدافع والاسلحة وبذل لقادتهـا الارشاد والنصح . وانه من الخير ان نترك لها ذلك لأنها ستنسحب إلى مضاربها حالما تسمع بنزول قوات أجنبية إلى بلادها .

فحمل مذكرتي إلى السير « ارشبالد موري » القائد العـام البريطاني في مصر الذي أعجب بعنفها . فأبرق هـذا بهـا كاملة كدليل على أن الخبراء البريطانيين الذين ينصحون بحرمانه من قوة عسكرية ثمينـة هو في مسيس الحـاجة اليها منقسمون على أنفسهم في هذا الموضوع .

وبعد ذلك استدعاني القائد العام لمقابلته . ولكن قبل وصولي إلى مكتبه لقيت أحد المرافقين في انتظـاري ، فدخل بي مكتب رئيس الاركان العامة الجنرال « ليندن بل » وهناك ذهلت عندمـا رأيت رئيس الاركان

ينتصب على قدميه حال دخولي ويميل نحوي بجسده ويمسك بكتفي ويقول :

– « يجب عليك ألاّ تدعه يخاف ، لا تنسَ ما أقوله . »

وقد بدت الحيرة على وجهي إذ رأيت اللطف يشع من عينه الوحيدة ، وطلب مني ان أجلس وأخذ يحدثني عن الحياة الجامعية في اوكسفورد ، والاهمية التي كانت لتقريري عن فيصل وجنوده وعن أمله في عودتي إلى الجزيرة العربية لأتابع ما بدأته بنجاح . وكان يمزج هذه الجمل اللطيفة بملاحظات عن الارهاق العصبي الذي يعانيه القائد العام .

كان كلام رئيس الاركان مسلّياً بالنسبة إليّ ، فوعدته بأن أكون رجلاً طيباً مع القائد العام . غير انني اشرت بوضوح إلى ان هدفي الاساسي يتمثل في الحصول على ما يحتاج اليه العرب من معدات اضافية واسلحة وضباط . وهنا فاجأني الجنرالليندن بل قائلاً : إن الاسلحة والامدادات هي من اختصاصه ، وانه سيعمل حالاً ليلبي كل ما يستطيع من طلباتنا .. والحقيقة انه قد حافظ على وعده وأحسن معاملتي . وهكذا أصبحت لطيفاً جداً في نظر القيادة العامة وأعوانها .

الجزء الثاني

١٧

التقدّم الأول نحو الشمال

بعد مضي بضعة أيام على مقابلتي للقائد العام استدعاني كلايتون إلى مكتبه وطلب مني العودة للجزيرة العربية إلى جانب فيصل . ولما كان هذا الامر لا يتوافق وطبيعتي . لذلك أخذت أجادله في عدم لياقتي للوظيفة قائلاً : انني أكره المسؤولية وخاصة ان وظيفة المستشار ذات مسؤوليات واسعة . فلقد كنت طيلة حياتي اجدُ السرور في دراسة الموضوعات أكثر مما أجدُه في الاشخاص . ثم ذكّرت كلايتون بأن السردار قد أبرق إلى لندن طالباً السماح له بايفاد ضباط نظاميين ليقدّموا النصح ويوجّهوا الحرب العربية .

فأجابني : « قد تمضي الشهور الطوال قبل ان يصل هؤلاء الضباط . وعلينا نحن أن نربط فيصلاً سريعاً بنا وان نؤمّن له سريعاً الامدادات التي يطلبها »..

وهكذا كان عليّ أن أعود إلى البلاد العربية تاركاً لغيري اصدار المجلة العربية الاسبوعية ورسم الخرائط التي كنت أرغب في ان ارسمها بنفسي . وجميع هذه الامور كانت نشاطات رائعة ساحرة في نظري ، حيث ساعدني تدريبي السابق على الارتفاع إلى مستواها . أما الآن، وقد قُدّر لي أن أقوم بدور لا أميل اليه ، فلا أدري كيف أفعل .

كان عليّ أن أقصد « ينبع » التي أمست قاعدة خاصة لجيش فيصل حيث كان « جارلند » يقوم بتدريب بعض العرب على نسف الخطوط الحديدية بالديناميت ويعلّمهم كيف يحافظون على مستودعات الجيش منظمة تنظيماً منهاجياً . وبالفعل كان موفقاً بذلك لأنه كان بحاثة في الطبيعيات ويملك معرفة عملية بالمتفجرات . وكانت له مخططاته الخاصة للغم القطارات وقطع الخطوط التلغرافية .

أضف إلى ذلك معرفته باللغة العربية وتحرره الكامل من النظريات . كل هذه الامور قد مكّنته من النجاح في تعليم رجال العشائر الاميين فن التدمير السريع لوسائل المواصلات . وقد أعجب به تلامذته إعجاباً عميقاً إذْ وجدوه حلاّلاً لكل عقدة .

وخلال الشهر الذي تغيبت فيه عن الحجاز طرأ تعديل على الاوضاع. فلقد انسحب فيصل بقواته إلى وادي ينبع وفقاً للخطة السابقة وكان يبذل جهده للمحافظة على مؤخرة جيشه قبل أن يهاجم الخط الحديدي مهاجمة كاسحة ، وتوجه زيد من رابغ إلى وادي صفرا كي يريح فيصل من قيادة عشائر حرب المتعبة . وهذه القبائل المقيمة في الخطوط الامامية كانت توجه الضربات القاصمة إلى خطوط المواصلات التركية الممتدة بين المدينة وبئر عباس . وترسل إلى فيصل يومياً تقريباً قافلة صغيرة من الجمال والاسلحة التي استولت عليها مرفقة بالاسرى والفارين من الجندية .

وفي اليوم السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ساد الذُعر مدينة رابغ نتيجة لظهور الطائرات التركية في سمائها فتلاشت معنويات سكانها. وما هي إلا أيام قلائل حتى برزت الطائرات البريطانية الاربع بقيادة الرائد « روص » الذي كان يحسن العربية ويتمتع بصفات القائد الممتازة . فارتفعت المعنويات وهدأ روع السكان . ومن ثم أخذت المدافع تتدفق علينا اسبوعاً بعد اسبوع حتى أصبحنا نملك منها ثلاثة وعشرين مدفعاً ، وكانت جميعها مع الاسف من طراز بال .

كان الشريف علي يقود ما يقارب ثلاثة آلاف جندي من المشاة . وكان ألفان منهم جنوداً نظاميين يرتدون الزيّ الرسمي تحت قيادة عزيز المصري . وكان يرافق هؤلاء قوة من الهجانة يبلغ عددها تسعمئة . وقد ربطت بهم قوة مصرية بلغ عدد جنودها ثلاثمئة . أما الشريف عبد الله فكان قد ترك مكة أخيراً في اليوم الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) وعقب اسبوعين وصل إلى حيث كان قد عزم ان يصل في السابق أي إلى مراكز تقع شمال شرقي المدينة تمكّنه من قطع الامدادات الواردة من القصيم والكويت إلى القوات التركية . وكان عبد الله يقود عدداً من الرجال يبلغ أربعة آلاف ، ولكن لم يكن في حوزته سوى ثلاثة مدافع رشاشة وعشرة مدافع جبلية بالية استولى عليها في الطائف ومكة . ولهذا لم يكن مجهزاً تجهيزاً يمكنه من تنفيذ خطته السابقة الرامية إلى الاستيلاء على المدينة المنورة بمساعدة علي وفيصل . وكان كل ما يستطيع عمله هو فرض الحصار عليها .

فاتخذ من « الحناكية » مقراً لقيادته . والحناكية هذه موقع صحراوي يقع على بعد ثمانين ميلاً شمال شرقي المدينة . أما فيما يتعلق بالمستودعات في قاعدة ينبع ، فأن هذه القضية قد عولجت بدراية وخبرة ، فلقد ترك « جارلاند » أمر ادارتها والاشراف عليها إلى عبد القادر حاكم ينبع الذي أبدى مهارة فائقة في تنفيذ مهمته هذه . والحق ان عبدالقادر

كان كفوءاً قديراً في عمله . وهذا مما يسّر لنا أن نركز اهتمامنا على أمور أشد أهمية من ادارة المستودعات وتخزين الاسلحة .

في ذلك الظرف صمم فيصل بعد أن نظّم رجـاله نوعاً ما على احتلال « الوجه » وانتزاعها من يد رئيسها المتقلب سليمان بن رفادة الذي منحه الاتراك لقب باشا وبعض الاوسمة فقام ابن عمه حامد الذي كان عاملاً مخلصاً في خدمة الشريف واستولى على قافلة من الجمال يبلغ عددها سبعين جملاً محمّلة بالذخائر والامدادات إلى الحامية التّركية في « الوجه » وعندما كنت أقصـد موقع « خيف حسين » كي أساعد فيصلاً على احتلال « الوجه » جاءتنا أنباء هزيمـة القوات التّركية في موقعـة دارت بالقرب من « بئر حسين » حيث تقدمت قوة استطلاع تركية من الخيـالة والهجـانة نحو التلال وتوغلت فيهـا فأحـدقت القوات العربية بها .

١٨

مع أنباء هذه الهزيمة التي لحقت بالاتراك بدأت رحلتي بداية طيبة . وكان رفيقي الشريف عبد الكريم البيضاوي شقيق محمد البيضاوي أمير جهينة . وقد ذهلت حينما وجدت ان لرفيقي هيأة الحبشي ولونه . غير انني علمت فيما بعد بأن والدته كانت امرأة سوداء . وقد تزوج بها والده في الايام الاخيرة من حياته .

كان عبد الكريم الذي يبلغ السادسة والعشرين من عمره رجلاً مربوع القامة نحيل الجسد اسود كالفحم سريع الحركة نشيطـاً . وكان يكنّ للاتراك كراهية عميقة وبغضاً شديداً بسبب احتقارهم له وتحقيرهم إياه

بسبب لونه (العرب لا يحتقرون الانسان بسبب لونه) .

كان لي خير الرفيق المرح . وكان يرافقه أربعة من رجاله المدجّجين بالسلاح .

كانت رحلتنا رحلة سريعة . فعبد الكريم من أسرع فرسان العرب . وكان يفخر بأنه اعتاد ان يقطع ثلاث مراحل في وقت يقطع غيره فيه مرحلة واحدة . ولما كان الطقس رطباً بارداً منعشاً والجو غائماً يوحي بالمطر لذلك لم أعترض على اسراعه في السير .

عقب ثلاث ساعات من خبب متواصل هز امعاءنا وفرغ معداتنا من كل غذاء أحسست بالجوع ينهشني ، فترجلنا عن رواحلنا وتناولنا بعض الارغفة واحتسينا القهوة العربية ثم أخلدت إلى الراحة حتى غروب الشمس بينما أمضى عبد الكريم وقته آناً يصارع رفيقاً له على بساط افترشناه وحيناً يروي لنا الاقاصيص والروايات والنكات .

منذ شهر تقريباً عندما كنت عائداً من « الحمرا » سرنا جنوبي تهامة أما الآن فأننا نخترقها ، ونحن نصعد وادي عقيدة ، وهو واد رملي ضيق متعرج شقّ لنفسه طريقاً بين التلال . ولما كان هذا الوادي قد مليء بالسيول منذ أيام قلائل لذلك كانت تربته لينة يسّرت لرواحلنا خبباً مريحاً . ولكننا عندما أخذنا نرتقيه كان علينا ان نسير بسرعة عادية . وهذا مما أدخل على قلبي السرور لكنه أغضب عبد الكريم . لذلك وعقب ساعة واحدة على سيرنا الهادئ عندما وصلنا أرضاً سهلة هبط بنا عبد الكريم بسرعة جنونية مذهلة قاصمة للرقاب منحدر التل (ولحسن حظنا ان الدرب كانت ممهدة تغطيها الرمال) . وبقينا نضرب في هذه الدرب المنحدرة مدة نصف ساعة من ليل بهيم . وأخيراً استوت بنا الطريق واستقامت فوجدنا أنفسنا أمام بستان نخيل من بساتين « نخيل المبارك » العائدة إلى عشيرة جهينة . وعندما اقتربنا من هذا البستان رأينا ألسنة اللهب تندلع من النخيل وأعمدة الدخان ترتفع عالياً

في السماء ، وسمعنا أزيز الرصاص يلعلع في الفضاء ورغاء الجمال يتدحرج مع نسمات الهواء ، وصرخات رجال تنطلق في ظلال الليل كأن أصحابها ضالون عن رفاقهم . وبدا لنا الأمر غريباً ، لا بل عدائياً ، إذ كنا نعلم في ينبع بأن هذا البستان قد هجره أصحابه منذ زمن . فزحفنا بهدوء على درب علا جانبيها جداران واطئان من الطين حتى وصلنا إلى مجموعة من بيوت هادئة ساكنة فدفع عبد الكريم باب أول بيت صادفناه إلى يسارنا ، وأدخلنا إلى باحته وعقل رواحلنا إلى جانب الجدار . ثم ألقم بندقيته عياراً وتسلل إلى الدرب ليستطلع لنا حقيقة الامر .

أما نحن فجلسنا ننتظره والليل البارد يلسعنا بسياطه وعرقنا يجفّ رويداً رويداً في ملابسنا . وعقب نصف ساعة من الزمن عاد الينا عبد الكريم ليقول بأن فيصل قد وصل منذ لحظة مع جنود هجانة وان علينا ان نذهب لنلتحق به . فقدنا جمالنا خارج الباحة وامتطيناها وسرنا على درب صغيرة أقيمت على أحد جانبيها المنازل وشمخت أشجار النخيل بتيجانها على الجانب الآخر الواقع إلى يميننا . وانتهت بنا هذه الدرب إلى ساحة تختلط فيها الجمال بالرجال على صورة من فوضى جنونية والجميع يرسلون الصوت عالياً .

شققنا طريقنا بين هذه الجموع وانحدرنا فجأة إلى وادي ينبع وهو واد عريض لا نخمن عرضه إلا بواسطة النيران التي رأيناها تتصاعد في الليل خطوطاً من على جانبيه اللذين تفصل بينهما مسافة طويلة . وكان هذا الوادي شديد الرطوبة أيضاً بسبب السيول التي امتطته إلى البحر منذ يومين . وقد وجدت رواحلنا في الطين منزلقاً فأخذت تسير بجبن وتردد . ونحن لم نكن تتاح لنا الفرصة لمشاهدة أي شيء ما عدا رجال فيصل يملأون الوادي من جانب إلى جانب . فهنا المئات من النيران تلتهم الاخشاب ويجلس حولها بعض العرب يعدون

القهوة أو يأكلون . بينما التف غيرهم بعباءاتهم والتصق بعضهم ببعض واستسلموا لسبات عميق ، في زحام الجمال وفوضاها . ولقد جعل عدد الجمال الغفير جمعها غير قابل للوصف ، فالجمال كانت تغطي الارض وقوافل غيرها لا تزال تترى بينما كان بعضها يقفز بأرجل ثلاثة محاولة الالتحاق بالقوافل القادمة وهي ترغي وتزبد .

ورأينا الدوريات العسكرية تخرج لتستطلع ، وبغال الفوج المصري تضرب الارض بأقدامها غاضبة ، فشققنا طريقنا خلال هذه الضوضاء التي تصمّ الآذان . وفي جزيرة من الهدوء والسكون تقع في مجرى الوادي وجدنا الشريف فيصل . فأوقفنا رواحلنا إلى جانبه ورأيناه يتربع على بساط فرش على الحجارة ، ويجلس بين الشريف شرف قائمقام الامارة والطائف معاً وبين مولود مخلص الوطني العراقي الاشعث الذي تتقاطع في جسده خطوط رسمتها المعارك بأقلام المجد . وقد ركع أمام فيصل سكرتير يتلقى ما يمليه عليه من أوامر . ووراء هذا السكرتير وقف سكرتير آخر يقرأ بصوت عال على ضوء مصباح فضّي يحمله أحد العبيد تقريره .

كان الليل فاقد النسمات . فالهواء الثقيل وألسنة اللهب تنتصب متصلبة في الظلام لا تنثني أو تميل ، وفيصل الهادئ المطمئن كعادته يبسم لي مرحباً وهو يتابع املاءه . ثم وقف ليصافحني ويدعوني إلى الجلوس ويعتذر لي عن هذا الاستقبال ويشير بيده إلى العبيد ليغادرونا . وعندما انسحب هؤلاء أقبل علينا جمل في حالة من هياج شديد يرغي ويزبد فهبّ مولود مخلص وتقدم نحو الجمل وأمسك براسه يدفعه إلى الوراء . غير ان الجمل هو الذي ألقى بمولود أرضاً واتبعه بأن تحرر من حمله فغمرنا بالاعشاب المعدّة علفاً للجمال فما كان من فيصل إلا أن قال باتزان :

— « نحمد الله ونشكره على ان حمل هذا الجمل لم يكن زيداً أو

أكياس ذهب . »

ثم أخذ يشرح لنا الاحداث غير المنتظرة التي وقعت في الجبهة خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية . فقال ان الاتراك تسللوا من وراء الحاجز الذي أقامته قوات العشائر في وادي صفرا بواسطة درب جانبية متعرجة في التلال . وبذلك قطع الاتراك خط الرجعة على العشائر . ولما أدرك المقاتلون من عشيرة حرب حقيقة حالهم ساد صفوفهم ذُعر شديد وانتابهم قلق بالغ . فذابوا إلى جماعات صغيرة لا يتجاوز عدد الواحدة منها ثلاثة رجال وولوا ظهورهم لسياط الفرار فتدفق رجال الخيالة الاتراك على الوادي الخالي من المقاتلين متسابقين سالكين دربي دهفرين إلى موقع بئر سعيد حيث استطاع قائدهم غالب بك ان يباغت الشريف زيد نائماً في خيمته . لكن الشريف زيد انذر في الوقت المناسب واستطاع بمساعدة الشريف عبد الله بن ثواب المقاتل الباسل من آل حارث ان يوقف هجوم الاتراك المدة التي تمكنه من الرحيل بخيامه ومتاعه . وأخيراً لاذ زيد نفسه بأذيال الفرار وتشتتت قواته وأخذت تهيم على وجهها باتجاه ينبع . وبذلك أمسى الطريق مفتوحاً أمام الاتراك . وهذا مما دعا فيصل ان يقصد على وجه السرعة هذا المكان ومنذ اربع وعشرين ساعة فقط مع خمسة آلاف مقاتل كي يحول دون سقوط قاعدته في ينبع ويكسب من الزمن ما يمكّنه من اعداد خطوط دفاعية حصينة .

ثم أردف فيصل يقول بأن جهاز استخباراته قد أصبح جهازاً فاشلاً لأن عشيرة حرب قد فقدت مقدرتها على التجسس ليلاً ، فأفرادها يرفعون اليه التقارير المتعارضة والمعلومات المتناقضة عن القوات التركية وتحركاتها ونواياها . وهو لا يعرف ما إذا كان الاتراك سيتجهون نحو ينبع أم سيكتفون بالمحافظة على المسالك التي تربط وادي ينبع بوادي صفرا . لذلك وجد فيصل ان أحسن ما يستطيع عمله في مثل

هذه الظروف هو ان يأتي بقواته إلى موارد المـاء كي يجتذب القوات التركية ويعطلهـا لبضعة أيام بينما نقوم نحن بتحصين ينبع .

وعلى كل حال فأن تدبير فيصل هذا كان تدبيراً حكيماً وبدا هادئاً متفائلاً . وهكذا جلست أصغي إلى أخبار العرب أو بالأحرى طلباتهم وشكاواهم ومصاعبهم . وكان الشريف شرف طيلة الحديث يمسك بالمسواك ويداعب بـه لثتيه يمنة ويسرة . وقـد تكلم مرة أو مرتين خلال ساعة واحدة . أما مولود مخلص فـكان دائماً يمـد بعنقه مـن فوق فيصل ليضيف بعض الامور التي قـد تُساعد على اعداد الهجوم المعاكس .

امتدت محادثاتنا حتى الساعة الرابعة والنصف صباحاً وبدأنا نشعر ببرودة شديدة نفذت بهـا الرطوبة من البساط إلى ملابسنا . وأخـذ الرجال المتعبون يغطون في نومهم والجمال المنهوكة تحذو حذوهم . فهدأ المعسكر وتجمعت فوقهم سحب ضباب أبيض وبدت النيران من خلال هذا السحب كأنها أعمدة من دخان . ومن ورائنا ظهر جبل رضوى يشد بقامته المديدة مرتفعاً فوق سحب الضباب ، فبدا لناظرينا أكثر انحداراً اشعث أغبر وقد حمله نور القمر مقترباً به الينا حتى خيل لنا انه قد علقه أخيراً فوق رؤوسنا .

أنهى فيصل أعماله العـاجلة وتناول كل واحد منا حفنة من تمر ثم تمددنا ملتفين بعباءاتنا فوق البساط . وعندما كنت اضطجع مرتجفـاً رأيت حرس فيصل عندمـا تأكدوا من نومه يزحفون نحوه وينشرون بلطف عباءاتهم عليه . وعقب مضي ساعة من الزمن استيقظنا جامدي الاطراف فتراكض العبيد نحونا وأضرموا النار بأغصان النخيل لنتدفأ عليها بينما قمت والشريف شرف نفتش عن الطعام والحطب .

كان الرسل لا يزالون يتوافدون على فيصل من جميع الجهـات يحملون الينا اشاعات آثمة تقول بأن الاتراك قـد باشروا هجومهم فساد

المعسكر شيء من الرعب والهلع . وعزم فيصل على الانتقال إلى مركز آخر . وكان رحيلنا أمراً ضرورياً فالوادي إذا ما سال فأنه سيغرقنا ويجرف متاعنا .

وما كادت الطبول تقرع حتى سارع الجنود إلى تحميل جمالهم ومن ثم قفز كل رجل إلى صهوة جواده وتفرقوا يمنة ويسرة تاركين فيصل تحمله فرسه ومطية الشريف شرف على قيد خطوة منه ، ومن خلفه علي النجدي حامل اللواء ووجهه وجه صقر تسترسل ضفائره السوداء على وجنتيه وتغطي جسده ملابس زاهية غالية الثمن .

كان عدد الحرس الخاص ذاك الصباح يبلغ ثمانمئة رجل .

أخذ فيصل يفتش عن مكان يصلح لاقامة معسكره عليه . وأخيراً وقع اختياره على واد صغير مكشوف يقع إلى الشمال من بساتين نخيل قرية « مبارك » . وكانت معظم بيوت هذه القرية مدفونة بالبساتين فلم نتمكن من مشاهدة سوى القلة منها . وضرب فيصل خيمتيه البسيطتين على الضفة الجنوبية للوادي . وكان للشريف شرف خيمته الخاصة أيضاً وقد شاركه بعض شيوخ العشائر إياها . وأقام الحرس مظلاتهم حولنا . اما الجنود فزرعوا خيامهم العشرين البيضاء في نظام عسكري بديع . وهكذا أمسى جمعنا عقب هنيهة غفيراً .

١٩

أقمنا مدة يومين في ذلك المكان . وقد أمضيت معظم الوقت مع فيصل . واستطعت لذلك أن أكتسب المزيد من الخبرة والمعرفة بأساليبه الخاصة في القيادة ، وشعرت بالجهود الحثيثة التي يبذلها لرفع معنويات

رجاله . فهو يعبر المنهار منهم قبساً من روحه ويفتح بابه أمام كـل طارق يرغب في مقابلته . وكان إذا لم يستطع ان ينهي المشكلة بنفسه يستدعي اليه الشريف شرف أو فايز ليضعا لهـا حلاً . هذا وقد علمني صبره اللامتناهي درساً جديداً وأفهمني معنى الزعامة في البلاد العربية . أما كبحه لجماح نفسه فكان عظيماً كصبره . وعندما جاءه مرزوق الكحيمي لينهي اليه نبـأ هزيمة أخيه زيد المشينة قهقه ضاحكاً أمام الجمع وأرسله خارج خيمته وتابع حديثه الهادئ مـع شيوخ عشيرة حرب وعقيل الذين يعتبرون المسؤولين الرئيسيين عن هذه الهزيمة . ولم يتعدّ حديثه مع هؤلاء الشيوخ العتاب . ولكن بعد أن خرجوا من حضرتـه استدعى مرزوق إلى خيمته وأنزل ستائرها .

لقد فكرت آنذاك وأنا أجلس بالقرب من فيصل بما يعنيه اسم فيصل (السيف القاطع بضربة واحدة) وخفت هذا المنظر ، لكن فيصلاً أفسح لمرزوق مكاناً على بساطه وقال له :

— « هيا أعطنا المزيد من أخبار لياليك وارو لنا عجائب المعـارك ورفّه عنا . »

فأخذ مرزوق الجميل الطلعة الذكي الاريب ينسجم مع ما أراده فيصل ويرسم لنا بلهجة عشيرة عتيبة صوراً لفرار الفتى زيد ويصف لنا رعب ابن ثواب ذاك اللص المشهور ومنظر حسين والد الشريف علي الحارثي بعد أن فقد أباريق قهوته .

كان صوت فيصل ذا جرس موسيقي عذب . وكان لذلك يستعمل هذا الجرس بعنـاية فائقة مع رجاله ، فهو يتحدث اليهم بلهجتهم القبلية ولكن بنغمة مترددة غريبة كأنه يتعثر بين الجمل مفتشاً عن الكلمة التي تؤدّي ما يعنيه . كان في امكانه ان يجعل من الكلمات ستاراً شفافاً يمكن المرء ان يرى بوضوح من ورائه الروح الطاهرة المقدامة التي تشع في كلماته .

وكان في بعض الاحيان يتدفّق بالمرح ، هذه الصفة البارزة في شمائل العرب . فلقد تحدث في إحدى الليالي إلى بعض شيوخ عشيرة « رفاعة » الذين كان يريد ان يدفع بهم لاحتـلال سهل يقع بالقرب من « بئر الفقير » . وكان هذا السهل تكتنفه أدغال السنط وغابات الاثل . وقال لهم بلطف ان الاتراك سيتقدمون في هذا السهل وان عليهم ان يوقفوا تقدمهم وان ينتصروا عليهم بأذن الله . ثم أضاف ان النصر سيصبح مستحيلاً فيما إذا استغرقوا في النوم . وهنا انفجر الرجال المتقدمون منهم في السن بحديث مرح بهيج ، وابتهلوا إلى الله أن يطيل عمره ويجعل حياته مليئة بالانتصارات . ولم يكن منهم إلا ان ذهبوا وقاموا بتلك المهمة مستيقظين لا يعرف النوم إلى أجفانهم سبيلاً .

كان نظام حياتنا في المعسكر بسيطـاً . ففي الفجر يصعد الامـام رأس تلة ويدعو الجنود إلى الصلاة . وكان صوته جهورياً خشناً يردده بطن الوادي فنستيقظ من رقادنا لنصلي ، وبعد أن ينتهي الامام من اداء الاذان يتقدم من خيمة فيصل ويوقظه بصوت عذب موسيقي ثم يدخل خيمتنا عبيد فيصل الخمسة (وهؤلاء جميعاً عتقاء غير أنهم يرفضون التخلي عن خدمـة سيدهم . وكما قال لي أحدهم : « ان خدمتي لفيصل عملٌ طيب . ») وهم يحملون الينا القهوة الممزوجة بالسكر .

وبعد ساعة من الزمن ترفع الستائر للحاشية عن خيمة نوم فيصل . وهذا العمل بمثابة الدعوة فيجتمع اربعة رجال أو خمسة وتتلى أخبـار الصباح . ومن ثم يحضر العبيد طعام الافطـار وكان التمر صنفاً دائماً وفي بعض الاحيان ترسل الينا والدة فيصل الشركسية من مكة ببعض الكعك الشركسي المشهور المليء بالبهارات وأحياناً أخرى يقدم الينا هجرس خادم فيصل الخـاص بسكوتياً غريب الصنع والمذاق أو بعض نتائج تجاربه في هذا الحقل . وبعد تناول طعام الافطار تُدار علينا القهوة

المرّة والشاي . وذلك بينما يملي فيصل على أمناء سره الرسائل والاوامر . وكان فايز الغصين المغامر أحـد سكرتيريه . وهناك آخر يدعى ايمان وهو رجـل كئيب الشكل حزين الوجه مشهور بين أفراد الجيش بمظلته التي تتدلى من قبته . ويحدث أحياناً ان يسمح لأحدهم بمقابلة خاصة مع فيصل ، غير ان هذا الامر كان نادراً وذلك لأن خيمة الشريف كانت مخصّصة فقط لاستعماله الذاتي . وكانت هذه الخيمة عادية جداً فرشت فيها سجادة من الطراز الشيرازي الرخيص يحيط بهـا اعقاب سجائر [١] وأخرى للصلاة بديعة الصنع زاهية الالوان . وعندما تبلغ الساعة الثامنة صباحاً يشد فيصل الخنجر بحزام حول وسطه ويقصد خيمة الاستقبال ويتربع في صدرها متجهاً نحو مدخلها ، أما نحن فنجلس في شبه دائرة حوله بينما يقف العبيد في المؤخرة متجمعين حول رواقهـا المرفوع لمراقبة المتسولين الذين يجلسون امام فوهة الخيمة أو وراءهـا منتظرين دورهم للحصول على ما يجود بـه فيصل عليهم .

وكان فيصل إذا ما تمكّن من انهـاء عمله قبيل الظهر غادر خيمة الاستقبال إلى خيمته الخـاصة حيث كنا نلحق به نحن رجال الحاشية وبعض الضيوف ، ثم يدخـل علينا هجرس وسالم وهمـا يحمـلان طبقاً وضع عليه طعـام غدائنا وكان عدد ألوانه يخضع للظروف .

كان فيصل يدخن بشراهة غريبة ويأكل بشهية ضعيفة جداً . فكان يداعب الارز والعدس واللحم والكعك بأصابع يده حتى يشعر بأننـا شبعنا . ثم يشير بيده نحو العبيد فيختفي الطبق ويتقدم خدم آخرون يحملون أباريق الماء لنغسل أيدينا أمام باب الخيمة .

وطريقة فيصل السريعة في تناول الطعام جعلت رجالاً مترهلي الاجساد كمحمد بن شفعة يجأرون بالشكاوى المضحكة ويقبلون عقب مغادرتهم لفيصل على تناول الطعام من جديد .

١ – اشارة الى افراط المرحوم الملك فيصل الاول في التدخين . (المعرب)

وبعد تناول الغداء كنا نجلس نتحدث إلى فيصل والعبيد يديرون علينا القهوة العربية وكؤوس شراب له لون الشاي . وعندما تقارب الساعة الثانية كنا نغادر خيمته فيتزل الخدم ستائرها كعلامة على ان فيصلاً ينام أو يقرأ أو يقوم بعمل خاص . وعندما كانت ترفع الستائر كان فيصل يغادر خيمة نومه إلى خيمة الاستقبال ويجلس فيها حتى يبتّ في أمور مراجعيه . ولم يسبق لي ابداً ان رأيت عربياً يغادره غاضباً أو متألماً . وذلك كله بفضل ذاكرته وحصافته فهو كما بدا لي لا يتوقف أبداً بسبب فقدانه للحقائق ولا يتعثّر بأية عقبة .

وكان إذا ما توفّر لديه بعض الوقت عقب جلوسه الثاني للناس يخرج وأصدقاءه في نزهة قصيرة يتحدث وإياهم عن الخيول والنباتات أو يتفقدون الجمال . وعندما يحين وقت صلاة المغرب كان فيصل يؤدّيها جماعة مع انه لم يكن ميالاً للمظاهر الدينية . وعقب الصلاة كان يقابل كل شخص على حدة ويضع معهم خطط الاستطلاع ويسير الدوريات لأنه كان يقوم بمعظم أعمال الميدان في ظلام الليل .

وكان العبيد يحضرون بين الساعة السادسة والسابعة طعام العشاء ويدعون جميع الحاضرين في مركز القيادة العامة لتناوله . وكان عشاؤنا لا يختلف في ألوانه عن طعام الغداء إلا في لون واحد هو الخروف المطبوخ المتربع فوق طبق ضخم من الارز . وكنا نحافظ على الصمت حتى ينتهي الجميع من الاكل ، وهذه الوجبة كانت تنهي يومنا . وذلك إذا ما تغاضينا عن كؤوس الشاي التي كان يقدّمها الينا عبد حافي القدمين عقب طعام العشاء . وكان فيصل ينام في وقت متأخر من الليل .

وكنا نجلس اليه . ولم اشهد يوماً بادرة واحدة منه تستعجلنا لمغادرة خيمته ، فمن عادته انه كان يرتاح ليلاً ويتجنب كل عمل مشبوه ، وكثيراً ما كان يستدعي إلى خيمته ليلاً شيخ العشيرة المخيمة في المنطقة

التي يعسكر فيها ويطلب منه أن يقصّ عليه قصص منطقته أو يروي له تاريخ عشيرته وانسابها ، أو يستحضر شاعر العشيرة لينشده قصائد عشيرته الحربية . وكانت هذه القصائد حافلة بالنعوت والعواطف تصف الاحداث التي مرّت بكل جيل . كان فيصل يتعشق الشعر العربي ويتذوقه وكثيراً ما كان يقاطع الشاعر ليبدي حكمه على بعض الابيات .

وكان من النادر ان يلعب الشطرنج بامتياز . وفي بعض الاحيان كان يروي لي وربما بغية زيادة معلوماتي منا شاهده في سوريا ونتفاً من تاريخ تركيا السرّي . ويحدثني عن بعض الامور العائلية . وقد علمت منه مباشرة خفايا الكثيرين من رجال الحجاز وأحزابها .

٢٠

سألني فيصل فجأة عما إذا كنت أرغب في ارتداء ملابس عربية كملابسه طيلة وجودي في المعسكر . وطبعاً رأيت ذلك فكرة تناسبني ، فالثياب العربية مريحة وتلائم الطراز العربي من الحياة التي يتوجب عليّ أن أعيشها الآن . أضف إلى ذلك ان رجال العشائر تعوّدوا أن يروا الضباط الاتراك وحدهم في الزي الخاكي . لذلك كانوا ينفرون من هذا الزي ومن لابسه . وأنا إذا ما ارتديت الزي « المكي » فأن رجال العشائر سيعاملونني كما لو انني أحد رؤسائهم . وفي امكاني عندئذ ان أتسلّل إلى خيمة فيصل وأدخل اليها دون ان أثير فضول الناس والفت أنظارهم ، الامر الذي كان عليه ان يشرحه للغرباء كل مرة . لذلك

قبلت فوراً بما عرضه عليّ فيصل بغبطةٍ وسرور .

سُرّ هجرس أيضاً بقبولي لما عرضه عليّ فيصل . وأخذ يكد خياله ويجهد ذوقه ليخرجني أنيقاً في ثوب حريري أبيض طويل وحلة تتخللها خيوط ذهبية كانت قد أهدتها إلى فيصل عمته لمناسبة زواجه (لا أدري ما إذا كان هذا تلميحاً منه ؟) .

ارتديت ملابسي الفضفاضة الجديدة وقمت بجولة حول بساتين نخيل قرية « مبارك » و « بورقا » كي أعتاد الشعور الجديد التي تبعثه في نفسي . وكانت هاتان القريتان الصغيرتان جميلتين تسران الناظر . وقد بنيت بيوتهما من لبنات طينية تحيط ببساتين النخيل احاطة السوار بالمعصم . وكانت قرية « مبارك » تقع شمالاً ويفصلها من الجنوب وادي مليء بالاشواك عن قرية « بورقا » . وكانت منازل هاتين القريتين صغيرة كلست بالطين جدرانها ، رطبة ونظيفة جداً . وقد أثث كل منزل بحصيرتين وأباريق القهوة وأواني الطعام والاطباق . وكانت تظلل الدرب الضيق أشجار باسقة . وكانت السدود التي تحيط بالاراضي المزروعة تبلغ أحياناً خمسين قدماً ارتفاعاً وقد بنيت هذه السدود من الاتربة الفائضة المنتزعة من أحواض النخيل ومن نفايات البيوت المجاورة التي جمعها الوادي وأقيمت ضفافاً لتحمي المزروعات من الفيضان ، ولولاها لغمر وادي ينبع البساتين لأن ارواءها يتطلب أن تكون دون مستوى مجراه . وقد أحيطت كل قطعة من الارض بسور صنع من سعف النخل أو بُنِيَ من الطين . وكانت تحيط بهذه الاسوار جداول توزّعت في شبكة من الاقنية الضيقة تجري فيها المياه العذبة . وأقيم باب كل بستان على ضفة الجدول وكان يصله بالضفة الاخرى جسر بُنِيَ من سعف النخل تعبر الحمير والجمال عليه إلى البستان . وكان لكل قطعة أرض سكر ترابي يُرفع عندما يحين دورها لتروى .

وكان من عادة أهل هاتين القريتين أن يزرعوا تحت ظلال النخيل

الشعير والفجل والبطيخ والخيار والتبغ والحناء . اما القرى الاخرى الواقعة في مرتفعات وادي ينبع فكان طقسها من البرودة بحيث يمكّنها من زراعة الكروم .

كنت أعلم ان اقامة فيصل في قرية « نخل مبارك » وقتية ، لذلك عزمت على السفر إلى بلدة ينبع لأفكّر جدياً بأسباب الدفاع البحرية عن هذا المرفأ . وقد وعدتنا وزارة البحرية بتقديم كل عون لازم لنا . واتفقت مع فيصل على أن أتشاور والشريف وان أتعاون وإياه على تنفيذ ما نرى واجباً تنفيذه .

أعطاني فيصل جملاً بديعاً أحمر امتطيه في سفري إلى ينبع فأخذنا نضرب في تلال « عَيْدَة » سالكين درباً جديدة هي وادي « مَتراح » . وذلك بسبب خوفنا من الدوريات التركية التي كانت تسيرها قيادتها على الطريق الرئيسي المباشر . وكان رفيق طريقي بدر بن شفعة . وقد قطعنا المسافة براحة خلال مدة لا تتجاوز ست ساعات ، حيث وصلنا إلى ينبع قبيل الفجر . ونظراً لتعبي الناشيء عن مهام شحنت بالعمل قصدت منزل « جارلاند » الحالي (كان يسكن على ظهر باخرة المرفأ) ونمت على مقعد مستطيل نوماً عميقاً استيقظت منه على نبأ يقول ان قوات الشريف زيد تصل تباعاً إلى ينبع ، فغادرت المنزل لاشاهد جنوده المهزومين يدخلون البلدة . رأيت ثمانمئة جندي يسيرون صامتين غير متأثرين بعار الهزيمة ، وشاهدت اللامبالاة ترتسم على وجه الشريف زيد الذي ما كاد يدخل المدينة حتى التفت نحو عبد القادر وصاح به :

— لماذا تبدو مدينتك خربة متهدمة ؟ يجب عليّ أن أبرق إلى والدي ليرسل اربعين معمارياً لاصلاح البنايات العامة .

وهذا ما فعله حقاً .

أبرقت إلى كابتن « بويل » أقول ان مدينة ينبع مهددة تهديداً خطيراً

فأجابني فوراً بأن اسطوله سيصل في الوقت المناسب ، وربما قبل ذلك . واستعداد الاسطول كان خبر عزاء لنا غير ان أخباراً سيئة وردت علينا في اليوم التالي . فلقد وجّه الاتراك ضد فيصل قوة عسكرية كبيرة واشتبكت معه في « نخل مبارك » وهو لما ينجز استعداداته بعد ، فاضطر إلى التراجع نحو ينبع . وقد بدا لي آنذاك ان حربنا قاربت فصل الختام ، فأخذت آلة التصوير والتقطت صورة جميلة للاخوين وهما يدخلان المدينة وشاهدت فيصلاً يسير على رأس عدد من الجند يقارب الالفين ، غير انني لم أرَ احداً من رجال عشيرة جهينة . فسارعت حالاً إلى زيارة فيصل الذي أخذ يروي لي الحدث ، فقد هاجمته ثلاثة أفواج تركية وعدد من المشاة راكبي البغال والجمال . وكانت هذه القوة بقيادة غالب بك الذي قاد المعركة بذكاء وفطنة وباشراف القائد العام للجيش التركي في الحجاز فخري باشا الذي رافق الحملة . وكان مرشده ووسيطهُ بين العشائر دخيل الله القاضي جهينة ومنافس الشريف محمد علي البيضاوي والرجل الثاني في العشيرة .

وقد استطاعت القوة التركية أن تبلغ قرية « بوركا » في اندفاعها الاول . وبهذا هددت خطوط مواصلات فيصل إلى ينبع . وتمكنوا أيضاً من قصف قرية « نخل مبارك » بالمدافع . عندئذ أرسل فيصل بالمدفعية المصرية إلى جبل عكيرية كي تحول دون سقوط هذا الموقع بأيدي الاتراك . ثم قصف قرية «بوركا» بالمدفعَين اللذين يملكهما وهما من عيار (١٥) رطلا . وكان راسم الضابط الطوري وآمر البطارية السابق في الجيش التركي هو الذي يتولى اطلاق هذين المدفعين . وقد أبلى البلاء الحسن على الرغم من ان المدفعين كانا باليين .

ولما كان راسم يعرف انه لن يستطيع نقل ذخيرة المدفعين في حالة تراجع فيصل ، لذلك أسرف في استعمال القنابل وهو يدفعها بصياحه

وضحكاته . ولما رأى رجال العشائر ان الضابط مغتبط مرح مسرور ارتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يهاجمون الجند التركي بضراوة وعنف، وبدأت الامور بالتحسن وأمل فيصل في نصر حاسم . وإذ بميسرته تترنح فجأة ثم تتوقف ، وأخيراً تولي أدبارها للعدو وتعود إلى أرض المعسكر بصخب ، فعدا فيصل نحو راسم وصاح به قائلاً :

— ان جموع جهينة قد خانتنا وعليك ان تنقذ المدفعين بأي ثمن .

فانسحب راسم بالمدفعين إلى وادي عقيدة ، واندفعت وراءه جموع عقيل وعتيبة ورجال ابن شفعة . وشكل فيصل وحاشيته مؤخرة الجيش المهزوم وسارت مواكبهم تقصد ينبع مخلفين وراءهم عشيرة جهينة والاتراك .

بينما كنت أستمع إلى هذه النهاية المحزنة حدثت جلبة امام الباب وإذا بعبد الكريم البيضاوي يقتحم مجلسنا ويقبل على رأس فيصل مقبّلاً ومسلماً ثم يجلس إلى جانبنا .

أخذ فيصل يحدّق فيه ، ثم سأله :

— « كيف الحال ؟.. »

فبدأ عبد الكريم يعبّر لفيصل عن استياء عشيرته من هربه المفاجيء ، وروى له كيف انه مع أخيه والمقاتلين الشجعان من أبناء عشيرته أمضوا طوال الليل في اشتباكات متواصلة مع الاتراك دون مساندة المدفعية . وأخيراً بعد أن أصبحت البساتين اثراً بعد عين أرغموا على التراجع إلى وادي عقيدة . وأردف يقول : إن أخاه يدخل بهذه اللحظة أبواب ينبع على رأس قسم من رجاله وان القسم الآخر قد عرج على وادي ينبع طلباً للماء .

وهنا سأله فيصل :

— « ما سبب تراجعكم إلى أرض المعسكر أثناء المعركة ؟ »

فأجابه عبد الكريم :

ـ « لقد تراجعنا كي نُعدّ لأنفسنا فنجاناً من القهوة فقط . فنحن حاربنا منــذ شروق الشمس حتّى الغسق لذلك كنا عطشى متعبين : »

فأغرقتُ وفيصل في الضحك حتّى استلقينا على ظهرينا . ثم أخــذنا نفكر بما يجب عمله لأنقاذ بلدة ينبع .

كانت الخطوة الاولى بسيطة . فلقد اعدنا جميع رجال عشيرة جهينة إلى وادي ينبع وأصدرنا اليهم أوامرنا بالاحتشاد في موقع « الخيف » ومتابعة الضغط على خطوط المواصلات التركية . وطلبنا اليهم أن يرسلوا القناصة إلى تلال عقيدة إذ ان خطتنا كانت ترمي إلى ارغام الاتراك على توزيع قواتهم كي يعجزوا عن التقدم نحو ينبع بقوات تفوق القوات المدافعة .

وفي هذه الاثناء أخذت المدافع تصل الينا تباعاً و « بويل » الذي كانت دائماً أعماله تسبق أقواله حشد خمس سفن في الميناء خلال مدة لا تتجاوز الاربع والعشرين ساعة .

سُرّ العرب واغتبطوا بمرأى السفن وأخذوا يعدونها وهي ترسو في المرفأ وكانوا على استعداد للقيام بدورهم في المعركة وملأوا صدورنا أملاً بثباتهم .

وكي نزداد ونزيدهم ثقة أخذنا ندعم سور البلدة بسور آخر ، وجعلناه من القوة بحيث صعب على رصاص البنادق وحتّى قنابل المدافع الجبلية اختراقه . ثم اقمنــا اعشاشاً للمدافـع الرشاشة في الزوايا الممتازة .

أما « جارلاند » فكان لنا آنذاك بمثابة كبير المهندسين :

غربت الشمس وساد البلدة ترقب ، فالنهار الذي كان يصخب بضوضاء العمال ولعلعة العيارات النارية الـتي تُطلق ابتهاجاً ولّى وجاء الليل صامتاً . غير ان النوم لم يعرف سبيله إلى أجفاننا . وفي الساعـة الحادية عشرة أُنذرنا بأن دورياتنا الامامية قـد التقت بالعدو على بعد

ثلاثة أميال من المدينة ، فخرج « جارلاند » بمكبر الصوت إلى الشوارع وأخذ ينبّه الحامية وينذرها فغادر كل جندي منزله والتحق بمركزه هادئاً . وارسل رجال البحرية في المنارة انذاراً إلى السفن فأخذت هذه تكنّس السهل بأضواء كشافاتها وتحدد لنا الاماكن التي يحتمل أن يهاجمنا العدو منها . ولكن لم تبدر من الاتراك بادرةٌ واحـــدة تدعونـا إلى اطلاق النار .

وقد أخبرني دخيل الله فيما بعد انه قد قـاد الاتراك إلى اسوار ينبع كي يواجهوا الضربة القاضية ، لكنهم عندما وجدوا البلدة ساكنة سكون الموت ورأوا السفن ترسل بأنوارها لتكشف الزوايا المعتمة التي يريدون أن يتسللوا منها خانتهم أعصابهم فانسحبوا بقواتهم عائدين . وهكذا خسروا تلك الليلة حربهم في الحجاز .

٢١

مرت الازمة في اليوم الثاني بسلام . واتضح ان الاتراك قد فشلوا فشلاً ذريعاً ، وأبدت عشائر جهينة نشاطـاً ضد الجناح التركي في وادي ينبع .

وكان جواب السير « ارشبالد موري » على رسالة فيصل التي طلب فيها منه ان يمنع سحب قوات تركية من جبهة سيناء وارسالها إلى الحجاز جواباً مرضياً ومشجعاً . وبهذا تنفس كل منا الصعداء . وعقب أيام سحب « بويل » سفنه واعداً إيانا بالمجيء حالمـا نطلب منه نحن ذلك ، فاغتنمت الفرصة لأقلع إلى رابغ حيث قابلت فيها الكولونيل « بيرموند » ذا اللحية الطويلة ، والجندي الاصيل الوحيد في الحجاز . وكـان

الكولونيل « بيرموند » لا يزال يستعمل فوجه المعسكر في السويس كمحاولة لدفع بريطانيا إلى انزال لواء بريطاني في رابغ ، ولما كان يشك في نياتي فقد بذل جهداً بالغاً لاقناعي بمشروعه وكسْبي إلى صفه .

وخلال حديثي مع الكولونيل بيرموند أثبت له أهمية سقوط المدينة المنورة بأيدي قوات فيصل . وهنا ثار في وجهي قائلاً بأنه ليس من الحكمة ان يستولي العرب على المدينة ، فهو يرى أن الحركة العربية قد بلغت ذروتها في احتلالها لمكة وفي العمليات العسكرية التي تقوم بها . لذلك فهو يرغب في انزال القوات المتحالفة في رابغ كي يخمد حماسة العشائر ويجعل الشريف حسين مشبوهاً في نظرها . وعندئذ تصبح القوات الاجنبية القوة الرئيسية في الحجاز حتى نهاية الحرب . وعندما تهزم تركيا ترغم على ابرام معاهدة يتنازل فيها عن المدينة للشريف حسين والاعتراف بالسيادة القانونية للحجاز مكافأة له على خدماته للحلفاء .

لم أكن واثقاً ثقته بقواتنا التي تجعلنا نستغني عن حلفائنا الصغار ، لذلك قلت له باختصار انني أخالفه في رأيه مخالفة تامة ، وان سقوط المدينة ذو أهمية بالغة الخطورة وان على فيصل أن يستولي على الوجه كي نواصل تهديدنا للخط الحديدي الحجازي .

ثم أردفت قائلاً لبرموند :

— « إنني اؤمن بأنه لن يكون هناك أي مبرر لبعث الحركة العربية فيما إذا لم تحمل الحماسة العرب إلى الشام . »

لم يرحب بيرموند بقولي هذا . مع ان معاهدة سايكس — بيكو التي أبرمت بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٦ قد تم توقيعها بغية تحقيق هذا الامر .

لقد اشترط في تلك المعاهدة إقامة دول مستقلة في كل من مناطق

دمشق وحلب والموصل مكافـأة للعرب خشية أن تقع تحت رقابة فرنسا المقلقة .

وإذا كان سايكس وبيكو لم يؤمنا فعلاً بأنه في استطاعة العرب دخول الشام غير انني كنت مؤمناً بذلك . وكنت أعتقد بأن هذا الامر في حال حدوثه سيمنع أية دولة كانت : بريطانيا أم غيرها من تنفيذ مشروعاتها الاستعمارية الاستغلالية في غربي آسيا .

لجـأ « بيرموند » إلى بحث المسائل الفنية هرباً من أقوالي ، وأكّد لي مقسماً بشرفه العسكري كضابط ركن ان محـاولة فيصل الاستيلاء على « الوجه » عملية انتحـارية . لكنني لم أرَ مـا رآه وقد صارحته بهذا .

كان الكولونيل ككل مواطنيه رجلاً واقعياً في الحب والحرب. وحتى في الحالات الشعرية يبقى الفرنسي ثائراً لا يخطيء . فهو يهتدي بالنور المباشر للعقل والادراك ولا ينظر إلى الجوهر المشع للاشياء بعين مغمضة كما هي حال البريطانيين الخياليين . لذلك لم يحسن العنصران البريطـاني والفرنسي التعاون فيما بينهما لانجاز المهمة الضخمة التي أخذا على عاتقيهما انجازها . وعلى كل حال فلقد كبحت جماح نفسي فلم أطلع أحداً من العرب على ما دار بيني وبين الكولونيل « بيرموند » . لكنني كتبت تقريراً مطولاً عن مقابلتي وأرسلته إلى الكولونيل ولسون الذي كان سيتوجه قريباً لزيارة فيصل ومباحثته في موضوع الوجه .

عدّل الاتراك خطتهم العسكرية تعديلاً هاماً قبل وصول ولسون . ففخري باشا الذي رأى ان نجاحه في احتلال ينبع أمر لا أمل منه عزم على التراجع إلى بئر سعيد حيث ترك قوة صغيرة لاشغال عشيرة جهينة . ثم سار على رأس قواتـه الرئيسية سالكاً درب « السلطاني » باتجـاه « رابغ » .

وقد أدخل فخري باشا هذه التعديلات الاساسية على خطته بسبب

ما اجتمع لدى الشريف من قوات عسكرية لا يستهان بها . فعلي حالما سمع بهزيمة أخيه زيد أرسل اليه بالامدادات العسكرية والمدافع ، كما انه عندما بلغه نبأ انهيار جيش فيصل قرر أن يهاجم الاتراك في وادي صفرا ليحول دون وصولهم إلى ينبع .

كان الشريف علي يعمل على رأس جيش مؤلف من سبعة آلاف رجل . وكان فيصل يعتقد بأنهما إذا تحركا معاً فأن الجيشين سيطبقان عندئذ على قوات فخري باشا ، لذلك أبرق فيصل إلى أخيه علي يستمهله بضعة أيام حتى يتمكن من اعادة تنظيم جيشه المذعور .

غير ان علياً لم يكن يرغب في الانتظار ، لذلك أرسل فيصل أخاه زيداً إلى المسحالي في وادي ينبع ليقوم بالإعدادات اللازمة . وعندما انتهى زيد من مهمته أمره فيصل بالتوجه على رأس قوته واحتلال « بئر سعيد » وقام زيد بانجاز هذه المهمة أيضاً بنجاح .

وهنا أمر فيصل عشيرة جهينة بالتقدم لمساندة زيد . لكن عشيرة جهينة أبدت تردداً في تنفيذ أمر فيصل لأن ابن البيضاوي الذي شعر بنفوذ فيصل المتزايد بين عشيرته أراد ان يشعره بأنه رجل لا يستغنى عنه . فما كان من فيصل إلا أن امتطى راحلته دون رفيق وقصد قرية « نخل مبارك » واستطاع في ليلة واحدة أن يسيطر على الموقف .

وفيما كان فيصل يتحرك بقواته جاء نبأ من أخيه علي يقول بأنه عقب ان استولى على بئر « بن حصاني » ترددت على ألسنة قواته اشاعات كاذبة عن خيانة عشيرة صبح فانخلع قلب الجيش لها رعباً وتراجع دون ما نظام إلى رابغ . في لحظة الشؤم هذه جاءنا « ولسون » ليقنع فيصلاً بضرورة القيام بالهجوم فوراً على الوجه . واعلن انه قد أعد خطة لهذه العملية تقضي بأن يتوجه فيصل على رأس عشيرة جهينة وقواته النظامية الدائمة نحو الوجه للاستيلاء عليها .

كان نجاح هذه الخطة أمراً ميسوراً ، لكن بلدة ينبع تصبح في

حالة تنفيذهـا مجردة من جميـع وسائل الدفـاع . كما ان جيش أخيه علي لا يعتمد عليه في الدفـاع عن رابغ ضد هجمات تركية خطيرة .

لذلك تردّد فيصل . وكي يبدّد ولسون مخاوفه من سقوط رابغ أخذ يرسم صورة زاهية الالوان لحاميتها . فما كان من فيصل وهو يسمع وصف ولسون لقوات رابغ إلا ان طلب منه أن يؤكد له بشرفه أن باستطاعة حـامية رابغ بالتعـاون مع الاسطول البريطاني ان تصد الهجمات التركية .

أخذ ولسون يتلفت يميناً ويساراً مؤملاً في أن يجد له عضداً . وأخيراً أعطى بشهامة التـأكيد المطلوب . والحق انهـا كانت مقامرة حكيمة . فلولا التأكيد الذي أعطاه ولسون لما اتجه فيصل بجيشه إلى الوجه .

كان الهجوم على « الوجه » الفرصة الوحيدة أمام العرب لفرض حصار دائم على « المدينة » والقضاء نهائياً على تهديد الاتراك لمكة .

وعقب بضعة أيام تمكن « ولسون » من تقوية مركزه إذ أقنع الشريف حسين باصدار أوامره الصريحة إلى فيصل بالتوجه حالاً على رأس القوات الموجودة تحت امرته إلى الوجه .

كانت الحالة تزداد سوءاً في رابغ حيث قدر عدد القوات التركية الزاحفة على درب السلطان بخمسة آلاف رجل . اضف إلى ذلك ان عشيرة حرب الجنوبية التي كان يرأسها حسين مُبيْريك كانت تنتظر بخسة تقدم الاتراك لتهاجم مؤخرة جيش الشريف .

وفي ليلة عيد الميلاد اجتمع ولسون وبيرموند وجويس وروجي وآخرون في رابغ وقرروا انشاء مركز دفاعي على الشاطئ يكون تحت حماية الاسطول ويحرسه جنود الفوج المصري . وذلك كي يتيحوا في حالة سقوط رابغ لبحارة السفينة « منيرفا » نقل الاعتدة الحربية وتدمير المستودعات .

كان الاتراك يتقدمون نحو رابغ خطوة اثر خطوة . وفخري باشا الذي كان بطيئاً في زحفه لم يتعدّ مركز بئر الشيخ بقوة ضخمة إلاّ في نهاية الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني وعقب ذلك بسبعة أيام لم يكن أيضاً مستعداً لمهاجمة الحربية التي كانت مركزاً أمامياً يحرسه بضع مئات من رجال الشريف علي .

والحق ان الاتراك كانوا يجابهون آنذاك صعوبات غير منتظرة . فالامراض كانت متفشية بين جنودهم . وكانت رواحلهم وبغالهم منهوكة تعبة . وفوق ذلك كله كانت العشائر المعادية تشن عليهم الغارات ليلاً . وكان محصول ذلك يومياً عشرين قتيلاً مع بعض الجمال المسلوبة .

وهكذا كانت المتاعب في وجه الاتراك تزداد وفق نمو هندسي مما حمل فخري باشا على العودة سريعاً بحملة مكة – عقب الثامن عشر من شهر كانون الثاني (يناير) والتراجع من درب السلطان والانسحاب من وادي « صفرا » إلى ضواحي المدينة المنورة والتحوّل إلى الدفاع السلبي ، هذا الدفاع الذي استمرّ حتى وضعت الهدنة حداً للحرب وأرغمت تركيا على التنازل عن المدينة واستسلام الحامية البائسة فيها .

٢٢

كان فيصل نشيطاً يعمل بكل قلبه لانجاز العمل الذي يوافق عليه . وبما انه قد وعد بالتوجه بقواته فوراً إلى « الوجه » لهذا جلست وإياه في عيد رأس السنة نتدارس الامر لنرى ما الذي تعنيه حركتنا الجديدة

بالنسبة لنا وللاتراك . وكان يمتد حولنا وادي ينبع لأميال وأميال . وفي ظلال النخيل والاشجار وكل ما بقي من الامطار جلس جنودنا جماعات وحلقات صامتين ولكنهم مطمئنون واثقون . وكان البعض ممن مضت عليهم ستة أشهر في خدمة فيصل فد فقدوا ذاك الشوق الفطري الذي أثار اعجابي حينما زرتهم في « حمرا » غير انهم عوضوا ما فقدوا بالخبرة .

لقد أصبحت وطنية الجنود وطنية حذرة وتقيدهم بالنظام يزداد كلما ازدادت المسافة بين معسكراتهم وقراهم أو مضاربهم . ومع ان الاستقلال العشائري في تنفيذ الاوامر بقي ساري المفعول فقد ألفوا بعض الشيء الانضباط .

وحينما كان الشريف يقترب من معسكر مخيمهم كانوا ينتظمون في صفوف متعرجة ويرفعون اسلحتهم إلى شفاههم .

وعلى الرغم من انهم كانوا يفتقرون إلى زيت البنادق فقد كانوا يحافظون على بنادقهم في حالة حسنة . وكان البعض منهم ماهراً في إصابة الهدف على مسافة بعيدة . وإذا كان رجال العشائر مقاتلين غير بارعين في الجماعة بسبب فقدانهم للانضباط ، فهم صناديد حينما يقاتلون بوحدات صغيرة . وكلما نقص عدد الرجال في الوحدة ازدادت مقدرتهم على انجاز ما يعهد اليهم من مهام . فالالف منهم كان يشكل جمهوراً عاجزاً عن صد سرية تركية واحدة . ولكن ثلاثة أو أربعة رجال كان في استطاعتهم الصمود في وجه هجوم العشرات من الاتراك .

كنا آنذاك في ظرف دقيق ، ومنذ معركة « نخل مبارك » لم نعد نسمح للجنود المصريين بالقتال إلى جانب القوات غير النظامية . ولذلك سحبنا السرية المصرية بعد أن سلمنا أسلحتها إلى راسم مدفعي فيصل وعبد الله الدليمي ضابط سرية المدافع الرشاشة في الجيش العربي ، فقاما

بتشكيل سرايا عربية من سكان المنطقة ودعماها بالفارين العراقيين من الجيش التركي . وفوق ذلك طلب مني مولود مخلص آكل النيران ، خمسين بغلاً ، وأن أركب فوق هذه البغال خمسين جندياً من جنود المشاة .

وعقب التدريب الاسبارطي الذي فرضه عليهم صاروا جنوداً ممتازين بل اعجوبة في صفوف الجيش العربي ، لذلك ارسلت أطلب تلغرافياً خمسين بغلاً آخر رغبة مني في مضاعفة عدد هؤلاء المشاة الراكبين خاصة بعد أن اتضحت لنا أهمية هذه الوحدة الخشنة للاستطلاع .

رأى فيصل ان يسير برفقة معظم رجال العشائر كي يعطي جموعه طابعاً عشائرياً مختلفاً . وأردنا لهذا الزحف الذي كانت مهمته وضع خاتمة للحرب في الحجاز الشمالي ان تبلغ أنباء شرق الجزيرة العربية وغربها فنطرد من أذهان اولئك القابعين في بيوتهم البلادة والتنافس القبلي .

كان من خطتنا الاكثار من الغارات العشائرية السريعة وتحويلها إلى عمليات عسكرية تستهدف الاستيلاء على الغنائم التي تجعل العشائر قادرة على كفاية نفسها بنفسها على أن يكون الهدف الحقيقي لهذه العمليات تجميد الحاميات التركية في مراكزها الدفاعية . وقد بعثت مع زيد إلى رابغ لتنظيم الغارات المماثلة في هدفها برسالة إلى قبطان السفينة « دفرين » ليسهل أمر سفره . وكي ادرب نفسي على مثل هذه الغارات اصطحبت خمسة وثلاثين رجلاً من المحاميد من قرية نخل مبارك ، واتجهت بهم في اليوم الثاني من كانون الثاني (يناير) إلى القلعة التي مررت بها في سفرتي الاولى من رابغ إلى ينبع ، وعندما اقتربنا منها ترجلنا عن رواحلنا وعقلناها وأبقينا عشرة رجال لحراستها . ثم تسلقنا تلال « دهفران » وكان هذا العمل شاقاً مرهقاً لانحدارها

الشديد وصخورها الحادة . وعندما وصلنا إلى قمتها أخذت الريح تلسعنا بسياط زمهريرها . وأخيراً شاهدنا المخيم التركي على بعد ثلاثمئة يارده منا فبدأنا نطلق على الخيام الاعيرة النارية . فرأينا جمهرة من الجند التركي يتراكضون إلى خنادقهم ، وأجابوا على نيراننا بنيران سريعة وجهوها إلى مختلف الجهات . وكان لنيرانهم صخب شديد . وقد خيل الينا انهم يرمون من وراء هذا الاسراف في الذخيرة تنبيه الحامية التركية في الحمرا لتسارع إلى نجدتهم . ولما كان عدد العدو عشرة اضعاف عددنا ، لذلك فأن أية نجدة تأتي من حمرا ستجعل من انسحابنا أمراً متعذراً . فزحفنا بخفة وهدوء إلى الوادي عائدين حيث صادفنا جنديين تركيين اعزلين من السلاح فأمسكناهما اسيرين إلى معسكرنا ، وتبينا ان المعلومات التي أفضيا بها كانت مفيدة .

كان فيصل لا يزال قلقاً من إخلاء قواته لمدينة ينبع فهي قاعدته الرئيسية والمرفأ الثاني من حيث أهميته في الحجاز . فأخذنا نجهد أذهاننا لتدبير الوسائل التي تحول دون سقوط ينبع بيد الاتراك . وتذكرنا فجأة سيدنا الشريف عبد الله الذي كان تحت امرته في الحناكية خمسة آلاف رجل من القوات غير النظامية وبعض المدافع والرشاشات بالاضافة إلى سمعته العاطرة التي اكتسبها من حصاره الناجح على الرغم من بطئه لمدينة الطائف .

لذلك رأينا أن من العار ان نتركه دون ما عمل في البرية . وتم الاتفاق بيني وبين فيصل على استدعائه من الحناكية لاحتلال وادي (عيص الذي يقع على بعد مئة ميل من المدينة ويشكل تهديداً مباشراً لخطوط مواصلات فخري باشا الحديدية مع الشام . ومن وادي (عيص باستطاعة عبد الله أن ينفذ خطته لحصار المدينة من جهة الشرق فيمنع وصول قوافل الامدادات من الخليج العربي إلى المدينة . أضف إلى ذلك ان وادي عيص قريب من ينبع التي يمكنها ان تمد جيشه بجميع ما يحتاج اليه من

ذخائر وأعتدة وطعام .

والحق ان هـذا الرأي كان بمثـابة الوحي ، لذلك أرسلنا حالاً رجاء الرولوي إلى عبد الله ليعرضه عليه ، وبلغت ثقتنا بموافقة عبد الله عليه حداً جعلنا نستعجل فيصلاً بالتحرك من وادي ينبع شمالاً كمرحلة أولى في طريقنا إلى الوجه قبل وصول رد عبد الله .

٢٣

كان علينا أن نسلك الطريق العريضة المارة بوادي « مسارح » إلى واحة تتشكل من مجموعة من الينابيع وتقع على مسافة ١٥ ميلاً إلى الشمال من ينبع . وبدت لنـا آنذاك التلال خضراء جميلة . فأمطـار كانون الاول (ديسمبر) الغزيرة وحرارة الشمس الدافئة خدعت التربة فجعلتها تعتقد ان هذا الفصل هو فصل الربيع . وهكذا اطلت الاعشاب الناحلة برؤوسها وأوراقها .

بدأت الطبول تقرع للرحيل بينما كان كل جندي يقف إلى جانب راحلته المعدة للسفر يحيّي فيصلاً وهو يقترب منه وفيصل يرد على تحيته قائلاً : « السلام عليكم » . وعندما مررنا بجموعهم امتطوا رواحلهم وزحفوا وراءنا وذبنا جميعاً في خط طويل لا يدركه البصر يتعرج على الدرب وينحني ويميل متجهاً إلى الواحة .

كانت تحية فيصل والرد عليها هي الكلمات الوحيدة الـتي تلفـّظ بها جمعنا الغفير . ومـا كدنا نصل قمة المرتفع حيث يفتح الوادي صدره ويتسع ليصبح منحدراً يحتضن الحصى حتى تقدم ابن دخيل الشيخ الحاذق خطوتين إلى الامام وأمر قارعي الطبول بقرعها .

انفجر الجميع بترداد هتاف منغم يمتدح الشريف وعائلته . وبذلك أصبح زحفنا رائعاً : في الطليعة يسير فيصل بملابسه البيضاء وإلى يمينه الشريف شرف وهو يرتدي كوفية حمراء وعباءة بلون الحناء وإلى يساره أنا بعباءتي البدوية ، ووراءنا ثلاثة رجال يحملون ألوية ثلاثة لونها قرمزي باهت تتهدل منها خيوط حريرية بيضاء .

ملأ سيلنا الوادي حتى ضفتيه . وعند قمة « وادي المستراح » أقبل رجل نحونا يحمل الرسائل إلى فيصل من عبد القادر حاكم ينبع . وكان بين هذه الرسائل رسالة لي من السفينة « دفرين » كُتبتْ من قبل ثلاثة أيام جاء فيها ان قبطان السفينة يرفض ان يقلع بزيد إلى رابغ قبل أن يتضح له مجرى الاوضاع الداخلية ويطّلع على تفاصيل الاحداث . وكانت السفينة ترسو في « شرم » التي تبعد ثمانية أميال عن الشاطئ حيث كان بامكان ضباطها ان يلعبوا « الكريكت » على الشاطئ دون أن يزعجهم ذباب ينبع . لذلك رأيت من المناسب ان أعود إلى « دفرين » مسرعاً لاصلح الأمر .

أرفقني فيصل ببعض رجال من عقيل . وعدنا إلى ينبع على عجل فوصلناها في ثلاث ساعات مخلفاً ورائي في نصف الطريق رفاقي الغاضبين بفضل الناقة الذلول التي وهبني إياها فيصل والتي أفادتني أيما فائدة في حملة « العقبة » فيما بعد .

وجدتُ الامور حين وصولي ينبع على غير ما كنت أتوقع . فزيد كان قد أقلع صباح الامس على السفينة « دفرين » إلى رابغ . وكان هناك خلاف شديد بين السلطات العسكرية والمدنية .

فعبد القادر الحاكم النشيط ذو الطبع الحاد كانت تزداد مهامه كلما ازدادت قاعدتنا في ينبع سعة ومستودعاتها عدداً واتساعاً ، لذلك عيّن الشريف فيصل الرائد السوري توفيق بك مشرفاً على مستودعات المدفعية. ولسوء الحظ لم تكن سلطات توفيق بك واضحة ومحددة ، فنشب قبل

عودتي إلى ينبع بيوم واحـد خلاف شديد بين عبد القادر وتوفيق بك حول تحميل صناديق فارغة للاسلحة في السفينة « اسبيجل » ، فأغلق عبد القادر المستودع وذهب إلى منزله لتناول طعام الغداء . فما كان من توفيق بك إلا ان عـاد إلى المستودع مصحوباً بأربعة جنود ورشاش ومطرقة ، فحطّم قفل المستودع وفتحه . ولـما سمع عبد القادر فعلة توفيق بك امتطى قارباً وقصد السفينة الصغيرة « اسبيجل » وفاجأ بحارتها المذهولين قائلاً بأنه قـد جاء ليقيم بينهم إقامة دائمة . وقد أحضر له خدمه الطعام إلى السفينة . ونام ليلته تلك في سرير عسكري على ظهر السفينة .

سارعتُ إلى تسوية الخلاف بـين عبد القادر وتوفيق بك ، فطلبت من عبد القادر أن يكتب تقريراً عن الحادث إلى فيصل وتسلمت المستودع من توفيق بك ثم احضرت الناقلة « اريتوزا » بعد ان حملتها بالصناديق الفارغة المختلف عليها إلى جانب السفينة « اسبيجل » كي يشرف عبدالقادر على نقل الصناديق اليها .

وأخيراً حضر توفيق بك إلى الميناء وعقب ان استعرض حرس شرف (لم يكن الحرس جنداً نظامياً) صعد إلى ظهر السفينة . وما كاد يبصر السفينة ويقرأ اسمها حتى قال باسماً :

— « هذه هي السفينة التي أسرتني في قرنه . »

ثم أخذ يروي لنا قصة وقوعه في الاسر ، وقد وجد عبد القادر الرواية مثيرة مما جعله يتناسى خلافه وتوفيق بك .

جاءنا في اليوم الثاني الشريف شرف ليحلّ محل فيصل في ينبع . والشريف شرف رجل قوي الشخصية ، وأكثر الاشراف كفاءة في جيش فيصل . لكنه مجرد من الطموح ، وهو واسع الثراء ، وقـد سبق له أن شغل منصب قاضي القضاة في البلاط الشريفي . وكان غزير العلم بشؤون العشائر وأحسن من يعالج قضاياها ويقضي في أمورها .

لذلك كانت العشائر تخافه وتهابه . وكان جفن عينه اليسرى متهدلاً (بسبب اصابة قديمة) مما أضفى عليه مظهر القسوة والعنف . وقد قام جرّاح السفينة (سيوى) بإجراء عملية ناجحة له على عينه فنجحت جزئياً ولكن التشويه بقي على حاله .

كان من رأينا ان سقوط ينبع بأيدي الاتراك بينما نحن في طريقنا لاحتلال « الوجه » أمر قريب الاحتمال . لذلك قررنا تفريغ مستودعاتها ونقل الذخائر إلى السفن . وقد ارسل لي « بويل » اشارة تقول بأن عليّ ان أختار بين إحدى السفينتين « دفرين » أو « هاردنغ » لانجاز هذه المهمة ، فاخترت « هاردنغ » التي حضرتْ إلى الميناء عقب يومين من طلبي . وكانت هـذه السفينة هندية ، ناقلة للجنود . فحمّلناها بثمانية آلاف بندقية وثلاثة ملايين طلقة وآلاف القنابل وكميات ضخمة من الارز والطحين والالبسة العسكرية وطنّيْن من المتفجرات والبترول .

حضر « بويل » ووعدني بأن يجعل من السفينة « هاردنغ » مستودعاً عائماً متنقلاً دائماً مما أزال العقبة الرئيسية من طريقنا ، وكان اسطول البحر الاحمر يتجمع حول ينبع ، وكان من المنتظر وصول الاميرال قائده قريباً . لذلك كان البحارة مشغولين باعداد الترتيبات اللازمة لاستقباله . وقد كنت واثقاً من انه لن تنشب المعارك في الوجه ففيصل يسير على رأس قوة تبلغ عشرة آلاف مقاتل ، وهذا العدد كاف ليملأ منطقة عشائر بيللي بالرجال ، وعشائر بيللي تعرف ذلك وهي الآن مخلصة للشريف وقضيته . لذلك كنا راسخي القناعة بأن الوجه ستسقط فريسة سهلة في أيدينا . وكان كل ما نخشاه في عمليتنا هذه ان يُموت مضيفو فيصل عشائر بللي جوعاً وعطشاً ، لهذا وجدت ان تأمين الامدادات لجيش فيصل هو واجبي لا بل مسؤوليتي الاساسية .

أضف إلى ذلك ان سكان المنطقة المنتهية بقرية « ام لج » أصدقاء ومناصرون ، لذلك لم نكن نخشى شراً . فأرسلت إلى فيصل كتاباً اعلمه

فيه ان عملي قد أنجز وان كل شيء قد اعدّ ، فغادر فيصل الواحة على رأس جيشه . وذلك في اليوم نفسه الذي وردنا كتاب من الشريف عبد الله يبدي فيه موافقته على التوجه بجيشه إلى « وادي عيس » .

جاءني البشير بوصول الكولونيل « نيوكمب » رئيس البعثة العسكرية إلى مصر . وأنبئت ان ضابطَي الاركان « كوكس » و « فيكري » هما في طريقهما الينا .

أقلعتُ وبويل على السفينة « سيوى » إلى « ام لج » ، ونزلتُ إلى الشاطئ لاستطلع أخبار فيصل . فأخبرني شيخ القرية ان فيصلاً سيصل اليوم موقع بئر الوحيدي ليتزود منها بالماء . فأرسلت إلى فيصل رسالة ومن ثم توجهت إلى القلعة التي ضربها « بويل » منذ شهور بالقنابل من على ظهر السفينة « فوكس » فألفيناها متهدمة مدمرة . وقال بويل وهو ينظر إلى اطلالها : « إنني جد خجل من تدمير هذا البناء الخزفي . »

كان « بويل » ضابطاً حاذقاً متيقظاً ، لكنه كان يبدي أحياناً بعضاً من نفاد صبر حينما يرى ان الامور أو الناس يسيرون على غير ما يشتهي . وعلى كل حال فمن الصعب ان نجد ذوي الشعر الأحمر يتمتعون بفضيلة الصبر .

بينما كنا نجول بأنظارنا في أطلال القلعة جاءنا ثلاثة رجال متقدمين في السن ومهلهلي الثياب من سكان القرية وطلبوا منا أن نستمع إلى شكواهم . وقالوا انه منذ بضعة شهور جاءت سفينتان وضربتا هذه القلعة بالمدافع ودمرتاها تدميراً كاملاً وانه قد طُلب منهم الآن إعادة تعمير هذه القلعة لتكون مركزاً لشركة الحكومة العربية . لذلك فهم يرجون ان نتكرم باعطائهم بعض الاخشاب .

بدا بويل نافد الصبر وهو يستمع إلى حديثهم الطويل . ثم تطلّع إليّ وقال :

— « ما الأمر ؟ ماذا يريدون ؟.. »

فأجبته :

— « لا شيء . انهم يصفون لنا الاثر المروع الذي أحدثه في نفوسهم ضرب السفينة فوكس لهذه القلعة » .

فتلفت بويل حوله ثم قال :

— « حقاً انها لورطة جميلة . »

وصل في اليوم الثاني « فيكري » وهو ضابط مدفعي أمضى زهاء عشر سنوات في السودان واستطاع خلال هذه المدة ان يتقن اللغة العربية الفصحى والعامية . وهذا ما وفّر علينا مترجماً .

قصدتُ مع فيكري وبويل معسكر فيصل كي نُعِدّ الترتيبات الأخيرة ونحدد موعد الهجوم على « الوجه » . وعقب الغداء جلسنا وفيصل وأعوانه نبحث في تفاصيل خطتنا وزحفنا ، فاستقر رأينا على ان نقسم الجيش إلى قسمين وان على كل قسم منهما ان يتجه مستقلاً إلى مكان التحشد في موقع « ابو زريبات » في وادي حميص الذي هو آخر مورد ماء لنا في طريقنا إلى الوجه . ووعدنا بويل ان يرسي السفينـة هاردنغ في شرم حيان ليزودنا بعشرين طناً من الماء . وهكذا حللنا هذه المشكلة . ثم طلبنا من بويل ان ينقل على ظهر سفينته جماعة من عشيرة حرب وفلاحي جهينة لينزلهم في الجهة الشمالية من البلدة حيث لا توجد مراكز عسكرية تركية . وكانت هذه الجماعة برئاسة صالح بن شفعة وهو فتى أسود اللون .

فوافق بويل على طلبنا هذا ونقلهم إلى ظهر السفينة هاردنغ .

كان من المتفق عليه ان نصل إلى ابو زريبات في اليوم الثاني عشر من الشهر . ومن ثم نتوجه إلى شرم حيان لنتزود بالماء الذي ستنقله الينا السفينة هاردنغ فنصله في اليوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه . وكان على بويل ان ينزل جماعة عشيرة حرب وفلاحي جهينة إلى الشاطئ في فجر

اليوم الثالث والعشرين منه حيث تكون خيالتنا في ذاك اليوم قد سدّت جميع الطرق المؤدّية إلى البلدة لتحول دون فرار الاتراك .

وردتنا أخبار سارة من رابغ تفيد ان الاتراك لم يستغلوا فرصة خلو الموقع من حامية عسكرية ليحتلوها ، لذلك خالجنا شعور بالارتياح العميق عندما أبرق لنا بويل بأن الامور في رابغ تسير على أحسن وجه .

وجاءتنا أخبار أخرى تقول بأن الشريف عبد الله أصبح على مقربة من وادي عيس ، أما نحن فكنا قد أصبحنا في منتصف الطريق إلى الوجه . وهكذا انتقلت أخيراً المبادرة إلى أيدي العرب . وقد سررت بهذا الوضع سروراً عميقاً جعلني أفقد أعصابي وأقول للشريف فيصل : « بعد عام من يومنا هذا سنقرع أبواب دمشق . » . وقد قوبل قولي هذا ببرودة ، إذ علمتُ فيما بعد بأن « فيكري » ذهب يشكوني إلى بويل ، ويتهمني بأنني رجل مغرق في الخيال أعيش على الاحلام . ولكن ، مع ان كلامي ذاك كان يبدو جنوناً ، فلم تكد تمضي خمسة شهور على كلامي ذاك حتى كنت أدخل دمشق ، وبعد سنة واحدة كنت شبه حاكم فعلي لها .

لقد خيّب « فيكري » آمالي ، كان يدرك انني جاهل في الامور العسكرية ويعتقد بسخف آرائي في الشؤون السياسية . وكنت اعرف بأنه هو العسكري المدرب الخبير الذي تحتاج اليه قضيتنا ، غير انه كان على ما يبدو لي أعمى لا يرى القوة المستترة وراء القضية العربية . والحقيقة ان العرب قد اقترفوا الكثير من الاخطاء الفظيعة بسبب قبولهم نصائح أوروبيين لم يكن في مستطاعهم أن يدركوا ان الثورة حركة قومية قائمة بذاتها لها أهدافها وغاياتها .

كان على المستشارين ان يعلموا ان العرب إذا ما ركبوا متن عقيدة واسلموا زمام أمرهم إلى نبي مدجج بالسلاح وأوكلوا اليه توجيه

جهودهم غير المحدودة فان في استطاعة الايدي الماهرة ان تصل بهم ليس إلى دمشق فحسب بل إلى القسطنطينية أيضاً .

٢٤

في صباح اليوم التالي بعد ان شاهدت السفينة هاردنغ تفرغ شحناتها على خير وجه ذهبت إلى الشاطئ لزيارة الشيخ يوسف ، فألفيته مشغولاً بمساعدة رجال البوليس وبعض القرويين المذعورين وعدداً من رجال مولود مخلص في إقامة حاجز في الطريق الرئيسية ، وأعلمني بأن خمسين بغلاً قد نزلت من السفينة وساقتها يد الحظ لا المهارة إلى السوق فاقتحمته . ولذلك عمد الشيخ يوسف ورجال شرطته إلى سد الدرب وحصرها في السوق حتى يتدبر مولود مخلص أمرها .

كانت هذه البغال هي الدفعة الثانية التي أوصى عليها مولود لتشكيل وحدة الخيالة . ولحسن الحظ ، وبسبب خوفنا من سقوط ينبع ، كنا نملك حبالاً على ظهر السفينة هاردنغ فصنعنا منها أزمّة . وتمكن القرويون عند الظهر من إعادة فتح متاجرهم ودفعنا لهم تعويضاً مناسباً عن الاضرار التي أنزلتها البغال بدكاكينهم ، ثم ذهبت إلى معسكر فيصل حيث ألفيته يغص بالناس والعمل ، ورأيت بعض افراد العشائر يتناولون مرتباتهم الشهرية وآخرين يتزودون بمؤن لمدة أسبوع وشاهدت غيرهم يقومون بطي الخيام استعداداً للرحيل . فجلسنا نستمع إلى أحاديث كبار الموظفين ورجال أركان فيصل ، فهذا فايز الغصين الموظف التركي السابق ومؤرخ مذابح الارمن والسكرتير الحالي لفيصل ، وذاك نسيب البكري الملاّك الدمشقي ومضيف فيصل أثناء إقامته في سوريا وهو منفي من

بلاده الآن ومحكوم بالاعدام ، وهذا شقيق نسيب البكري سامي ، خريج معهد الحقوق ، وهو الآن مساعد مدير المالية في جيش فيصل ، وذاك شفيق العبر الصحافي السابق ومساعد السكرتير الحالي وهو رجل هزيل أبيض الوجه باطني الخلق وطني شريف شديد التحفظ ، وهذا حسن شرف طبيب القيادة العامة الذي لم يضع حياته فقط في خدمة القضية العربية بل وضع ماله أيضاً يبدو ثائراً غاضباً إذ ان قواريره قد حطّمت وسال ما فيها من عقاقير ليملأ قعر الصندوق . وقد حاول شفيق أن يخفّف من حدة غضبه فقال له مازحاً :

— « هل تنتظر من الثورة ان تكون نزهة مريحة ؟ »

أخذنا في المساء نتحدث وفيصل عن زحفنا المقبل . وكانت المرحلة الاولى قصيرة تنتهي بـ« سمنه » حيث توجد بساتين النخيل وآبار غزيرة من المياه . وبعد سمنه كان أمامنا طريقان . واختيارنا لاحدهما متوقف على تقرير الكشافة حول مصادر مياه الامطار ، إذ ان الطريق الساحلي المباشر يقودنا بعد ستين ميلاً إلى بئر ماء ، وهذه المسافة طويلة جداً بالنسبة للمشاة من رجالنا .

كان الجيش في بئر الوحيدي يتجاوز عدده خمسة آلاف وكان يضم مئة من الهجانة وخمسة آلاف من المشاة ويملك اربع مدافع جبلية من صنع كروب وعشر رشاشات وثمانين جملاً لنقل ذخائره وأعتدته .

بعد ظهر اليوم الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) تناولت طعام الغداء برفقة جماعة مرحة ضمتني إلى الشريف جابر ونسيب وسامي البكري وشقيق حسن شرف . ولدى انتهائنا خرجنا من الخيمة فأقبل بعض الرجال وقاموا بطيها ، ثم اتجهنا إلى رواحلنا التي كانت معدّة للرحيل . وهنا قرع الطبل ثماني مرات فساد المعسكر هدوء وأخذنا نرقب فيصل الذي نهض عن بساطه حيث كان يحدث عبد الكريم وأمسك بزمام جمله وامتطاه وهو يقول بصوت عال :

— « لنتوكل على الله . »

وعندما تحركت الراحلة بفيصل سارعنا نمتطي رواحلنا ونهض جمعنا الغفير . وكانت بعض النوق تهدر ولكنها كانت أكثر النوق هدوءاً بسبب تمرينها .

أخذت رواحلنا تخطو أولى خطواتها ، وكان علينا ، نحن راكبيها ، ان نشد بسيقاننا حول بطونها ونمسك بأزمتها لنوجهها حيث نقصد ، ثم درنا بابصارنا نفتش عن فيصل . وعندما رأيناه ربتنا على رؤوس رواحلنا بلطف ثم ضغطنا على بطونها بأقدامنا العارية حتى وصلت بنا إلى جانبه .

واقترب منا ابن دخيل وبعد أن ألقى نظرة خاطفة على الارض واتجاه زحفنا أمر رجال عقيل بأن يتوزعوا إلى أجنحة تحيط بنا من خلفنا وبميننا ويسارنا بانتشار يبلغ الثلاثمئة ياردة عمق وقد قام الرجال بتنفيذ هذه المناورة على أحسن صورة .

وعقيل عشيرة نجدية تسكن القرى والمدن ، ورفاقنا منهم فتيان من عنيزة وبريدة والرحى . وقد سبق لهم ان خدموا في سلك الهجانة سنوات طوالاً وكانت أعمارهم تتراوح بين السادسة عشرة والحادية والعشرين . وهم أناس طيبون ذوو عيون واسعة مرحون على قسط ضئيل من الثقافة لكنهم أذكياء .

قرع الطبل منبهاً ، فانطلق من على يميننا صوت شاعر يغني بيتين من الشعر نظمهما تواً ، يمتدح فيهما فيصلاً ويصف سرورنا باحتلال الوجه . وكانت الميمنة تصغي بامعان لهذين البيتين ولحنهما ثم انفجر جمعه يرددها كلاماً ولحناً مرة ومرتين وثلاثاً بأصوات تتدفق بالفخر . وقبل ان يرددهما للمرة الرابعة ارتفع صوت شاعر آخر من على يسارنا بالاجابة غناءً على تينك البيتين مستعملاً الاوزان ذاتها والنغم نفسه ، فانفجرت الميسرة تهدر بهتاف النصر وقرعت الطبول مرة ثانية وطوى حملة

الاعلام أعلامهم القرمزية الكبيرة وانطلق الحرس في الميمنة والميسرة والقلب منشدين .

كانت طريقنا سهلة ممهدة فرشتها رمال ناعمة متماسكة تنحدر ببطء في موجات من ايكات عارية أو شجرات نخيل عقيمة تنمو وحيدة في رطوبة المنحدر الذي انتهى بنا إلى فسحة من الارض متسعة مستوية حيث شاهدنا خيّالَيْن يقتربان من فيصل ليسلما عليه . ولقد عرفت اولهما انه محمد البيضاويّ القذر الاعشى العينين أمير قبيلة جهينة ، أما ثانيهما فبدا لي غريباً ، وعندما اقترب منا رأيته يرتدي زياً «كاكياً» وعباءة تغطيه وعقالاً وكوفية حريرية . وما كاد يرفع ببصره حتى عرفت فيه وجه نيوكمب الاحمر ذي العينين الجاحظتين والفم الحاد العنيف .

فلقد وصل « ام لج » هذا الصباح ، وعندما سمع بأننا رحلنا لتونا امتطى أسرع حصان يملكه الشيخ يوسف ولحق بنا . فعرضت عليه راحلتي الاحتياطية وقدّمته إلى فيصل الذي تلقاه كأنه زميل مدرسة قديم . وسرعان ما غاصا معاً في أعماق الاشياء يقترحان ويناقشان ويرسمان الخطط بسرعة البرق .

مررنا بالغواشية ، وهي بستان نخيل مجدب وأخذنا نسير بخطى وئيدة في حقل بركاني مهدته أيدي الرجال فجعلته سهلاً إلى حد ما . وعقب سيرنا مدة ساعة في هذا الحقل وجدنا أنفسنا فجأة على مرتفع ذي منحدر رملي جاف صلب يكاد بصلابته يكون صخرة رملية ، هبط بنا إلى وادٍ واسع جميل تقع فيه قرية « سمنه » فسار بنا طريقنا المنحدر مخترقاً بساتين النخيل .

كان الهدوء يتعقّب زحفنا . لذلك بدا بطن الوادي ساكناً صامتاً شديد الحرارة تتربع على جانبيه الرمال . وهنا كان علينا ان نتوقف حتى يعود كشافة جيشنا بالاخبار عن مصامد المياه وهذا ما نصح به عبد الكريم

كبير مرشدي الجيش .

قطعنا الاربعمئة ياردة التي تخترق الوادي وارتقينا المرتفعات كي نكون في مأمن من السيول .

ربت فيصل بلطف على عنق راحلته فاستناخت وفرش هجرس البساط فجلسنا عليه مع الاشراف الآخرين نثرثر ونمزح بينما كان العبيد يعدون لنا القهوة .

كان الجو في ذلك اليوم رمادي اللون فبدا لنا غريباً شاذاً وخاصة عقب أيام موفورة الشمس . لذلك أخذت ونيوكمب ننحني بأبصارنا نحو الارض مفتشين عن ظلينا . كانت أحاديثنا عادية حول المواضيع ذاتها ، لذلك مكننا خلو ذهننا من رؤية « سمنه » والاعجاب ببساتين نخيلها الموزعة بين ايكات شوك جافة ومشاهدة الاكواخ المسقوفة بسعف النخل التي يأوي اليها ملاكو البساتين وعائلاتهم في موسم الحصاد .

أرسل فيصل من قرية سمنه بخمس وعشرين رسالة إلى زعماء قبائل بيللي والحويطات وبني عطية . وقد قال في رسائله هذه ان جيشه سيكون عما قريب في « الوجه » ، وان عليهم ان يعدّوا أنفسهم لاستقباله . وقد قام محمد علي باختيار الرسل ورسم لكل منهم طريقه .

عاد كشافتنا وأعلمونا بأنهم وجدوا مصامد ضحلة الماء في نقطتين تقعان قريباً من الطريق الساحلي . وبعد ان استنطقنا هؤلاء الكشافة قررنا أن نرسل بأربع وحدات من جيشنا في هذا الطريق وان نسلك بالوحدات الخمس الباقية في طريق التلال ، ورأينا ان هذا التدبير هو أكثر التدابير سلامة للوصول على وجه السرعة إلى موقع « ابو زريبات » .

لم تكن المعلومات التي قدّمها مرشدونا من عشيرة جهينة لتُسهّل

اختيار الدرب ، فهؤلاء كما بدا لنا لا يعرفون وحدة زمنية أصغر من نصف النهار أو مسافة تقل عن مرحلة ، والمرحلة قد تستغرق ست ساعات أو ست عشرة ساعة .

ومع ذلك لم تؤثر هذه الامور في معنويات جنودنا إذ كانوا يسيرون نحو الوجه فرحين منشدين يتبادلون النكات .

عندما أنهينا أعمالنا قصدتُ ونيوكمب خيمتنا لنغفو قليلاً . وكان فيصل قد أعارنا هذه الخيمة رغبة منه في الترفيه عنا . ولم يحدث سابقاً ان كانت لي خيمة خاصة بي . وقد ضربنا خيمتنا على رأس تلة . وعندما وصلناها ألفينا عبد الكريم البيضاوي ينتظرنا عند مدخلها وكان ملثماً يشدّ بعباءته حول جسده . فالليلة كان طقسها بارداً ينذر بالمطر وقد جاء ليطلب مني بغلاً فقلت له انني سألبي طلبه بعد ان يتم لنا الاستيلاء على الوجه .

كنا منهوكين جداً فودّعنا عبد الكريم واستسلمنا للنوم .

٢٥

وفي الصباح هطلت الامطار مدراراً ، فسررنا سروراً بالغاً برؤية المزيد من الماء يتدفّق الينا . وجلسنا مرتاحين في خيامنا في « سمنه » حتى اننا أخّرنا رحلتنا منتظرين الشمس من جديد . وتجلّت أخيراً في أصيل مبكر . فامتطينا رواحلنا وسرنا غرباً نهبط الوادي تغمرنا أضواء النهار المنعشة وتبعتنا جموع عقيل مع عبد الكريم على رأس رجاله البالغ عددهم سبعمئة هجان مضاف اليهم عدد أكبر من المشاة . وكانوا يرتدون ثياباً بيضاء وكوفيات حمراء كبيرة ويلوحون بسعف النخيل بدلاً من

الرايات . وخلف هؤلاء سار الشريف محمد علي ابو شريان وهو زعيم كبير متقدم في السن ذو لحية طويلة متجعدة صبغها المشيب بلونه ، على رأس ثلاثمئة فارس من الاشراف من فخذ العياش (جهينة) وكانوا يرتدون ألبسة حمراء بلون الحناء تحت عباءات سوداء ويحملون السيوف ويتبع كل واحد منهم عبد يحمل بندقية وخنجراً ويعتني براحلته ويطبخ له طعامه أثناء السفر . ولما كان هؤلاء الخدم عبيدَ قومٍ فقراء لذلك كانت الثياب القليلة التي يرتدونها رثة بالية .

وسار وراء الاشراف اللواء القرمزي لفخذ الرفاعة آخر وحداتنا العشائرية بقيادة عودة بن زويد ، القرصان القديم الذي سلب بعثة « ستوتسنجن » وقذف بمحطتها اللاسلكية وخدمها الهنود إلى البحر .

وعودة لا يزال حتى الآن يرتدي معطفاً طويلاً فخماً لضابط ألماني تتخلله خطوط من الفرو وهي حلة لا تتلاءم والطقس . غير ان عودة يصرّ على انها غنيمة رائعة . وكان يتبع عودة عدد من الرجال يبلغ الألف ثلاثة أرباعهم من المشاة ويسير بالقرب منه راسم آمر المدفعية إلى جانب مدافعه القديمة الاربعة .

وراسم هذا كان دمشقياً ساخراً يقابل بالضحك كل ازمة تعترضه ويطأطئ رأسه حزناً عندما تسير الامور سيراً حسناً . واليوم سمعت تذمراً مروّعاً يصدر عن راسم . فإلى جانبه كان يسير عبد الله الدليمي الضابط المسؤول عن الرشاشات . وهو رجل سريع حاذق سطحي لكنه ضابط جذاب من النوع المحترف يجد سروره في اثارة الاحزان في نفس راسم .

تابعنا طريقنا فوق الرمال المستوية بين اشجار الشوك التي ألفيناها كثيرة وكبيرة حتى وصلنا إلى شاطئ البحر . ثم اتجهنا شمالاً وجيشنا يزحف على محاذاة طريق عريضة مطروقة هي طريق الحج المصري التي تبعد خمسين ياردة عن الشاطئ .

وطالعنا حقل بركاني قديم دفنت الرمال صخوره وبرز من التلال ليمتد داخل السهل لمسافة أربعة أو خمسة أميال ثم يدخل البحر في شكل جبل . وكان الطريق يخترق هذا الحقل غير ان جوانبه القريبة منا كانت بقعاً طينية مستوية تخترقها في بعض تجاويفها مياه ضحلة تحت أشعة الشمس الكاوية ، وهذه كانت نهاية مرحلتنا فأشار لنا فيصل بالتوقف ، فترجلنا عن رواحلنا وتوجهنا قبيل العشاء إلى البحر نستحم بمياهه .

كان علينا أن نرتب أمر عشائنا وذلك لأن أحد أفراد عشيرة جهينة قد اصطاد في الجبل غزالاً وأهداه إلى فيصل . ولقد وجدنا لحم الغزال ألذّ من أي لحم آخر في الصحراء ، لأن هذا الحيوان مهما كانت الارض مجدبة والمياه شحيحة فأن لحمه يبقى أبداً لذيذاً طرياً . كان العشاء نادراً كما توقعنا ، وانسحبنا مبكرين إلى خيامنا لننام . ولكن ما كدت ونيوكمب نتمدد في فراشنا حتى سمعنا جلبة وضوضاء وأصوات عيارات نارية ترامت إلى آذاننا كهدير موج من الفرح والسرور . وجاءني أحد العبيد مسرعاً متقطع الانفاس ومدّ رأسه من تحت رواق الخيمة قائلاً :

— « أخبار ، أخبار . لقد أسر أشرف بك . »

فقفزت من فراشي واخترقت الجموع متوجهاً إلى خيمة فيصل التي وجدتها تغصّ بالاصدقاء والخدم . ولقد وجدت ، لدهشتي ، رجا يجلس بصورة غير طبيعية تنذر بالشؤم . ورجا هذا هو الذي أرسلناه إلى الشريف عبد الله برسالة نطلب فيها منه ان يتحرك بقواته إلى وادي عيس . وجدت فيصلاً يشع غبطة وفرحاً ورأيت عينيه منتفختين بالسرور حينما قفز نحوي صارخاً من خلال الضجيج :

— « لقد أسر عبد الله أشرف بك . »

عندئذ عرفت أهمية هذا الحدث وخطورته .

لقد كان اشرف بك مغامراً ذا سمعة سيئة ينتمي إلى الطبقة السياسية التركية المنحطّة . كان في صباه قاطع طريق في منطقة ازمير حيث وُلد وترعرع . ولكن مع السنين أمسى رجلاً ثورياً . وعندما وقع في قبضة عبد الحميد نفاه السلطان إلى المدينة مدة خمس سنوات . وقد وُضع في بدء منفاه تحت حراسة شديدة ، غير انه استطاع في أحد الايام أن يفرّ من منفاه ويلجأ إلى الامير « شاهد » امير العوالي . و« شاهد » هذا كان كعادته في حرب ضد الاتراك . لذلك آواه واستضافه . ولكن اشرف الذي وجد الحياة كئيبة في كنف شاهد ، استعار فرساً أصيلة واتجه بها نحو المعسكر التركي . وقد وجد في ساحة المعسكر نجل عدوه حاكم المدينة يقوم بتدريب جنود البوليس فهجم عليه وحمله وأركبه أمامه على سرج فرسه وغادر به المعسكر قبل أن يعترض سبيله جنود البوليس المذهولين ، وسار به إلى جبل أحُد .

وكي يتمكن الباشا من استعادة ولده أعطاه خمسمئة ليرة ذهبية ، فاشترى اشرف جمالاً وخيمة وتزوج وأخذ يتجوّل مع العشائر . وبقي على حاله هذا حتى نشوب ثورة جمعية تركيا الفتاة . فظهر اشرف ثانية في الآستانة وأخذ ينظم جرائم أنور باشا . وقد أمّنت له خدماته هذه وظيفة مفتش لهيئة إغاثة المنكوبين في مقدونيا . لكنه استقال من هذه الوظيفة بعد سنة واحدة من توليه إياها ، تمكّن خلالها من شراء مزرعة تدر عليه دخلاً ثابتاً .

وعندما نشبت الحرب عاد إلى المدينة مزوّداً بالمال والرسائل من السلطان إلى بعض المحايدين كي يساعدوا على استئناف المواصلات والحامية المعزولة في اليمن . وقد تلاقت طريقه بطريق عبد الله المتّجه إلى وادي عيس قرب « خيبر » ، وشاهد أشرف بعض رجال عبد الله فأوقفهم وأخذ يسألهم عن هوياتهم ، فأجابوه بأنهم من عشيرة « هيثم » وأشاروا إلى طلائع جيش عبد الله قائلين انها قوافل تحمل الامدادات إلى المدينة ،

فأطلق اشرف سراح أحد اولئك وأمره باحضار الباقين من رجال القوافل لاستنطاقهم . فجاء الرجل وأخبر عبد الله بوجود بعض الجنود الاتراك المعسكرين على التلة .

فارتبك عبد الله وأرسل أحد الخيالة ليستطلع الامر . وبعد هنيهة سمع صوت مدفع رشاش ، فاستنتج عبد الله ان الاتراك قد أرسلوا لواءً منقولاً ليقطعوا عليه خط الرجعة ، فأمر خيالته بالهجوم ، فهاجم هؤلاء الرشاش الذي أوقع بهم اصابات قليلة وشتّتوا الاتراك ففرّ اشرف على قدميه إلى قمة التلة ، فوضع عبد الله جائزة مالية قدرها الف جنيه ذهباً لمن يأتي به حياً .

وقبيل الغسق وعقب معركة قصيرة أسَره الشريف « فوزان الحارث » وقد وجدوا بين متاعه مبلغاً من المال قدره عشرين ألف جنيه ذهبي وثياباً فاخرة وهدايا ثمينة وبعض الاوراق الهامة واحمالاً من البنادق والمسدسات والذخائر . فكتب عبد الله كتاباً يتألق سروراً إلى فخري باشا (يخبره فيه بأسره لأشرف بك) ، وسمّر هذا الكتاب بعمود التلغراف المغروس إلى جانب الخط الحديدي ، ثم تابع سيره إلى وادي عيس .

كانت هذه الاخبار بمثابة توفيق مزدوج بالنسبة لنا . فتسلل الشاعر بهدوء بين الرجال الفرحين ورفع يده فصمت الجميع وخيم السكون . ثم أخذ يمجد الحادث ويمتدح عبد الله الذي جاءه المجد سريعاً .

شاهد فيصل خنجراً مرصعاً بالجواهر في حزام رجا . ولما سأله عنه عرف انه خنجر اشرف فقذف فيصل بخنجره إلى رجا وأخذ خنجر اشرف ليهديه إلى الكولونيل ولسون . ثم استطرد يسأل رجا :

— « ما الذي قاله أخي لاشرف ؟ »

فأجابه رجا :

— « لقد سأله أبهذا تكافئ إحساننا ؟ »

ثمّ استطرد رجا قائلاً :

— « فأجابه اشرف : انني أقاتل دون ما اعتبار لعدالة القضية التي أقاتل من أجلها . »

وهنا سأل محمد علي الشره الطمّاع رجا قائلاً :

— « كم مليوناً وزع عبدالله على العشائر . فلقد سمعنا انه كان ينثر عليهم الذهب نثراً . »

* * *

تابعنا سيرنا في صباح اليوم التالي مرتاحي الخواطر . وأخذنا نخترق الوادي المجدب المنحدر في « الصخور » . كانت رحلتنا رحلة مبهجة فالطقس رطب والجمع غفير .

حثثنا الخطى نحو « ابو زريبات » وكانت الشمس ترتفع في سماء خلت من الغيوم وترسل كعادتها بأشعة تبهر العينين وهي تتراقص فوق ذرات الرمال والاحجار الصوانية الملساء . وكانت دربنا تتسلق هضبة كلسية ذات جانبين نخرين متآكلين تطل على منحدر مجدب قاحل مفروش بالحصباء السوداء ، ويسير بيننا وبين البحر الذي يرقد في حوضه على مسافة ثمانية أميال إلى الغرب منا بحيث لا تدركه أبصارنا .

توقفنا في الطريق وشعرنا بأن نقرة واسعة ستعترض طريقنا ، غير اننا لم نرها حتى الساعة الثانية بعد الظهر . في تلك الساعة وجدنا إلى الجهة الشمالية الغربية منا دلتا ضخمة تبصق الماء من أفواه عشرين فتحة ، وشاهدنا الخطوط السوداء التي أنشأتها السيول أقنية لها ، مفروشة بالحصى والحجارة ، تنحرف وتتعرّج وتميل على سطح من التربة مستو لتلامس سفوح التلال تحتنا وتعود لتنطلق وتغيب في بحر لا تراه أبصارنا . وانتصب وراء « وادي حمد » تلة مزدوجة تشكل « جبل رعل » ، تبدو مجزوزة الظهر ، لكن جرحاً عميقاً غائراً يشطرها شطرين في الوسط . وقد كان هذا المنظر بالنسبة لعيني المتخمة برؤية الاشياء الصغيرة منظراً جميلاً رائعاً .

فهنا نهاية نهر جفّت ماؤه ، نهاية نهر أضخم من الفرات . إنه أكبر وادٍ في الجزيرة العربية .

سرنا والشوق يملأ صدورنا والترقب يداعب بأنامله مشاعرنا وأخذت تطالعنا خطوط من الاعشاب تزداد عرضاً وطولاً كلما خطونا في اتجاهها . وفي الساعة الثالثة دخلنا « وادي الحمض » ، فألفينا مجراه يتجاوز الميل عرضاً تملأه أدغال تتسلقها تلال رملية يبلغ ارتفاعها القدم . وكانت هذه التليلات رطبة تغوص فيها مياسم جمالنا فتحدث صوتاً شبيهاً بصوت قدم يضرب في العجين .

ارتفع الغبار في سحب كثيفة خالطتها أشعة الشمس لتزيد في كثافتها كثافة . فالهواء الميت في حوض الوادي كان باعثاً على الارتباك ، إذ كان من الصعب على صفوفنا الخلفية أن تشق طريقها وذلك كلما تقاربت التليلات . وقبل أن نصل وسط الوادي كانت الادغال تغطي كل بقعة وقد وقفت بعضها إلى جانب بعض تلامس أغصان الواحد منها الآخر . وبدت لنا فروعها المثقلة بالطين والغبار جافة نخرة كأنها عظام بالية . وضغطنا بعباءاتنا على أجسادنا وطأطأنا رؤوسنا لنحمي عيوننا واندفعنا اندفـاع عاصفة تجتاح القصب .

كان الغبار يعمي أبصارنا وتغصّ به حلوقنا والاغصان تتخطفنا والجمال تهدر متذمرة ، والرجال يصرخون ويقهقهون . وبدا لنا اننا نعيش مغامرة نادرة .

٢٦

قبل أن نصل الضفة البعيدة للوادي ظهرت التربة فجأة لامعة نظيفة تغوص في حوض من الطين شاهدنا فيه مصمد ماء يقارب ثمانين ياردة

طولاً ويتجاوز الخمسة عشر ياردة عرضاً ، فعرفنا فيه مصمد مـاء ابي زريبات الذي كان مقصدنا ، فخطونا قليلاً إلى الامام حتى وصلنا إلى الضفة الشمالية المكشوفة حيث أشار فيصل لنا كي نضرب خيامنا ومعسكرنا . وكان موقع المعسكر الذي اختـاره لنا فيصل سهلاً واسعاً كبيراً فرش بالرمال والحجارة الصوانية وينتهي عند أقدام جبل رعل ، فيه متسع لجميع جيوشنا .

فترجلنا عن رواحلنا ، وسارع العبيد إلى تنزيل الاحمال عن الجمال ، وأخذ غيرهم يضرب خيامنا بينما اتجهنا نحن نتفقد البغال العطشى التي لم تذق طعم الماء طيلة النهار ، فرأيناها تندفع وجنود المشاة إلى مصمد الماء تشرب وترفس المياه العذبة بأرجلها . وقـد كان توفّر الوقود مبهجاً ومسراً . فحينما عسكرنا كان الجنود والرجـال يتسارعـون ليحتطبوا ثم يجلسون حول النيران الهـادرة في حلقات وجماعـات . وكانت هذه النيران ترحب بنا لتقينا الرطوبة التي أخذ يتصاعد ضبابها في السماء .

كانت ليلة ظلماء غاب فيها القمر ، غير انه بدت لنـا من خلال الضباب نجوم لامعة ، وشاهدنا تليلة بالقرب من خيمتنا تشمخ برأسها فوق بحر من ضباب أبيض ، وتطلّ من على قمتها سطوح خيام وأعمدة عسلوجية من دخان ذائب يتفجر جمالاً وروعة تمتد النار بألسنتها عالية لتلعق الهواء النقي كأنها مسوقة بضجيج جيش خفي . ولقد صحّح لي « عودة بن زويد » حينما قلت جيشنا إذ قال ان ما أراه ليس بجيش بل انه عالم بأكمله يزحف إلى « الوجه » . وقـد سررت سروراً عميقـاً بالملاحظة الـتي أبداهـا ابن زويد . فلقد أردت من وراء كلامي ذاك ان استثير الشعور ذاته الذي عبّر عنه ابن زويد ، إذ كنا قد لاقينا الصعوبات في توجيه هذا الحشد وقيادته خلال زحفنا الطويل العسير .

وفي تلك الليلة بدأت جموع عشيرة بيللي تتوافد علينا ، وجاء بين

هذه الجموع حمد الرفادي على رأس كتيبة من أفراد عشيرته ليقدّم ولاءه إلى فيصل .

وقد أخبرني ان ابن عمه سليمان باشا زعيم العشيرة موجود الآن في ابو عجاج ، التي تبعد عنا خمسة عشر ميلاً شمالاً ، وانه يكدّ فكره ليصل إلى قرار ، هذا الفكر الذي استطاع ان يحافظ على توازنه وان يؤمن له المزيد من المنافع .

ودون سابق انذار دخل الشريف ناصر ، شريف المدينة ، فقفز فيصل على قدميه وعانقه عناقاً حاراً ثم قاده الينا . فلقد كان رائد الثورة العربية وهو الذي أطلق الرصاصة الاولى في المدينة . وقد أراد القدر له أيضاً ان يطلق الرصاصة الاخيرة فيها . وذلك في قرية المسلمية الواقعة إلى الشمال من حلب ، وفي اليوم ذاته الذي طلبت فيه تركيا عقد الهدنة مع الحلفاء ، وكان سجل ناصر منذ بداية الثورة حتى نهايتها سجلاً مليئاً بعاطر الاعمال .

وناصر هذا شقيق للشريف شهاد أمير المدينة . وعائلتهما تنحدر من الحسين النجل الاصغر للامام علي بن ابي طالب ، وكانا الوحيدين من سلالة الحسين . وكان ناصر آنئذ في السابعة والعشرين من عمره ذا جبهة منخفضة عريضة تناسب عينيه الحساستين . وقد أقام في هذه المنطقة مدة شهرين كي يقطع خطوط المواصلات مع الوجه . وأخبرني بأن قوى الهجانة التركية التي كانت تتمركز على طريقنا قد انسحبت هذا الصباح إلى مراكز الدفاع الرئيسية .

أوينا إلى اسرّتنا في ساعة متأخرة ، وذلك كي نتمكن من انهاء محادثاتنا . وكان العبء الأكبر من الاعمال يقع على عاتق فيصل . أما ناصر فكان يحتل مركز معاون له في القيادة .

في اليوم التالي ، كان النهار مشمساً دافئاً يهدّد بالحرارة ، وذهبت برفقة نيوكمب لنلقي نظرة على الرجال وهم يتزودون بالماء ، متقاطرين

جماعات وأفواجاً . وعندما ارتفعت الشمس عالية في قبة الفلك شاهدنا سحابة من غبار كثيف تعلن عن مقدم جماعة من الناس . فعدنا إلى خيامنا لنشاهد مرزوق الكحيمي رئيس خدم فيصل والمشرف على مضافته، وسار على رأس أبناء فخذه من عشيرة جهينة ماراً بالامير ليقوم باستعراض أمامه . ولقد أثاروا الغبار في وجوهنا بينما كان شيوخهم يحملون راية كبيرة حمراء وأخرى بيضاء ممتشقين سيوفهم ويطلقون الاعنة لخيولهم وهي تدور حول خيمة الامير .

وقريب الظهر حضرتْ جموع فخذ ولد محمد من عشيرة حرب وهجانة بني شفعة إلى معسكرنا . وكان يبلغ عدد هؤلاء الثلاثمئة ويقودهم الشيخ صالح والشيخ محمد بن شفعة .

تأخرنا مدة يومين عن موعدنا مع الاسطول . لذلك قرر نيوكمب ان يسبقنا ليقابل بويل ويشرح له عدم استطاعتنا الوصول في الموعد الذي ضربناه للسفينة « هاردنغ » مع رجائنا إلى بويل كي يأمر السفينة بملاقاتنا في مساء اليوم الرابع والعشرين حيث نكون آنذاك بمسيس الحاجة إلى الماء . وطلبنا منه أيضاً ان يرجو السفينة ان تؤخر هجومها حتى اليوم الخامس والعشرين وذلك كي ننفّذ الخطة الموضوعة في تناسق وانسجام .

استيقظنا صباحاً وامتطينا رواحلنا وسرنا مدة ثلاث ساعات في وادي حمد ، ثم فارقنا الوادي لنتجه يساراً ثم يميناً ولنعبر حوضه إلى أرض مهجورة مجدبة .

كان الطقس بارداً وأخذت رياح شمالية تهبّ من الشاطئ الرمادي لتجلد وجوهنا بسياطها . وترامت الينا لعلعة رصاص متقطعة من جهة الوجه ، وخشينا أن يكون صبر الاسطول قد نفد وأقدم على الهجوم دون أن ينتظر وصولنا . وعلى كل حال لم يكن بامكاننا ان نعوض ما فاتنا من أيام . لذلك أخذنا نقطع المرحلة المملة دون توقف نجتاز

رافداً بعد رافد . وكان السهل الذي نسير فيه مخططاً بنوع من تلك الوديان الضحلة المستقيمة الجرداء ، وهي كثيرة كثرة الاوردة والشرايين في راحة اليد . وأخيراً عدنا لندخل وادي حمد من جديد في موقع القرنة . ومع ان حوضه لم يكن يضمّ سوى الطين فقد قررنا ان نعسكر فيه . وبينما كنا نضرب خيامنا شاهدنا فجأة جماعة من عشيرة جهينة تتدافع نحو جمال ترعى في الشرق منا لتأتي بهـا إلى فيصل ، فما كان من فيصل وهو يرى هـذا المنظر إلا أن غضب غضباً شديداً وأخذ يصيح داعياً ذاك الجمع إلى العودة لكنهم كانوا أكثر حماسة من ان تسمع آذانهم نداءه ، فتناول عندئذ بندقية وأطلق النار على أحدهم فوقع عن جمله ، غير ان الآخرين تابعوا غارتهم وعادوا بالجمال فدعاهم فيصل اليه وأعاد الجمال إلى أصحابها من عشيرة « بيللي » . ولو ان فيصلا لم يفعل ما فعله لأثار الفتنة بين عشيرتي جهينة وبيللي ، هذه العشيرة التي كنا نأمل في ان تصبح حليفة لنا في الغد . وهكذا كان نجاحنا كثيراً ما يتوقف على مثل هذه التوافه .

اتجهنا في صباح اليوم التالي إلى الشاطئ . ووصلنا « حبان » في الساعة الرابعة مساءً ، فوجدنا السفينة هاردنغ في انتظارنا تحمل الينا الاسعافات من الماء . قمنا بسقي البغال أولاً . ثم وزعنا ما فاض عنها على المشاة . أما أنا فصعدت إلى ظهر السفينة وعلمت من بحارتها ان بويل قام بتنفيذ الخطة كما لو ان القوات البرية حاضرة في موعدها . وذلك خشية ان تمكّن انتظاره الطويل الاتراك من الفرار .

وفي يوم وصولنا ابو زريبات وجّه أحمد توفيق بك حاكم الوجه إلى الحامية التركية أمراً يومياً جاء فيه بأن على الحامية ان تحافظ على الوجه حتى آخر نقطة من دمائها . ومع ذلك امتطى جمله في الغسق برفقة بعض الخيالة وفرّ . أما المئتان من المشاة الاتراك فقد عزموا على تنفيذ الأمر الذي تخلّى قائدهم عن تنفيذه فأخذوا يقاومون القوات المهاجمة

لكن عددهم كان ضئيلاً إذا كان بنسبة ١ — ٣ .

وكان كل ما علمناه من بحارة هاردنغ ان القتال لم ينته بعد وان بلدة الوجه قد احتلتها قوات العشائر بقيادة صالح ومعاونة البحارة البريطانيين .

٢٧

ملأت الشائعات الطيبة جيشنا فرحاً وحماسة وأخذ يتقدّم عقب منتصف الليل نحو الشمال . وبدأنا مع الفجر ننطلق من وادي « ميّه » ، الواقع على بعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب من البلدة ، لنقاتل بعض الجنود الاتراك المشتتين الذين وُضع حد سريع لمقاومتهم . وترجل رجال عقيل عن مطاياهم وتعروا من ثيابهم ، وكان ابن دخيل قائدهم رجلاً مطاعاً بينهم ، وكانوا يتقدمون في سرايا وفي نظام مكشوف يفصل بين السرية والسرية مسافة تبلغ خمس ياردات . تتبعها سرايا مساندة أخرى .

ووصلوا أخيراً مرتفعاً وتسلقوه دون أن يطلقوا عياراً نارياً واحداً . وهكذا علمنا وتيقنا من ان العمل قد انتهى بالنسبة لنا ، فتقدمنا إلى الامام لنجد ان الفتى صالح نجل ابن شفعة قد استولى على البلدة .

وفي المعركة ضمن البلدة فَقَد صالح عشرين قتيلاً من رجاله واصيب أحد الطيارين ، وهو ملازم بريطاني يقود طائرة استكشاف ، بجرح عميق ، كما ان بحاراً بريطانياً آخر قد أصيب في قدمه .

وكان « فيكري » الذي أدار المعركة مرتاحاً مسروراً ، غير انني لم

أشاركه ارتياحه أو سروره . فأنا أعتقد واؤمن بأن كل عمل غير ضروري خطيئة أيضاً . الهجوم كان خطأً فادحاً ، فالمائتا جندي تركي في «الوجه» لم يكن لديهم وسائل نقل أو طعام ، لذلك فانهم لو حوصروا لبضعة أيام لأرغموا على الاستسلام . ونحن أردنا الاستيلاء على بلدة الوجه لنستعملها قاعدة ضد الخط الحديدي ولنوسع منها جبهتنا ، غير ان ما شاهدته فيها من تدمير وتقتيل كان بمثابة تصرف فاجر لا يليق .

فالبلدة كانت مدمرة تدميراً غير ضروري . لقد سبق لفيصل ان أنذر سكانها بالهجوم المرتقب وخيّرهم بين الثورة على الحامية التركية وبين اخلائهم للبلدة . وبما انهم كانوا في معظمهم من غير سكان الحجاز لذلك فضلوا الاتراك علينا وأخلوا البلدة . وهكذا وجد رجال ابن شفعة منازل السكان مليئة بالغنائم فكنسوها وسلبوا المتاجر وحطّموا الابواب وفتشوا كل غرفة وكسروا الصناديق والخزائن ومزقوا الستائر والفُرُش والوسائد مفتشين عن الكنوز الخبيئة ، بينما كانت مدافع الاسطول تفتح بقنابلها الثغرات في جدران كل منزل .

لقد كانت اولى العقبات التي تجابهنا انزال امداداتنا إلى الشاطئ . فلقد أغرقت الباخرة فوكس جميع القوارب الأهلية في المرفأ ، فجاءت السفينة المقدامة هاردنغ وسارعت إلى نجدتنا واقتحمت الميناء وانزلت امداداتنا وأعتدتنا مستعينة بقواربها الخاصة . ثم طلبنا من جماعة ابن شفعة المتبقية مساعدتنا في تفريغ حمولة السفينة ، واستطعنا بما قدّمه الينا رجاله من عون أن ننزل كميات من الطعام تفي بحاجتنا مدة طويلة من الزمن .

ثم أخذ سكان البلدة الغاضبون علينا ينتقمون منا فيسرقون كل شيء تقع عليه أيديهم ويمزقون أكياس الرز ويغترفون منها ويفرّون . لذلك اضطر فيصل إلى تعيين مولود مخلص القاسي حاكماً للبلدة . وقد

استحضر هذا خيالته واستطاع خلال يوم واحـد أن يلقي بعدد كبير في السجون .

قبل أن أغادر الوجه إلى القاهرة بأيام قليلة بدأت تتضح لنا المكاسب التي حققها زحفنا المشهور . فلم يعد هناك الآن أيّ منافس للحركـة العربية في غربي الجزيرة ، كما ان الثورة العربية باحتلالها للوجه قـد أصبحت ما وراء خطر الانهيار . أضف إلى ذلك ان الحالة المكدرة في رابغ لفظت أنفاسها .

الجزء الثالث

٢٨

التجمع عند الخط الحديدي

وعدت السلطات في القاهرة التي أخذتْ تتأجّج حماسة وإعجاباً بما فعلناه بإعطائنا الذهب والبنادق والبغال وكمية أكثر من الرشاشات والمدافع الجبلية التي لم نحصل عليها .

لقد كانت قضية المدافع تشكل عذاباً أبدياً بالنسبة لي . وذلك لأن أرض الجزيرة المتعرجة الخالية من الطرق تجعل من مدافعنا عديمة الجدوى أضف إلى ذلك ان الجيش البريطاني لم يكن يملك من المدافع الجبليـة سوى ذاك النوع الهندي من عيار عشرة ارطال الذي يصلح استعماله ضد القوس والسهم . إلا ان بيرموند ، رئيس البعثة الفرنسية العسكرية في الحجاز ، كان يملك مدافع جبلية ممتازة من طراز شنيدر ٦٥ ، وهي موجودة في حوزة الجنود الجزائريين في السويس ، غير انه كان يعتبر هذه المدافع الورقة الرابحة في لعبة انزال الجنود الاجانب في الحجاز .

وعندما كنا نطلب منه أن يستحضر هذه المدافع مرفقة بطاقمها أو غير مرفقة كان يجيب ان العرب لن يحسنوا معاملة رجالها أو ان العرب لن يحسنوا استعمالها . وكان الثمن الذي يطلبه انزال لواء بريطاني في رابغ وهذا لم نكن مستعدين لدفعه .

لقد كان يخشى ان يجعل من الجيش العربي جيشاً قوياً . والمرء قد يستطيع تفهم مخاوفه هذه ، ولكن موقف الحكومة البريطانية منا كان أمراً يستعصي على الفهم . فبريطانيا لم تكن سيئة النوايا ، وقد سبق لها ان استجابت إلى جميع طلباتنا ما عدا المدافع الجبلية . كما انها لم تكن شحيحة ، فمساعدتها للحركة العربية بالسلاح والمال تجاوزت عشرة ملايين من الجنيهات . لذلك أعتقد ان تقصيرها في هذا الأمر كان ينبع من غباء مجرد .

ولهذا السبب الفني لم يكن في مستطاعنا أن نجابه المدفعيـة التركية بمدافعنا . ولكن أخيراً لحسن الحظ استنفد برموند اغراضه . وجاء خلفه الرائد « كوسو » الذي أمر باستحضارها . وبواسطة العون الذي أسدته لنا هذه المدافع دخلنا دمشق ظافرين . وكانت هـذه المدافع المعطـلة في السويس الدليل القـاطع على خبث النوايا الفرنسية تجـاه الحركة العربية .

وجاء التحاق جعفر باشا العسكري بثورتنا بمثابة نجدة ضخمة لنا . وجعفر هذا ضابط بغدادي خدم في الجيش التركي . ولدى بروزه في القوى المسلحة التركية والالمانية أرسله أنور باشا على ظهر غواصة لتنظيم مجندي الشيخ السنوسي . وقـد جعل من المجندين قوة عسكرية ذات شأن وأظهر مقدرة تكنيكية في معركتين خاضهما ضد القوات البريطانية ، ثم وقع أخيراً أسيراً في قبضة الانكليز ونقل إلى القاهرة واعتقل في قلعتها مع ضباط آخرين .

وقد حاول في إحدى الليالي الفرار فجدل من حرام حبلاً وربطه

إلى النافذة ثم تسلقه لينحدر إلى باحة القلعة ، غير ان الحبل انقطع به فوقع وكسر كعبه فأعيد إلى الاسر ثانية . وقد وعد أثناء وجوده في المستشفى بعدم محاولة الفرار ثانية . لذلك اكتفوا بالحكم عليه بدفع ثمن الحرام الممزّق .

وفيما كان يُطالع بعض الصحف وجد فيها أنباء عن ثورة الشريف واعدام رجالات العرب الذين كان معظمهم من أصدقائه فأيقن عندئذ انه كان يحارب إلى جانب الباطل ، ولم يكن منه إلا ان التحق بالثورة .

كان فيصل يعرف ماضيه جيداً ، لذلك فكّر في أن يجعله قائداً عاماً للقوات النظامية الـتي كان يستأثر رفع مستواها بكامل اهتمامنا وجهودنا . كنا نعرف ان جعفر العسكري هو من اولئك الرجال القلائل الذين اجتمعت لديهم الخبرة والسمعة الطيبة والشخصية القوية ، وانه لقادر على ان يصنع من هـذه القوات المتنافرة جيشاً . غير ان الشريف حسين لم يوافق على اقتراح فيصل ، إذ كان هرماً ضيّق الافق يكره العراقيين والسوريين ، وكان يؤمن بأن مكة هي الـتي يجب أن تحرّر دمشق . لذلك رفض خدمات جعفر العسكري فضمّه فيصل اليه على مسؤوليته الخاصة .

تحدثت في القاهرة إلى هوجارت وجورج لويد وستورز وديدز ، فوجدتهم مناصرين للقضية العربية ، وكانت اسهمنا مرتفعة لديهم ، حتى ليندن بل رئيس الاركان أصبح صديقاً حميماً ، وهو يؤكد الآن ان مشروعاتنا لم تعد ذات طابع جنوني . والسير ارشبالد موري القـائد العام للجيش قـد اقتنع بقضيتنا بعد ان اتضح له ان عدد الجنود الاتراك الذين يحاربون العرب يفوق عدد الجنود الذين يقاتلون في سيناء . وبدأ عندئذ يذكر كيف انـه كان أبـداً يحبـذ الثورة العربيـة ويناصرها .

في وسط هذا الفيض من العواطف الكريمة داهمتني مفاجأة قاسية . لقد تفضل الكولونيل الفرنسي بيرموند بزيارتي لتهنئتي على احتلال الوجه قائلاً : ان الاستيلاء على هذه البلدة قد وطّد ايمانه بمواهبي العسكرية . وهذا الايمان قد شجعه على ان يطلب مساعدتي لتوسيع نطاق نصرنا . وأردف يقول بأنه يريد الاستيلاء على العقبة بقوة انكليزية فرنسية وبمساعدة الاسطول . ثم أخذ يشرح لي أهمية العقبة التي أصبحت الميناء التركي الوحيد على البحر الاحمر والبقعة القريبة جداً من قناة السويس . وهي بالاضافة إلى ذلك تقع على ميسرة جيش بئر السبع . وقد اقترح ان يتم الاستيلاء عليها بكتيبة مشتركة تتقدم ... ثم أخذ يشرح طبيعة الارض شرحاً مفصلاً ...

فأجبته بأنني أعرف العقبة معرفة جيدة قبل الحرب ، وانني أشعر بأنه يتعذر تنفيذ مشروعه هذا من الوجهة الفنية . فنحن في استطاعتنا ان نستولي على شاطئ الخليج غير ان مواقع قواتنا ستكون مواقع غير ملائمة كما كانت حالها في غاليبولي ، فهي ستكون في متناول نيران المدافع المنصوبة على التلال الساحلية ، وهذه التلال صوانية يبلغ ارتفاعها الآلاف من الأقدام وهي مواقع صعب اقتحامها من قبل جنود مسلحين بالاسلحة الثقيلة . والممرات بينها مضائق هائلة يتطلب الهجوم عليها ضحايا غالية . لذلك فانني ارى انه من الميسور على القوات العربية غير النظامية ان تتسلل عن طريق التلال لاحتلالها دون ما مساعدة من الأسطول .

لم يقل لي بيرموند شيئاً . لكنني كنت أعلم بأنه يرمي من وراء انزال قوات بريطانية فرنسية في العقبة إلى حصر جنود الجيش العربي في الجزيرة العربية ، والحيلولة دون تقدمه إلى دمشق . لقد كان فريق من العرب الواعين يعتقدون بأن هناك اتفاقاً سرياً بين الانكليز والفرنسيين يقضي بأن يتخلى لهم في النهاية عن الساحل السوري ، لذلك فان نزول

جنود بريطانيين وفرنسيين في العقبة سيوطد قناعتهم بهذا الامر وبـذلك نفقد تعاونهم معنا .

وأخيراً وقف بيرموند ومدّ يده إليّ مودعاً وهو يقول بأنه سيسافر على كل حال إلى الوجه ليعرض مشروعه على فيصل .

لقد تذكّرت انني لم انبّه فيصل إلى ان بيرموند رجـل سياسي . لذلك رأيت ان عليّ ان أسارع إلى الوجه لاحبط المشروع الذي يهدف اليه . وهكذا سافرت في اليوم نفسه إلى السويس وأقلعت منها ووصلت الوجه عقب ذلك بيومين ، وشرحت مشروع بيرموند شرحاً وافياً ، وأبنت النوايا الحقيقية المستترة وراءه . ولهذا عندما حضر بيرموند عقب عشرة أيام وقابل فيصل وعمد إلى تكتيكه المعهود في عـرض مشروعه ردّ عليه فيصل بالتكتيك ذاته ولكن عقب ادخال تحسينات كبيرة عليه .

لقد بدأ بيرموند حديثه بأن قدم إلى فيصل هدية مؤلفة من سـتة مدافع رشاشة من طراز هوتشكيس برفقة مدربيها . والحق انها كانت هدية كريمة .

لكن فيصلاً اغتنم هذه الفرصة ليطلب من بيرموند ان يضاعف سخاءه راجياً منه أن يرسل اليه بطارية من المدافع الجبلية الموجودة في السويس .

حاول بيرموند ان يقلل من جدوى المدافع في حرب تنشب في الحجاز ، واستطرد يقول ان الحرب ستنتهي سريعاً فيما إذا دفع رجاله إلى تسلق التلال كالماعز وتدمير الخط الحديدي الحجازي .

غضب فيصل من تشبيه رجاله بالماعز وتطلع إلى بيرموند المديد القامة وسأله عما إذا كان سبق له أن تسلق التلال كالعنز ؟ فأشار بيرموند بلطف إلى قضية العقبة وإلى مـا يشكله بقاء الاتراك فيها من خطر حقيقي على العرب ، وألحّ على فيصل بأن يطلب من البريطانيين الذين يملكون كل الوسائل لانجاح حملة كهذه ان يقدموا على تنفيذها . فما كان من

فيصل إلا أن أخذ يصف له طبيعة الارض في ما وراء العقبة ويشرح له المصاعب العشائرية وقضية الطعام .

وكنت أجلس مبتسماً حاقداً راجياً فيصل أن يلحّ على البريطانيين بارسال السيارات البريطانية المصفحة الموجودة في السويس إلى الوجه .

اثر هذا النقاش العقيم عدت إلى القاهرة لأمضي فيها أسبوعاً سعيداً قدمت خلاله إلى رؤسائي بعض النصائح حول ارسال لواء إلى العقبة ثم عدت إلى الوجه .

٢٩

كانت الحياة في «الوجه» حقاً بهيجة . لقد قام فيصل بضرب خيامه (كانت مجموعة من الخيام الوفيرة العدد . خيام للنوم وأخرى للاستقبال وغيرها لأركان حربه وثانية للضيوف وثالثة للخدم) على بعد ميل واحد من البحر فوق مرتفع مرجاني يمتد من الشاطئ وينتهي بمنحدر يواجه الشرق حتى يتلاشى في وديان عريضة .

والحق اننا كنا في موقع جميل خاصة عندما يحمل الينا المساء نسيم البحر العليل وخرير الموج صدىً شبيهاً بما تتركه حركة المرور في أحد شوارع لندن . وتحتنا مباشرة كان يقع مخيم عقيل غير المنتظم . وإلى الجنوب من هذا المخيم كانت مدافع راسم ، وبجوار مخيم راسم قامت خيام طاقم المدافع الرشاشة بقيادة عبد الله . وكانت هذه الخيام منصوبة في خط نظامي تقف أمامها البغال في صفوف . وأقيمت بين الخيام سوق عامة كدّست فيها السلع على الارض . وكنت تشاهد جمهرة من الناس تجتمع حولها ، بينما كانت الخيام المشتتة لرجال العشائر تملأ

كل مكان . وتقع في ما وراء آخر خيمة منها أرض مكشوفة فيها الجمال ترعى . وبعدها بئر قريبة ماؤها آسن سوّرت بنخلات هائمة مشردة .

بما ان العادة في « الوجه » قد قضت بأن تفصل مسافات بعيدة بين كل مخيم ومخيم ، لذلك كنتُ أمضي أطول الاوقات خلال اليوم في الانتقال من مخيمي إلى مخيم فيصل فمخيم البريطانيين فمخيم السرية المصرية فالبلدة فالميناء فمحطة اللاسلكي . وكنت أقطع هذه المسافات على قدمي : آناً أنتقل متنعلاً وحيناً أمشي حافي القدمين على درب فرشت بالرمال المحرقة والحصباء الحادة ، وذلك كي أعوّد نفسي على المشاق . وكنتُ عقب كل جولة أشعر بتقدم ضئيل في هذا المضمار .

كنتُ كلما تبينت الدرك السحيق الذي هبطت بأساء الحياة ببعضهم اليه اشعر بيد الالم والنقمة تعمل في كبريائي تمزيقاً ، فبؤسهم ذاك كان بمثابة انعكاس صادق للاذلال الذي يعانيه الجنس البشري ، انه لأمر محتمل ان يكون لونهم مغايراً للوننا غير انه لأمر جارحٌ للكبرياء ان يحرموا من كل ما نتمتع به نحن .

كان فيصل يمضي ليله ونهاره في معالجة الامور السياسية ، تلك الامور التي لم يكن في مستطاعنا نحن أن نقدّم له يد العون فيها . أما الجمهور خارج خيمة فيصل فكان يشغل نفسه بالاستعراضات ومظاهرات الابتهاج . ولقد حدثت بعض الحوادث خلال فترة راحتنا هذه ، بينما كان بعض جنودنا يلعبون بقنبلة بحرية لم تنفجر أثناء هجوم « بويل » على البلدة ، انفجرت تلك القنبلة في أيديهم ومزّقت أجسادهم وتطايرت أشلاؤهم في الهواء وصبغت دماؤهم بعض الخيام فأمر فيصل باحراق الخيام الملطخة بالدم .

وحدث مرة أخرى أن شبّت النار داخل إحدى خيامنا وأصابت ألسنتها ثلاثة من رجالنا بحروق ، وكان يقف حول الخيمة الملتهبة جنود

يضحكون ويقهقهون لمرأى النار بينما كان غيرهم يعمل على اخمادها ، وأخيراً تقدمنا خجلين لنعتني بالمصابين .

أهدانا السير ارشبالد موري سيارتين مصفحتين من طراز رولز — رويس كانتا تعملان في جبهة افريقيا الشرقية . وكانت هاتان المصفحتان تحت امرة «جيلمن» و «ويد» اما جنودهما من مدفعيين وسائقين ، فكانوا بريطانيين من فرقة س. س . وقد أدّى وجودهم بيننا في الوجه إلى زيادة المصاعب التي نعانيها وذلك لأن الطعام الذي كنا نتناوله والماء الذي كنا نشربه كان غير ملائم لهم صحياً .

وقد قدمت البحرية لنا المساعدات الكريمة ، إذ ان « بويل » وضع السفينة اسبيجل تحت تصرفنا وجعلها محطة دائمة لنا وأصدر إلى قبطانها وبحارتها الاوامر بتنفيذ كل ما يطلبه الكولونيل نيوكمب منهم . وكان قبطان السفينة اسبيجل رجلاً كريماً مضيافاً وقد وجد لذة عميقة في الاعمال التي كنا نقوم بها ، لذلك قدّم لنا المساعدات في ألف حقل وحقل . وخاصة فيما يتعلق بالبرقيات ، إذ انه كان رجلاً اختصاصياً في هذا الفن . وعقب مدة وجيزة حملت الينا الباخرة « نورث بروك » محطة لاسلكية متنقلة تحملها شاحنة ، ولما لم يكن بيننا أحد يعرف ادارتها واستعمالها ، لذلك سارع « فيتز موريس » قبطان السفينة اسبيجل مصطحباً معه نصف بحارة سفينته إلى مساعدتنا . وقد ادار المولّد الكهربائي ونصب هوائي المحطة بسرعة فائقة مكنتنا قبيل غروب الشمس من التحدث لاسلكياً مع الباخرة نورث بروك . وقد زادت هذه المحطة في صلاحية الوجه كقاعدة إذ كانت تنقل وتستقبل ليلاً ونهاراً عشرات البرقيات في لغات ثلاث ، وفي عشرين نوع مختلف من رموز الجيش .

٣٠

كان فخري باشا يُعدّ نفسه لمواجهتنا ، فقام بحفر خنادق حول المدينة المنورة . وقد تعمّد ان تكون هذه الخنادق في مواقع تجعل المدينة بعيدة عن مرمى المدافع العربية ، المحاولة الـتي لم تحدث أبداً . ثم وزّع قواته إلى حاميات قوية عسكرت في محطات المياه الممتدة على طول الخط الحديدي بين المدينة وتبوك . كما كان يسيّر يومياً دوريات عسكرية بين كل محطة ومحطة وذلك بغية المحافظة على سلامة الخط الحديدي .

وكان جارلاند ينطلق من الوجه إلى الجنوب الشرقي ونيوكمب إلى الشمال الشرقي كي يكشفا الثغرات في الخط الحديدي ويزرعا المتفجرات . وكانا يعمدان إلى نسف الجسور والخطوط الحديدية ويبثان الالغام الزمنية تحت القطارات .

في هذه الفترة اجتاز العرب مرحلة الشك إلى مرحلة التفاؤل . لقد أصبح في استطاعة فيصل ان يعد بتؤدة الاعدادات اللازمة لنسف الخط الحديدي . غير انني رجوته أن يؤخر عمله هذا وان يقدم على تحريض العشائر الـتي تتجول وراء منطقتنا ، كي نتمكن من توسيع الثورة وتعميقها إلى شمالي تبوك ، وذلك كي نهدّد الخط الحديدي الممتد بين تبوك ومعان .

ولحسن الحظ ، فقد سبق لفيصل ان قام ببعض الاتصالات بجيرانه الشماليين عشيرة الحويطات ، فلم يكن منه إلا ان أرسل مجدداً مندوباً إلى بني عطية وهم عشيرة قوية تسكن المنطقة الشمالية من الوجه . وقد أحرز هذا المندوب نجاحاً باهراً إذ جاء إلى فيصل عاصي بن عطية وأقسم يمين الولاء .

وهكذا تمكنا من التجوال في منطقة عشيرته ، ومن ثم في منطقة العشائر التي تخضع لنوري الشعلان أمير الرولا الذي يتمتع بمكانة تلي مباشرة في أهميتها مكانة الشريف وابن سعود وابن رشيد . وكان هذا الامير الكبير من بين أمراء الصحراء الذين لم يتضح موقفهم منا بعد .

كان نوري الشعلان رجلاً متقدماً في السن يحكم عشيرة عنيزة منذ ثلاثين عاماً وكانت عائلته ذات نفوذ كبير في عشيرة الرولا . ولم يصل نوري الشعلان إلى مركزه هذا بسبب مولده أو شعبيته ، بل انما تبوأه معتمداً على القوة التي كان يتمتع بها . وكي يصبح رئيساً اضطر إلى قتل أخوين من اخوته ، وقد نجح فيما بعد في ضم عشيرة الشرارات إلى توابعه من العشائر الأخرى . وكانت كلمته هي القانون النافذ في جميع مناطق تجوال عشائره . وكان الجميع يهابونه ويرهبونه ويطيعونه طاعة عمياء . لذلك كان علينا كي نتمكن من استخدام الطرق المارة بمناطقه ان نتصل به ونكسب وده ، ولحسن الحظ كان فيصل قد حقق لنا هذه الغاية منذ سنوات طوال فكانا يتبادلان الهدايا ما بين ينبع والمدينة ودمشق والصحراء . لهذا أرسل فيصل بفايز الغصين ليقابله ويحادثه .

وقد قابل فايز الغصين في طريقه ابن ضغمي أحد مشايخ عشيرة الرولا الذي كان في طريقه إلى فيصل ليقدم له هدية مؤلفة من بضع مئات من الجمال ، أما نوري الشعلان فكان آنذاك بالطبع لا يزال يحتفظ بعلاقات ودية مع السلطات التركية ، إذ كانت دمشق وبغداد هما الموردان الرئيسيان لتموين عشيرته بالمواد الغذائية . لهذا كان في استطاعة الاتراك ان يميتوا عشائره جوعاً في مدة أقصاها ثلاثة شهور فيما لو أقدم على عمل يجعله مداراً للشك في نظرهم . ومع ذلك كنا واثقين من اننا نستطيع أن نعتمد على مساعدته المسلحة في اللحظة المناسبة .

كنا نريد من نوري الشعلان ان يفتح أمامنا وادي السرحان . وهذا الوادي يخترقه طريق مشهور وأرضه صالحة للمخيمات وهو وفير المياه ويمتد من الجوف مركز نوري الشعلان شمالاً إلى الازرق القريب من جبل الدروز في سوريا ، كما انه كان علينا ان نحصل على حرية المرور في وادي سرحان كي نتمكن من الوصول إلى مضارب عشيرة الحويطات الشرقية ، هذه العشيرة التي تضم نخبة من المقاتلين المشهورين بشجاعتهم وبأسهم والتي كان يرئسها « عودة » اشجع مقاتل عرفته مناطق الجزيرة العربية الشمالية .

وبواسطة « عودة » هذا وحده كان بمقدورنا ان نثير القبائل العربية من معان إلى العقبة لاحتلال العقبة والاستيلاء على التلال التي تتحصن فيها الحاميات التركية .

لذلك كنا منذ أيام ينبع نتحرق شوقاً للقياه ونبذل الجهد الحثيث لكسبه إلى صفنا . وقد ساعدنا الحظ ونحن في الوجه إذ قدم إلى مخيمنا في اليوم السابع عشر من شباط (فبراير) « زعل » ابن عم عودة . والحق ان هذا اليوم كان يوماً سعيداً بكل معنى الكلمة فلقد حضر أيضاً في فجر ذلك اليوم خمسة من شيوخ عشيرة الشرارات الضاربة في الصحراء الشرقية من تبوك يحملون الينا الهدايا من بيض النعام . ودخل بعدهم ضيف الله وابو الطيور ابن عم حمد بن جازي رئيس عشيرة الحويطات الوسطى المخيمة في هضبة معان .

اجتمع لدينا ذلك اليوم مقاتلون أشداء عديدون لكنهم كانوا جميعاً أعداء ألداء لفخذ ابي طيه بسبب خلافهم وعودة على ملكية قطعة من الارض .

وحضر على اعقاب هؤلاء قريب لنواف الشعلان النجل الاكبر لنوري الشعلان ليقدّم إلى فيصل فرساً أصيلاً . وكانت عائلة الشعلان وعائلة جازي عائلتين عدوتين ، لذلك أخذ الحضور من أفراد هاتين

العائلتين يحدجون بعضهم بعضاً بنظرات حاقدة . طقيقة

وعقب قدوم وفد الرولا أعلن عن حضور الشيخ ابو طقطقة زعيم عشيرة الحويطات المستقرة على الشاطئ حاملاً معه الغنائم التي غنمها أفراد عشيرته عقب استيلائهم على المركزين التركيين الواقعين على البحر الاحمر المعروفين باسمي ذهبه ومويلح ، فأفسح له فيصل مكاناً على البساط الجالس عليه وأخذ يثني على نشاط عشيرته ثناءً حاراً ، هذا النشاط الذي دفع بنفوذنا إلى حدود العقبة ، مع ان منطقته كانت وعرة المسالك بالنسبة للعمليات الحربية فقد كانت قاعدة جد ممتازة لنا لتنسم الاخبار ونشر الدعايات .

وعقب الظهر وصل « بن زعل » بصحبة عشرة شيوخ من أتباع عودة فقبّل يد فيصل مرتين الاولى عن عودة والثانية عن نفسه ، واعلن ان عودة قد أرسل به ليقدم ولاءه إلى فيصل وليطلب منه اصدار أوامره اليه ، وقد كبح فيصل جماح فرحه بهذا الامر ، وقام بتقديم ابن زعل إلى أعدائه ، افراد عشيرة حامد بن جازي ، غير ان تحية ابن زعل لهم كانت تحية فاترة وعقب هنيهة عقدنا اجتماعاً خاصاً معه واعدناه إلى عودة محملاً بالهدايا الثمينة وبرسالة من فيصل تقول بأن فيصلاً لن يطمئن حتى يقابله وجهاً لوجه ويتحدث اليه .

وقد جنينا من وراء قدوم هذه الشخصيات البارزة علينا الكثير من الفوائد . وكانوا جميعاً يقسمون بين يدي فيصل على القرآن بما يلي : « ان يخيموا حيث يخيم وان يزحفوا حيث يزحف وان لا يطيعوا أي أمر يصدر عن أي مرجع تركي ، وان يحسنوا معاملة كل من ينطق باللغة العربية سواء كان ذلك الشخص بغدادياً أم حلبياً ، أم شامياً ، وان يضعوا قضية الاستقلال فوق العشيرة ومتاع الدنيا . »

أخذ فيصل يصلح ذات البين بين العشائر المتخاصمة المتنافرة ويزيل ما علق بالنفوس من رسوبات الثأر . وكان يدفع من جيبه ما يختلف عليه

من فوارق تقدير قيم « الديات » وذلك كي يعيد سريعاً طريق الوئام بين المتخاصمين .

وبالفعل كان فيصل بمثابة محكمة التمييز العليا وحكمه غير قابل للنقض في غربي الجزيرة العربية ، وفي ذلك اظهر حكمة بالغة لا سيما في الاحكام التي كانت تصدر عنه . فهو لم يكن يتحيز أبداً لأي من الطرفين المتخاصمين مستعيناً على ذلك بحصافته المشهورة وذاكرته العجيبة . وقد مكنته هذه الخصال الحميدة من السيطرة على جميع العشائر الضاربة في المدينة حتى دمشق وما وراءها .

وبذلك أصبحت الحركة العربية حركة وطنية قومية تساوي بين العرب جميعاً .

٣١

داهمتني خلال هذه الاحداث المبهجة رسالة من كلايتون يأمرني فيها بالانتظار في بلدة الوجه مدة يومين ومقابلة باخرة الحراسة المصرية « نور البحر » لاتلقى منها الاخبار والتعليمات . وكنت حين وصول الرسالة مريضاً . وقد وصلت الباخرة في اليوم المحدد لها ونزل منها « ماك روي » وأعطاني نسخة من برقية مطولة أرسلها جمال باشا إلى فخري باشا في المدينة . وكانت هذه التعليمات صادرة عن أنور باشا وهيئة الاركان العامة الالمانية وتأمر فخري باشا بأخلاء المدينة المنورة فوراً والانسحاب بقواته إلى العلا فتبوك وأخيراً إلى معان حيث يتوجب على فخري باشا ان يُقيم خطوطاً دفاعية جديدة في هذه البلدة .

وكانت هذه الخطة تتفق تماماً ورغبات العرب وتلائم اغراضهم

غير انها قد ازعجت جيشنا في مصر واربكت قيادتنا العليا فيها فجلاء خمسة وعشرين الف جندي اناضولي يملكون مدفعية قوية وتمركزهم في معان يهددان تهديداً مباشراً ميمنة جيشنا العامل في قطاع بئر السبع . لذلك طلب مني كلايتون ان اولي هذا الموضوع فائق اهتمامي ، وان اسعى بكل ما أملك من جهد للاستيلاء على المدينة المنورة وتدمير حاميتها التركية . وكان الكولونيل نيوكمب أثناء وصول رسالة كلايتون خارج « الوجه » يقوم بسلسلة من التخريبات على الخط الحديدي الحجازي ، لذلك وقعت على كاهلي مسؤولية تنفيذ تعليمات كلايتون . وقد خشيت ان تكون الفرصة قد فاتتنا وذلك لأن البرقية إلى فخري باشا قد ارسلت منذ أيام عديدة .

لهذا قمت باطلاع فيصل على البرقية ورسالة كلايتون وقلت له ان تنفيذ هذه التعليمات قد يلحق بعض الضرر بالعرب وأردفت أشرح له بصراحة وقلت ان موقف الحلفاء ومصلحتهم يتطلبان بعض التضحيات أو بالاحرى تأجيل تنفيذ الخطط التي هي في صالح العرب . فما كان من فيصل إلا أن وافق كما هي عادته عندما يتوجه الانسان إلى نخوته ، ووعد بأن يبذل كل ما لديه من جهود لتنفيذ ما تطلبه القيادة في مصر . ثم جلسنا معاً نتدارس وسائل التنفيذ ، والزحف بهذه الامكانات إلى محاذاة الخط الحديدي . وقررنا أن يتوجه فوراً الشريف مستور ، وهو رجل شهم صامت متقدم في السن ، وراسم على رأس قوة من رجال العشائر وأخرى من المشاة المحمولين إلى مركز « الفقير » وهو أول مركز فيه بئر ماء عذب يقع إلى شمالي وادي عيس ، وذلك كي يسيطروا على القطاع الاول من الخط الحديدي الواقع شمالي المنطقة التي تحتلها قوات الشريف عبدالله . وقررنا أيضاً ان يقوم علي بن الحسين الحدي بالهجوم على القطاع الثاني من سكة الحديد الواقع شمالي قطاع الشريف مستور ، ثم طلبنا من ابن مهنا ان يقترب من مركز العلاء وان يراقبه

مراقبة دقيقة ، وأمرنا الشريف ناصر ان يبقى بالقرب من قلعة المهدام وان يحافظ على قواته في حالة استنفار حتى نطلب منه العمل . ثم ارسلت رسالة إلى الكولونيل نيوكمب أطلب منه الحضور الينا كي نطلعه على آخر ما ورد الينا من أخبار .

وأخيراً قررنا أن يتحرك محمد علي الطاعن في السن على رأس رجاله من موقع « ذهبة » إلى واحة تقع بالقرب من تبوك ، وذلك كي نكون في حالة استعداد فيما إذا بلغت القوات التركية في انسحابها بلدة تبوك . أما فيصل فكان عليه ان يبقى معسكراً في منطقة الوجه والبالغ طولها ١٥٠ ميلاً وذلك كي يسارع إلى نجدة كل قطاع يحتاج إلى مساعدته . ومن ثم قررت أنا ان أتوجه إلى زيارة عبد الله في وادي عيس لاستطلع الاسباب التي جعلته لا يقوم بأي عمل طيلة الشهرين المنصرمين ، ولارجوه ان يهاجم الاتراك حالما يخرجون من مواقعهم . وكنت شديد الامل لدى تنفيذ هذه الخطة في ان نشل حركة القوات التركية .

غادرت في اليوم الثاني بلدة الوجه وأنا لا أزال مريضاً . وكان رفاقي أربعة رجال من عشيرة رَفَعَة وواحد من جهينة وهو الدليل ، ورسلان عسكري خادم اعتاد ان يُعدّ لي الخبز والارز ، واربعة من عقيل وعبد ورجل من عشيرة عتيبة . أما رواحلنا فكانت هزيلة نتيجة لجدب منطقة عشيرة بيللي ، لذلك كانت بطيئة في سيرها .

قبل انبلاج الفجر بوقت طويل استيقظنا وامتطينا رواحلنا الهزيلة . وفيما نحن في الطريق اشتدت عليّ وطأة الزحار ، وجلسنا نستريح . أمضى رفاقي يومهم بين مشاجرات وملاسنات ، وبينما كنت مستلقياً تحت صخرة ترامى إلى أذني صوت عيار ناري فلم أعره أدنى اهتمام إذ ان الوادي مليء بالعصافير والارانب . ولكن بعد هنيهة أيقظني أحد رفاقي وطلب مني ان أتبعه ، فسرت وراءه حتى اخترقنا الوادي حيث

وجدت على ضفته الأخرى احد رجال عقيل من رفاقي قتيلاً بين الصخور . وقد لاحظت ان رصاصة قد اخترقت صدره كما تبينت من الحروق ان النار قد اطلقت عليه عن مسافة قريبة . وألفيت رفاقي الآخرين من عقيل يتراكضون . وعندما سألتهم عما حدث قالوا لي ان العبد حامد هو القاتل .

فأرسلتهم جميعاً ليبحثوا عنه ثم زحفت إلى حيث وضعت متاعي . وبينما كنت أجلس في مكاني سمعت ضجيجاً فالتفت ورائي فرأيت حامداً يسحبه الرجال من رقبته فشهرت مسدسي في وجهه وطلبت منه أن يعترف لي بما حدث .

فالقى ببندقيته إلى جانب متاعه واستسلم إليّ حتى حضور رفاقي الآخرين . ثم عقدت فوراً محكمة لمحاكمته على جريمته . وقد اعترف بأنه قد حدثت بينه وبين القتيل ملاسنة أغضبته وجعلته دون ما وعي يمسك ببندقيته ويطلق عليه النار . وانتهت محاكمتنا باعترافه هذا وطلب ابناء عقيل بوصفهم أقارب المغدور برأس حامد . وقد ساندهم في طلبهم هذا رفاقي الآخرون . وقد حاولت عبثاً ان أثني هؤلاء عن عزمهم ولكن دون جدوى .

لذلك لم أجد بداً من ان أعلم حامداً بأنه عليه ان يلاقي جزاء عمله . وقد أخذت على عاتقي تنفيذ حكم الاعدام فيه .

قدت حامد أمامي وسرت به في وادٍ ضيق يخترق تلتين ، وكان الوادي يضيق كلما توغلنا في داخله ، ورأيت الطحالب والحشائش تكسو جداريه . وعندما أمسى عرض الوادي الرملي لا يتجاوز الانشات القليلة وأصبح يجري بين جدارين عمودين أوقفت حامداً وأعطيته مهلة لا تتجاوز الدقائق القليلة حيث أمضاها يتمرغ على الارض باكياً نادباً ثم أمرته بأن ينتصب واقفاً على قدميه وأطلقت النار على صدره فوقع .

أخذ يتدحرج حتى أصبح على مقربة مني فأطلقت بيد مرتجفة عليه الرصاص مرة ثانية فحطمت رصاصتي رسغه فأخذ يصيح مستغيثاً ، ولكن بصوت أقل ارتفاعاً . وكان مستلقياً على ظهره فانحنيت وأطلقت عليه للمرة الاخيرة طلقة سددتها من تحت فكه إلى رقبته فارتعش جسده ثم همد . عندئذ دعوت رجال عقيل وأمرتهم بأن يواروه التراب .

لم أستطع النوم عقب هذا الحادث طيلة الليل . وقبل الفجر بساعات أيقظت رفاقي ، وامتطينا رواحلنا لأتحرّر من شبح الجريمة .

٣٢

بدأنا مرحلتنا الجديدة وانا على أشد ما أكون من الانزعاج فقطعنا كثيراً من الاودية والتلال . وبعد يومين من المتاعب وصلنا مخيم الشيخ فهد الخنسا ، وهو مقاتل ثوروي قديم . كان من الذين زحفوا معنا إلى الوجه ، وحضر مع جارلاند تفجير أول لغم زمني تحت قطار للجنود .

لم يسمح لي الشيخ فهد بأن أخلد إلى الراحة خارج خيمته بل أرغمني على الدخول اليها ، ثم أخذ يجرعني حليب الابل طاساً بعد أخرى ، ويستفسر مني عن أوروبا وعن عشيرتي وعن مراعي الجمال في بريطانيا وعن الحرب في الحجاز والحروب في ميادين أخرى وعن دمشق ومصر وعن صحة فيصل واخوانه ، وعن أسباب زيارتنا لعبد الله ، وعن السبب في بقائي مسيحياً . ظل حديثنا يدور حول مثل هذه الموضوعات حتى العاشرة ليلاً حيث احضر بعض رجاله خروفاً ملكياً يتربع على بيدر من

ارز رواه السمن ، فأكلت كما تقضي بذلك التقاليد ثم التحفت بعباءتي ونمت نوماً عميقاً .

لكن مرضي نبّه مخيلتي الكسولة وأثارها ، فأقلعت بي في بحر هائج من الاحلام . فرأيت نفسي أتجول عارياً في أبدية مظلمة لحقول بركانية لا نهاية لها أو حدود ، صخورها حادة كالموسى ، وخزها أليم كعضات البعوض ، كل ذلك مع شبح المغربي « حامد » الميت يطاردني .

استيقظت في الصباح الباكر منتعشاً نشيطاً ، وعقب ان تجرعت طاساً أخرى من حليب الابل استطعت أن أمشي إلى راحلتي وان امتطيها دونما عون فقطعنا آخر مرحلة الوادي . وظلت جمالنا تخبّ حتى وصلنا مع الظلام إلى حوض وادي عيس . وهناك توقفنا لنعسكر في العراء لآخر مرة قبل وصولنا إلى مخيم عبد الله . وقد سررت سروراً بالغاً لاقترابنا من نهاية رحلتنا . إذ ان درجة حرارتي كانت تلك الليلة مرتفعة ارتفاعاً عالياً جعلتني أرهب من ان أسقط فريسة للمرض .

وأمر علاجي على يدي رفاقي من رجال العشائر لم يكن مما يثير في نفسي اغتباطاً أو بهجة ، إذ كان علاج العشائر لمرضاهم يتمثّل في الكيّ . والكيّ علاج ناجع لمن يؤمن به وبفوائده ، غير انه عذاب وتعذيب لغير المؤمن . وانه لأمر سخيف ان ارغم على الكي ولكن ذلك محتوم لأن نوايا العرب الطيبة لا تقف امام ارادتها اعتراضات المريض واحتجاجاته .

كان سيرنا في الصباح سهلاً مريحاً . ووصلنا أول بئر في وادي عيس بعد دقائق قليلة من وصول الشريف عبد الله الذي وجدناه يأمر رجاله بضرب خيامه في ممرات بين اشجار السنط . وكان عبد الله قد رحل من « معربه » بسبب القاذورات التي تجمعت في أرض المعسكر . وسلمت عبد الله الوثائق التي حملني فيصل اياها اليه ، ثم شرحت الحالة

العامة في المدينة المنورة وضرورة فرض الحصار على الخط الحجازي .
فتقبل كلامي ببرودة لكنه لم يناقشني فيما أبديته ، ثم استطردت اقول انني متعب وأرغب في السماح لي بالانسحاب لأنام قليلاً ، فأمر بأن تضرب لي خيمة بالقرب من صيوانه فدخلتها وأخلدت إلى الراحة أخيراً .
لقد كنت أصارع طيلة نهاري الاغماء والآن وقد سلمت الرسائل التي أحملها إلى عبد الله فلم يعد أمامي الا الاستسلام لأنني فقدت جميع ألوان المقاومة .

٣٣

أمضيت عشرة أيام طريح الفراش أتلوى تحت سياط الم جسدي جعل راحلتي ذاتها تزحف مبتعدة عني لتختبئ حتى يتبدد خجلها مني وحياؤها مما ألحقته بي . وكما هي الحال في مثل هذه الظروف بدأت كي اكافح الالم افكر بصورة منهاجية في الثورة العربية كواجب اعتدت على ممارسته في فترات الصحو بين النوم المزعج والاحلام ، وأخذت أطالع مؤلفات العسكريين الكبار .

كنت فيما مضى إذا قرأت كتاباً عسكرياً اهتم بالناحية النظرية . أما الآن ونحن في الميدان فأن التطبيق هو الاهم ، لا سيما وأمامنا المشكلة المتعبة للمدينة المنورة . وكي أصرف ذهني عن هذه المشكلة أخذت استذكر القواعد المناسبة لقيادة حرب علمية حديثة ، غير ان جميع القواعد التي خطرت لي لم تتفق والحالة العسكرية العامة للمدينة . وهذا مما أقلقني .

وحدث ذات يوم ان استيقظت من نومي وجسدي يسبح في العرق

ويحوم حولي الذباب فأخذت أسأل نفسي عن الاهمية التي نوليها للمدينة ونفعها لنا ؟ فلقد كان ضررها بارزاً حينما كنا لا نزال نعسكر في ينبع وكان الاتراك عازمين على الزحف إلى مكة ، غير اننا قد بدلنا هذا الوضع تبديلاً جذرياً بعد زحفنا على الوجه واستيلائنا عليها . ونحن اليوم نحاصر الخط الحديدي والاتراك الآن يكتفون بالدفاع عنه ، وحامية المدينة التركية قد تقلصت حتى أصبحت قوة غير قادرة على الهجوم ، والجنود الاتراك يجلسون الآن في خندقهم يدمرون وسائل مواصلاتهم بالتهامهم للجمال التي لا يستطيعون تقديم العلف لها . ونحن قد قلمنا اظافرهم ، والمدينة ليست قاعدة كالوجه ولا تشكل خطراً علينا .

إذاً ما الذي يجعلنا نرغب في الاستيلاء عليها ؟..

* * *

بدأت الحياة تدب في اوصال المعسكر عقب القيلولة وأخذت الاصوات والضوضاء تتسرب إليّ من العالم الخارجي من خلال أروقة خيمتي الصفراء بينما كانت الشمس تطعن بخناجرها الطويلة اللامعة كل ثقب فيها وترامى إلى أذنيّ صهيل الخيل وهي تضرب بحوافرها الارض لتطرد الذباب وسمعت الجمال تهدر واجران القهوة تدق وهي تطحن البن .

فقلت في نفسي اننا قد ربحنا الحرب في الحجاز ، فمن كل الف ميل مربع من هذا البلد قد تحررت تسعمئة وتسع وتسعين ميلاً مربعاً . وتذكرت القول بأن الثورة هي أقرب للسلم منها للحرب .

طردت مدة أخرى الذباب عن وجهي مرتاحاً ومسروراً بوصولي إلى تقرير الحقيقة وأخذت اردد : لقد ربحناها منذ اليوم الذي تم فيه استيلاؤنا على الوجه .

قطعت محاكمتي لاصغي من جديد وسمعت أصوات عيارات نارية تعلو وتتصل ثم تتوقف وتصمت ، فأصخت السمع أتلقف باذني .

وإذا بي أسمع حفيف عباءة يجرهـا صاحبهـا فوق الحصباء ، ثم توقف بينما أخـذ راكبو الرواحل يربتون على أعناقها لتنيخ . وناخت دون ما ضجيج .

لقد كنت أعجب وأتساءل عن الدوافع التي تجعل فيصل يرغب في القتال ضد الاتراك وتجعل العرب يساعدونه على تحقيق رغبته هذه . ولقد وجدت هذه الدوافع متجمعة في هدف جغرافي يتمثل في طرد الاتراك من جميع البلدان الآسيوية النـاطقة بالعربية . والعرب لا يستطيعون تحقيق مثلهم العليا في الحرية إلا با لسعي الدؤوب لتحقيق هذا الهدف . والظروف المثالية لتحقيق هذا المثل لا تستوجب قتل الاتراك ، وهذا العمل ليس إلا ترفيهاً سقيماً عليلاً ، لذلك إذا ما انسحب الاتراك بهدوء وسلام فأن الحرب ستنتهي . أما إذا ما رفضوا ذلك فعندئذ علينا ان نستثير العرب لطردهم وهـذا ما يفرض علينا أن نلجأ إلى الدماء وإلى الوسائل المقلقة ، غير انـه يتوجب علينا ان نقتصد في ضحـايانا إذ ان العرب يحاربون من أجل الحرية ، والحرية لا يعرف طعمها إلا الاحياء .

عندما بلغت بي خواطري هـذا الحد دخل عليّ أحد العبيد وقال لي ان الامير يرغب في رؤيتي فصارعت هزالي لارتدي ثيابي وزحفت إلى خيمته الكبيرة لاسبر دوافعه ونواياه . وكانت خيمته كبيرة غارقة في الترف وارفة الظلال مفروشة بسجاد وابسطة وثيرة . وكان عبد الله يمضي معظم وقته داخلهـا يمزح مع أصدقائه ويلاعب محمد حسن مهرج البلاط .

وعقب ان جلست اليه بدأ الحديث بينه وبين الشريف شاكر والشيوخ الآخرين الذين وجدت بينهم فرحان ذا القلب الناري .

وفي اليوم التالي غطت جسدي الرمال كي تخفف من وطأة حرارتي وتشدني إلى فراشي وترغمني على البقـاء مـدة أطول في خيمتي المتعفنة

النتنة . وعندما تضخمت هذه الدمامل وبلغت احجاماً حرمتني من فترات الاحلام عدت ثانية إلى أفكاري ومحاكماتي لاناقش فكرة الحرب .

شفيت من الزحار واستعدت قواي لأعود إلى العمل وليصبح الحاضر أمامي واقعاً وأخذت الحقائق الثابتة تتسلل إلى خيالي . لقد بدا لي ان ثورتنا تملك قاعدة لا يمكن أن تقتحم أو تنهار . وهذه القاعدة ليست بمحصّنة ضد الهجوم فحسب ، بل انها محصنة ضد الخوف من الهجوم أيضاً . ولهذه القاعدة عدو سفسطائي أجنبي يتمثل في جيش يحتل منطقة أضخم من ان تستطيع مراكزه المحصنة الاحتفاظ بها ، ويسكن هذه المنطقة شعب صديق لنا واثنان بالمئة فقط من هذا الشعب يحارب إلى جانبنا ، غير ان بقية أفراده يعطفون علينا إلى حد يجعلهم يأبون خيانة حركة الاقلية .

٣٤

شفيت من مرضي وتذكرت أسباب رحلتي إلى وادي عيس . فالاتراك كانوا ينوون الجلاء عن المدينة والسير ارشبالد موري يريد منا ان نشن عليهم الهجمات وفق مخطط محترف . وقد أزعجني تدخّله في جبهتنا . ولكن ما العمل ؟؟ فنحن نعيش تحت رحمة السير ارشبالد موري ، وعلينا ان نعمل معه ولكن هل نضحي بمصالحنا الجوهرية في سبيل مصالحه ؟..

إن تعطيلنا للخط الحديدي الحجازي قد يثير الرعب في قلوب الاتراك فيحجمون عندئذ عن الجلاء عن المدينة ويجدون المبررات للبقاء فيها

والدفاع عنها .

قصدت خيمة عبد الله وأعلنت له شفائي التام وأبديت رغبتي في القيام بعمل ما ضد الخط الحديدي الحجازي ، فالرجال والبنادق والمدافع الرشاشة والمتفجرات والالغام الآلية جميعها متوفرة هنا لتوجيه ضربة رئيسية إلى الخط الحديدي . غير ان عبد الله أبدى فتوراً نحو رغبتي هذه ، فأخذ يتحدث عن العائلات المالكة في أوروبا وعن معارك السوم وعن انزعاجه من بطء زحفه ، لكن الشريف شاكر قريبه ونائبه في قيادة الجيش قابل طلبي هذا بحماسة شديدة واستطاع ان يستحصل لي على موافقة عبد الله على تنفيذ رغبتي . وكان الشريف شاكر يحب عشيرة عتيبة حتى الوله . وقد أقسم على ان عشيرة عتيبة أحسن وأشجع عشيرة على ظهر الارض . ولهذا عزمنا على اختيار معظم رفاقنا من عتيبة .

سار في المقدمة « رحو » وهو ضابط جزائري في بعثة بيرموند العسكرية . وكان مرشدنا محمد القاضي نجل دخيل الله كبير قضاة عشيرة جهينة الذي أرشد الاتراك إلى ينبع في كانون الاول (ديسمبر) الماضي وهو يبلغ الثامنة عشرة من عمره صلب البنية هادئ الطبع . وتولى الشريف فوزان الحارث المقاتل المشهور الذي أسر اشرف ، قيادة حرسنا المؤلف من عشرين رجلاً من عشيرة عتيبة وخمسة من المغامرين من عشيرة جهينة .

واتجهنا نحو هدفنا (أي محطة ابي النعم) في اليوم السادس والعشرين من آذار (مارس) بينما كان السير ارشبالد موري يشن هجومه على غزة . وعقب ثلاث ساعات من حر شديد لم أستطع احتماله ترجلنا عند شجرة سدر ضخمة نلتمس الراحة في ظلالها ، واشجار السدر جميعاً وارفة الظلال . وقد وجدنا في ظل تلك الشجرة نسيماً شرقياً رطباً وبعض الذباب .

كان وادي عيس وفير الاشجار والاعشاب يعبق بأريج الازهار البرية وتملأ أجواءه الفراشات الجميلة البيضاء . لهذا لم نستأنف رحلتنا إلا في وقت متأخر من النهار لنقطع مسافة قصيرة بعد ان مررنا بزاوية في الوادي شاهدنا فيها عرصة متهدمة وبئراً ، وقد علمت بأن في هذا المكان كانت تقوم قرية يستغل أهلوها المياه الجوفية لارواء بساتينهم العديدة . أما الآن فأن هذا المكان بات خرباً مهجوراً .

ثم عدنا لنستأنف السير على درب ملتوية مدة ساعتين حيث ترجلنا بعدها عن مطايانا لنعسكر عقب حلول الظلام .

وبينما كنت نائماً لسعت يدي عقرب لسعة أليمة تيبست من جرائها وتورمت . وفي الساعة الخامسة صباحاً امتطينا رواحلنا لنضرب في التلال الاخيرة ولنخرج إلى « الجرف » وهو بقعة من الارض مكشوفة متموجة . فاستدرنا إلى اليمين لنسير في سهيل تحجبه سلسلة من التلال عن وادي حمد حيث يمر الخط الحديدي . وقد سرنا وراء هذه التلال إلى الجنوب حتى أمسينا مقابل محطة ابي النعم فترجلنا عن رواحلنا واقمنا مخيمنا في مكان قريب من العدو لكنه أمين . وكانت قمة التل تشرف على المحطة لذلك تسلقناها قبل غروب الشمس لنستطلع هدفنا ونراقب حركات أعدائنا . أما ارتفاع التلة فيتجاوز ستمئة قدم وقد قطعتها على مراحل كنت أرتاح بين مرحلة وأخرى ، غير ان المناظر التي طالعتني من على قمتها كانت رائعة .

رأيت الخط الحديدي لا يبعد عنا أكثر من ثلاثة أميال . وشاهدت في المحطة مستودعين ضخمين شيدا من الحجارة الصوانية وبرج ماء مستديراً وبعض الابنية الاخرى .

وقد وجدت ان المحطة محاطة بالخيام والخنادق وقدّرت عدد حرسها بثلاثمائة رجل ولكني لم أشهد مدفعاً جبلياً واحداً . وقد قيل لنا ان الاتراك يقومون في الليل بدوريات مسلحة فعالة لحراسة ضواحي المحطة

والخط الحديدي .

نمنا مرتاحين في خيامنا . وفي الصباح ايقظنا البرد من نومنا لنشاهد فجراً صاخباً تعصف فيه الرياح وتهب نحونا من « الجرف » وهي تنشد أغانيها للاشجار الباسقة التي تحيط بمعسكرنا . وعندما تسلقنا مركزنا للمراقبة (التلة) رأينا الشمس تقتحم السحب وتهزمها لتصبح عقب ساعة واحدة من الزمن شديدة الحرارة كاللهب .

اضطجعنا كالسحالى بين الاعشاب الطويلة النامية وسمعنا نفير البوق ورأينا ثلاثمائة وتسعة وتسعين جندياً من المشاة يتراكضون كأنهم الدمى وينتظمون في صف مستقيم ثم يتفرقون ، وعقب هنيهة شاهدنا أعمدة الدخان تتعالى . ثم رأينا قطيعاً من الماعز والاغنام يسوقه نحونا صبي مهلهل الثياب . وقبل أن يصل الصبي بقطيعه سفح التلة سمعنا صفيراً حاداً يخترق الوادي من الشمال إلى اسماعنا ورأينا قطاراً متناهياً في الصغر ينزلق على القضبان امام ناظرينا ويخترق تجويفاً ليمر فوق جسر ثم يتوقف خارج المحطة وهو ينفث بخاراً أبيض . وكان الصبي حين سماعه صفير القطار يدس بصرخات زاعقة إلى قطيعه كي يدفعه إلى تسلق التلة رغبة منه في التفتيش عن مرعى أكثر خصباً وكلأً . فأرسلنا رجلين من عشيرة جهينة وطلبنا منهما ان يلقيا القبض عليه ، فانحدرا مستترين في اخدود وامسكا به . فأخذ يبكي بكاءً متواصلاً ويبذل جهده ليفرّ من قبضاتهما . وأخيراً نفد صبر الرجلين فأوثقاه بخشونة .

أخذ فوزان يستنطقه عن أسياده الاتراك . وكان هذا الصبي الراعي من منبوذي عشيرة هيثم ، وهيثم عشيرة فقيرة مشردة في الصحراء يعمل صبيانها رعاة مأجورين لدى العشائر الأخرى .

كان الرعاة عند العشائر يمثلون طبقة معينة تكاد تكون منبوذة لبعدها عن المستوقد . فالبدوي العادي يعتبر المستوقد جامعة علمية يدرس فيها

جميع شؤون عالمه . وحول المستوقد يستمع البدوي إلى درر الكلام ويصغي إلى أنباء عشيرته واشعارها وتاريخها وأقاصيص الغرام وقواعد القانون والقضاء ويُجري مساوماته في البيع والشراء .

أما الرعاة فكانوا محرومين من كل هذه الاشياء منذ طفولتهم وعملهم يستوجب في كل الفصول وفي الليل والنهار ان يقودوا قطعانهم إلى التلال والسهول ويعيشوا وحيدين .

بعد مضي ساعات على اعتقالنا للراعي لم يتحرك أمام ناظرينا سوى الشمس . تدثرنا بعباءاتنا واضطجعنا في دفئها الرائع . وقد اعادت إليّ التلة لذتي الغريزية التي كنت فقدتها منذ يوم مرضي ، إذ استطعت ان اسجل مناظر التلة النموذجية ، فهذه قمتها الحجرية الصلبة وتلك جوانبها الصخرية العارية التي غمرتها عند القاعدة طبقة ترابية ناعمة . أما حجارتها فكانت تتألق صفراء لوّحتها الشمس معدنية في رنينها .

انحدرنا في الغسق من فوق التلة واصطحبنا الراعي وما تمكنا من جمعه من أغنامه ، وكنا ننتظر وصول قواتنا الرئيسية هذه الليلة إلى معسكرنا ، لذلك أخذت أجول وفوزان في السهل المستسلم للظلام حتى وجدنا جرفاً خفيفاً يصلح مركزاً لمدفعنا ويبعد عن المحطة مسافة ألفين من الياردات .

عدنا متعبين من جولتنا لنجد النيران تشتعل بين الاشجار ، فالشريف شاكر كان قد وصل منذ لحظة ، ورجاله ورجالنا يقومون بشيّ لحم الماعز بسرور وارتياح ، والراعي قد قيّد وراء خيمتي لأنه فقد صوابه حزناً عندما شاهد بعض ماعزه يذبح أمام عينيه . وقد رفض أن يتناول عشاءه معنا فأرغمناه على أكل رغيف من الخبز وحفنة من الارز بعد تهديده بانزال الجزاء الصارم به . وقد حاولنا أن نقنعه بأننا سنستولي في الصباح على المحطة وسنقتل أسياده ، غير ان كلامنا هذا لم يدخل العزاء إلى قلبه . وأخيراً اضطررنا ان نربطه إلى شجرة خشبية

أن يفرّ ليلاً منا ويعود إلى الجنود الاتراك .

وأخبرني شاكر عقب العشاء انه لم يحضر معه سوى ثلاثمائة رجل من الثمانمائة أو التسعمائة المتفق عليهم . وعلى كل حال فالحرب كانت حربه .

لذلك ادخلنا سريعاً بعض التعديلات على خططنا وقررنا ألا نحتل المحطة بل ان نضربها بالمدفعية بينما يقوم فريق منا بلغم الخط الحديدي في الشمال ، آملين ان نسقط القطار المتوقف في شباكنا . لذلك اخترنا فريقاً من الرجال الذين دربهم جارلاند على اعمال النسف وكلفناهم بنسف قسم من الخط يقع إلى الشمال من الجسر في الفجر ، وذلك كي يعطلوا ذاك الاتجاه ، بينما قررت أن اصطحب معي مدفعاً رشاشاً وان اضع لغماً إلى الجنوب من المحطة وهو الاتجاه الذي يحتمل ان يرسل فيه الاتراك النجدة في حالة الطوارئ . وقد قادنا محمد الخالد قبل منتصف الليل إلى جزء مهجور من الخط الحديدي فترجلت عن راحلتي وأخذت أتحسس لأول مرة خلال الحرب باصابعي قضبانه المثيرة . وبعد ساعة من العمل المرهق زرعت اللغم وجعلت زناده ينطلق حالما تمر القاطرة عليه . ثم ركزنا مدفعنا الرشاش وراء دغل نام في مجرى ماء يبعد مسافة اربعمائة ياردة عن الخط ويشرف على النقطة التي أملنا ان يخرج فيها القطار عن خطه واختبأ طاقم المدفع وراء الدغل وسرت مع بعض رجالي لنقطع الخطوط التلغرافية .

وبعد نصف ساعة وجدنا بقعة غير محروسة . ولكن لسوء الحظ لم يستطع الرجال الاربعة من جهينة تسلق العمود التلغرافي . لذلك اضطررت ان أحمل نفسي على تسلقه . وهذا كل ما تمكنت من عمله نتيجة لمرضي . وعندما قطعت الخط التلغرافي الثالث اهتز العمود النخر فارتخت قبضتي وانزلقت ستة عشر قدماً لأرمي

بثقلي على اكتاف محمد الذي سارع يحميني من الارتطام فكادت عظامه تنكسر .

أخذنا نستجمع أنفاسنا عدة دقائق ثم استطعنا عقبها ان نستعيد جمالنا ووصلنا المعسكر بينما كان الآخرون يستعدون للتقدم إلى مراكزهم المتفق عليها .

لقد استغرقت عملية زرعنا للغم أربع ساعات أكثر من الوقت المحدّد لها . وهذا التأخر وضعنا أمام معضلة كان حلها يتطلب إما ان اضحي براحتي أو أن اسمح للقوة الرئيسية بالزحف نحو أهدافها بدوني . وأخيراً بموافقة شاكر توجهت القوة إلى أهدافها وسقطت تحت شجرة لأنام ساعة واحدة كنت لولاها سأنهار انهياراً كلياً . وكان النهار في تلك الساعة قد بدأ يزحف بضيائه ، وهي ساعة يتململ فيها الهواء قلقاً فيؤثر في النبات والحيوان .

وسارع محمد الذي كان في شوق ملحاح لرؤية المعارك إلى ايقاظي بأذان مبحوح صبّه في أذني خلته معركة ، فجلست وأخذت أفرك عيني الحمراوين لأزيل الرمال العالقة بهما ، ثم أخذنا نتناقش بشدة حول موضوعيّ الصلاة والنوم . فأخذ يتوسل إليّ قائلاً : « ان المعارك لا تدور كل يوم » ، وأراني الرضوض والخدوش التي ألحقتها بجسده في الليلة الماضية عندما انزلقت عن العمود التلغرافي ، فعطفت عليه . وامتطينا رواحلنا لنلحق بالقوة ، ثم أطلقنا سراح الراعي بعد ان نصحناه بالبقاء حتى عودتنا ، ووصلنا مراكز قوتنا في اللحظة التي بدأت فيها مدافعنا تفتح نيرانها . وقد كان ضربها مركزاً وممتازاً إذ هدمت سقف العمارة وانزلت اضراراً بالغة بالبناية الثانية وأصابت غرفة المضخة ومزقت صهريج الماء وقد أصابت قنبلة محظوظة عربة من عربات القطار فأشعلت فيها نيراناً نهمة . وهذا ما جعل القاطرة تسارع في السير جنوباً فجلسنا نراقبها جائعين وهي تقترب من اللغم .

وعندما وصلته ارتفعت سحابة من غبار ناعم أعقبها صوت انفجار ، ثم توقفت القاطرة ساكنة . وقد لاحظنا ان مقدمتها فقط قد عطلت وخرج سائقوها ليصلحوها .

وانتظرنا طويلاً ان يفتح المدفع الرشاش النار عليهم ، غير ان انتظارنا ذهب سدى . وقد علمنا فيما بعد بأن طاقم المدفع قد خشي رجاله الوحدة فحملوا مدفعهم وجاءوا به الينا حالما بدأنا باطلاق النار . وعقب مضي نصف ساعة من الزمن تمكن سائقا القاطرة من اصلاحها ، فرأيناها تسير وهي تقعقع وتتهادى على الخط الحديدي .

بدأ رجال العشائر هجومهم على المحطة تحت ستار كثيف من نيران المدفعية وعلا صرير أسناننا غضباً على طاقم المدفع الرشاش . وتقدّم رجالنا تحت حماية النيران فأبادوا حامية المركز الامامي . وانسحب الاحياء من الاتراك إلى المركز الرئيسي لينتظروا مع رفاقهم في الخنادق هجومنا العام . هذا الهجوم الذي كانت رغبتهم في صده لا تقل أبداً عن رغبتنا في شنّه . ولو انه كان لنا بعض من رجال فيصل لمكننا تفوق مركزنا على مراكزهم من الاستيلاء على المحطة دون عناء .

وعلى كل حال فلقد خلفنا وراءنا العربات والمستودعات في المحطة طعماً للنيران . وكان حصاد معركتنا ثلاثين أسيراً تركياً وسبعين جندياً بين قتيل وجريح ، أما خسائرنا فلم تتجاوز جريحاً واحداً كانت اصابته طفيفة .

أضف إلى ذلك اننا عطلنا حركة السير في المحطة ثلاثة أيام امضاها الاتراك بين ترميم وتصليح .

٣٥

خلفنا وراءنا فريقين من قواتنا في ضواحي المحطة وامرنا رجال هذين الفريقين بتدمير الخط الحديدي في اليوم التالي واليوم الذي يعقبه . بينما قفلنا نحن عائدين إلى معسكر الشريف عبد الله الذي وصلناه في اليوم الاول من شهر نيسان (ابريل) .

ودخل الشريف شاكر ، ذو المزاح المرح ، المعسكر باستعراض ضخم اطلقت خلاله الآلاف من الاعيرة النارية ابتهاجاً بالانتصار الجزئي الذي حققه . وقد تجاوب المعسكر معه فاستقبلنا رجاله بمهرجان فخم رائع .

وفي المساء قمنا بجولة بين الادغال الواقعة وراء المعسكر ، وبينما كنت أسير طالعتني فجأة من خلال الاغصان الكثيفة ألسنة نيران وحشية تتألق عالياً وهي تأكل بنهمة أغصان الاشجار ، وترامى إلى سمعي من خلال الدخان واللهب دقات طبول وهدير جوقة عشائرية تنشد الاغاني البدوية ، فتسللت بهدوء نحو مصدر الاصوات ، فشاهدت ابناء عشيرة « عتيبة » يصفقون ويهزجون وهم يحدّقون في الشريف شاكر وهو يرقص وسط حلقتهم على وقع أناشيدهم وتصفيقهم .

وفي الصباح التالي قررنا أن نقوم بزيارة أخرى للخط الحديدي لنجري تجربة كاملة للغم « الآلي » الذي لم تنجح تجربته نجاحاً كاملاً في المرة السابقة . وقد قال لي « دخيل الله » الهرم بأنه يرغب في ان يرافقني في رحلتي هذه إذ انه على ما يبدو لم يستطع ان يقاوم اغراء نهب قطار معطل وسلب ركابه . وقد اصطحبنا في غزوتنا هذه اربعين رجلاً من عشيرة جهينة الذين بدوا لي مفتولي السواعد والعضلات واضخم

أجساداً من رجال عشيرة عتيبة الاصلاء . وبالاضافة إلى هؤلاء اصر سلطان العبود ، أحد رؤساء عشيرة عتيبة والصديق الحميم لكل من الشريفين عبد الله وشاكر على مرافقتي . وكان سلطان العبود رجلاً حلو الشمائل ورئيساً لفخذ فقير من افخاذ عشيرة عتيبة .

كان آنذاك يناهز السادسة والعشرين وهو طويل القامة مفتول العضل فارس ماهر جريء يتعشق النكات العملية ذو رأس ضخم مربع .

اصطحبنا معنا طاقم المدفع الرشاش وكان عدده يبلغ ثلاثة عشر جندياً ، وذلك كي نقصف القطار قصفاً مركزاً . أما الشريف شاكر فلقد أبت عليه مجاملاته « الرصينة » إلا ان يسير في وداعي مدة نصف ساعة يوصفي ضيفاً على الامير عبد الله .

التزمنا هذه المرة في سيرنا وادي عيس ، وبقينا نسير فيه حتى التقى هذا الوادي بوادي حمد الذي ألفيناه مغطى بالاعشاب النضرة الخضراء بسبب فيضانه مرتين هذا الشتاء . ثم انحرفنا لنتجه نحو أرض رملية منبسطة حيث ترجلنا عن رواحلنا . وجاءنا الصباح بنهار دافئ مشمس فأخذنا نجدّ في السير في سهل وسيع فسيح تلتقي فيه الوديان الكبيرة الثلاثة « طبجة ، وعيس ، وجزيل » لتصبح وادياً واحداً يصب في وادي حمد . وكان المجرى الرئيسي للوادي مغطى بشجيرات تغوص جذورها في حوض رملي ، غير ان هذا الدخل لم يتجاوز عرضه المائتين من الياردات . اذ امتدت وراءه لاميال وأميال سهول واسعة ذات تربة هشة تتخللها حويضات وديان ضحلة .

وعندما قاربت الظهيرة يممنا وجهنا شطر بقعة من الارض بدت لنا كأنها حديقة في الخلاء فترجلنا عن رواحلنا وألقينا بأجسادنا المنهوكة على أعشابها اللدنة التي وجدت فيها رواحلنا الفرحة غذاء شهياً إذ ما كادت تمضي الساعة عليها وهي تقضم من الاعشاب حتى بركت ممتلئة البطون .

أخذ النهار يزداد حراً ، وبدأت الشمس تدنو الينا وهبّت ريح متطفلة لتجلدنا بسياط لاهبة .

مرت الظهيرة وجاء الاصيل فاذا بـه أشد حرارة من سابقته فانحبس الهواء إلى درجة ذهلت معها فكنت أتلفت ورائي بين فينة وأخرى لأرى ما إذا كان هناك من حاجز يحجز الهواء عني .

اقتربنا من هدفنا مع الاصيل ، وكان يفصله عنا حاجز من التلال يسير بمحاذاة سفوحها واد ألفيناه شديد البرد مجدباً مكشوفاً ، وعقب ان سرنا في هذا الوادي مسافة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال توقفنا وترجلنا عن رواحلنا وأخذنا نتسلق تلة عالية قيل انه باستطاعتنا ان نشاهد من على قمتها الخط الحديدي . وكان الهواء مزعجاً مخيفاً فلم نستطع حين تسلقنا ان نتمسك بالصخور الشديدة الانزلاق بسبب عباءاتنا وثيابنا المبتلة ، لذلك اصطحبت تسعة من الرجال بعد ان تحررنا من معظم ثيابنا وتابعت وإياهم صعود التلة وتسلقها . غير ان مجهوداتنا ذهبت عبثاً فالهواء كان شديداً عاصفاً بحيث انه لم يمكننا من المراقبة والاستطلاع . وهكذا رجعنا منحدرين مرضوضي الاجساد ، وقد تكبدنا اصابة وحيدة في هذه الرحلة إذ ان سلطان العبود اصر على ان يرافقني في تسلق التلة . ولهذا اضطر خادمه الخاص إلى مرافقتنا بالرغم من كراهيته لتسلق التلال . وعندما كنا عائدين عثر الخادم وسقط في هوة يبلغ عمقها اربعين قدماً ودقت عنقه .

وعندما عدت وُجدتني منهوك القوى فجلست على الارض ارتجف برداً لمدة ساعة من الزمن دفن الرجال خلالها القتيل في بقعة قريبة من سفح التلة . وبعد ان واروا الخادم التراب صادفوا في طريقهم الينا رجلاً يمتطي جملاً فبادرهم باطلاق النار عليهم فردوا عليه بالمثل ، غير ان الظلام ابتلعه وغيبه عن أنظارهم . والحق ان هذه الحادثة أقلقتني وأزعجتني ، إذ ان عنصر المفاجأة كان حليفنا الرئيسي . لذلك

كنا نخـاف ان يعود الرجل إلى الاتراك فينذرهم بوجودنـا بالقرب منهم .

التحقت بنا الجمال المحملة بالمتفجرات ، ثم امتطينا رواحلنا ثانيـة كي نقترب من الخط الحديدي ، ولكننا لم نكد نتقدم بعض الامتـار حتى ترامى إلى أسماعنا نفير البوق التركي وهو يدعو الجنود إلى تناول طعامهم . فأرهف « دخيل الله » أذنيه وأدرك اننا أصبحنا بالقرب من « المدحرج » هذه المحطة الصغيرة التي كنا نعتزم القيام بعملياتنا الحربية ضدها .

لم نصل الخط الحديدي إلا بعد الساعة العاشرة من تلك الليلة . وعندما وصلنا كان من العبث بذل أي جهد لاختيار موقع لمدفعنا الرشاش ، إذ ان الظلام لف جميع مـا حولنا بجلباب أسود . وقد اخترت بصورة اعتباطية موضعـاً في الخط يقع عند الكيلومتر (١١٢١) من دمشق لازرع فيه اللغم . وكان اللغم ذا ميكانيكية معقدة له زناد مركز يفجر بصورة متتابعة كبسولات تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة ثلاثين ياردة إذ كنا نأمل ان نتمكن بهذه الطريقة من تفجير القاطرة فيما إذا كانت متجهة شمالاً أو جنوباً . وقـد استغرقت عملية زرع اللغم مدة اربع ساعات كاملة وذلك لأن المطر أحال سطح الارض وحلاً وبدت آثار أقدامنا على جانبي الخط كأنها آثار أقدام الفيلة . وكان من المستحيل علينا ان نخفي أو نزيل هذه الآثار ، لهذا عمدنا إلى تحويلها بواسطـة مضاعفتها مستعينين بجمالنا حتى انها بدت عقب تحويلها ذاك تشير إلى أننا نعادل نصف جيش كامل .

وبعد أن أنهينا هذه المهمة تراجعنا إلى مسافة كافية . ثم تمددنا في الوحل منتظرين شروق الشمس . وكانت ليلة شديدة البرودة ارتجفت من جرائها كل عضلة في أجسادنا .

انقشع الغمام في الفجر ليسعدنا بشمس دافئة حمراء تغمر التـلال

المهشمة الواقعة ما وراء الخط الحديدي . وقام دخيل الله الهرم بدور قائد العملية فوزعنا على المخابئ ثم صعد المرتفع ليراقب بمنظاره ما يجري على الخط الحديدي . أما أنا فكنت أبتهل إلى الله في سريرتي كي لا تحدث أية حادثة قبل أن ترتفع الشمس عالياً في كبد السماء لتنقذني من القشعريرة التي تنفض كل جزء في جسمي . وعلى كل حال سرعان ما بدت الشمس وضاءة . فأخذت ثيابي تجف . وعندما قاربت الظهيرة اشتدت الحرارة اشتدادها في اليوم السابق ، لذلك أخذنا نلهث مفتشين عن الظلال جاعلين من عباءاتنا استاراً لنا من الشمس .

أعلمنا دخيل الله في الساعة السادسة صباحاً ان ترولي قد مرّت من على اللغم سالمة فسررنا بهذا الخبر . فنحن لم نزرع اللغم المركّب من أجل تدمير ترولي تحمل اربعة جنود ورقيباً فقط . ثم أخبرنا بأن ما يقارب الستين جندياً تركياً قد غادروا المحطة وساروا في اتجاه المكان الذي زرعنا فيه اللغم . وقد أقلقنا هذا الخبر وأقضّ مضاجعنا غير اننا بعدئذ علمنا ان مهمة هؤلاء الجنود هي إعادة أعمدة الهاتف والبرق التي اقتلعتها العاصفة ليلة أمس .

وفي الساعة السابعة والنصف قامت دورية مؤلفة من أحد عشر جندياً بالتفتيش على الخط الحديدي وتفقده ، وعندما وصلوا الكيلومتر (١١٢١) شاهدوا آثارنا التي تركناها ليلة الامس . فأخذوا يحدّقون في الارض ويذرعون المكان جيئة وذهاباً ويكدحون زناد فكرهم . غير ان اللغم كان مخبئاً بمهارة بحيث لم يستطع الجنود اكتشافه ، لذلك تابعوا سيرهم نحو الجنوب حيث التقوا بدورية جديدة . فجلس أفراد الدوريتين معاً في ظلال جسر ليستريحوا من عناء العمل . وفجأة أطلت علينا قاطرة ثقيلة قادمة من الجنوب ، وكانت تجر وراءها تسع عربات تعج بالنساء والاطفال القادمين من المدينة والمرحلين إلى سوريا .

وقد مرّ هذا القطار على اللغم دون ان ينفجر . والحقيقة انني

كعسكري في غضبت غضباً شديداً لعدم انفجـار اللغم غير انني كقائد شعرت بارتياح عميق . فالنساء والاطفال ليسوا بالاسلاب والغنائم التي يؤسف عليها .

وعندما شاهد أفراد عشيرة جهينة القطـار يتجه نحو اللغم سارعوا نحوي ونحو دخيل الله ليشاهدوا عملية التفجير . لذلك عجّ المرتفع الذي كنا نختبئ فيه بالناس وهذا مما أثار أعصاب الجنود الاتراك الذين لمحوا جمهورنا ، فأطلقوا علينا نيران رشاشاتهم .

ومع ان اطلاقهم النار علينا لم يلحق بنا أي أذى ، فأن افتضاح أمرنا كان بمثابة ضربة من ضربات السوء . ففي « المدحرج » مئتان من الجنود الاتراك وفي « هديه » ألف ومئة جندي تركي وطريق تراجعنا يخترق سهل حمد حيث توجد محطة هديه وباستطاعة هجانتهم وخيالتهم أن يقطعوا علينا خط الرجعة .

لهذه الاعتبارات كلهـا أمرنا رجـال طاقم المدفع الرشاش بالعودة إلى وادي عيس وارفقناهم بخمسة عشر رجلاً من عشيرة جهينة .

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر توجهت على رأس قوة من رجـال عشيرة جهينة نحو الخط الحديدي . وصلناه فترجلنا عن مطايانا ثم تقدم منا دخيل الله وصلى فينا إماماً . وقـد ذهل الجنود الاتراك عندما شاهدونا نصلي صلاة المغرب فأوقفوا نيرانهم عنا . ولقد كانت هـذه أول وآخر مرة وقفت فيها للصلاة في الجزيرة العربية .

وبعد ان انتهينا من الصلاة كان الضوء لا يزال يغمر الكون لهـذا جلسنا نتجاذب أطراف الحديث منتظرين حلول الظلام كي أقوم بالكشف عن اللغم لمعرفة الخلل الذي طرأ عليه . ولم يكن رجـال عشيرة جهينة أقل مني رغبة في معرفة أسباب الخلل في اللغم . لذلك لحقوا بـي وتجمهروا حولي وقـد أثار عملهم هذا رعباً شديداً في قلبي فزرع لغم من طراز « جارلاند » عمل ليس بالسهل أو اليسير والتفتيش عن

مثل هذا اللغم في ليل دامس أمر محفوف بالمخاطر . فاللغم قوة تدميرية مروعة تستطيع أن تنسف سبعين متراً من القضبان الحديدية ، لذلك فأنا عندما أفتش عنه لا أعرض نفسي للموت فقط بل انما أعرض كامل القوة التي ترافقني للهلاك أيضاً .

وأخيراً عثرت على اللغم واكتشفت الخلل وأصلحته وكي نشير الارتباك في صفوف العدو قمنا بتدمير أجزاء من الخط تقع شمالي اللغم ثم نسفنا أحد الجسور وقطعنا الاسلاك الهاتفية والبرقية . وعندما انتهينا من عملنا تراكضنا نحو مطايانا مذعورين كالارانب وسرنا بها مسرعين دون أن نلتفت يميناً أو يساراً .

غير ان دخيل الله الهرم بلغ بـه السرور من جراء ما قمنا به من تدمير وتفجير مبلغاً جعله لا يتوقف عند سهل وادي حمد بل ظـل يواصل السير ونحن نتبعه حتى تبعنـا جنود طـاقم المـدفع الرشاش الذين خالونا أعـداء فـأطلقوا علينا بعض الاعيرة النـاريـة مـن رشاشاتهم .

وفي الصباح ترجلنا عن رواحلنا ونمنا في موقع « ربيعان » وهو أول بئر من آبار وادي عيس . وبعد طعـام الافطـار ترامى إلى مسامعنا صوت انفجار ضخم فلم نعرف ما إذا كان اللغم قـد أدّى مهمته أم انـه قـد اكتشف وفجّره الاتراك . لهـذا أرسلنا رجلين منا لاستطلاع الامر . أمـا نحن فتابعنا سيرنا ، ووصلنا موقـع « ابي مرخا » ليلاً واخترنا مكاناً اقمنا به . وفي الصباح عـاد الرجلان الينا وأخبرانا بأن قطـاراً تركياً كان محملاً بالعمال والادوات والمواد اللازمة لتصليح الخط الذي خربناه قـد انفجر به اللغم فدمره تـدميراً كاملاً . وقد كان هذا كل ما نأمل به . لذلك عدنا ونحن نهزج فرحين إلى معسكر عبد الله . لقد برهنا على ان لغماً يزرع بمهارة واتقان يؤدّي مهمته على خير وجه .

٣٦

على الرغم من لطف عبد الله وسحر شخصيته فانني لم استطع ان احبّه أو أحبّ معسكره . وربما كان شعوري هذا منبعثاً عن انعدام الميزة الاجتماعية في شخصيّتي ورغبتي في الوحدة والانفراد ، أو ربما كان أيضاً ناشئاً عن هذه الآلام المنبعثة عن رغبتي في جعل الآخرين يبدون أحسن مما هم .

وبصورة عامة كان عبد الله يمضي سحابة يومه في خيمته الكبيرة المريحة ، ولم يكن يسمح لغير أصدقائه وخاصته بدخولها . وكان يجتمع باتباعه ومريديه الآخرين في جلسة عامة تعقد عقب الظهر يستمع خلالها إلى مناقشتهم أو شكاواهم . اما فيما يتبقى له من وقت فكان يقطعه في قراءة الصحف أو تناول الطعام أو النوم نوماً هادئاً .

وكان يلعب الشطرنج أو يستمع إلى نكات محمد حسان . ومحمد هذا كان بمثابة مهرج البلاط ، وهو مهرج متعب ممل ثقيل الظل . وربما كانت أحكامي هذه عليه ناشئة عن مزاجي المتأثر بمرضي .

وكان عبد الله ورفاقه وأصدقاؤه من الاشراف كشاكر وفوزان ونجلي حمزة بالاضافة إلى سلطان العبود وابن مسفر مدير التشريفات يمضون في المساء الساعات الطوال وهم ينزلون شتى أنواع العذاب بمحمد حسان ، فكانوا يطعنون جسده بالاشواك أو يقذفونه بالحجارة أو بالحصى الحامية . وحدث مرة ان عبد الله أوقف محمد حسان على بعد عشرين ياردة منه ووضع فوق رأسه فنجان قهوة ثم أطلق النار على الفنجان فهشّمه .

ويحدث أحياناً ان يقوم عبد الله بجولة قصيرة على ظهر حصانه أو باطلاق بعض الاعيرة النارية ، ثم يعود مسرعاً إلى خيمته منهوك القوى فيأمر بادخال الشعراء والمنشدين عليه كي يلطفوا من صداع رأسه . وعبد الله كان مغرماً بالشعر وواسع الاطلاع على الآداب العربية . وكثيراً ما كانت تحدث في مجالسه مناقشات في فقه اللغة يمنح الفائز فيها بعض الجوائز المالية .

وقد بدا لي ان عبد الله لا يولي الاوضاع العامة في الحجاز أية عناية أو اهتمام . فهو كما بدا لي يعتمد اعتماداً كلياً على الوعود التي قطعتها بريطانيا العظمى ويتكل على هذه الوعود والمواثيق قلباً وقالباً . لذلك كنت أتشوق لأخبر عبد الله بأن الرجل الهرم (الشريف حسين) لم يحصل منا على أية عهود واضحة أو وعود ثابتة محددة المفاهيم والمعاني وانه تبعاً لذلك قد تتحطم سفينة أحلامه على صخور دهائه السياسي . ولكنني لو أقدمت على البوح بما أريد لخنت رؤسائي البريطانيين . لذلك فأن التجاذب بين الشرف والاخلاص الذي كان يدور في مخيلتي وضعني بعد فترة من الترنح في مأزق حرج لم أعرف منه مخرجاً .

كان عبد الله يبدي اهتماماً بالغاً في أوضاع أوروبا وبأحوال الحرب الدائرة فيها ، ويدرس تلك الاوضاع والاحوال دراسة عميقة مستعيناً على ذلك بالصحف والمجلات ، كما وانه كان مطلعاً على السياسة الغربية وكان يعرف اسماء جميع الوزراء ورجالات البلاط في أوروبا ، حتى انه كان يعرف اسم رئيس جمهورية سويسرا .

أخذ الزمن ينحدر بتقديري واحترامي لخلق عبد الله وطباعه . فالآلام المستديمة التي كان يشكو منها والتي اثارت في حين من الاحيان بعض عطفي وحناني أصبحت تستثير في نفسي مشاعر الاحتقار لأن أسباب اوجاعه كانت متجمعة في الكسل والخمول والاغراق في الترف . وازداد امتعاضي من طباعه عندما رأيته يتخذ من تلك الآلام وسائل ليسد

الفراغ الهائل الذي يعانيه .

وحدث يوماً أن دخلتُ عليه فألفيته يجلس مفتوح العينين مشدود الظهر محمر الوجنتين ، فلقد جاءه الرقيب «بروست» مربيه السابق برسالة بريئة من الكولونيل بيرموند يصف فيها المساعدات التي يقدمها البريطانيون للعرب في جميع ديارهم : في عدن وغزة وبغداد ، ويرجو عبْد الله أن يتفهم الوضع ويقدره .

ما كاد عبد الله يراني حتى وجه إليّ سؤالاً طالباً ان اشرح له ما أفهمه من قول بيرموند هذا . فأجبته ان له ان يشك في اخلاصنا إذا ما وجدنا نخون أصدقاءنا . وقد سُرّ عبد الله باللباقة التي بدت في لغتي العربية ، فأجاب على قولي هذا بأنه يثق ثقة تامة باخلاصنا وان وجود الكولونيل ولسون ممثلاً لنا في جدة خير دليل على حسن نوايانا .

* * *

كان الشريف شاكر أبرز شخصية في حاشية عبد الله . وهو شاب لما يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره . وقد رافق انجال الشريف حسين الاربعة منذ صباه وكانت أمه شركسية الاصل كجدته لامه . وعن أمه ورث ملامحه البيضاء . غير ان الجدري مزق بشرته وشوهها وكانت تطل من وجهه المهشم عينان واسعتان متألقتان . وقد جعلت أهدابه ونظراته قلقة حائرة . وكان شاكر طويل القامة نحيلها ذا طباع صبيانية . أما صوته القوي الحازم فكان يبدو ناحلاً صارماً يجهر بعقيرته عالياً . وكانت طباعه جافة خشنة صريحة متعالية . وكان ذا مزاج متقطع كضحكاته الشبيهة بالنقيق . وكانت صراحته المذهلة تبدو كأنها لا تحترم أي كائن على ظهر الارض سوى الملك حسين . وكان يراعي الحفاظ على مهابته أكثر من سواه . وكعبد الله كان يمضي معظم ساعاته

في مداعبة اسنانه بالمسواك . ولم يكن شاكر يهتم بمطالعة الكتب أو يقدح ذهنه في تفكير أو امعان . ومع هذا كان أبداً ذكياً اريباً ومحدثاً يستثير الاهتمام . وكان تقياً متديناً لكنه كان يكره التصنع في الدين وكان يلعب النرد عندما يتلو عبد الله القرآن غير انه كان دائم الصلاة لا ينقطع عن اداء أي فرض من فروضها . أما في الحرب فكان محارباً قديراً قد جعلته فروسيته معشوق العشائر .

وبالاضافة إلى ذلك كان دبلوماسياً بارعاً ، لذلك أرسله الشريف حسين عدة مرات إلى مصر في مهام سياسية .

ولا شك ان هذا البدوي كان يبدو غريب الشكل في ردهات قصر عابدين . امـا عبد الله فكان اعجابه بالشريف شاكر لا يعرف حداً . وقد حاول مراراً ان ينظر إلى الحياة بمنظار المرح والاهمال الذين ينظر به شاكر إلى العالم . والحقيقة ان شاكر وعبد الله كانا السبب في تعقيد مهمتي في وادي عيس .

٣٧

لم يكن عبد الله يهتم بالوضع التكنيكي ، بل اعتبر هـذا الامر من واجبات أخيه فيصل . لذلك صمم على الاقامة والاستقرار في وادي عيس . وهو لم يكن ليقوم بنفسه بشن الغارات على الحاميات التركية . ونادراً مـا كان يشجع الآخرين على شن مثل هذه الغارات . ولقد اكتشفت ان عبد الله يحسد أخاه فيصلاً ويغار منه . لهذا السبب كـان يتعمد عدم القيام بأي عمل حربي كي يمنع قيام المفاضلة بين ما يقوم به أخوه فيصل وبين ما قد يقوم به هو .

لذلك اعتبرت ان مهمتي في وادي عيس قد انجزت على خير وجه . واشتدت بي رغبة جامحة بترك هذا المعسكر الكسول الخامل لملاقاة فيصل البطل الذي يشتعل فؤاده حماسة ورغبة في جعل امته العريقة تكسب حريتها اكتساباً وتجني غار النصر بأيدي أبنائها . ومع فيصل كان مساعدوه من أمثال الشريف ناصر وشرف وعلي بن الحسين يعضدون مشروعاته جسداً وروحاً .

غادرت معسكر عبد الله في صباح اليوم العاشر من نيسان (ابريل) عقب وداع عاطفي . وقد رافقني في رحلتي هذه ثلاثة أشخاص من عشيرة عقيل ورسلان السوري الذي كان يتهيب اللباس العربي ويمتطي جمله بطريقة غير مريحة ويحاول ان يغطي قلة دربته على ركوب الراحلة بقوله انه لا يوجد في دمشق انسان واحد متمدن يقبل بركوب الجمل ، ثم يضيف إلى ذلك مازحاً انه لا يوجد امرؤ في الجزيرة العربية اقل دربة وخبرة في ركوب الجمال كالدمشقي .

وكان بين رفاقي أيضاً ستة اشخاص من عشيرة جهينة وحمد الكدحي الذي كان مرشدنا خلال الرحلة .

لم نحمل معنا في رحلتنا طعاماً أو زاداً فقد كنا نعتمد في طريقنا على كرم العشائر التي نمر بمضاربها وعلى ما يقدمونه لنا من حليب وارز . كان الفصل ربيعاً مما أشاع في التلال النماء والخصب . وكان هذا الفصل فصلاً يتدفق بالخيرات على العرب فحليب الاغنام والماعز والنوق متوفرة . وجميع من مررنا بهم من رجال العشائر كانوا يبدون على أحسن حال من الصحة والعافية .

وبعد مضي مدة من الوقت على مغادرتنا معسكر عبد الله أخذنا نقطع وادياً كنسه السيل ، هو وادي عثمان . وكان هذا الوادي يتلوى في مجراه حول التلال ، غير انه كان يشكل درباً صالحة ومريحة للسير عليها . ولدى حلول الظلام توقفنا ثم تفقدنا رفاقنا فألفينا رسلان غير

موجود بيننا ، فأخذنا نطلق العيارات النارية ثم أشعلنا النيران مؤملين ان يقوده لهبها الينا ، غير ان جهودنا التي دامت حتى الفجر في التفتيش عن رسلان ذهبت سدى وأخيراً اكتشفنا ان رسلان لم يكن يبعد عنا أكثر من ميل واحد إذ وجدناه يغط تحت شجرة في سبات عميق .

استأنفنا سيرنا وبعد ساعة وصلنا مضارب عشيرة دخيل الله ، فدعانا هذا الاخير إلى تناول وجبة من الطعام في خيمته حيث قام بالاغتسال ومشط شعره واستبدل بملابسه ملابس نظيفة . ولقد استغرق اعداد طعامنا مدة طويلة من الزمن إذ انه لم يقدم الينا إلا عند الظهر وذلك حينما جاءنا بعض افراد عشيرته بطبق كبير مليء بالارز يتربع فوقه خروف كامل . ولما كان محمد بن دخيل الله يشعر بأن واجبه نحوي يقتضيه ابداء جميع ضروب الحفاوة بشخصي ، لذلك قام وملأ طبقاً نحاسياً بالارز واللحم وضعه أمامي وشاركني فيه ، ثم أومأ إلى الحضور من أبناء عشيرته فجاء هؤلاء وحملوا الطبق الكبير خارج الخيمة وأخذوا يتناولون منه حاجتهم . وكانت والدة محمد امرأة طاعنة في السن ، فجلستْ إليّ وأخذت تسألني عن أوضاع نساء العشائر المسيحية وأحوالهن وتبدي بين فينة وأخرى عجبها من بياض بشرتي ولون عيني .

استيقظنا باكراً في صباح اليوم التالي وامتطينا رواحلنا ثم استأنفنا رحلتنا ، ومررنا في طريقنا بالعديد من مصامد المياه ، غير ان أقلها كان يختزن ماء صالحاً لشربنا إذ ان معظمها كانت مكسوة بالطحالب وغيرها من الطفيليات . وعقب هنيهة أخذنا نضرب في سهل عقيلة حيث كان « روص » آمر قوة الطيران في الوجه قد انشأ مطاراً وشاهدنا بعض الحراس من العرب يحرسون مستودعات الوقود فيه ، فتناولنا طعام افطارنا ضيوفاً عليهم .

وعند الاصيل شعرت بنشاط غريب يدب في جسدي وأخـذ بعض مرافقي من رجـال عشيرة جهينة يتبارون في السباق ، وكان الطريق رديئاً ومليئاً بالحجارة ، وقـد عثرت إحدى الرواحل وطوحت براكبها فانكسرت ساقه فقام محمد دخيل الله ليجبرها إذ ربطها بين خشبتين ، ثم مدد المصاب تحت شجرة كي يرتاح قليلاً قبل أن يعود بـه إلى عقيلة . والحق ان رجـال العشائر ماهرون في تجبير العظـام ، فلقد شاهدت في إحدى الخيام في وادي عيس فتى جبرت ذراعه تجبيراً خاطئاً فاستل خنجره وأخذ يحز في لحم ذراعه حتى ظهر عظم الذراع فقام يكسر العظم مرة ثانية ثم أعاد تجبيرها واضطجع في فراشه ليحتمل بصبر فلسفي مضايقات ارجال الذباب له .

٣٨

اضطررت بسبب قذارة ثيابي ان أتخلف عن رفاقي في ضواحـي « الوجه » كي اغتسل واستبدل بها ثياباً نظيفة . وعندما أعلن عن وصولي استقبلني فيصل وقـادني إلى خيمة داخلية خـاصة بـه كي يطلع على ما أحمله من أنباء ويحدثني بمـا استجد لديه من أمور خلال فترة غيابي عن معسكره . وقـد بدا لي من حديث فيصل ان الامور تجري في مجرى حسن ، وانه قد وصلت سيارات جديدة من مصر . كما أخبرني بأن بلدة ينبع قـد أخليت من حاميتها ونقلت الذخائر من مستودعاتها ، وان الشريف شرف قد جاء على رأس وحدة غير منتظرة من وحدات المدافع الرشاشة .

وعلمت بأنه قـد جرى اخلاء بلدة رابغ أيضاً وان الطائرات فيها

قد نقلت إلى هنا كما ان الجنود المصريين رحلوا وراءها وحضر معهم اركان هيئة القوات المعسكرة في رابغ برفقة جويس وجوسليت اللذين أخذا على نفسيهما ادارة الاعمال العسكرية في الوجه . أما نيوكمب وهوزني فكانا متغيبين عن معسكر فيصل إذ انهما كانا في جولة لنسف الخطوط الحديدية الواقعة شمالي الوجه . أضف إلى ذلك ان دعاوتنا بين العشائر كانت تنتشر على صورة حسنة . وقبل أن استأذن فيصل بالخروج من عنده رأيت خادمه سليمان يدخل علينا ويسر في أذنه ببضع كلمات شاهدت وجهه يتألق اثرها فرحاً وسروراً ثم يبادرني قائلاً :

— « لقد حضر عودة . »

فصحت مغتبطاً وسائلاً :

— « حضر عودة ؟؟!! »

ثم رأيت شخصاً مفتول العضل ذا وجه متغضن ونظرات عاطفية حزينة يدخل علينا ويسلم على فيصل قائلاً : « السلام عليكم يا أمير المؤمنين . »

لقد كان هذا الشخص عودة أبو تايه ، ورأيت معه ابنه محمد يتبعه ، وهو فتى لما يتجاوز الحادية عشرة من سنه بعد .

هبّ فيصل منتصباً على قدميه فأمسك عودة بيد فيصل وقبّلها ثم انتحيا جانباً خطوة أو خطوتين فبديا أمام ناظري رجلين خليقين بالجزيرة العربية . فهو ذا فيصل القائد وذاك عودة المحارب . كل واحد يليق بدوره وكفيل بتحقيق مهمته . ان الواحد منهما يفهم الآخر ويحبان بعضهما بعضاً .

جلس عودة إلى جانب فيصل . ثم أخذ الامير يقدّمنا اليه الواحد تلو الآخر . لقد كنا نسمع الكثير عن عودة ، ونأمل فتح العقبة بمساعدته . لقد جاءنا كأنه الفارس الشارد وأخذ يلومنا على تأخرنا في الوجه ، وقال انه يرغب أيضاً في ان يرى الحرية تنتصر في بلاده

وقد لمست ان عودة إذا ما عادلت أفعاله نصف أقواله فأننا لا شك سنكون سعداء ، لذلك شعرنا براحة عميقة تتسلل الينا لتريح أذهاننا المكدودة ثم قمنا لتناول طعامنا مغتبطين .

جلسنا حول السماط ، وكنا جماعة تتألف من نسيب البكري وفايز وحمد الدهيلان القريب الدبلوماسي لعودة ، وزعل ابن عمه ، والشريف ناصر الذي كان يمضي بعض أيام اجازته في الوجه . أثناء الطعام أخذت أقص على فيصل بعض الطرائف عن معسكر عبد الله وأحدثه عن السرور الذي لاقيته في تخريب الخطوط الحديدية في وادي عيس . وفجأة انتصب عودة واقفاً على قدميه وهو يصيح : « سامحني الله » ثم خرج إلى خارج الخيمة حيث سمعناه يهشم شيئاً ما ، فخرجت وراءه لاستطلع حقيقة الامر فرأيته ينحني فوق صخرة ويحطم وجبة أسنانه الصناعية . وبعد ان طحن الوجبة طحناً تلفت إلي وقال :

– « لقد نسيت ان جمال باشا قد أهداني وجبة الاسنان هذه . كنت آكل طعامي يا سيدي باسنان تركية . »

ولسوء الحظ لم يكن قد تبقى في فم عودة سوى عدد قليل من الاسنان الطبيعية ، لذلك أخذ يعاني مصاعب وآلام مضنية في التهام اللحم الذي يتعشقه . وبقي على هذه الحال طيلة شهور حتى استولينا على العقبة فأرسل له آنذاك السير ريجنالد وينجيت طبيب أسنان صنع له وجبة اسنان « حليفة » .

وعودة على الرغم من انه قد بلغ الخمسين من عمره وعلى الرغم من انه قد تزوج ثماني وعشرين مرة وجرح ثلاث عشرة مرة فهو مضرب المثل في الشجاعة . لقد قتل بنفسه خمسة وسبعين رجلاً ولم يقتل أياً منهم في غير المعارك . أما عدد قتلاه من الاتراك فهو مما لا يستطيع حصره ، إذ ان مثل هؤلاء لا يدخلون في سجلات ضحاياه . لقد كان والحق يقال اسطورة حية .

كان جويس يقيم بالقرب من الشاطئ إلى جانب مخيم المصريين . وكنت أزوره وأبحث معه مشاكلنا وأمورنا وكانت جميع نشاطاتنا وحركاتنا موجهة ضد الخط الحديدي . أما نيوكمب وجارلاند فكانا يقيمان مع مولود مخلص والشريف شرف . وقد اجتمع لهؤلاء جمع غفير من عشيرة بيللي وبعض الوحدات النظامية من مشاة منقولة على البغال ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة وكانوا يأملون في ان يستولوا بواسطة هذه القوات على المحطة والخط الحديدي في موقع ام ادهم ، وكان نيوكمب ينوي آنذاك ان يتقدّم بجيوش فيصل نحو مدائن صالح ، وان يستولي على جزء من الخط الحديدي كي يمنع وصول الامدادات إلى الحامية التركية في المدينة ويرغم هذه الحامية على الاستسلام .

وكان ولسون يرغب في الحضور ليسهم في هذه العملية ، كما وان « دفينبورت » كان يعزم على نقل أكبر عدد ممكن من الجنود المصريين لدعم الهجوم العربي .

لقد كانت هذه الخطة سابقاً في نظري ضرورية جداً بالنسبة للثورة . وقد اشتركت أنا شخصياً في اعداد بعض من اجزائها . ولكن عقب ان أتاحت لي الحمى السعيدة التي نزلت بي أثناء اقامتي في معسكر عبد الله فرصةً للتأمل والتفكير في الستراتيجية والتكنيك المتوجب علينا تطبيقهما على حربنا غير النظامية في الجزيرة العربية اتضح لي ان هذه الخطة خاطئة . لذلك أمسى شغلي الشاغل ايضاح آرائي الجديدة المتعارضة مع آرائي السابقة . وهكذا وجدتني أبدأ بافتراضات ثلاثة :

الاول : ان الجنود غير النظاميين يجب ألاّ يهاجموا نقاطاً معينة لأنهم لا يستطيعون أن يفرضوا نهاية حاسمة للمعركة .

ثانياً : ان الجنود غير النظاميين يعجزون عن الدفاع عن خط أو

مركز عجزهم عن الهجوم عليهما .

ثالثاً : ان ميزة الجنود غير النظاميين تبرز في العمق لا في السطح .

لقد كانت الحرب العربية حرباً جغرافية ووجود جيش تركي حدث طارئ . إن عملنا يجب ان ينحصر في البحث عن أضعف الحلقات في سلسلة قوى العدو . لذلك ووفقاً لما أوردت يتوجب علينا ان نوسع جبهتنا إلى أكبر مساحة ممكنة وان نفرض على الاتراك أطول خط دفاعي ممكن لانزال أضخم الخسائر المادية بهم .

لقد كان واجبنا يحتم علينا انجاز ما نريده بأقل عدد من الضحايا . فحياة الفرد العربي كانت في نظرنا أهم بكثير من المال وعامل الزمن ، لذلك فنحن إذا ما تمتعنا بفضيلة الصبر وكانت قدرتنا على درجة جد عالية من المهارة فباستطاعتنا عندئذ ان نتبع نظريات « سايكس » في الستراتيجية والتكنيك أي نخرج من الحرب ظافرين دون أن نخوض معركة واحدة . وذلك بواسطة اعتمادنا المجرد على مزايانا النفسية والرياضية والعددية التي نتفوق بها على العدو .

فنحن نملك من المتفجرات والسيارات والمدافع الرشاشة كميات أضخم مما يملكه الجنود الاتراك . لذلك باستطاعتنا ان نشكل وحداث ضاربة صغيرة سريعة الحركة ومسلحة تسليحاً قوياً توزع ضرباتها بنجاح على مختلف النقاط الواقعة على طول خط الدفاع التركي .

ونحن إذا ما ارغمنا الجيش التركي على رفع عدد حامية كل مركز من مراكزه فوق العشرين جندياً عندئذ نكون قد سلكنا أقصر السبل إلى النجاح والظفر .

أخذت انفذ الخطة الحربية الموضوعة سابقاً . وقد اتضح لي ان الاستيلاء على مركز يتوسط الخط الحديدي عمل باهظ التكاليف بالنسبة للقوة التي ستتولى الدفاع عنه ، وذلك لأن قوتنا المدافعة فيه يحدق بها

خطر الهجوم والتطويق من جميع الجهات كما ان مزج الجنود المصرين بالمقاتلين من رجال العشائر من شأنه ان يهبط بمعنويات رجال العشائر الذين يتوقفون عن القتال فيما إذا شاهدوا جنوداً نظاميين يشتركون فيه . وأخيراً في مناطق عشيرة بيللي مناطق جافة وقاحلة ومن العسير الاحتفاظ فيها بقوة عسكرية ضخمة .

ومن الاسف لم يكن لجميع مـا أبديته من آراء واعتراضات على الخطة الموضوعة من أثر إذ ان الجميع كانوا مشغولين في اعداد الترتيبات اللازمة لتنفيذ الخطة الآنفة الذكر . وكان كل ما كسبته من مناقشاتي واعتراضاتي اصغاء البعض إليّ .

فالاعدادات كانت في مراحل متقدمة ولم يكن في استطاعة أي شخص من الذين شرحت لهم خطتي ان يخولني السلطات اللازمة لتنفيذهـا . لذلك أخذت أدرس مع « عودة » الاعدادات اللازمة لزيارة أقوم بهـا هذا الربيع لمضارب عشيرة الحويطات في الصحراء السورية وكنت أنوي ان أجند من أبنائها وحدة من الهجانة أهاجم بها العقبة من الشرق دون الاستعانة بمدافع الميدان والرشاشات .

وكانت في الشرق تقع أضعف النقـاط في خط الدفاع التركي من العقبة . وهجوم كالهجوم الذي اعتزمه يستوجب قطع مسافة ستمائة ميل في الصحراء للاستيلاء على موقع يقع على مرمى مدافع سفننا الحربية . غير انني لم أجـد هناك من بديل لمثل هـذا الهجوم . وقـد قـال لي « عودة » عندمـا شرحت له هدفي بأنـه من الممكن تحقيـق كل أمر فيما إذا توفر المـال والمتفجرات . وأضاف يقول ان هناك افخاذاً قليلة العدد ستلتحق بفرقتنا فيما إذا دفعنا لافرادها بعض المال .

كما ان فيصلاً الذي كان على اتصال بهذه الافخاذ ثنّى على كلام « عودة » . وقـد علمت ان رجال البحرية البريطانية هاجموا العقبـة وأسروا بعض جنود حاميتها وكانت المعلومات التي أدلى بها هؤلاء الاسرى

عن الاوضاع في العقبة معلومات مفيدة ومشجعة بحيث جعلتني أحزم أمري على التوجه حالاً نحو هدفي .

وهكذا وجدتني أعزم على السير في طريقي الخاصة بأمر أو دون أمر ، فكتبت رسالة مطولة ملأتها بالاعذار إلى كلايتون أطلعته فيها على ما أنوي القيام به من أعمال ثم غادرت معسكر فيصل .

الجزء الرابع

٣٩

حملة العقبة

استكملت اعدادات رحلتي في اليوم التاسع من أيار (مايو) وغادرت معسكر فيصل في وهج الاصيل وكانت تمنياته الطيبة تلاحقنا بأصدائها فوق قمم التلال .

قادنا الشريف ناصر ، هذا الرجل ذو الطيبة المتـألقة . وعندمـا اطلعناه على أمانينا تثاءب قليلاً إذ انه كان منهوك الجسد بسبب الشهور الطويلة الـتي أمضاها في الميدان ، ثم دعا بالتوفيق .

انتهت أولى مراحلنا عند موقع السبيل ، وهو موقع اعتاد الحجاج المصريون أن يتزودوا منه بالمـاء ، فضربنا خيامنا بالقرب من الصهريـج الضخم المبني من الآجر في ظلال السور وأشجار النخيل . وكـان يرافقنا في هـذه الرحلة عودة وبعض أقاربه ونسيب البكري السياسي الدمشقي الذي أرسل بـه فيصل ليقوم باتصالات مع الفلاحين السوريين .

والحق ان نسيب البكري كان رجلاً مفكراً وذا منصب مرموق يتميز بالخلال الطيبة التي اكتسبها خلال رحلاته الصحراوية .

وقد اختار نسيب البكري ، زكي ، رفيقاً له . وزكي هذا ضابط سوري سابق في الجيش العثماني . وكان حرسنا مؤلفاً من خمسة وثلاثين رجلاً من عشيرة عقيل بقيادة « ابن دغيثر » الذي كان سجين قلعة ، يحب الوحدة والانفراد . وقد زودنا فيصل بعشرين الف من الجنيهات الذهبية . وهذا المبلغ كان كل ما يستطيع أن يقدّمه الينا وهو أكثر مما طلبناه منه ، وكان علينا أن ندفع منه مرتبات الرجال الجدد الذين كنا نأمل في ان نجندهم ونقدم للحويطات السلف التي تستثير فيهم الحماسة للعمل .

وتحسباً للطوارئ قمنا بتوزيع هذا الحمل من الجنيهات فيما بيننا . وقد زوّد الشيخ يوسف الذي أصبح الآن مديراً للتموين كل واحد منا بنصف كيس من الدقيق ، وكان من المفروض أن يكفينا طعامنا مدة ستة أسابيع . وحملنا معنا بعض البنادق الجديدة والذخائر لنوزعها هدايا على المرموقين من رجال العشائر . وقد نقل ناصر معه بوصفه أميراً مرموقاً خيمة كبيرة للاستقبال وكيسين من الارز .

ولما كنا مستجدين في مثل هذه الرحلات فلم نكن نعلم ان الطحين أحسن وأخف أنواع الاطعمة في السفر لهذا لم نقدم ابداً في رحلات أخرى على نقل الارز معنا . وانضم إلى مرافقتي من عشيرة عقيل ، مخيمر ومرجان وعلي ومحمد وهو فلاح مطيع أمين من احدى قرى حوران ، كما التحق بهم جاسم الذي سبق له ان قتل أحد الموظفين الاتراك لخلاف حول تعداد الماشية ثم لجأ إلى عشيرة الحويطات .

لقد بدونا فريقاً صغيراً قليل العدد بالنسبة للمهمة التي أخذناها على عواتقنا . لذلك ما كدنا نغادر المعسكر حتى سبقنا « لاموت » ، ممثل بيرموند الفرنسي ، خارجاً ليودّعنا ويلتقط لنا صورة تذكارية أو

وداعية يحتفظ بها . كما ان الشيخ يوسف وشفيق وأشقاء نسيب حضروا الينا عندما علموا بعزمنا على التوجه إلى العقبة ليودعونا وليتمنوا لنا النجاح والفلاح في رحلتنا . وفي المساء أقيمت حفلة عشاء أعدها يوسف الفطن .

بعد ذهاب هؤلاء الضيوف امتطينا رواحلنا وغادرنا المعسكر قبيل منتصف الليل .

وكان مرشدنا في هذه الرحلة ناصر . وبينما كنا نسير والقمر يرسل بأشعته الفضية فينير طريقنا كان ناصر يفكر ببلده ، فأخذ يحدثني عن منزله ذي الجدران الحجرية وعن نوافذه الخشبية التي تحول دون تسرب حرارة الشمس وأشعتها إلى داخله وعن حديقته المغروسة بجميع أنواع أشجار الفاكهة وعن الدروب الغارقة في الظلال التي تخترقها وتوزعها إلى احواض ومساكب وعن الناعورة التي تضخ الماء من البئر . كان ناصر ذا طبع مرح لكنه كان سرعان ما يحزن وينقبض ، ولا شك انه كان أثناء سيرنا هذا يتساءل في نفسه عما دعاه إلى هجران منزله ذي الحديقة الغناء في المدينة المنورة والتخلي عن جميع ما يوفره له عيشه من ترف كي يقود جماعة من المغامرين اليائسين في صحراء قاحلة مجدبة .

عقب سيرنا أربع ساعات متواصلة ترجلنا عن مطايانا ، ونمنا ساعتين . ثم استيقظنا مع شروق الشمس وكانت جمالنا المحمّلة بأثقالها منهوكة تعبة ، بسبب ما لاقته من قلة عناية في « الوجه » . لذلك كانت بطيئة الخطى تلتهم طيلة سيرها ما تجده في طريقها من أعشاب ، وقد حاولنا نحن أن نسبقها إلى هدفنا . غير ان « عودة » الذي أخذ على عاتقه تدبير أمر رحلتنا منعنا من ذلك ، إذ قال اننا مقدمون على مرحلة تستدعي توفير قوى مطايانا ، لذلك تابعنا سيرنا البطيء ست ساعات تحت حرارة ملتهبة . وكانت أضواء الشمس المنعكسة على الرمال تضرب

بأشعتها شباك أبصارنا .

وفي الساعة الحادية عشرة تمرّدنا على « عودة » وأرغمناه على الترجل عن راحلته ، ثم أوينا إلى ظـلال شجيرات هزيلة لننال قسطـاً من الراحة .

وفي منتصف الساعة الثالثة امتطينا رواحلنا من جديد وسرنا ثـلاث ساعات على منحدرات سهلة لينة حتى وصلنـا جدران وادٍ ضخم ، استقبلتنا فيه حدائق « الكر » وبساتينها . ورأينا خيامـاً بيضاء تطـالعنا من بين أشجار النخيل . وعندما ترجلنا عن رواحلنا خرج راسم وعبدالله ومحمود وحتى مولود مخلص صديقنـا القديم ليرحبوا بنا . وقد أعلمونا بأن الشريف شرف الذي كنا نأمل في زيارته في موقع « ابو رجا » قـد خرج في رحلة تستغرق أياماً قليلة . لذلك أعطينا أنفسنا منها ليلتين في « الكر » .

والحق انني سررت في إقامتنا في « الكر » وذلك لأن الحمـى والدمامل التي عانيت آلامها في وادي عيس قـد عاودتني بقسوة أشد وألم أكثر عنفاً .

وهكذا وجدتني استلقي في « الكر » هاديء البال امتع ناظري بالخضرة والمـاء .

كان يسكن « الكر » رجل واحـد وعائلته . ويدعى هذا الرجـل « ضيف الله » وكان يعمل هو وبناته في بستانه الذي ورثه عن أجداده : وكان هذا البستان يقوم على الحافة الجنوبية من الوادي ويحميه من السيول جدار صخري شيدته يد الطبيعة . وفي وسط البستان يتدفق نبع مـاء بارد صاف زلال وكانت تشق هذا البستان أقنية من الطين تسير فيهـا المياه صباح مساء لتروي الاشجار . وكان يزرع في بستانه النخيل القصير الجذوع كي يحمي مزروعاته الاخرى من حرارة الشمس . وكان مـن محصولاته الرئيسية التبغ والبطيخ والخيار والباذنجان وكان ضيف الله

رجلاً طاعناً في السن يعيش ونساؤه في كوخ شيد إلى جانب النبع . وكان يسخر من انهماكنا في مشاغل السياسة ويرى ان كل مطالب الحياة تنتهي عند تأمين المأكل والمشرب ، لذلك كثيراً ما كنا نستثيره عندما نحدثه عن الحرية وعن تحرر البلاد العربية واستئثار العرب بخيراتها ، فكنا نقول له ان هذه الحديقة لن تكون جميع حاصلاتها لك إذا لم تتحرر البلاد العربية . غير انه لم يكن يفهم ما نعنيه بل كان يقف ويقرع بيده على صدره ويقول : « انني أنا الكر » .

لقد كان ضيف الله حراً ولم يكن يبتغي من الآخرين شيئاً صغيراً كان ام كثيراً . لقد كان كل ما يبتغيه ان يكون مالكاً بستانه . وكان يقول بأنه في امكان كل انسان ان يصبح رجلاً ثرياً فيما إذا عمد إلى التوفير والاقتصاد . فلقد ورث لباس رأسه ، وهو طاقية من الفرو ، عن جده الذي اشترى هذه الطاقية منذ ما يقارب القرن من احد جنود ابراهيم باشا . اما ثوبه وثياب زوجته وبناته فأنه لا يستبدلها ولا يشتري غيرها سوى مرة كل عام . وذلك عندما يبيع محصول أرضه من التبغ .

ومع هذا بدا ضيف الله مسروراً بوجودنا في بستانه ، إذ انه كان يبيعنا الخضروات . وكنا كل ليلة نجلس حول النار لنستمع إلى الاغاني والموسيقى ، ولم تكن هذه الموسيقى موسيقى بدوية رتيبة أو غناء عقيلياً مثيراً إنما كانت انغاماً سورية ريفية .

وكثيراً ما كان أيضاً نسيب البكري يخرج من جيبه ديوان سليم الجزائري هذا المحارب المقدام والثوري الشجاع الذي كان يجد على الرغم من مشاغله في اركان الحرب ومهماته الدموية التي انجزها لحساب جماعة تركيا الفتاة فرصة لينظم الاشعار والقصائد الوطنية .

لقد كان نسيب البكري ورفاقه ينشدون أهازيجهم بلحن ناري مترنح يحملون كلماتهم كل آمالهم وعواطفهم . وكانت وجوههم الدمشقية الشاحبة

تتفصد بالعرق وهم ينشدون حول ألسنة اللهب . وكان يسود المعسكر وهم يغنون هدوء القبر وصمته . وكان عندما ينتهي المنشد من انشاده يؤلف الحاضرون جوقة تردد اللازمة . أما دخيل الله الطاعن في السن فكان يتابع ارواء مزروعاته مؤملاً في أن يبتاع الجنود في الغد بعضاً من خضاره .

٤٠

ذكّرنا هذا البستان ، نحن المدنيين ، بعالم ما قبل الحرب الذي قادنا إلى الصحراء ، أما « عودة » فقد اعتبر هذا المكان الغني بثروته النباتية شيئاً معيباً ، وسارع في البحث عن مكان أجرد . وهكذا قطع علينا بسرعة ليلتنا الفردوسية الثانية . وفي الساعة الثانية صباحاً أخذنا طريق الوادي يلفّنا الظلام الحالك . وكان « عودة » دليلنا في تلك الليلة نتبعه في خط طويل مسترشدين بحدائه المتواصل .

أثناء هذه الرحلة الطويلة ، تولى الشريف ناصر ومحمد الضغلان ابن عم عودة تصحيح لغتي العربية . وكنت أتلقى على أيديهما دروساً في اللغة الفصحى وأخرى في اللهجة الصحراوية البدوية . وكنت لا أجد صعوبة في ذلك لخلو تلك الدروس من القواعد اللغوية الصارمة . حتى بات من يسمع حديثي يعتقد بأنني واحد من البدو الاميين .

على كل حال ، كنت لا أزال حتى الآن عاجزاً عن فهم كلمة واحدة من أغاني عودة ، الامر الذي كان يجعلني أضجر من سماعها . وكنا قد تابعنا مسيرنا في تلك الليلة حتى بزوغ الشمس ، ثم حططنا رحالنا للاستراحة ، وتناولنا شيئاً من الطعام . وبما ان شرّاف لم يكن قد

عاد بعد إلى « ابو رجا » ، فلم يكن هناك مـا يدفعنا إلى العجلة .
وأخيراً ، وبعد ان نلنا قسطـاً من الراحة ، اعطى ناصر اشـارة الرحيل ، وسرنا بـين سلسلتين جبليتين . وبعد مسير اربع ساعـات قررنا ان نخيم في مجرى الوادي حيث تتوفر المياه لأرواء غليلنا ، وحيث تكثر الاشواك لاطعام نارنا الـتي ستقينا من برد الصحراء القارس خلال الليل .
لقد كان نظـام سيرنا غريباً ومعقداً في الوقت نفسه . فرجال ناصر ، وعوده ونسيب كانوا يشكلون بيوتاً متباينة نزقة ، وسيادة ناصر لم تكن مقبولة منهم إلا لأنني ضيفه ، ولأنـه شخص يوحي الثقـة وينتزع الاحترام .
ارتحلنا في الساعة الخامسة صباحـاً ، وكانت طريقنا هـذه المرة غاية في الوعورة لدرجة جعلتنا نطير فرحاً لدى انتهائها ووصولنا إلى هضبة فسيحة تنحدر ببطء نحو الشرق ، وسرعان مـا انفرج أمامنا واد أبيض الحصى عثرنا فيه على بئر ابو سعد ، حيث نزلنا للاستراحة وقضاء الليل وقتل الوقت بطريقة مـا ريثما يعود شرّاف من غارته على الخط الحديدي . غير اننا قطعنا مسافة اربعة اميال كي نخيم في اكمة وارفـة الظلال . وهناك عاودني المرض من جديد ، واخذت حرارتي في الارتفاع المستمر . وكنت اتألـم ، في الوقت نفسه ، من الدمامل ومن احتكاك السرج المبلل بالعرق . وعندما أوقف ناصر ، دون أن يكون لي أي دخل في ذلك، القافلة في منتصف المرحـلة ، استدرت لأشكره بمرارة وسط دهشـته الزائدة . كنا آنذاك على قمة « شفا » الكلسية ، حيث الهواء أقل سخونة .
وفي اليوم التالي بعد تناول الطعام ، تابعنا المسير على المنحدر ، وبعد نصف ساعة فقط وجدنا أنفسنا فجأة في وادي « جزيل » ، الوادي الرئيسي لهـذه المنطقة الرملية الـتي كنا قـد رأينا طرفهـا بالقرب من

« هديةٌ » :

نصبنا خيامنا في مكان ما من الوادي ، حيث كوّنت المياه المتساقطة حوضاً تجمعت فيه المياه منذ الشتاء الماضي . ثم أرسلنا كشافاً يستطلع مكان شرّاف في الجانب الآخر من الوادي ، فعاد وأنبأنا بأنه مخيم هناك . فقررنا أن ننتظره حيث نحن ، وبقينا هكذا ليلتين في ذلك المكان الغني بالاصداء والألوان الغريبة . وفيما كنت مستلقياً أحلم بعد أن استحممت في الحوض ، وتناولت طعام الغداء ، إذا بصوت فتى ينتزعني من احلامي . فتحت عيني فوجدتني أمام شاب غريب من بني عقيل ، داود ، راكعاً بالقرب مني وتبدو عليه علامات القلق . لقد جاء كما قال يستجير بي . فصديقه فرّاج كان قد اشعل النار في خيمتهم أثناء طفرة طيش ، وسعد زعيم بني عقيل التابعين لشرّاف ، سيجلده بالسوط . ويكفي أن أتدخل في الأمر لكي يعفوَ عنه . وما ان وصل سعد لزيارتي حتى عرضت عليه القضية وداود ينظر الينا قلقاً على أحرّ من الجمر . لم يكن جواب سعد مشجّعاً ، إذ ان سلوك هذين الشقيين قد أصبح غير محتمل منذ بضعة أيام الامر الذي جعل شرّاف يأمر بجعلهما مثلاً لمن يمتثل . وكل ما استطاع سعد أن يوافقني عليه هو ترك داود ينال حصته من عدد الجلدات . وعلى الاثر هبّ داود يقبّل يدي ثم يد سعد ، وينطلق مسرعاً في الوادي . حينئذ راح سعد يروي لي ضاحكاً قصة هذين الفتيين .

لم يصل شرّاف في الغد . وكنت قد أمضيت الساعات الاولى من الصباح مع عودة في محاولة لتنظيم مراحل ارتحالنا التالية . ووسط قهقهة الجميع اقترب منا ، مُسلِّمَيْن ، شخصان في مشيتهما عرج ، وفي عيونهما ألم رغم ارتسام ابتسامة الدهاء على شفتيهما . وقد كان أحدهما داود المتعجرف و « صديقه » فرّاج فتى رائع الجمال ، أهيف القد أقرب إلى

النساء منه إلى الرجال . وقد جاءا ، كما قالا ، ليضعا نفسيهما تحت تصرفي ، وعبثاً حاولت التملّص وعدم الحاقهما بخدمتي . واخيراً ، نزولا عند رغبة ناصر استخدمتهما كليهما ، مسحوراً ، على الاخص بشبابهما ونظافتهما .

٤١

لم يأتِ شرّاف إلا في اليوم الثالث . والله كان يعلم بأننا لم نكن نجهل قدومه آنذاك ، فالعرب الذين كانوا يرافقونه كانوا يهزجون ويطلقون نيران بنادقهم ابتهاجاً ، وكانت الوديان والجبال تردّد أصداء ذلك وبدت كأنها تضافرت كلها من أجل تحيتنا . ولزيارة شرّاف والسلام عليه كنّا في ذلك اليوم قد ارتدينا أجمل ما لدينا من ثياب . بدا شرّاف قريباً جداً من قلوبنا ، وذلك لأنه كان قد قام بمهمته على أكمل وجه . نسف الخط الحديدي وأحد الجسور بعد أن أسر عدد من الحراس . ومن الاخبار التي حملها لنا اننا سنجد في وادي « دراع » بركاً صغيرة مملوءة بالمياه العذبة . وهذا سيوفر علينا مسير خمسين ميلاً على طريق « فجر » بين نقطتي ماء . والعطش ، منذ تلك الساعة ، لم يعد بذي بال بالنسبة الينا .

بعد ظهر اليوم التالي ، تركنا « ابو رجا » غير آسفين ، ذلك لأن الحمى كانت قد انهكتنا في ذلك الوادي غير الصحي . قادنا « عودة » في وادٍ جانبي يوصل إلى سهل الشيخ . وفيما نحن نتابع سيرنا بين الحصى والرمال إذا بستة فرسان يطلّون علينا فجأة قادمين من جهة الخط فسارعنا انا وعودة لمعرفة ما إذا كانوا أعداء ام أصدقاء . ولدى

اقترابهم منا تبين لنـا انهم من الجيش العربي . بدأ مظهر الاول الذي كان يركب جملاً ضخماً عليه سرج من الخشب ، صنع مانشستر ، يدل على انه من فوج الهجّانة البريطاني ، كان انكليزياً اشقر ، يرتدي لباساً عسكرياً ممزقـاً . وهذا لم يكن من الممكن ان يكون سـوى « هورنبي » المهندس الهائج الثائر ، تلميذ « نيوكمب » الذي كان ينافسه في تخريب الخط الحديدي . وكان هذا أول لقاء بيننا تبادلنا فيه التحية ثم علمت منه ان نيوكمب كان قـد توجّه إلى « الوجه » لرؤية فيصل وعرض صعوباتـه عليـه ، ومن ثم لوضـع مخططـات جديـدة للعمل .

لقد كان « نيوكمب » يقع دائماً في صعوبات ومآزق . والسبب في ذلك يعود قبل كل شيء إلى حماسته الزائدة ، وإلى عادتـه في أن يقوم بأربعة أضعاف العمل الذي يستطيعه أي انكليزي ، وبعشرة أضعاف مـا يراه العربي معقولاً ولازماً . كان « هورنبي » لا يعرف من اللغة العربية إلا بضع كلمات ، أما « نيوكمب » فكان يعرف منها ما يكفي لاصدار الاوامر وربمـا الاقناع . ولكن الاوامر لم تكن تقع موقعاً حسناً في هـذا الداخل الصحراوي . وكلاهما لمدة أسابيع متتالية كان يتعلق بالخط تقريباً بدون مساعدة وأحيـاناً بدون طعام ، حتّى تنفد منه الذخيرة والمتفجرات ، ويفقد كل مـا معه من جمـال ، فيتراجع عندئذ ليتزوّد بكميات جديدة من المتفجرات ، ويبحث عن عدد من الجمال ، ومن ثم يعود إلى هجماته وغاراته على الخط . كان « نيوكمب » لا يتوقف عن الاغارة أبـداً ولا يستطيع ان يرى مرتفعاً حتّى يتسلقه لالقـاء نظرة على السهل المحيط بـه ، كل هذا أمـام سخط مرافقيه واحراجهم حيث كان عليهم إما تركه يفنى وحده (وترك رفيق في الطريق يعتبر عاراً كبيراً عند العرب لا يغسل بسهولة) ، وإما الفناء معه . لقد كان « نيوكمب » في نظرهم كالنار التي تحرق الاخضر

واليابس ، الصديق والعدو على السواء . ولكنهم كانوا معجبين بحيويته وفخورين بكونهم يركبون المخاطر معه .

ومما رواه لي مرافقو « نيوكمب » العرب عنه أيضاً انه كان يرفض أن ينام إلا ورأسه على الخط الحديدي مستخدماً إياه كوسادة ، كما ان معاونه « هورنبي » كان ينقضّ على الخط الحديدي بأسنانه عندما يفشل الديناميت في نسفه . قد يكون هذا الكلام خرافة ومبالغة ، ومهما يكن فانه يدل على ان كلا الشخصين يستميت كي يخرّب ما دام قادراً على ذلك . وكانا بما يقومان به من نسف وتدمير وتخريب يضطران السلطنة العثمانية لأن تجنّد باستمرار اربع كتائب من العمال الاتراك لأصلاح ما ينسفانه ويخربانه ، كما ان الديناميت كان يصل بالاطنان وبكميات متزايدة إلى « الوجه » لاشباع نهمهما إلى النسف والتدمير . كانا يشكّلان زوجاً فريداً ، ولكن قيمتهما الفائقة الكبيرة كانت تثبط عزيمة اجهزتنا الضعيفة . فالوطنيون كانوا يخجلون من تقصيرهم الفاضح . والنتيجة المترتبة على ذلك كانت ان « نيوكمب » و « هورنبي » بقيا معزولين ، محرومين من حسنات التقليد والمحاكاة .

عند غروب الشمس ، كنا قد وصلنا إلى طرف الهضبة الشمالي ، وهي هضبة رملية كثيرة الحصى ، تحاذيها هضبة بركانية تعلوها بستين قدماً . أصبح السير أكثر سهولة ، ولذلك قرر « عودة » متابعة المسير في الليل مسترشداً بالنجم القطبي . وعند الساعة السابعة ، عندما توقفنا ، لم يكن قد بقي معنا سوى اربعة رجال فخيمنا في واد صغير هناك لقضاء الليل . وفي الصباح عندما تابعنا المسير كانت الساعة قد ناهزت الثامنة . وبعد أن قطعنا بسرعة ، مسافة ستة أو سبعة أميال ، اجتزنا الهضبة الداكنة الكثيرة الحصى ، التي تشكّل خط انقسام المياه بين « الجزيل » والحوض الذي يمر فيه الخط الحديدي .

سرنا سيراً حثيثاً حتى الظهيرة . والاستراحة التي تلت ذلك — الساعة الثالثة في مكان أجرد — لم تكن مريحة ، إلا ان الانهاك الذي أصاب الجمال جعلها ضرورية . وكانت الطريق التي تبعناها بعد ذلك أكثر وعورة الامر الذي جعلنا نشيد مرة أخرى بلباقة عودة في قيادتنا . وانتهى بنا المطاف في ذلك اليوم إلى وادي عيس ، حيث حططنا رحالنا بين الماء والعشب . وفيما نحن هناك دلفت علينا عصابة سرعان ما ارتدت على أعقابها عندما تأكدت من كثرتنا . وساد الاعتقاد بناء لرأي عودة انها إحدى دوريات قبائل شمر .

عند الفجر شددنا رحالنا قاصدين « دراع » حيث توجد آبار المياه التي أشار اليها شراف . ولما وصلنا هناك تبين لنا من بقايا المعلبات ان « نيوكمب » و « هورنبي » كانا قد نزلا في ذلك المكان . وفي أثناء الاستراحة راح عودة يتفقد الجمال التي أصابها الجرب بينما بدأ القلق يساور ناصر بشأن مرحلتنا المقبلة وعجز الجمال عن متابعة المسير .

٤٢

في الساعة الرابعة إلا ربعاً كنّا على ظهور الجمال نجتاز وادي دراع بين تلال من الرمال المتحركة المكسوة أحياناً بصخر أحمر هش . وأخذ ثلاثة أو أربعة ممن كانوا يتقدموننا يزحفون على بطونهم إلى مرتفع رملي لألقاء نظرة على الخط الحديدي الذي بتنا على مقربة منه . وقد بدا الخط لنا هادئاً ومقفراً ، ممتداً فوق أرض منبسطة عند مدخل الوادي السحيق الذي كان يجتازه رفاقنا في المؤخرة بحذر شديد وأيديهم

على الزناد .

أشرنا لهم كي يتوقّفوا في أماكنهم في الوادي ريثما ندرس عن كثب الخط الحديدي . وفي الحقيقة كل شيء بدا لنا هادئاً مقفراً ، الامر الذي جعلنا نعود إلى قواعدنا ، ونركب من جديد نحو المراعي حيث سنترك الجمال ، وننقضّ على الخط ، ثم نطلب إلى الآخرين أن يتقدّموا .

كان هذا الممر الهادئ نعمة من السماء . فشرّاف كان قد شدّد كثيراً في تحذيرنا من الدوريات العدوة على ظهور البغال أو الجمال التي تساندها عند أول اشارة قواتٌ من المشاة مسلحة بالرشاشات تأتي في القطار من المخافر القريبة . بقيت جمال الركوب ترعى ريثما يتمّ للجمال المحمّلة اجتياز الخط والاختفاء بين ممرات السلسلة المقابلة . في هذا الوقت كان بنو عقيل يدسون البارود والديناميت تحت الخط الحديدي . وما ان تم وصول الجمال إلى المخبأ حتّى بدأت عملية اشعال الفتيل وتلتها الانفجارات المتتابعة التي دوّت أصداؤها في الوادي .

في هذه الاثناء استبدّت الفرحة بعودة ، فراح ينظم قصيدة مناسبة لتمجيد الانتصار العظيم . وبعد ذلك قطّعنا الخطوط التلغرافية ، ثم اسرعنا بقافلتنا .

اجتزنا خمسة أميال وسط الظلام المتزايد . غير ان وعورة الطريق انهكت جمالنا فأعطينا إشارة التوقف . كان سائر أفراد القافلة لا يزالون يتقدموننا مع الامتعة ، وذلك لأنهم كانوا قد تابعوا مسيرهم فيما كنا نحن ننسف الخط الحديدي . وكان من المستحيل علينا العثور عليهم في الليل الحالك . ومن مراكزهم كان الاتراك يزمجرون وراءنا ويطلقون نيران بنادقهم على اشباح ، لذلك رأينا انه من الافضل لنا التظاهر بالموت على أن نلفت النظر بالنار أو الاشارات .

ومع ذلك ، فابن دغيثر الذي كان يقود القافلة ، كان قد خلّف

وراءه فرقـة ارتباط ، فما ان نمنا حتى أتى الينا اثنان منهم لطمأنتنا قائلين ان بقية الرفاق في أمان في وسط وادٍ رملي عميق بالقرب منا . شددنا رحالنا مرة أخرى وتلمسنا طريقنا وسط الظلام الحالك وراء الدليلين إلى المكان الذي ينزل فيه رفاقنا ونمنا إلى جانبهم دون أن نتبادل أية كلمة .

وفي الغد حملنا « عودة » على المسير قبيل الساعة الرابعة . كان علينا صعود المنحدر ، وتسلق القمة ثم الهبوط مع المنحدر من الجانب الآخر . وقادتنا أقدامنا بالتالي إلى الهضبة التي تشكل خط تقسيم المياه بين الحجاز ووادي السرحان . بعد بضع خطوات أخرى نترك وجه الجزيرة الذي يطل على البحر الاحمر لكي نلج إلى حوضها الاوسط . سهل فسيح كان يمتد أمام ناظرينا مع تموّجات متتابعة نحو الشرق أضفت عليها الشمس التي أطلت ساعتئذ ألواناً بديعة . اتجه « عودة » بنا إلى الشمال الشرقي مسترشداً بهضبة صغيرة تجمع بين قمة منخفضة ، وقمة أخرى إلى اليسار على خط تقسيم المياه ، على مسافة ما يقرب من ثلاثة أميال . وما ان اجتزنا الهضبة حتى عثرنا على آثار مجارٍ قليلة العمق ، قال عودة عنها بأنها تتجمّع وتكبر لتصبح أودية تتجه نحو النبك في وادي السرحان . حاذيناها باتجاه الشمال ، ثم الشرق حتى المقر الصيفي الذي تخيم فيه « الحويطات » .

بعد لحظات كنا نمشي فوق هضبة من الرمال المتحجرة المنضدّة بشكل صفائح كالأردواز . وفيما أنا مكبٌّ على الخريطة للاستطلاع جاء عودة ووقف بجانبي ، ثم راح يدلني على الخريطة إلى أسماء المواقع التي تحيط بنا . الاودية الممتدة إلى اليسار منا كانت سيال « ابو عرض » الذي يتولد في السلهوب ، ويتلقى مياه كثير من الروافد المنحدرة من خط تقسيم المياه الكبير الذي يمتد إلى الشمال نحو جبل « رفيعة » ، بالقرب من « تبوك » ، واما الاودية الممتدة إلى اليمين منا فكانت سيول « الكلب »

و « العجيدة » ، و « الجملين » ، و«اللبدة » وغيرها من القمم الممتدة أمامنا في الشرق والشمال الشرقي ، وهذان الحوضان الكبيران يلتقيان في « الفجر » على مسافة خمسين ميلاً إلى الامام ، وكلمة « الفجر » نفسها كانت تشير إلى القبيلة ، وبعدها الوادي الذي توجد فيه تلك البئر . امام هذا السيل من الاسماء الجديدة بدأ رأسي يدور ، ولم ينقذني من ذلك سوى انصراف عودة إلى رواية الحكايات المسلية عن الشيوخ الذين يرافقوننا وعن اولئك الذين سنلتقي بهم .

إن قبيلة « الفجر » سيدة هذه الاماكن ، تطلق على السهل الممتد اسم « الهول » بسبب قفره . فقد قطعنا فيه مسيرة يوم كامل دون أن تقع أعيننا على أي أثر للحياة فيه ، لا أثر لغزال أو حرذون ، أو جرذ ، أو حتى طائر . ونحن أنفسنا شعرنا بأننا لم نعد شيئاً وسط هذا السكون الرهيب . الرياح كانت تلفح ساخنة وكأنها أسواط من نار . ومع ارتفاع الشمس إلى كبد السماء ازدادت قوّة الرياح عنفاً وباتت تلفح محملة بكميات أكبر من رمال النفود ، الصحراء الرملية الكبرى في شمالي شبه الجزيرة التي باتت قريبة جداً منا . وعند الظهر تحولت الرياح إلى عاصفة هوجاء ، شققت شفاهنا وجلدنا لكثرة جفافها ، وأعمت عيوننا لكثرة ما كانت تحمل من غبار . فعمد الجميع إلى اخفاء وجوههم ولم يبقوا سوى فتحة بسيطة أمام أعينهم تتيح لهم رؤية طريقهم . أما أنا فقد عانيت الكثير من جراء هذه العاصفة التي لا عهد لي بمثلها من قبل . والانكى من ذلك انه كان من المستحيل التوقف ونصب الخيام الامر الذي اضطرنا لأن نستمر في المسير ومقاومة العاصفة حتى هبوط الليل حيث خيمنا في وادي « سيل ابو عرض » المتجه شرقاً . وبما اننا كنا في وسط منطقة الغزو ، وبما ان الليل في الجزيرة ينسي الصداقات فقد أمر عودة بتناوب الحراسة طيلة الليل .

٤٣ .

في الغد مع الفجر كنا نجتاز وادي «سيل ابو عرض» . وعندما اطلت علينا الشمس من وراء تلال «زبلية» اتجهنا إلى الشمال لتحاشي زاوية الوادي ، ثم توقفنا نصف ساعة لانتظار باقي القافلة . ورغماً عن كثافة الضباب ، لم يكن هناك مجال للتيه ، إذ كان يكفي فقط السير مع وادي فجر للوصول إلى ما نصبو اليه .

وعند الظهر بدت لنا آبار وادي فجر التي نقصدها . وكانت كثيرة المياه ، كما ان الاعشاب شبه اليابسة لم تكن معدومة ، فتركنا الإبل ترعى فيها حتى الغسق ، وقضينا ليلتنا هناك . ومع الفجر كالعادة تابعنا المسير . ولكن بما ان لذع الرمال وحرارتها كانت تزداد يوماً عن يوم ، فقد قررنا ان نستظل في وقت الهجيرة . بعد مسيرة ميلين ، بدأ الوادي ينفرج أمامنا ، وإذا بنا نلحظ إلى الشرق جرفاً منخفضاً ولكن وعراً عند أول سيل «روغا» . بدا المكان أكثر اخضراراً فرجونا عودة ان يذهب ويصطاد لنا فنزل عند رجائنا واصطحب زعل معه ليعودا عند الظهر ومع كل منهما غزال سمين . ففرحنا فرحاً عظيماً ، وأقمنا مأدبة عامرة كنا في أمس الحاجة اليها لتناسي التعب والانهاك ، وعلى الاخص بالنسبة لنا نحن المدنيين انا ، وزكي ، ونسيب السوري وخدمه . وكنا جميعنا ضيوفاً على ناصر .

دامت استراحتنا حتى الساعة الثانية بعد الظهر . ولذلك لم نصل إلى «خبر عجاج» إلا مع غروب الشمس . وكانت مياه «خبر عجاج» المتجمعة من أمطار هذه السنة ، لا تزال معكرة ، واجاج ، تصلح للجمال . كنا قد ظننا بأننا سنجد الحويطات هناك ، ولكنهم كانوا قد رحلوا قبل وصولنا واتجهوا نحو وادي السرحان ، حيث سنعثر عليهم في الشمال .

بدا الوقت لنا كأنه قـد توقف عن المسير مع ان اليوم التالي لم يكن سوى الرابع عشر بعد انطلاقنا من الوجه . ومع شروق شمس ذلك اليوم كنا في طريقنا إلى اجتياز وادي « فجر » وقـد تمّ ذلك بعد الظهر حيث اتجهنا إلى « عرفجة » في السرحان ، في الجهة الشمالية الشرقية . وهكذا اتجهت القافلة إلى اليمين وسط سهل فسيح من الكلس والرمال . وعند الافق ظهر لنا طرف النفود الكبرى ، هذا الحزام الهائل مـن كثبان الرمال الذي يعزل جبل شمّر عن البادية السورية . لقد سبـق للرحالين « بلغراف » و « بلانت » و « جيرترودبل » ان اجتازوا هـذا الحزام فأصبحوا بذلك عظماء ، لذلك رجوت « عودة » ان يجعل طريقنا من هناك حتى أصبح واحداً من الرحالة العظام ، ويقال عني بأنني اجتزت صحراء النفود الكبرى . غير ان « عودة » رفض رجائي باصرار وقال بأن ما من أحد يدخل النفود إلاّ إذا كان يقوم بغارة غزو ، كما انه ما من انسان عـاقل يقدم على ذلك وهو على متن جمال جربة . هذا عـدا عن كون مهمتنا الرئيسية هي الوصول أحياء إلى عرفجة .

وهكذا اذن تقدمنا بتؤدة وسط تألق ذرات الرمال . وازعج بكثير من الرمال كانت تلك الطبقات من الوحل الاملس البيضاء التي كانت تزيد مساحتها أحياناً على بضعة أميـال مربّعة . كانت هذه الطبقـات تعكس النور على وجوهنا بقوّة الأمر الذي جعلنـا نتقدّم بين نارين ، أشعة الشمس المحرقـة من فوق ، وانعكاسات تلك الاشـعة مـن تحت .

لم نتبادل في تلك الاثناء سوى بضع كلمات مقتضبة ، ولكن السكينة عادت حوالى الساعة السادسة مساء . وعندئذ توقفنا للاستراحة وتنـاول شيء من الطعـام . وكنت قـد اعطيت ناقتي ما زاد عن حـاجتي من الطعام ، فهذه المراحل الصعبة كانت تنهك الحيوان المسكين من الجوع والتعب . وناقتي ليست بسيطة . بل انهـا حيوان عريق . لقد أهداها

ابن مسعود إلى الشريف حسين الذي أهداها بدوره إلى ابنه فيصل . وقد كانت ناقة رائعة، صبورة ، راسخة القدم في الطرقات الجبلية الوعرة . ومن المعروف ان الاغنياء من العرب لا يركبون إلا النياق الاكثر انطلاقاً التي تتحمّل قسطاً أكبر من التعب وتستمر في المسير حتى تقع ميتة ، بينما الذكور الاكثر عناداً تبرك في الارض عندما تحسّ بالتعب ، وتفضّل أن تموت هناك على أن تخطو خطوة أخرى .

توجّب علينا ان نسير أيضاً خلال ثلاث ساعات أخرى بعد هبوط الليل ، للوصول إلى قمة تلة رملية . وكان النوم أكثر ما نتوق اليه بعد ذلك اليوم المرهق .

ولكن اليوم التالي كان يقلق خاطر « عودة » خوفاً من أن نقضي يوماً ثالثاً دون ماء . ولذلك أيقظنا باكراً قبل الفجر ، وبلغنا عند بزوغه سهل « البسيطة » الكثير الحصى . تقدّمنا ببطء وتؤدة لأن الحصى كان يؤلم أخفاف الجمال .

٤٤

كنتُ تعباً جداً في ذلك النهار ، ولذلك بقيت مع القافلة فيما راح « آل زعل » و « الحويطات » يحاولون صيد الغزلان لا سيما انني لست صياداً ماهراً . كان رجالي يسيرون في المؤخرة ، وقد قالوا لي بأن جمالهم ستموت قبل هبوط الليل إذا ما ازداد عنف الريح . لاحظت غياب قاسم ، ولمّا سألت عنه قيل لي بأنه ربما كان مع « الحويطات » .

لم يكن هناك أحد وراءنا . فسارعت إلى الامام لاتفحص بعيره ، فوجدت البعير ولكنني لم أجد قاسم . وسرعان ما سرى الهمس بأنه قد اختفى . وكان الوقت يناهز الظهر آنذاك ، أي ان قاسم يتوجب ان يكون قد تخلّف عنّا بعدّة أميال . ولدى السؤال والاستفسار تبيّن لي بأن أحداً لم يكن يدري شيئاً عنه . واما محمد رفيقه وصديقه فقد كان هذا أول عهده بالصحراء ، وكان يمتطي بعيراً ضعيف القوائم . وارساله للبحث عن قاسم معناه اتباعه به وفقدان الاثنين معاً . لذلك كان كل شيء يقع على عاتقي أنا ، لأن آل الحويطات كانوا بعيدين عنا إما للاستكشاف وإما للصيد ، وأتباع ابن الدغيثر من بني عقيل ، كانوا لا يهتمون إلاّ بعشيرتهم ، ولا يمكن ان يكلّفوا أنفسهم عناء البحث عن غريب . يضاف إلى ذلك ان قاسم كان في خدمتي وأنا المسؤول عنه .

نظرت بجبن إلى رجالي الذين كانوا يجرّون أقدامهم جراً حولي ، وتساءلت ماذا لو أخذت مكان واحد منهم ؟ ماذا لو ارسلت هذا الواحد على ناقتي للبحث عن قاسم ؟ قد يدرك محاولتي للتهرب . وهذا ما كنت أحرص كل الحرص على عدم اثارته في الوقت الذي كنت أدعي فيه بأنني أساعد هؤلاء العرب في ثورتهم . فمن العسير دائماً على أجنبي غريب أن يؤثر في حركة وطنية ، وفي حالتي الخاصة كانت الصعوبة مضاعفة إذ انني مسيحي حضري يحمل بدواً مسلمين على الثورة . . .

وهكذا ، دون أن انبس ببنت شفة ، أدرت رأس ناقتي التي رفضت أن تمانع ، وقفلت عائداً للبحث عن قاسم . لم أكن مطلقاً بطلاً ، بل غاضباً من خدمي ، وناقماً على نفسي لطريقتي المسرحية في معاملة البدوي ، وحاقداً ، بصورة أخص ، على قاسم هذا الاحمق الذي جعلني أتعرض للخطر والهلاك .

بعد مسير عشرين دقيقة فقط اختفت القافلة عن ناظري ، فأدركت عندئذ كم هي « البسيطة » جرداء . وبعد مرور ساعة ونصف لمحت وسط هذا القفر الاجرد شيئاً اسود ، تحققتُ في النهاية من انه قاسم . وعندما ناديته توقّف دون أن ينظر إليّ . ولما اقتربت منه تحققت بأنه شبه أعمى ، يمدّ يديه باتجاهي . وبعد أن سقيته ، انتعش ، فأركبته خلفي ، وقفلت عائداً للحاق بالرفاق بأسرع ما يمكن .

وفيما نحن عائدَيْن ، وبعد ان قطعنا حوالى اربعة أميال تراءت لنا في الافق كتلة سوداء أخذت تكبر كلما اقتربنا منها ثم انقسمت إلى ثلاثة أقسام . بعد لحظة ، تلاشى الضباب ، وإذا بي أرى أمامي عودة ومعه رجلان وقد جاؤوا يبحثون عنا . فتبادلنا بعض النكات وأكملنا طريقنا معاً . وبعد ساعة من الزمن لحقنا بالقافلة . وعلى الاسئلة الكثيرة أجاب قاسم بأنه كان قد ترجّل عن بعيره ليرتاح ففقد آثار القافلة في الظلام . ولكن مما لا ريب فيه انه كان قد غلبه النعاس فنام ، بعد ان انهكه الحرّ والسفر الطويل .

مرّت ساعات طويلة على هذا الحادث العارض ، فبدا باقي النهار أقل طولاً . غير ان الحرارة مع ذلك ، كانت قد أصبحت أكثر انهاكاً ، والرياح كانت تلفح محملة بذرات الرمال . حتى الساعة الخامسة بقيت الاراضي المحيطة بنا منبسطة وبدون حواجز . وبعد ذلك بدأت تتتابع أمامنا كثبان الرمال ، فعرفنا اننا قد وصلنا إلى « القصيم » في السرحان . كانت الاشواك والكثبان تكسر موجات الرياح ، فيما كانت أشعة الغروب تضفي على المكان ألواناً بديعة ، حملتني على ان أسجل في مذكراتي بأن سرحان منطقة جميلة .

من المعروف ان فلسطين كانت تعتبر بلاد اللبن والعسل في نظر اولئك الذين قضوا اربعين سنة في صحراء سيناء . ودمشق موصوفة على انها فردوس أرضي بالنسبة للقبائل المرتحلة التي لا تصل اليها

إلا بعد ان تكون قـد أمضت الاسابيع الطوال في اجتياز بادية الشمال الكثيرة الحصى . وكذلك الايام الخمسة التي قضيناها في مواجهة عاصفة رملية في « الهول » ، جعلتنا نحس في قصيم عرفجة بانتعاش ريفي .

كان المكان يرتفع بضعة أقدام فقط عن « البسيْطة » ، وبدت أوديته منحدرة إلى الشرق نحو منخفض واسع حيث توجد البئر التي نبحث عنها . غير اننا شعرنا بأن رغبتنا في الراحة تفوق رغبتنا في الوصول إلى البئر . عندئذ وبفضل اطمئناننا إلى اننا قد أصبحنا في أمان بعد أن اجتزنا الصحراء نسينا غائلة العطش كي نحس بألم أكثر واقعية وأعني ألم التعب. فاتفقنا على ان نخيّم في تلك الليلة حيث كنا . وأشعلنا ناراً كي يسترشد بها عبد نوري الشعلان الذي كان هو الآخر قد ضلّ عن القافلة ، مثل قاسم في ذلك اليوم . ولكن العبد لم يعد . وبعد مدة علمنا بأنه قد مات ضالاً في الصحراء .

٤٥

دون جرعة مـاء لم يكن في امكاننا أن نأكل شيئاً ، ولذلك امتازت ليلتنا تلك بأنهـا ليلة زهد في الاكل والشرب . ورغماً عن ذلك ، بسبب يقيننا من اننا سنشرب في الصباح نمنا قريري العين مستلقين على بطوننا كي لا نصاب بانتفاخ الصوم . ومن الجدير بالذكر هنا ان من عادات العرب المتنقلين في الصحراء إذا ما وصلوا إلى بئر ماء ان يشربوا منها حتى التقيؤ ، ويبقون بعد ذلك دون شرب حتى يصلوا إلى البئر الثانية . وامـا إذا كانوا يحملون معهم مـاء فسرعان ما يهدرونه عند أول استراحة بعد ارتحالهم عن البئر . وقـد حاولت ان أقلّد العرب

في هـذه العادة ونجحت في ذلك ولم أمرض من العطش سوى مرة واحدة .

في صباح اليوم التالي قادتنا المنحدرات المجاورة إلى أول تلة ، ثم إلى الثانية فالثالثة . وبين الواحدة والأخرى مسافة ثلاثة أميال تقريباً . وفي الساعة الثامنة حططنا رحالنا عند بئر « عرفجه » . وبما ان الماء والعشب كانا متوفرين هناك ، لذلك قررنا ان نقضي يومنا بين الماء والعشب الاخضر ، وأرسلنا كشافاً للاستطلاع عن « الحويطات » في جهة « مقوّى » أول آبار السرحان من الجنوب ، وذلك كي نعرف ما إذا كانوا وراءنا ، وإلا تابعنا سيرنا إلى الشمال متأكدين من اننا سنجدهم أمامنا .

ما كاد الرسول ينطلق للاستكشاف حتى لمح أحد رجالنا فرساناً يختبئون بين الاشجار إلى الشمال من مخيمنا .

وفي الحال صدرت الاوامر بالوقوف على أهبة الاستعداد كل على سلاحه . وكان محمد الضغلان أول من امتطى بعيره مع نفر من رجاله واتجه نحو العدو المزعوم ، ومع ذلك فقد جمعت بمساعدة ناصر ، بني عقيل الذين كانوا لا يصلحون مطلقاً لمحاربة البدو على الطريقة البدوية ، ووزعتهم فرقاً فرقاً بين كثبان الرمال ، لتأمين الدفاع عن الامتعة على الاقل . كانت هـذه اجراءات بلا طائل ، وذلك لأن العدوّ قد لاذ إلى الفرار ، وبعد نصف ساعة فقط عاد محمد الضغلان ليقول لنا بأنه لم يشدّ في اثرهم شفقة على بعيره المنهوك . وقد كانوا ثلاثة فرسان يعتقد انهم كشافة لغزو تعدّه قبيلة شمّر في المنطقة ، الامر الذي يجعل البقاء في « عرفجه » محفوفاً بالمخاطر .

نادى « عوده » ابن أخيه « زعل » أحدّ « الحويطات » بصراً ، وطلب اليه ان يذهب ويستطلع عن عـدد العدو ونواياه . فانطلق في مهمته ليعود ويقول لنا بأن آثار الاقدام كثيرة ، ولكن لا يمكن التمييز بين

قديمها وحديثها ، لأن الطرفـاء كانت تمنـع الريـح مـن جرف الرمال .

مضى بعد ظهر ذلك اليوم علينا بدون أن نسمع أي انذار أو طلب استنفار ، فهدأ روعنا خاصة واننا كلّفنا أحدنا بالحراسة على قمة أعلى تلة رملية وراء الآبار . وعند غروب الشمس بعد اغتسالي بمياه البئر ، توقفت عند حلقة بني عقيل احتسي معهم فنجاناً من القهوة واستمتع بلهجتهم النجدية وهم يقصّون عليّ القصص الطويلة المشوّقة عن الكابتن شكسبير الذي استقبله ابن سعود في الرياض بصفة صديق شخصي ، والذي عـاد بعد أن اجتاز الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى مصر ليموت في اشتباك مع قبائل شمّر التي كانت آنذاك في حرب ضد زعماء نجد وقبائلها .

وكان القسم الأكبر من بني عقيل التابعين لابن دغيثر قـد سافر معه بصفة أنصار أو بصفة حاشية . ولا يزال يذكر جيداً سخاءه وميلـه الشديد إلى العزلة في الليل كما في النهـار . والاعراب ، متجمعين دائماً ، سرعان ما يستشفون هذا الميل . وقد علّمتني حرب الصحراء ان لا أنسى أبداً هذا ، وان اقرأ الفاتحة ما دمت مرتحلاً معهم . وكان الدرس قاسياً ومذلاً في الوقت نفسه . وذلك لأن تدليل الوحدة العزيزة على النفس هو جزء لا يتجزأ من تقليد الشموخ والاستعلاء البريطانيين .

وفيما نحن منصرفون كلياً إلى هـذا الحديث ، كان الرجل المولج بصنع القهوة ، يضع البن المحمّص في الهاون ويدقّه بطريقة موسيقية محببة . فما ان سمع محمد الضغلان صوت الهاون حتى أقدم واتخذ له مكاناً بجانبي . وكان محمد الضغلان ، ثاني بني قومه « أبو تايه » ، أكثر غنى من عودة ، محاطـاً بعدد أكبر من الانصار . ولذلك كان يميل إلى الحياة الناعمة اللذيذة . كان يملك بيتاً صغيراً في « معـان » وأراضي بالقرب من « طفيلة » . وبمـا له من تأثير ونفوذ كان محمد الضغلان قد

حمل آله على أن يزيدوا على عتادهم الحربي بعض الاشياء الدقيقة كالمظلات ، وزجاجات المياه المعدنية . ومما لا ريب فيه ان محمد الضغلان كان رأس قبيلته المفكّر ، وزعيمها السياسي المسموع الكلمة . كنت أحب فيه طريقته في التعليق على الامور ، لذلك كنت أستأنس برأيه لدى وضع أي مخطط للعمل .

كانت هذه الرحلة الطويلة قد خلقت فيما بيننا نوعاً من الصداقة والتآلف الفكري . وفي الليل كما في النهار كان الحذر يشغل كل أفكارنا ، وعن قصد أو غير قصد كنا نتجرف لئلا نرى الآه ، ونحصر همّنا فيه دون غيره . وفيما كنا نتبادل الاحاديث رغم شرود أفكارنا ، طرق اسماعنا فجأة صوت طلق ناري من جهة الشرق فوق كثبان الرمل ، وإذا بواحد من بني عقيل يرتمي وسط حلقتنا وقد زعق صوتاً مخيفاً .

في الحال قذف محمد الضغلان بكومة من الرمل على النار فأطفأها . وسارعنا جميعنا للبحث عن أسلحتنا ، فيما كان حرّاسنا قد بدأوا يردون على النار بالمثل . ولم نكن لنبخل في الرد على العدو ما دامت الذخائر متوفرة بكثرة معنا .

وشيئاً فشيئاً خفّت وطأة الهجوم بعد أن أصيب العدو بالذهول لسرعتنا في الرد الكاسح عليه . وفي النهاية توقّف اطلاق النار من جانبه ، فتوقفنا نحن أيضاً ، نسترق السمع حتى لا يفاجئنا العدو بهجوم آخر من جهة ثانية . دام هذا السكون حوالى نصف ساعة أصبح بعدها لا يحتمل ، فخرج « زعل » مستكشفاً . وبعد مدة مثلها عاد ليقول لنا بأن العدو قد هرب وان عددهم يقدّر بعشرين شخصاً .

رغم هذه التأكيدات ، رافقنا القلق طول الليل . وقبيل الفجر دفنّا عساف الذي فارق الحياة أثناء الغارة ، ثم اتجهنا إلى الشمال مع الوادي

وكثبان الرمال إلى يسارنا . وبعد مسيرة خمس ساعات تناولنا طعام الفطور عند مدخل وادي « فجر » الذي كنا قد شهدنا ولادته في « السلهوب » وتبعنا مجراه عبر « الهول » .

وبما ان المرعى كان متوفراً هناك ، فقد سرحنا جمالنا بعد ظهر ذلك اليوم ، ونعمنا نحن بقسط من الراحة والنوم ، بعد تلك الليلة التي قضيناها في الترقب .

كنا نبغي محاربة الاتراك . وهذه المعارك بين العرب أنفسهم كانت خسارة لا طائل منها . وفي عصر ذلك اليوم عدنا إلى المسير وقطعنا اثني عشر ميلاً أخرى كي نخيم فوق كثبان من الرمال تحسباً من غارة جديدة .

وفي صباح الغد واصلنا سيرنا الحثيث مدة خمس ساعات حتى بلغنا واحة من النخيل والطرفاء غنية بالمياه على عمق سبعة أقدام فقط . ولكن سرعان ما تبين لنا بأن ذلك الماء لم يكن صالحاً للشرب . بالطبع كان معنا ما يسد حاجتنا من مياه وادي السرحان بصرف النظر عن مشروعات نسيب وزكي الرامية إلى اهتمام الحكومة العربية التي سيتم انشاؤها قريباً بتحسين ذلك الوادي . وفيما نحن سائرون قلت لزكي :

— « ان الجرب يأكل بعيرك . »

فأجابني بكآبة :

— « ابتداء من هذا المساء دون تلكؤ عندما تخف حرارة الشمس سنطليه . . »

في المرحلة التالية عدت إلى الحديث عن الجرب ، فقال زكي اننا سنؤسس في سورية ، بعد استيلائنا على دمشق ، مصلحة وطنية للطب البيطري . سيكون لدينا آنذاك جهاز ماهر من الاطباء ، ومدرسة ومستشفى مركزي مع عدة مستشفيات محلية ، حيث ستتم العناية بالجمال والخيول ، والحمير ، والابقار ، والاغنام والماعز . ويتوجب ان

تؤسس هنـاك مراكز للأبحاث العلمية والجرثومية لمعالجة كل أنـواع الامراض الحيوانية . ومـا قولك بمكتبة تضم النفيس من الكتب الأجنبية؟

في هذه اللحظة تدخّل نسيب لمساندته وقال : « ستقسم سورية إلى اربعة أقاليم رئيسية ، يقسم كل منها بدوره إلى عدة نواح . »

في صباح الغد عدت إلى التلميح عن الجرب من جديد . وبمـا ان صاحبيّ كانا قـد ناما وهما يفكّران في الموضوع ، فقد اكتملت عندهما أثناء الليل صورة المخطط . فبادرني كل منهما بالقول : « من طبيعتنا نحن ان نتطلّع دائماً إلى الاكمل بينما تجرون أنتم وراء المتيسر ، ومن نقائص الانكليزي ميله إلى الانتهازية . »

وافقتهما على ما تفوّها به ، وقلت :

— « يا نسيب ، يا زكي . ألا تريان ان تحقيق أقل قسط من الكمال يستوجب فناء هـذا العـالم غير الكامل ؟ وهل أنتما ناضجان كفاية لتصلا إلى هذا الاستنتاج ؟ بالنسبة لي ، عندما أشعر بأنني غاضب ، أطلب إلى الله ان يقرّب كوكبنا الارضي فوراً من الشمس المتوهجة شفقة مني على البشر الذين لم يولدوا بعد . وعندمـا أكون راضياً ، على العكس ، أتمنى أن أنام في الظل إلى الابـد ، وان أصبـح ظلاً أنا نفسي . »

وفي اليوم السادس ، مات البعير المسكين ، مع ان « عودة » وناصر وباقي أفراد القـافلة كانوا يحيطون جمالهم بالعنـاية الدائمة ليتوقف هذا الجرب عند حدّه ، ومنعـه من التفشّي والانتشار ، ريثما نصـل إلى مكان يتيسّر لنـا فيه الحصول على العــلاج الواقي من هذا المرض .

وفجأة أطل علينا فـارس زرع القلق في نفوسنا . ولكن سرعان ما عرف بـه « الحويطات » أحـد رعاتهم . وبعد تبادل التحية جلس الراعي وقال ان قبيلة « الحويطات » المخيمة بالقرب منا في عيسوية النبك ، تنتظر اخبارنا على أحر من الجمر . كما أخبرنا بأن كل شيء على ما يرام هناك . وعلى الاثر زال قلق عودة واستيقظت حميته .

وبعد ساعة واحدة وصلنا «العيسوية» حيث يخيم عليّ ابو فتنة شيخ إحدى عشائر عودة . قدّم لنا الشيخ الجليل خيمته اظهاراً لكرمه العربي . وتدليلاً على حسن ضيافته العربية ثم أمر باعداد العشاء اللائق بمقدمنا .

وهكذا انتهت رحلتنا الطويلة بسلام . فقد وجدنا عرب « الحويطات » كما ان رجالنا كانوا على أحسن حال ، وكذلك ما كنا نحمله من الذهب والمتفجرات . ولذلك عقدنا في صباح اليوم التالي اجتماعاً حافلاً قرّ الرأي فيه على ان ندفع ، قبل كل شيء ، إلى نوري الشعلان ستة آلاف ليرة ذهبية تعويضاً له عن وجودنا في السرحان . وفي مقابل ذلك سنطلب منه حق الاقامة في أراضيه ريثما نجهّز الجيوش .

وبما ان القضية كانت في غاية الاهمية فقد كلّف « عودة » نفسه مفاوضة نوري الشعلان صديقه الشخصي بالامر . وقد كانت قبيلة نوري الشعلان ، في الواقع ، قريبة جداً منا ، وقوية لدرجة يهاب معها « عودة » منازلتها رغم ميله الشديد إلى النزال . كما ان المصلحة المشتركة قد دفعت الرجلين إلى التحالف . ومن التقائهما تولد فيما بعد نوع من الاحترام المضحك الذي بات من جرّائه كلٌ منهما يتألم بصبر من سخافات الآخر .

٤٦

لقد توجب علينا ان نبقى مع علي ابو فتنة ونتقدم جميعاً بمراحل صغيرة نحو النبك الذي عيّنه عودة لقبيلة « ابي طيه » مكاناً للتجمّع . وهكذا كان كل شيء قد تقرر وحمل عودة معه ستة أكياس من الذهب .

وبعد برهة وجيزة جاءنا شيوخ « ابي فتنة » زائرين ، وأعلنوا بأننـا سنشرّفهم كثيراً فيما لو قبلنا ضيافتهم مرتين في اليوم ، عند الضحى ، ولدى غروب الشمس ، ما دمنا مخيّمين بالقرب منهم ولم تكن هذه مجرد مجاملة . ومع ان قانون الصحراء يحدد واجبات الضيافة بثلاثة أيام إلا ان « الحويطات » كانوا لا يتقيدون بهذا التحديد ويسخرون منه . فضيافتهم لا تعرف الحدود ، وكذلك انتهازيتهم ، مع الأسف .

وهكذا في كل صباح ، بين الثامنة والعاشرة ، كانت توضع عـدة خيول أصيلة تحت تصرفنا . وكنا ، أنا وناصر ونسيب وزكي ، نركبها محاطين بعدد من الرجال المرافقين . وكنا نصل في الوقت المعين ، بعد اجتياز الوادي ، إلى المضارب التي تحولت إلى مقاصف . وهناك كان المضيف يسعى جهده لأن يظهر بمظهر لائق ويقدّم لنا أفضل ما يستطيع ويستقبلنا أحسن ما يمكن ، يقدّم لنا القهوة العربية أو الشاي ، ثم يأتي منسف الرز واللحم ، ثم القهوة من جديد . وكنا نعود شاكرين ومتمنين دوام النعم .

٤٧

بقينا في العيسوية بضعة أيام كانت خلالها قبيلة « ابي طيه » تقيم المآدب على شرفنا في كل يوم ، وتحرص على ان تقدم لنا أفضل ما عندها . وفي الثلاثين من أيار (مايو) ارتحلنا جميعنا . وبعد مسير ثلاث ساعات في وادٍ بركاني قديم وصلنا إلى وادٍ آخر فيه هنا وهناك بعض الآبار التي تحوي مياهاً آسنة كالعادة . وبما ان قبيلة « ابي طيه » كانت قد ارتحلت معنا ، وسارت إلى جانبنا وخيمت بالقرب من مخيمنا فقد

اتيح لي للمرة الاولى ان ارقب من الداخل تحركات قبيلة عربية ، وألعب دوري في روتين سيرها اليومي .

مشهد غريب هو هذا حقاً ، إذ لم يعد فيه شيء من السكون الدائم المعروف في الصحراء . فكل شيء يتحرك ويهتزّ لدى مرور القافلة الكبيرة بدون انتظام ولا ترتيب ولا رقابة وحتى بلا عادات سوى تلك التي يفرضها الاحساس بالخطر منذ أقدم العصور : انطلاق مفاجيء بدون مقدّمات . جبهة واسعة وتجمّع عشائري ، وايقنت بعد هذا المشهد ان الصحراء التي يواجهك فراغها كل يوم انّى حللت وكيفما توجهت تعطي قيمة لكل فرد .

كان الجميع منطلقين على سجيتهم في ذلك اليوم ، يهزجون ويمرحون ويمزحون ، اما أنا فقد كنت منحرف المزاج ، وثائر الاعصاب لسببين اولهما تصرّفات داود وفرّاج ومزاحهما المستمرّ ، وثانيهما الثعابين التي ما انفكت تفاجئنا بصورة متزايدة منذ دخولنا إلى منطقة السرحان ، الأمر الذي جعلها تتحول إلى شيء رهيب مخيف حقاً . وقد قال لي الاعراب ان الافاعي هنا ليست أكثر عدداً مما هي عليه في أي مكان آخر فيه ماء في الصحراء ، ولكن وجودها بكثرة هذه السنة في وادي السرحان أمر غريب حقاً . كل حركة في الليل نقوم بها ، باتت محفوفة بالمخاطر وتوجب علينا أن نعمد بعصيّنا إلى الضرب على كل شوك نمر به للتأكد من عدم وجود أفاع متربصة بنا فيها أو لطردها من طريقنا في حال وجودها ، كما توجب علينا ان نسير بحذر شديد لأننا كنا حفاة .

وكان من المستحيل علينا سحب الماء من الآبار في الظلام ، لأن الافاعي كانت تلجأ اليها لتسبح أو لتنام . وقد لقي ثلاثة من رجالنا حتفهم بسبب عضة أفعى ، واربعة آخرون قاسوا الاهوال من جراء ذلك . واما العلاج الذي كان يستخدمه « الحويطات » لذلك فهو لزقة من جلد

الثعبان على المكان الملدوغ ، ثم قراءة بعض الآيات القرآنية ريثما يموت الملدوغ . واتقاء من الافاعي كان الحويطات ينتعلون الجزمات الحمراء الطويلة الساق .

غير ان هذا لم يكن كل شيء . فمن أغرب عادات الافاعي انها تعشق النوم تحت أغطيتنا أو فوقها ، ربما طلباً للدفء ، الامر الذي كان يحملنا على السهر والحذر الشديدين . وكان متوسط ما كنا نقتله من الافاعي يومياً حوالى العشرين . وكنت أنا لفرط خوفي من مجرّد رؤية الزحافات أكثر الجميع ، رغم تقزّز اعصابهم ، توقاً إلى الخروج من وادي السرحان .

وبعد ظهر ذات يوم ، فيما كنت مستلقياً ، إذ بي استيقظ على وشوشات فرّاج وداود وألاحظ تبادلهما بعض الاشارات مع الابتسام . وما ان تطلّعت إلى حيث ينظران حتى وقع نظري على ثعبان كبير يرقبني بعينيه البراقتين .

انتصبت واقفاً في الحال واستدعيت علياً الذي أقبل وقتل الثعبان بعصاه . ثم أمرته ان يجلد كلاً من فرّاج وداود ست جلدات لاستخفافهما . وما ان سمعني ناصر أصدر هذا الامر حتى طالب بمضاعفة العقوبة ، وتبعه في ذلك نسيب ثم زكي ، ثم ابن دغيثر ، ثم علت الاصوات من كل مكان مطالبة بانزال أشد العقوبة بهما . إلا انني توفيراً عليهما من هذه العقوبة الجسدية المبرحة رأيت أن أستبدلها بعقوبة معنوية ، فأمرتهما بأن يلتحقا في خدمة النساء ويعملان في جمع الماء ونقله .

وقد نفّذا العقوبة مدة يومين قضياهما في « ابي طرفيّة » . وبعد ذلك تابعنا مسيرنا يومين ، حيث نزلنا في الغوطة فوجدنا الماء متوفراً . وبالقرب من عقيلة ظهرت فجأة عدة خيام ، سرعان ما خرجت فرقة من بينها واتجهت نحونا ، وكان على رأسها « عودة ابو تايه » العائد من زيارته لنوري الشعلان ، و « الاعور درزي بن ضغمي » ، مضيفنا القديم في

« الوجه » . وكان وجود هـذا الاخير أصدق دلالة على لفتة نوري الشعلان الكريمة ، وكذلك وجود شرذمة من فرسان الرولا حاسرة الرؤوس تستقبلنا أمام بيت زعيمها ، بالزغاريد وألعاب الفروسية ، ودق الهاون .

كانت هذه المشيخة المتواضعة تضم بعض بساتين النخيل المحـاطـة بالاسوار ، وقد نصب لنـا بالقرب من احداها خيمة بيضاء ، إلى جانب خيام أخرى أبرزها خيمة « عودة » (سبعة أعمدة طولاً وثلاثة عرضاً) وخيمة زعل . أمضينا بعد ظهر ذلك اليوم في المجاملات وتبادل الزيارات والهدايا في جو كانت تتردد فيه باستمرار أصوات المتطوعين الذين جاؤوا يطلبون تجنيدهم فوراً لمحـاربة الاتراك . وهكذا بدت البشائر مشجعة ، فكلفنا ثلاثة رجـال بإعداد القهوة للزوار الذين كانوا يجيئوننا فرادى وزرافات لتحية ناصر واعلان الولاء لفيصل والحركة العربية .

٤٨

بعد أن أصبحنا حيث نحن بات من المتوجب ان تكون النبك قـد أصبحت قريبة منا . وهنـاك يكثر المـاء القراح والعشب . وكـان « عودة » والشريف ناصر يمضيان الساعات الطوال جالسَين تحت خيمتهما لتنظيم تجنيد الرجـال وإعداد خطة لرحلتنا القـادمة . ولمـا لم يعد لدينا ما نفعله أنا ونسيب وزكي ، لذلك انصرفنا إلى مناقشة العمليـات . وكالعادة كان تفكير رفاقي السوريين غير المستقر العاجز عن الانصباب على النقطة الرئيسية المركزية يتيه بطريق ملتوية نحو الدائرة الهاشمية المحيطة بتلك النقطة . وكانت حماستهما تعصف برأسيهما . وقد نسيا القضية ،

واستهانا بالهدف الايجابي لحملتنا . كان نسيب يعرف عرب الشعلان ، والدروز ، لذلك كان يميل إلى تقديمهم على « الحويطات » في التجنيد . كما كان فكره يذهب إلى « درعا » أكثر منه إلى « معان » . وكانت دمشق شغله الشاغل دون « العقبة » . والاتراك ، حسب رأيهما ، ليسوا مستعدين للمواجهة في أي مكان . لذلك يمكننا ، عن طريق المباغتة ، ان نكون متأكدين من الوصول إلى أول أهدافنا . وكلما كان الهدف كبيراً وسامياً ، كانت قيمته أكبر بالنسبة لنا . ومن التلميح بدا ان دمشق هي المقصودة . وعلى الاثر لفت نظرهما إلى تهوّرهما فيما ذهبا اليه من تخطيط وتصوّر للعمل ، ففيصل لا يزال في « الوجه » والانكليز حالتهم سيئة في غزة ، هذا بينما تحشد تركيا جيشاً جديداً في « حلب » كمقدّمة للانقضاض على العراق في محاولة لاسترجاعه من الانكليز . وهكذا سنجد أنفسنا في دمشق إذا ما ذهبنا اليها دون عون خارجي بلا امدادات ولا تنظيم .

عبثاً ذهبت محاولتي . فنسيب كان يتخطّى بتخطيطه كل القواعد الجغرافية والتكتيكية ، الامر الذي جعل عناده خطراً كبيراً على مخططنا . والوسائل الخسيسة الدنيئة وحدها بقيت أمامي لاقناعه .

وهكذا توجهت إلى « عودة » لأقول له ان المال والعون سيذهبان إلى نوري الشعلان إذا تبنى مخططات نسيب . ثم توجهت إلى ناصر ، واستخدمت كل طاقتي متسلحاً بصداقتنا كي أجعله يصرّ على تنفيذ مخططاتنا مهما كلف الامر . وكان من السهل جداً فضلاً عن ذلك اشعال نار الحسد الحامية بين « شريف » ودمشقي . الاول شيعي يتباهى بكونه من سلالة علي والحسين ، والثاني يدّعي بأنه من سلالة ابي بكر .

لقد كان هذا الامر قضية حياة أو موت بالنسبة لحركتنا . وإذا احتللنا دمشق فاننا لن نتمكن من الاحتفاظ بها ستة أسابيع بكل تأكيد ،

لأنه تنقصنا البواخر لانزال الجنود في بيروت . وإذا فقدنا دمشق فيما بعد فاننا نفقد في الوقت نفسه حلفاءنا المحليين . وفي نظري كانت « العقبة » الباب الوحيد (فيما عدا الفرات الاوسط) الذي يمكننا فتحه والعبور منه بأمان إلى سورية .

وقيمة « العقبة » الخاصة في نظر الاتراك كانت تكمن في موقعها بالنسبة للجيش البريطاني . وفي نهاية عام ١٩١٤ كانت القيادة التركية العليا قد اختارت « العقبة » كطريق رئيسي إلى قناة السويس ، غير ان صعوبات التزود بالطعام والماء جعلتها تفضّل عليها ، فيما بعد ، طريق بئر السبع . وبما ان الجبهة الانكليزية لم تعد الآن على قناة السويس ، بل أقرب منها في أنحاء غزة وبئر السبع ، فان تزوّد الجيش التركي بالماء والطعام بات أكثر سهولة ، لأن المسافة بين القاعدة والجبهة باتت أقصر . ومن ناحية ثانية كانت قيمة العقبة الجغرافية قد ازدادت أهمية لكونها قد أصبحت الآن وراء الجناح البريطاني الايمن ، وقوة صغيرة تنطلق من تلك القاعدة تكفي لتهديد العريش أو السويس .

والعرب من جانبهم كانوا في حاجة إلى « العقبة » لتوسيع جبهتهم وفقاً لتكتيكهم أولاً ، ولأقامة ارتباط واتصال مع القوات البريطانية ثانياً . والاستيلاء على المدينة يجعلهم يسيطرون على سيناء ويبيح لهم الاتصال « بالسير ارشيبالد موري » . وبعد ان يكونوا قد برهنوا عملياً عن منفعتهم الحقيقية في ادارة دفة الحرب ، يصبح في امكان العرب ان يحصلوا على المساندة المادية من الحلفاء . وكان الضعف البشري في الاركان البريطانية العامة قد وصل إلى درجة بات يكفي معها حصول اتصال حسي واحد مع انتصارنا لاقناعها بأهميتنا . كان « موري » يحدب علينا بالطبع ، ولكن عندما نصبح جناحه الايمن ، يسارع بنفسه إلى تجهيزنا بكل ما يلزم دون ان نطلب نحن اليه ذلك ، لأنه عندئذ يشعر

بحاجته المادية الينا . فبالنسبة للعرب اذن ، كانت « العقبة » تعني المؤن ، والمال ، والسلاح ، والخبراء الفنيين . وكنت أرغب في إقامة هذا الاتصال مع القوات البريطانية كي نصبح الجناح الايمن لقوات الحلفاء في معركة احتلال فلسطين وسورية ، وكي اؤكد أخيراً توق الشعوب العربية اللسان إلى إقامة حكومة وطنية حرّة ، وحقها المشروع في ذلك .

لحسن الحظ وقف « ناصر » و « عودة » الموقف الذي كنت أريد . وبعد أن اتهم نسيب ما طاب له الاتّهام ، وعاتب ما حلا له العتاب ، قرر أن يتركنا ويتوجه مع زكي إلى جبل الدروز على أمل إعداد حملة كبرى تنقضّ من هناك على دمشق وتحتلها . ورغم يقيني من انه اعجز عن ان يعدّ شيئاً لم أكن أنوي السماح في ان تولد في تلك المنطقة حركة ناقصة تقضي على كل امكاناتنا . لذلك قررت ان أجرّده ، قبل سفره ، من جميع السموم التي كانت في حوزته أي المال الذي كان فيصل قد أعطاه إياه ساعة توزيع الاموال علينا من أجل الحركة . وقد ساعدني بحماقته على تسهيل مهمتي عندما جاءني قبيل رحيله لعلمه بأن ما معه لا يكفي لتنفيذ مخططاته ، ولاعتقاده ببساطة الانكليز وسهولة انقيادهم يطلب وعداً بتقديم مزيد من العون له في حالة نجاحه في إعداد حركة سورية مستقلة عن حركتنا يتولى هو بنفسه قيادتها . ساعتئذ طرت فرحاً وعمدت فوراً إلى الاستفادة من هذا الحدث الخارق والتخلص من خطر نسيب ، فتظاهرت بتأييد ما ذهب اليه ، والثناء عليه ، ووعدت بتقديم كل ما يلزم شرط أن يسلّمني الآن ما كنا قد أعطيناه إياه . وهكذا ، قلت له : بعد ان نستولي على العقبة حيث يمكننا من هناك أن نستحصل على كل ما يلزم لتحركاتنا جميعاً . ووافق نسيب على ذلك مرغماً ، ورأى ناصر في كيسي الذهب الجديدين هبة تهبط عليه من السماء .

لم يكن تفاؤل نسيب ليذهب دون ان يترك في نفسي أثراً له . فقد

كنت دائماً أنظر إلى تحرير سورية على مراحل ، أولاها مرحلة العقبة ، والآن بتّ أرى هذه المراحل تتقارب . فما ان خرج نسيب من طريقي، حتى وضعت مخططاً يقضي بأن أذهب بنفسي ، كما كان قد اقترح ، وأقوم بجولة استطلاعية في الجبهة الشمالية . وبدأت أشعر بأن جولة جديدة في سورية ستصحح نهائياً أفكاري الاستراتيجية المستمدة من الحروب الصليبية والفتوحات العربية الاولى ، وتجعلها تتوافق مع عاملين جديدين : الخطوط الحديدية وجيش « موري » في سيناء .

وانهماك كهذا كان يناسب ، فضلاً عن ذلك ، المزاج الضال الذي كنته أنا في ذلك الوقت . كان يجب ان أكون سعيداً من هذا الوجود الجوّال ، الحر من كل قيد كالهواء وسط قوة تحارب وفقاً لخطة كنت أنا واضعها . ولكن سعادتي كان يخامرها شعور بوجود خيانة ما . فالثورة العربية كانت قد أُعِدّ لها بطريق غشاشة خداعة . ولدفع الشريف حسين إلى العمل كانت حكومتنا البريطانية ، بشخص ممثلها في القاهرة « السير هنري مكماهون » ، قد وعدت باقامة حكومة عربية في بعض أجزاء من سورية والعراق ، دون أخذ مصالح فرنسا الحليفة بعين الاعتبار . وهذه الاشارة الغامضة كانت تخفي معاهدة بقيت مجهولة من « مكماهون » وبالتالي من الشريف حسين . حتى تم الاتفاق نهائياً بين بريطانيا وفرنسا وروسيا على :

١ — ضم بعض الاجزاء ، على الاقل ، من المناطق الموعود بها .
٢ — تقسيم الباقي إلى مناطق نفوذ .

وعن طريق تركيا وصل أمر هذه المكيدة المدبّرة في الخفاء إلى مسامع بعض الزعماء العرب . والشرقيون عامة يثقون بالاشخاص أكثر من ثقتهم بالمواثيق . وعلى هذا الاساس ، وبعد ان تأكّدوا من اخلاصي وصداقتي في الميدان ، طلب العرب إليّ ، كوكيل حرّ ، ان أضمن وعود الحكومة البريطانية . لم أكن قد اطلعت مطلقاً بصورة رسمية أو

شخصية على الوعود التي قطعها مكماهون ، ولا على معاهدة سايكس — بيكو ، فجميعها كانت قد تمّت عن طريق مكاتب الخارجية البريطانية . وبما انني لم أكن أحمق ، فقد رأيت ان وعودنا التي قطعناها للعرب ، في حالة كسبنا للحرب ، ستبقى حبراً على ورق . وهكذا ، كان عليّ ، لو كنت مستشاراً شريفاً ، أن أنصح رجالي بالعودة إلى ذويهم وديارهم عوضاً عن المخاطرة بحياتهم في سبيل قصص وخداع من هذا النوع . ولكن ألم تكن الحماسة العربية أفضل اداة نستخدمها في حربنا في الشرق الادنى ؟ وهذا الامر هو الذي حملني على ان اؤكد لرفاق السلاح من العرب بأن انكلترة ستحترم وعودها نصاً وروحاً . فما ان نال الثوار العرب هذا الوعد مني حتى دبّت فيهم الحماسة من جديد وراحوا يحاربون بشجاعة فائقة . أما أنا ، عوضاً عن ان افتخر بما كنا نحرزه معاً من انتصارات ، فقد كان يلازمني شعور مرير بالخجل لعلمي بأن ما قلته لا قيمة عملية له .

وقد اتضح لي مركزي بجلاء ذات مساء عندما عمد نوري الشعلان إلى عرض ملفّ حقيقي لمستندات متناقضة عليّ ، وطلب إليّ تحديد أي من تعهدات بريطانيا الشرعية يستحق أن نمنحه ثقتنا . على جوابي كان يتوقف نجاح فيصل أو فشله . فأبديت رأياً لم أعطه دون قلق نفساني . قلت انه يتوجّب الركون إلى آخر متناقضاتنا . وهذا الجواب الحذق خوّلني ان أصبح في أقل من ستة شهور رجلَ « الثقة التامة » في سورية . مما حملني على ان أقسم بيني وبين نفسي على ان أجعل من الثورة العربية اداة تعمل لغاية ذاتية ، أكثر منها خادمة لجيشنا البريطاني ، وأخذت على نفسي عهداً بأن أقودها ، بأي ثمن ، إلى النصر على الرغم من انتهازية الدول الكبرى . وهذا يفترض بقائي حياً حتى توقيع معاهدة السلام كي أربح المعركة الاخيرة في قاعة الاجتماعات .

بالطبع لم يكن يحق لي ان اجرّ العرب هكذا ، في غفلة منهم ، إلى

معركة حياة أو موت يجرون فيها وراء شبح حق . وهكذا ولكي أثأر لنفسي من موقفي الخاطئ قمت برحلتي الطويلة والخطيرة إلى سورية . وكنت اعتقد بأنني سأقابل خلالها أصدقاء فيصل السريين ، وسأقدّر بعناية المراكز الحساسة لحملاتنا القادمة .

ها قد مضت خمسة أسابيع على خروجنا من « الوجه » ، وكنا قد صرفنا تقريباً كل ما معنا من المال واستهلكنا كل ما معنا من مؤن ، وأنهكنا كل ما معنا من إبل . ولم يبق هناك ما يعيق ذهابنا . وكان حب المغامرة التي انجرفنا اليها يعزينا عن كل شيء . وهكذا في الليلة التي سبقت رحيلنا أقام « عودة » حفلة وداعية عامرة بكل ما لذ وطاب ، تخللتها النكات والنوادر المضحكة .

٤٩

ارتحلنا قبيل الظهر ، وكان ناصر يتقدّمنا على غزالته ، تلك الناقة الجميلة الشامخة الرشيقة المؤصّلة حتى الجدّ التاسع . وكان « عودة » يسير إلى جانبه ، وكذلك أنا على ناقتي الجديدة « النعامة » .

بعد ان صعدنا إلى مرتفع يعلو حوالى ستين قدماً خلّفنا وراءنا وادي السرحان ، ودخلنا إلى أرض الصوان . وكانت وجهتنا منطقة « باير » مجموعة تاريخية من الآبار والآثار الغسّانية في قلب الصحراء تقع على مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلاً إلى الشرق من الخط الحديدي . ومسير ستين ميلاً كان كافياً لايصالنا إلى هناك ، حيث خيّمنا عدة أيام ، كان كشّافونا خلالها يذهبون إلى القرى الجبلية المشرفة على البحر الميت كي يحضروا بعض الدقيق بعد أن نضبت المؤن التي حملناها معنا من

« الوجه » .

لقد أصبح فريقنا يعد الآن حوالى ٥٠٠ رجل . ومع الفجر بدأنا المسير ، وبعد ساعة واحدة كنا على قمة ، ومن ثم وصلنا إلى المنخفض الكائن بين « سنينرة » جنوباً و « ثلاث اخوات » شمالاً . ومن هناك ولجنا وادي « باير » حيث بدأت جمالنا تذرعه طولاً ثم عرضاً لساعات طوال ... وفيما كانت مواشينا تتهافت على العشب الاخضر جاءني «عودة» يقول بأنه سيتقدم الوادي للاستكشاف وسألني ما إذا كنت أرغب في مرافقته ، ففعلت . وبعد مسير ساعتين ظهرت « باير » فجأة عند أسفل تلة رملية . وعندها روى « عودة » لي بأنه جاء يزور قبر ولده « عناد » الذي قضى هناك على يد خمسة من بني اعمامه في عملية أخذ بالثأر بعد مقاومة بطولية .

وفي الطريق التي قادتنا إلى القبور اعترانا الذهول لرؤية الدخان يتصاعد من منطقة الآبار . ولما أسرعنا إلى هناك لم نجد أحداً ، ولكننا لاحظنا ان احداً ما قد نسف البئر بالديناميت . عندئذ أسرع « عودة » إلى البئر الثانية فالثالثة ، وكانت كلها منسوفة . ولما وصل إلى الرابعة الموجودة إلى الشمال من الآثار القديمة في الخلاء وجدها على حالها ، فطار فرحه . ذلك لأن الخوف والهلع كانا قد سيطرا علينا لمجرد التفكير بأن الاتراك قد كشفوا أمرنا وراحوا ينسفون الآبار أمامنا لعرقلة سيرنا . وخفنا من ان يكونوا قد نسفوا أيضاً آبار « الجفر » إلى الشرق من « معان » ، حيث اتفقنا على ان نتجمع قبل الهجوم على « العقبة » . وأما الآن بعد العثور على البئر الرابعة سليمة فقد خف القلق . وانصرفنا على الاثر إلى محاولة ترميم البئر الاقل خراباً من الثلاث المنسوفة . وهكذا أصبح في حوزتنا بئرين صالحتين . وإلى مشاغل التموين ومشكلة معرفة موقف القبائل منا بين معان والعقبة ، أضيفت الآن مشكلة آبار الجفر . فكلفنا أحد رجالنا الذهاب إلى هناك والاطلاع على حالتها . كما أرسلنا

تقافلة من عرب « الحويطات » إلى « طفيلة » كي تشتري لنا بعض المؤن .

وأما القبائل على طريق العقبة فقد كنا في حاجة ماسة إلى مساندتها الايجابية ضد الاتراك لتحقيق المخطط الموقت الموضوع في « الوجه » . وكانت نيتنا ان ننقضّ فجأة من الجفر ، ونجتاز الخط الحديدي ثم نحتل « نقب الشتار » . ولكن للاحتفاظ بهذه التلال المشرفة على الطريق بين معان وسهل « قويرة » ، يجب الاستيلاء على« ابو اللسن » ، نقطة الماء المحصنة على مسافة ١٦ ميلاً من معان حيث كانت الحراسة ضعيفة ، وكنا نأمل الاستيلاء على المكان الاستراتيجي من أول غارة ، وعندئذ تصبح طريق التموين تحت رحمتنا . وعند نهاية الاسبوع يجب على المراكز الاخرى ان تستسلم لنا بدورها الاّ إذا تقاعست (وهذا أمر محتمل الحدوث) القبائل القابعة في الجبال عن نجدتنا لتمشيط المنطقة .

كان الهجوم على « ابو اللسن » أهم عملية من عملياتنا . وحامية معان وحدها كان من الممكن أن تخاطر وتخرج من معقلها لطردنا من قمم تلال « الشتار » . ولكنها كي تقوم بذلك يجب ان يكون عددها كبيراً . فاذا كان الاتراك في معان حالياً لا يزيدون عن كتيبة واحدة فان ذلك يعني انهم لا يجسرون على المخاطرة ، بل سيتركون « ابو اللسن » تسقط في أيدينا ريثما تصلهم الامدادات . وفي هذه الحالة نستولي على « العقبة » أهم قاعدة للاتراك على فم البحر الاحمر وقناة السويس . إن نجاحنا كله يتوقف إذن على تهاون حامية معان وضعفها . وكان يتوجب علينا ان لا ندع الاتراك يحسون بوجودنا في الجوار .

ولم يكن من السهل علينا مطلقاً الاحتفاظ بسرية تحركاتنا . فقد كنا نتقدم ونحن نبشّر السكان المحليين بالخلاص من النير العثماني ونحثهم على الثورة . وبالطبع فان الذين كانوا لا يقتنعون بما نقوله لهم كانوا يسارعون إلى ابلاغ السلطات التركية عن تحركاتنا . وهكذا فان سيرنا

الطويل في وادي السرحان كان معروفاً من العدو ، وأكثر العسكريين غباء كان يتوجب عليه الادراك بأن « العقبة » هي هدفنا . وعملية نسف آبار « باير » و « الجفر » (كما روى لنا الرسول الذي ارسلناه للاستكشاف من هناك) كانت تدلنا على ان الاتراك متحسبون لنا ولو على المدى الضئيل .

ولكن ما من أحد كان يمكنه قياس حماقة القيادة التركية ، فقد كانت تخدمنا تارة ، لتلحق الضرر بنا تارة أخرى . والعرب المعروفون بسرعة خاطرهم التي لا مثيل لها كانوا هم أيضاً يحتقرون الاتراك ويتألمون لتعذّر احترامهم لعدو لا يحترم نفسه . في الوقت الحاضر كانت هذه الحماقة تخدمنا ، وقد تظاهرنا لها بأن دمشق هي هدفنا .

وفي الواقع كان يمكن أن يخاف الاتراك ضغطنا من هذه الجهة . فخط دمشق الحديدي إلى الشمال من درعا وإلى الجنوب من عمّان يربط العاصمة ليس فقط بالحجاز بل كذلك فلسطين . وهجوم على هذه النقطة تنتج عنه خسارة مضاعفة . ولذلك ، أثناء جولتي في الشمال ، كنت قد تعمدت نشر الاخبار عن قرب موعد وصولنا إلى جبل الدروز ، كما كنت مسروراً جداً من تصرفات نسيب ودعوته إلى الثورة في الجبل بكثير من الجلبة نفسها . وأخيراً ، كان « نيوكمب » قد تعمد ترك بعض الاوراق بالقرب من « الوجه » ، وفيها مخطط هجومي نلعب فيه دور الكشافة . وكان هجومنا التضليلي سينطلق من « الوجه » مروراً بالجفر والسرحان وهدفه تدمر ثم دمشق وحلب . وما ان وقعت هذه الاوراق في أيدي الاتراك حتى اعتبروها مستندات صادقة وأرسلوا إلى تدمر حامية كبيرة من جيشهم بقيت تنتظر هناك قدومنا المزعوم حتى نهاية الحرب .

٥٠

كان من الحكمة أن نقوم في الاسبوع الذي أمضيناه في « باير » ببعض النشاط الحسي في الاتجاه نفسه لأقناع الاتراك أكثر بصدق مخططاتنا . ولذلك قرر « عودة » أن نذهب أنا وزعل على رأس فرقة ونهاجم الخط الحديدي بالقرب من درعا . فاختار « زعل » مئة وعشرة رجال من أفضل رجالنا ، وانطلقنا نقطع الفيافي بجلد وصبر على مراحل كل منها مدتها ست ساعات نرتاح بعدها ساعة أو ساعتين لنعاود المسير في الليل والنهار على السواء . وبعد ظهر اليوم التالي وصلنا إلى الخط بالقرب من الزرقاء ، القرية الشركسية إلى الشمال من عمان . وبما ان الشمس والتعب كانا قد أخذا مأخذهما من الجمال ، فقد قرر « زعل » ان يسوقها إلى قرية مجاورة لتشرب . كانت هذه القرية على مسافة ميل واحد من الخط ، ولكن كان يتوجب علينا الحذر من الشراكسة الذين يبغضون العرب ، كما كان علينا ان نحترز من نقطة عسكرية تركية على جسر مرتفع تراقب الخط عن كثب .

بعد أن تم كل شيء ، قطعنا ستة أميال أخرى كي نصل مع الغروب إلى جسر « ضُليل » الذي راودتنا الرغبة في نسفه لولا ان وجدنا عمالاً وجنوداً أتراك يقومون باصلاح جسر آخر بالقرب منه كانت السيول قد جرفت اربعاً من قناطره . وبدا لنا نسفه عديم الفائدة ، فقررنا أن نتابع سيرنا إلى الشمال لجهة « منيفير » وهناك اعتقد « زعل » اننا سنجد المكان الملائم لوضع لغم . ونسف قطار أكثر من نسف جسر سيقنع الاتراك بأن جيوشنا موجودة في « الازرق » في وادي السرحان على مسافة ٥٠ ميلاً إلى الشرق . وبناء على ذلك تابعنا سيرنا إلى الشمال ووصلنا تلال « منيفير » التي وجدنا فيها المكان الملائم للعمل ، وبالتالي للانسحاب

نحو الصحراء في الشرق . فإلى جهة الشمال كنا نرى الخط الحديدي من هناك يمتد إلى هضبة حوران الجنوبية ، على مدى النظر . وإلى الجنوب كانت ترتفع تلة صخرية يمكننا ان نراقب من عليها ستة أميال من الخط الحديدي . وإلى الغرب في « البلقاء » بدت خيـام القرويين كنقط سوداء على المنحدر . وكي نأمن جانب هؤلاء أوفدنا رسلنا اليهم . وأثناء الليل وضعنا أنا وزعل ثلاثة ألغام اوتوماتيكية من صنع « غلولان » تحت الخط الحديدي ، وعدنا إلى قواعدنا بـين التلال نترقب مرور القطار وانفجار الالغام . ولكن النهار طلع وشيء من ذلك لم يحدث ، واضطررنا ان نمدّ فترة الانتظار . في هذه الاثناء عثر رجالنا على جريحين تركيين كانا قد هربا من فرقة تركية تتجول في المنطقة لحمايتها . وبعد ظهر ذلك اليوم رأى حرّاسنا عن بعد تلك الفرقة التركية تتجه نحو الشمال وعددها يناهز المائتين . فألح زعل ورجاله على مباغتتها على أمل القضاء عليها والاستيلاء على عتادها والبغال الـتي معها . ولمـا سألت زعل عن خسارتنا المنتظرة من الرجال ، أجابني : « حوالى الخمسة أو الستة . » فقررت عدم التعرض للعدو لأن « العقبة » هي هدفنا ، وسنكون في حاجة ماسة إلى كل رجل للاستيلاء عليها . تقبّل « زعل » مرغماً هذا القرار ومرت الفرقة بسلام ورجالنا يصرون على أسنانهم لكبت حميتهـم . وبالطبع كان من المحزن المثير حقاً رؤية انتصار سهل كهذا يفلت من أيدينا . ولذلك بقي الحزن مخيماً علينا حتى المساء . وحتى ذلك الوقت فضلاً عن ذلك لم يكن قـد مرّ أي قطار بعد . وقـد كان هذا أملنـا الاخير ، ففي الغد سيهدد العطش جمالنا إذا بقينا حيث نحن . وهكذا رأينا أنفسنا مضطرين بعد أن أرخى الليل سدوله لأن نذهب إلى الخط ونشعل الفتيل وننسفه من عدة أماكن ، الأمر الذي عرقل السير على الخط الحديدي طيلة ستة أيام . وبعد اتمام هـذا العمل عدنا إلى حيث كانت جمالنا والحزن يخيم علينا لفشل خطتنا ولعدم مرور أي قطار .

وبعد منتصف الليل شددنا رحالنا وقفلنا عائدين إلى « باير » .

٥١

ضللنا طريقنا في الليل بين كثبان الرمال في أودية « الضُلّيل » الكثيرة الحجارة . ولكننا قررنا مع ذلك متابعة المسير . وعند شروق الشمس وصلنا إلى نقطة مياهنا الاولية « الحو » حيث سقينا جمالنا . وقبل أن نترك المكان ونتابع طريقنا أقبل علينا شركسي شاب يقود أمامه ثلاث بقرات إلى المراعي بين الخرائب القديمة . وكي لا يفضح هذا الشركسي أمرنا أرسل « زعل » بعض رجاله فاقتادوه الينا . ووكلنا أمره إلى شراري شاب ، فربطه إلى سرج جمله . وعلى مسافة اربعة أو خمسة أميال من الزرقاء توقفنا ، وكنا لا نزال قريبين من الخط . ثم جرّدنا الشركسي من ثيابه ، وتولى الشراري بخنجره إحداث جروح عميقة في قدمي رجليه كي يضطر إلى الزحف على بطنه وركبتيه للوصول إلى القرية . وفي هذه الاثناء نكون نحن قد ابتعدنا وأمنّا شر الاتراك والشركسي معاً .

كانت الشمس لا تزال منخفضة عندما حططنا رحالنا قرب الخط الحديدي بين حواجز مسننة من الصخور الكلسية . تسلل رجالنا بين الصخور حتّى أطلوا على محطة « عطوى » حيث يقوم بناءٌ من الحجر . وقد تهادى إلى سمعنا من هناك صوت عمال المحطة يغنون بلا اكتراث . كما وقع بصرنا على جندي تركي يقود قطيعاً من الاغنام إلى المرعى القريب من الوادي . وهذه الاغنام هي الـتي دفعتنا إلى العمل بعد أن قضينا فترة طويلة محرومين من أكل اللحوم . تسلّل « زعل » مع نفر

من الرجال ، على طريقة الهنود الحمر ، إلى الوادي حيث يمر الخط فوق جسر ، ثم تسلّق ذلك الجسر حيث أصبح قبالة البناءين عند طرف المرعى.

ومن عل كنا نشرف نحن على ساحة المحطة . فرأيت « زعل » يسدّد فوهة بندقيته بحذر شديد نحو جمهرة من الجنود والعمال الاتراك كانوا يحتسون القهوة أمام قاعة الانتظار ، ثم أطلق رصاصة ألقت الرعب في قلوب الجنود وجعلتهم ينبطحون أرضاً .

وبعد لحظات انقض رجال زعل على المحطة للاستيلاء عليها ، غير ان الاتراك وقد تحصنوا وراء باب المبنى الشمالي كانوا قد بدأوا في تلك اللحظة في اطلاق النار على المغيرين . فعمدنا نحن بدورنا إلى اطلاق النار عبثاً . وبعد برهة توقف اطلاق النار من الجانبين . وبينما كان بعض رجالنا يقودون الاغنام نحو التلال في الشرق حيث ترعى جمالنا ركض الباقون للحاق بزعل الذي يحاول الوصول إلى المبنى الآخر الذي بقي بدون دفاع . وفيما كان الرجال منصرفين إلى نهب موجودات المبنى قدمت عربة عليها اربعة رجال من الاتراك ، فكمن لهـا بعض رجالنا وقتلوا الاتراك الاربعة . وبعد ذلك عمد « زعل » إلى اشعال النار في المبنى في الوقت الذي كان « العقيليون » ينسفون الخط الحديدي من عدة مواضع . وبعد ان ابتعدنا عن المحطة بضعة أميال توقفنا واحتفلنا بالمناسبة إذ ذبحنا عدداً من الاغنام التي استولينا عليها . وبعد ان انتهينا من العشاء ركبنا وسرنا طول الليل كي نصل مع الفجر إلى « باير » حاملين أكاليل الغار .

٥٢

في هذه الاثناء كان ناصر قد قام بعمل جليل . فالقافلة التي عادت

من « طفيلة » محمّلة بالدقيق اعادت لنـا حرية الحركة . وبات أمامنا فسحة من الوقت كي نحتل « العقبة » قبل ان نموت من الجوع . وكان ناصر ، فضلاً عن ذلك ، قـد تلقّى اخباراً سارة من « نقب الشتار » وردت من ثلاثة افخاذ من « الحويطات » هي « الدومانية » و « الدراوشة » و « الضيابة » . فقد وافقت تلك القبائل على مساندتها .

دفعني الامل لأن اجرّب غـارة أخرى ، كتب الجنون لها الفشل . ولكن الاتراك لم يقلقوا مع ذلك . وما ان عدنا إلى المخيم حتى قَدِم علينا رسول مستعجل من قبل نوري الشعلان . وقـد حمل هذا الرسول لنا تحية سيده مع اخبار جديدة مسرة فالاتراك وقد قرروا ان يرسلوا في اثرنا إلى وادي السرحان اربعمائة خيال من درعا كانوا قـد أصروا على ان يكون نواف بن نوري الشعلان دليلهم ورهينتهم . غير ان نوري ارسل لهم ابن أخيه طراد الذي سيقودهم إلى طرقات متعرجة وعرة تنهك الرجال والخيول على السواء . وهم الآن بالقرب من النبك حيث كنا نعسكر نحن . وحتّى عودة خيالتهم سيستمر الاتراك في اعتقادهم بأننا في وادي السرحان ، وقيادتهم لن يساورها أي قلق خاص بشأن معان بعد أن تولّى جنودٌ من فرقة الهندسة نسف الآبار في منطقتَي « باير » و « الجفر » .

ربما كانت « الجفر » محرّمة علينا في الواقع . ولكن الامل بقي يراودنا في ان ينسى الاتراك نسف بعض الآبار . وكان ضيف الله أحد الزعماء الموالين لنا قـد شهد بنفسه نسف تلك الآبار ، ثم أرسل لنا سراً من « معان » مَنْ يخبرنا بامكانية اصلاح الآبار بسرعة . وبناء لهذه المعلومات خرجنا من منطقة « باير » في ٢٨ حزيران (يونيو) كي نتأكـد من صحة ذلك .

اجتزنا سهل الجفر الكئيب بسرعة . وعند ظهر اليوم التالي وصلنا إلى الآبار فبدت كأنها متهدمة تماماً . وعلى الاثر اعترانا الذهول والقلق .

هل سنواجه هنا أول فشل لنا ؟ لقد كانت مخططاتنا معقّدة إلى درجة تجعل كل تأخّر بسيط تنجم عنه نتائج بعيدة المدى . ومع ذلك قرّرنا ان نحاول اصلاح « بئر الملك » بناء على اشارة من « ضيف الله » . وفي الحال طلبنا متطوعين فتقدم نفر من بني عقيل وبدأوا أعمال الترميم بقيادة مرزوق في حرّ الصيف الخانق وبالادوات القليلة التي معنا . وبعد عمل حثيث استمر طول الليل انتهى ترميم البئر مع مطلع الفجر . ولكن مياهه نضبت بعد استخدامنا المتواصل لها خلال اربع وعشرين ساعة .

نظّمنا عملنا دون تلكّؤ . ومن « الجفر » توجه بعض رجالنا إلى حيث تخيم قبيلة « الدومانية » كي يقودوا من هناك الهجوم الموعود على « فويلح » التي تشرف على ممر « ابو اللسن » . والهجوم يجب أن يتم قبل موعد قدوم القافلة التي تأتي لتموين حاميات المخافر مرة كل اسبوع . وذلك لكي يكون الجوع أكبر مساعد لنا في تصفية تلك المخافر بعد أن يتأكد لها انقطاع كل اتصال بينها وبين القاعدة .

قررت أن أنتظر في « الجفر » نتائج هذا الهجوم الاول . فعلى نجاحه أو فشله سيتوقّف اتجاه مرحلتنا القادمة . ومع الفجر التالي قدم إلى مخيّمنا فارس أخبرنا ان رجال قبيلة « الدومانية » قد فتحوا النار على مركز « فويلح » بعد الظهر قبل وصول رجالنا . غير ان المفاجأة لم تكن كاملة ، واستطاع الاتراك من وراء تحصيناتهم أن يردّوا الغارة الاولى . وعندئذ انسحب « الدومانيون » إلى الجبال تاركين العدو يعتقد بأن ذلك كان مجرد غارة بسيطة ، ويؤكّد ذلك اكتفاؤه بارسال بضعة فرسان إلى أقرب مخيم للتهويل على المغيرين .

في ذلك المخيم كان يوجد رجل عجوز وست نساء وسبعة أولاد . عمد الفرسان الاتراك إلى ذبحهم جميعاً بعد اضرام النار في المكان . فما ان وصل خبر هذه المذبحة إلى أسماع عرب « الدومانية » المختبئين في الجبال ، حتى ثارت ثائرتهم وانقضوا على القتلة وفتكوا بهم عن بكرة

أبيهم . ومن ثم ، لأرواء غليلهم ، هجموا على الحصن نفسه ، بطريقة جعلت حاميته التركية تفرّ منه غير لاوية على شيء خوفاً من المصير الرهيب الذي كان ينتظرها على يد المغيرين الهائجين .

كانت مطايانا جميعها مسرجة . وفي أقل من عشر دقائق كنا على متنها باتجاه « غدير الحاج » ، أول محطة لسكة الحديد إلى الجنوب من « معان » على طريق « ابو اللسن » . وللتضليل أوفدنا شرذمة من رجالنا إلى شمالي « معان » ، وأوكلنا اليها أمر ارهاب قطعان الجمال العائدة مريضة من جبهة فلسطين والتي يرعاها الاتراك في سهل « شوبك » ريثما تستعيد صحتها .

إن خبر سقوط « فويلح » حسب تقديراتنا لم يكن قد وصل إلى « معان » قبل هذا الصباح . ولذلك ففي امكان الاتراك ان يستخدموا هذه الجمال (على اعتبار ان شرذمتنا التي أوفدناها إلى الشمال قد فشلت في تأدية مهمتها) ويعدّوا حملة اغاثة خلال الليل فقط . فإذا هاجمنا الخط الحديدي عند « غدير الحاج » فإننا نضطرهم عندئذ لأن يغيّروا طريقهم . وعندها نسير نحو « العقبة » دون أن يعترينا أي قلق .

مدفوعين بهذا الامل وصلنا بعد الظهر إلى الخط الحديدي وعمدنا إلى نسفه مع الجسور القائمة هناك . ولما خرجت حامية « غدير الحاج » لمواجهتنا أجبرناها على الهرب مخلّفة وراءها بعض القتلى .

كانت المحطة مزوّدة بجهاز ارسال تلغرافي . ولذلك كنت متيقناً بأنها ستنذر « معان » التي ستسمع ، فضلاً عن ذلك ، دويّ انفجاراتنا المتتالية . وهذا يعني بأن العدو سيهبط علينا مع الليل أو سيهبط على خط مقفر انهارت عشرة من جسوره .

وما ان هبط الليل علينا ولفّنا بظلامه حتى توجهنا إلى الغرب وقطعنا مسيرة خمسة أميال حيث أصبحنا في أمان . ولكن ما ان تناولنا طعامنا حتى قَدِم علينا ثلاثة فرسان وأخبرونا بأن كتيبة تركية كاملة مزوّدة

بالمدافع قد جاءت إلى « ابو اللسن » من « معان » ، وبأن عرب « الدومانية » الذين أسكرهم النصر قد نسوا تنظيم صفوفهم في مقرهم الجديد ، فدبّ فيهم الذعر لدى رؤية تلك الكتيبة الكبيرة ولاذوا بالفرار دون مقاومة . وهم الآن ينتظروننا في البتراء . وهكذا فقدنا « ابو اللسن » ، والحصن ، والممر ، وفقدنا أيضاً الاشراف على طريق « العقبة » ، دون أية مقاومة .

علمت فيما بعد ان مقدم هذه القوة التركية ، التي لم تُستعمل ، كان وليد الصدفة . ففوج البدل ، وخبر الهجوم على « فويلح » ، كانا قد وصلا معاً إلى « معان » ، فصدرت اليه الاوامر فجأة بعد أن زوّد بالمدافع كي ينجد المركز الذي كان يعتقد بأنه محاصر . ولما وصلت تلك القوة إلى « ابو اللسن » لم تجد أحداً هناك ، فعسكرت بالقرب من الماء طول تلك الليلة بسلام .

٥٣

لم يكن ذلك الوقت مناسباً مطلقاً للنوم . وفي أقل من بضع ثوان كنا مع حوائجنا على ظهور الجمال نسير بمحاذاة الكثبان التي تشكّل طرف الهضبة السورية . وعند الفجر حططنا رحالنا على قمة جبل يقوم بين البتّراء و « ابو اللسن » . إلى الغرب ، كان يمتد سهل « قويرة » حتى سلسلة التلال التي كانت تحجب عنا « العقبة » والبحر . وكان قاسم ابو دميك ينتظرنا مع رجاله على أحر من الجمر . وبسرعة وضعنا مخططاً للعمل ووزّعنا الادوار وانصرف كل منا إلى تنفيذ ما أوكل اليه بأقصى سرعة ، لأن بقاء تلك الكتيبة التركية في « ابو اللسن » معناه قطع طريق

العقبة علينا واحباط مخططنا الرئيسي .

وأثناء الليل فيما كان الاتراك نائمين تسللنا إلى التلال المحيطة وطوقناهم ثم بدأ رجالنا باطلاق النار عليهم على أمل أن نجرّهم إلى الخروج ومحاولة مجابهتنا على المنحدر ، هذا بينما كان « زعل » على رأس فرقة من فرساننا قد توجه إلى السهل وقطع الخطوط التلفونية والتلغرافية المؤدية إلى « معان » .

استمر عملنا هذا طول اليوم وقد كان شديد الحر لدرجة لا عهد لي بمثلها من قبل . المكان شديد الوعورة ، والشمس محرقة والبنادق كذلك . ومما زاد في الطين بلة نضوب الماء الذي معنا وتعذّر ارسال من يورده من « البتّراء » . والشيء الوحيد الذي كان يعزينا في ذلك اليوم هو شعورنا بأن العدو في الوادي يجب أن يكون اسوأ حالاً منا .

عند الظهر تظاهرت ، لشدّة تعبي ، بأنني أصبت بضربة شمس ، ولجأت إلى مكان ظليل حيث وافاني ناصر يلهث هو الآخر . وبعد مدة وجيزة جاءنا « عودة » ، المحارب القديم ، يصيح بنا ويستحثنا ويدعونا إلى مشاهدة عرب « الحويطات » في انقضاضهم على العدو . وبعد لحظات تركنا ليصعد إلى مكان مرتفع وينادي رجاله للتجمّع حوله . وما ان اجتمعوا حتى صرخ فيهم لتحريك النخوة في نفوسهم ، وعلى الاثر تفرقوا وبدوا كالسيل الجارف في هبوطهم المنحدر لمقارعة العدو ومباغتته من الخلف . في هذه الاثناء استعددنا نحن لكل طارئ ريثما ينجلي الموقف . وما هي إلا برهة وجيزة حتى لعلع الرصاص وعلا الصراخ ودب الذعر في صفوف العدو فبدأت تتفكك وأخذ الكثيرون طريق الهرب ، فهرعنا نحن لنقطعها عليهم . في هذه الاثناء تعثّر بعيري أرضاً وكنت أنا قد سبقته إلى ذلك . لهول الصدمة بقيت جامداً دون حركة ، وتأكّدت من ان الاتراك سيقتلونني عما قليل ، فرحت أندب حظي وأرثي لنهايتي . ولكن شيئاً من هذا لم يحصل لأن

رجالنا كانوا قد عاجلوا العدو بضرباتهم السريعة وكسبوا المعركة بعد أن قضوا على فلوله .

وفيما محمد قادم نحوي يجرّ بعيري الاحتياطي « عبيد » وصل ناصر يدفع أمامه القائد التركي الجريح وقد خلصه من غضب محمد الضغلان . واما حصيلة تلك المعركة فكانت ١٦٠ اسيراً أكثرهم جرحى و ٣٠٠ قتيل .

قليلون من الاتراك تمكنوا من الهرب ، وكان محمد الضغلان يشدّ في اثرهم في « المريجة » ويشبعهم شتائم ووعيداً كي لا يقفوا في طريقه بعد اليوم . وبين الهاربين كان « ضيف الله » الذي كان قد وعدنا بالمؤازرة في قضية آبار الجفر . وأما خسائرنا نحن فكانت قتيلين واحداً من « الرولا » والثاني من « شرارة » .

كل خسارة بالطبع كانت مؤسفة . ولكن الوقت كان في غاية الأهمية بالنسبة لنا ، وبسبب حاجتنا إلى السيطرة على معان للانقضاض منها على المراكز القائمة بيننا وبين البحر ، الامر الذي جعلني أوافق على التضحية بأي عدد من الرجال . ففي مثل هذه الظروف يبرّر الموت فديته ، وهي ليست ثقيلة .

أردت ان ألقي بعض الاسئلة على الاسرى عن حامية « معان » . غير ان الجهد العصبي كان ثقيلاً جداً . البعض صمتوا ولم ينبسوا ببنت شفة ، والبعض الآخر تكلموا بلغة لم نستطع فهمها . هذا بينما راح آخرون يستدرون عطفنا ببكائهم وبركوعهم أمامنا وقولهم بأنهم مسلمون مثلنا واخوة لنا في الايمان .

وأخيراً عيل صبري ، فانفردت بأحدهم وجلدته جلداً مبرّحاً حمله على التكلم والافصاح عما يعرفه ، فقال لي ان فوجهم وحده كان يشكل القوة الضاربة ، واما الكتيبتان الموجودتان في « معان » فضعيفتان . وقد استنتجت من ذلك انه يمكننا الاستيلاء على المدينة بسهولة . وما ان

علم « الحويطات » بالامر حتى استهوتهم الغنائم وبدأوا يطالبون بالسير الفوري عليها . لحسن الحظ استطاع ناصر و « عودة » أن يساعداني في تهدئتهم . وذلك لأنه لم يكن لدينا آنذاك أي سند . ولم تكن تحت تصرفنا قوات نظامية ولا مدافع ، وكانت بلدة « الوجه » أقرب قواعدنا . وكانت أموالنا قد نفدت . وفضلاً عن ذلك لا يصح تغيير مخطط استراتيجي من أجل نجاح تكتيكي . وكان علينا ان نتجه نحو الشاطئ لاعادة الاتصال بحراً مع السويس .

لم أكن أمانع مع ذلك في زيادة مخاوف « معان » . ولذلك فقد وافقت على ارسال شرذمة من الفرسان إلى المريجة فاحتلتها ، وانتقلت من هناك إلى « قواعيدة » واستولت عليها . وقد كان هذا التقدم وخسارة الإبل على طريق « الشوبك » ، وتدمير « غدير الحاج » ، ثم القضاء على فوج الاغاثة الذي وصلت أخبارها متتابعة إلى معان ، كل ذلك سبّب هلعاً كبيراً هناك . وعلى الاثر عمد قائد الموقع إلى طلب النجدات العسكرية تلغرافياً بينما عمدت السلطات المدنية إلى جمع أوراقها والهرب في الشاحنات إلى دمشق .

٥٤

في هذه الاثناء كان رجالنا قد سلبوا الاتراك أموالهم ونهبوا أمتعتهم . وما ان طلع القمر حتى بدأ « عودة » يستحثنا على السير والخروج من ذلك المكان لأنه لا يطيق رؤية الجثث ويخشى عودة الاتراك أو غارة مفاجئة قد تشنّها على جماعته بعض القبائل العربية الاخرى التي لها عليها بعض الثأر . وزغم ميلنا إلى البقاء اضطررنا ان

نستجيب إلى طلب « عودة » ونشدّ رحالنا مخلّفين وراءنا عشرين من الاسرى الاتراك الجرحى لتعذّر نقلهم . وبعد ان اجتزنا المرتفعات هبطنا الوادي كي نأمن الرياح العاصفة من الغرب . وما ان وصلنا إلى الوادي حتّى أعطينا إشارة التوقف .

وفيما كان الرجال يأخذون قسطاً من النوم والراحة بعد عناء كبير انصرفنا نحن إلى تدبيج كتب إلى شيوخ « الحويطات » المخيمين بالقرب من الساحل نعلمهم فيها بما أحرزناه من نصر وننصحهم بالانقضاض على أقرب مركز تركي واحتلاله ، بانتظار قدومنا . وبعد ذلك كلفنا احد الضباط الاتراك الاسرى ، بعد ملاطفته ، أن يوجّه كتباً إلى الضباط الاتراك في مراكز « قويرة » و « كثيرة » و « حدرة » التي تفصلنا عن الشاطىء يدعوهم فيها للاستسلام مع عهد بحسن المعاملة وارسالهم إلى مصر .

دام هذا العمل الكتابي حتّى الفجر حيث استحسن « عودة » المسير فاستجبنا له . وبعد ان قطعنا بضعة أميال خرجنا من الوادي لنتسلق منحدراً أخضر . وسرعان ما تأكّد لي بأنه الاخير الواجب تسلّقه . وبعد ذلك يبدأ الفراغ . مذهولاً ، مشدوهاً ، رأيتُ نفسي أقف في ذلك المكان الساحر الذي يطل على سهل « قويرة » الفائق الجمال . مع شروق الشمس في ذلك النهار بعد السفر الطويل في حنايا الهضبة ، وفي سجن الاودية كان من المستحب الاطلاع هكذا على هذه الحرية ، نافذتنا في جدار الوجود . وكي نتلذذ أكثر بهذه السعادة هبطنا على الاقدام ممر « الشتار » الوعر . وفي أسفله وجدت جمالنا ما تأكله ، فتوقفنا للاستراحة ريثما يصل باقي القافلة ، واغتنمنا الفرصة كي نأخذ قسطاً من النوم . ثم جاء « عودة » وحملنا على متابعة السير خمسة عشر ميلاً أخرى ، لنخيم على مقربة من « قويرة » . وفي « قويرة » نفسها وجدنا الشيخ ابن جاد الذي من عادته ان يتأرجح حتّى ينضم في النهاية

إلى الجانب الاقوى . وبما اننا كنا الجانب الاقوى في ذلك اليوم فقد استقبلنا الماكر القديم بكلمات معسولة ، وأعلن انضمامه لنا . اتفقنا معه على أن يقود الاسرى الاتراك إلى « العقبة » ساعة يحلو له ذلك .

كان ذلك في الرابع من تموز (يوليو) . وكان علينا ان نسرع الخطى لأن غائلة الجوع بدأت تهددنا ولأن « العقبة » لا تزال بعيدة المنال ، يفصلها عنا مركزان محصّنان للعدو . الاول مركز « كثيرة » ، الذي رفض جنوده باصرار استقبال مفاوضينا . وكان المكان الذي يقوم عليه الحصن مشرفاً على الممر وقد تكبدنا الكثير من الضحايا في محاولة احتلاله . ولذلك أوكلنا شرف الاستيلاء عليه إلى الشيخ ابن جاد الذي قبل المهمة بعد تردّد ، وأغار على المركز تحت جنح الظلام .

تابعنا سيرنا عبر السهل المنبسط مطمئنين . وناصر ، كي يوفّر على نيازي بك قائد الفوج التركي تهكم رجالنا ، جعله ضيفه . وفيما نحن في الطريق اقترب مني أحد الضباط الاتراك بحياء ، واشتكى من ان أحد رجالنا قد شتمه بالتركية . فقدّمت له الاعتذار عن ذلك مع الملاحظة بأن الرجل يجب ان يكون قد تلقّن تلك الشتيمة من فم حاكم تركي مثله .

بدأت فجاج وادي « اثم » تضيق أمامنا وتزداد وعورة . وبعد مركز « كثيرة » وجدنا كل المراكز التركية الأخرى خالية خاوية ، فرجالها كان قد تم استدعاؤهم إلى « خضرة » ، هذا المركز الحصين الذي يحمي « العقبة » من كل هجوم بحري . ولسوء حظ العدو ، لم يكن قد خطر في باله مطلقاً ، ان الهجوم سيأتي من الداخل . وهكذا ، في تقدّمنا هذا ، باغتنا العدو وجعلناه يترنّح من الهلع ومن هول المفاجأة .

أجرينا بعد ظهر ذلك اليوم ، اتصالاً مع هـذا المركز الرئيسي — فأنذرنا السكان المحليين بأن المراكز الثانوية حول « العقبة » قـد استدعي رجالها أو خفض عددهم ، ولم يبق هناك سوى ٣٠٠ رجل يسدّون عليه طريق البحر .

عقدنا اجتماعاً لدرس الموقف ، فقد قيل لنا ان العدو متحصن جيداً في مراكزه ومستعد لصد أي هجوم ،كما قيل لنـا ان المياه متوفرة لديه من بئر ارتوازية جديدة . وسرت أخبار بأن المؤن تنقص لدى العدو .

لم يكن لدينا أخبار غير هـذه ، ولذلك وقعنا في ورطة . وكان مجلسنا أعجز من أن يستقر على رأي لتباين الآراء وكثرة المشاحنات . وبدأ صبر الجميع يعيل وسط هذا المكان الخانق .

كان عدد رجالنا قـد تضاعف ، فضاق بنا المكان واضطررنا ان نرفع اجتماعنا عدة مرات حتى لا نتيح لرجالنا سماع مناقشاتنا ومشاهدة خلافاتنا .

وفي النهاية قررنا أن ننذر العدو وندعوه إلى الاستسلام . غير ان الطلقات النارية هي الـتي استقبل بهـا العدو مفاوضينا الأمر الذي أثار غضب رجالنا العرب . وفيما كنا نقترع ، عصفت موجة مفاجئة بين صفوفنا ، وراح الرجـال من وراء الصخور يمطرون العـدو بوابل من الرصاص . خرج ناصر ليوقف هـذا الجنون ، فلم ينجح إلاّ بعد لأي .

وعلى الاثر قررنا ان نحاول مرة ثالثة الاتصال بالعدو ، فجـاءنا جواب مهذّب في هذه المرة يقول بأنهم مستعدون لأن يستسلموا إذا لم تصلهم امدادات من « معان » خلال يومين .

إن جنوناً كهذا (لأننا لن نستطيع إلى الابد ان نكبح جمـاح رجالنا) سيؤدي حتماً إلى مذبحة عـامة يقضي فيها الاتراك . بلا ريب

لم يكن عندي مـا أقوله للتوسط لهم ، ولكن من الافضل ، مع ذلك ، ان لا تحصل مذبحة توفيراً لنا من مشهدها المؤلم . وفضلاً عن ذلك ربما فقدنا نحن بعض رجالنا في المذبحة . كما ان الاغارة في ليلة مقمرة لا تقل خطراً عن مثلها في وضح النهار . وهذه المعركة ، فوق كل ذلك ، لم تكن ضرورية كمعركة « ابو اللسن » .

وبعد ذلك طلبنا إلى رسولنا أن يعود إلى الاتراك ويطلب اليهم ارسال أحد ضباطهم لتبادل الحديث معه . ولمـا جاء ذلك الضابط أخبرناه بما جرى على طريق معان وأوضحنا له بأن عدد قواتنا في تزايد مستمر ، وانه لن يكون في مقدورنا السيطرة طويلاً على هـذه القوات التائقة للقتال . فكانت النتيجة ان نلنا وعداً من الضابط التركي بالاستسلام مع الفجر . وهكذا تمكّنا من النوم في تلك الليـلة أيضاً رغم عطشنا .

وفي الغد ، مع الفجر ، استفقنا على صوت الرصاص يلعلع من كل جانب ، إذ ان مئات من الاغراب كانوا قـد انضموا إلى صفوفنا في الليل ، ولم يعلموا بأمر العدو ، الأمر الذي جعلهم يفتحون النار عليه مع أول خيوط الفجر ، فردّ عليهم العدو بالمثل . عندئذ خرج ناصر وتبعه ابن دغيثر مع بني عقيل في صفوف متراصة وساروا مكشوفين في وسط الوادي . فتوقف رجالنا عن اطلاق النار ، وكذلك فعل الاتراك . وبعد ذلك استسلم الاتراك بهدوء .

وفيما كان الاعراب منصرفين إلى النهب والسلب ، لاحظت وجود ضابط هندسة في لباس اغبر قد أرخى لحيته الشقراء . استجوبته باللغة الالمانية ففهمت منه بأنه جاء لحفر البئر الارتوازية ، وبأنه لا يعرف أية كلمة تركية . واستنتجت بأنه كان مشدوهاً بما يحصل أمامه . من نكون نحن إذن ؟ عرب في ثورة ضد الاتراك . لقد لزمه بعض الوقت كي يفهم هذا الحدث . ومن يكون زعيمنا ؟ شريف مكة . سيرسل إلى مكة إذن ؟ اجبته : بل إلى مصر . وعلى الاثر سألني ما إذا كان يوجد

سكّر في مصر وبأي ثمن . فقلت له انه يوجد بكثرة وبسعر منخفض .
عندئذ بدت عليه ملامح الرضى . وبعد أن روينا ظمأنا من البئر التي
حفرها هذا الالماني توجهت جموعنا وسط عاصفة رملية إلى « العقبة »
التي تبعد عنا اربعة أميال . وهكذا في ٦ تموز (يوليو) وصلنا إلى ساحل
البحر بعد أن مضى شهران على خروجنا من الوجه .

الجزء الخامس

٥٥

استخدام القاعدة الجديدة

من خلال الغبار العاصف بدت لنا العقبة مهدمة تماماً . فالقصف المتواصل من البحر كان قد حوّل المدينة إلى كتلة من الخراب المتراكم والدخان المتصاعد .

بعد ان تسللنا عبر بساتين النخيل الممتدة على الساحل جلسنا في مكان مرتفع نرقب تدفّق رجالنا . طيلة شهور متعددة كانت العقبة تشكل أفق أفكارنا والهدف الرئيسي لعملياتنا ، وكنا نرفض مجرد التفكير في غيرها . والآن وقد تمّت العملية فان شعور النصر بعد الجهود التي بُذلت لم يُحْدِث أيّ تغيير في أفكارنا ونفوسنا .

في ذلك اليوم الابيض عرفنا بكل صعوبة أنفسنا . مشدوهين بسماع أصواتنا ومسمّرين في الارض دون أن نعرف ماذا علينا ان نفعل ، كنا نمرر أصابعنا على أثوابنا البيضاء إذ كنا نشك في مقدرتنا على فهم أو

ادراك من نكون . امام هذا المشهد كنا لا ندري كيف الطريقة للاستفادة من الهدية التي تلقيناها .

لقد أخرجنا الجوع من هذه الغيبوبة . فقد كانت جحافلنا تضم ٧٠٠ اسير علاوة على رجالنا وعددهم ٥٠٠ ، وحلفائنا الذين يناهزون الـ ٢٠٠٠ وينتظرون شيئاً ما منا . غير اننا لم يكن لدينا مال ومؤونتنا نفدت منا منذ أول أمس . تستطيع الجمال ان تكفي لاطعامنا من لحمها طيلة ستة أسابيع ولكن هذا الحل سيحرمنا من واسطة النقل فيما بعد . تطلعنا إلى فوق رؤوسنا فوجدنا أشجار النخيل تحمل عناقيد خضراء من التمر ، صحيح انه يمكننا ان نطبخها ولكن حموضتها تضر بالمعدة ، وتسبّب لنا الألم الشديد . وهكذا كان علينا اذن ، نحن واسرانا ان نواجه هذه المعضلة العويصة . إما ان نصبر على الجوع الدائم أو نأكل ونتحمّل الآلام المستمرة .

في هذا الموقف العسير المحرج بدا الضباط الاتراك الاثنان والاربعون الاسرى لدينا لا يحتملون لكثرة طلباتهم ولعدم وثوقهم بصدق ما نقوله لهم عن موقفنا المحرج . وللتخلص منهم تواريت أنا وناصر عن الانظار ونعمنا بنوم هنيء طالما اشتقنا اليه في ترحالنا في الصحراء .

وفي المساء ، بدأنا نفكـّر في الوسائل التي ستمكّننا من الاحتفـاظ بـ « العقبة » بعد ان استولينا عليها . وفي النهاية قرّ رأينا على أن يعود « عودة » إلى « قويرة » ، وهناك سيكون في أمان بين منحدر « الشتار » ورمال « قويرة » . وزيادة في الحرص والاحتراز رغبنا في ان يقوم مركز أمامي لنا بين آثار بترا النبطية على مسافة ٢٠ ميلاً إلى الشمال يتم الارتباط بينه وبين « عودة » بواسطة مركز آخر يقام في « دلاغة » . وسيرسل « عودة » رجاله كذلك إلى « بترا » . وهكذا سيشكل عرب الحويطات نصف دائرة من اربعة مراكز عند سفوح عمان ومرتفعاتها ، تقفل كل الطرقات المؤدية إلى « العقبة » .

وهذه المراكز الاربعة سيكون لكل منها وجود مستقل . وبلا ريب سينقضّ الاتراك على احدها يوماً بكل قواهم ، وبعد ذلك سيبقون شهراً عاجزين عن التقدم خوفاً من الخطر الكامن عند المراكز الثلاثة الأخرى .

وعند العشاء اتضح لنا كم كنا في حاجة ماسة لأن نطلب من الانكليز الموجودين في السويس على مسافة ١٥٠ ميلاً من الصحراء ارسال باخرة مؤونة على جناح السرعة ، فقررت أن أذهب في طلب ذلك بنفسي مع ثمانية من أشجع رجالنا أكثرهم من عرب الحويطات على متن اسرع مطايا عندنا . وفيما كنا نسير بمحاذاة الخليج تناقشنا في كيفية اتمام الرحلة. لو سرنا ببطء للحفاظ على مطايانا فقد تموت من الجوع وإذا سرنا سيراً حثيثاً ، فقد تموت من الانهاك .

وفي النهاية قررنا ان نتبنّى الحل الثاني مع الاحتراز الشديد . وعقدنا النية على قطع أكبر مسافة ممكنة في اليوم على أمل الوصول إلى السويس بعد ١٥٠ ساعة من المسير بمعدل ٥٠ ميلاً في اليوم .

تسلقنا جبل سيناء من طريق الحجاج الوعرة . وقبيل منتصف الليل وصلنا إلى « ثمد » (نقطة الماء الوحيدة على طريقنا) في واد منفرج حيث استرحنا وروينا ظمأنا ، ثم تابعنا المسير في الليل . ومع شروق الشمس وصلنا إلى وسط سهل يؤدّي إلى العريش ، فأخذنا قسطاً يسيراً من الراحة . ثم أكملنا كي نصل بعد الظهر إلى خرائب « النخيل » ونتركها إلى يميننا . وعند غروب الشمس توقفنا مدة ساعة واحدة . وفي ضوء القمر اجتزنا جبال « ميتلا » ، لنصل مع الفجر إلى حقل مزروع بطيخاً ، وجدناه نعمة من السماء . وعند الظهر انفرج أمامنا سهل فسيح تراءى لنا وراءه سراب من نقط متماوجة وغبر واضحة ، دفعنا إلى الاعتقاد بأنها قناة السويس .

وصلنا بعد ذلك إلى سلسلة من الخنادق والتحصينات والطرقات

والخطوط الحديدية مهجورة مخرّبة . اجتزنا تلك السلسلة بدون توقف ، لأن هدفنا كان « الشط » المركز المقام مقابل السويس على الضفة الآسيوية من القناة . وقد وصلنا إلى ذلك المركز حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر أي بعد ٤٩ ساعة من خروجنا من العقبة .

بدت لنا « الشط » في فوضى غريبة إلى درجة اننا لم نلحظ وجود حارس أمامها ، إلا انه في الحقيقة كان الطاعون قد ظهر هناك منذ ثلاثة أيام ، الامر الذي أوجب اخلاء المكان كما هو على جناح السرعة ، وترك كل شيء على حاله . بالطبع كنا نجهل كل شيء عن هذه الأحداث ولذلك ولجنا إلى المكاتب الفارغة مشدوهين حتى وقع نظري على جهاز تلفوني سارعت إلى استعماله وطلبت القيادة العامة في السويس معلناً عن رغبتي في اجتياز القناة .

جاءني الجواب من القيادة العامة معلناً الأسف لأن هذا الأمر ليس من اختصاصها . ومصلحة النقل المائي الداخلي هي التي تقوم بهذا النوع من النقل وفقاً لوسائلها الخاصة . طلبت عندئذ مكاتب مصلحة النقل المائي الداخلي وقلت : لقد وصلت منذ لحظة إلى الشط عبر الصحراء ، ومعي أخبار مهمة مستعجلة للقيادة العامة ، ردّ الصوت من الطرف الآخر للخط التلفوني : متأسفين كل الاسف ، فليس لدينا الآن مراكب حرة . سنرسل واحداً حتماً في صباح اليوم التالي كي يقودكم إلى مصلحة الحجر الصحي .. ثم انقطع الاتصال .

٥٦

منذ أربعة اشهر وأنا أطوف الصحراء العربية دون توقف . وفي

الاسابيع الاربعة الاخيرة قطعت على متن البعير ١٤٠٠ ميل ، غير مكترث بالتعب والانهاك ، كل ذلك في سبيل انتصارنا العظيم في الحرب. ولكنني كنت أرفض ان أقضي ليلة أخرى برفقة القمل والبراغيث ، كنت في أمس الحاجة إلى حمّام ساخن وإلى احتساء شيء ما مع الثلج ، وكنت في حاجة إلى تغيير ملابسي الوسخة وإلى تناول شيء من الطعام .

عدت إلى طلب مصلحة النقل المائي الداخلي من جديد وتكلمت على طريقة « كريسوستوم » ، ولكن عبثاً ، ولما زادت حدّتي أقفلوا الخط في وجهي . كنت أتطيّر من الغضب عندما جاءني صوت عامل التلفون يتهادى بنبرات ايكوسية رقيقة يقول :

— « لا تتعب نفسك يا ضابطي في الحديث مع هؤلاء النقالين ، فجميعهم حمقى . »

إنها الحقيقة في الظاهر . ولذلك أحالني العامل على مكتب الشحن البحري . فالميجور « ليتلتون » كان بالاضافة إلى مشاغله الكثيرة يصادر المراكب الحربية الموجودة في البحر الاحمر الواحد بعد الآخر في الوقت الذي تدخل فيه إلى قناة السويس كي يقنعها بأن تنقل على متنها المؤن والذخائر إلى « الوجه » أو « ينبع » . وهكذا ، ولملء الفراغ والتسلية إلى جانب مهمته كان يشرف على نقل الرجال والعتاد . أبداً لم يخيب ظننا من قبل . وكان يكفيني في ذلك اليوم الافصاح عن نفسي وعن مكاني . وسرعان ما زالت الصعوبات ، فمركبه كان حاضراً وفي أقل من نصف ساعة كان تحت تصرّفي عند الشط ، وطلب إليّ أن أذهب توا إلى مكتبه . وامتنع عن الافصاح كيف ان مركباً من مراكب الميناء قد دخل إلى حرم القناة دون اذن من القيادة العامة . وفي الواقع ، تم كل شيء كما كان قد أعلن . أرسلت رجالي مع الجمال إلى الشمال نحو « الكوبري » ومن السويس ، بالهاتف ، نظّمت لهم المأوى والمآكل في « حارس »

على الضفة الآسيوية . فيما بعد بالطبع نالوا مكافأتهم : بضعة أيام من الحمى والذهول في القاهرة .

عندما لاحظ « ليتلتون » تعبي تركني أذهب إلى الفندق دون تأخر . لو كنت قد جئت مثل هذا الفندق من قبل لوجدته حقيراً ، ولكنني أراه الآن رائعاً . وبأقصى سرعة أخذت حمّاماً ساخناً ، واستبدلت ثيابي ثم شربت ستة كؤوس مثلّجة وتناولت طعام العشاء كي أنام بعد ذلك في سرير الاحلام . أراد ضابط صاحب مروءة من جهاز الاستخبارات بعد ان اعلمه مخبروه بوجود أوروبي متنكر في فندق سيناء ان يهتم برجالي في « الكوبري » وزوّدني ببطاقات مرور تخوّلني السفر إلى القاهرة في صباح الغد .

أسبغت « الرقابة » على المسافرين المدنيين في منطقة القناة ، شيئاً من الحيوية على هذه الرحلة المكدرة . فقد أمّت القطار فرقة مشتركة من البوليس الحربي المصري والبريطاني ، وراحت تدقّق النظر في أوراقنا ، وتستجوبنا . كنت ارد بجفاف وبلغة انكليزية صحيحة على أسئلتهم المطروحة باللغة العربية حتى اعتراهم الذهول . ثم اعتذر الرقيب وطلب مني ترداد ما قلته لأنه لم يكن متأكداً من انه فهمني . فردّدت بأنني مجند في جيش شريف مكة وأشغل منصب أحد ضباط الاركان العامة . فراح مع زملائه ينظرون عندئذ إلى قدميّ الحافيتين وإلى ثوبي الحريري الابيض ثم إلى العقال وإلى الخنجر المذهب . مستحيل .

— « أي جيش ، يا سيّد ؟ »

— « جيش مكة . »

— « لم يسبق لنا ان سمعنا بذلك من قبل ، كما لم يسبق لنا أن رأينا مثل هذا الزيّ ... »

— « هل أنت قادر على التعرف إلى جنود الجبل الاسود ؟ »

جاء سؤالي هذا في محله تماماً . فكل جنود الحلفاء يمكنهم أن يتجولوا

دون اذن مرور ، والبوليس الحربي لا يعرف كل الحلفاء ، فكيف بالزيّ الذي ترتديه جيوشهم . ومن الممكن ان نكون نحن من أتباع أحد الحلفاء الغادرين ، لذلك تركنا البوليس وهم يرمقوني بنظرة خاصة فيما كانوا يتصلون تلغرافياً بالمحطة القادمة . وتماماً قبيل الاسماعيلية قفز إلى القطار ضابط استخبارات يتصبّب منه العرق للتأكد من أقوالي . ولما كنا على وشك الوصول إلى المحطة فقد أبرزت له جواز المرور الخاص الذي زوّدني بـه مرافقي في السويس زيادة في الحرص وتأكيداً لبراءتي . لم يكن الضابط مسروراً كثيراً لذلك . في الاسماعيلية نزل المسافرون إلى القاهرة من القطار لينتظروا قطار بور سعيد السريع . وفي القطار الآخر من عربة فخمة خاصة نزل الاميرال « ويميس » و « بورمستر » و « نيفيل » ومعهم جنرال ضخم الجثة ولكنه وقور . فسرى توتر رهيب في الحال في كل المحطة ، وراح الضباط الحاضرون هناك يحيون مثنى وثلاثاً الفريق الغارق في حديث جدّي .

وقعت عين « بورمستر » أخيراً عليّ . وكي أقطع عليه تساؤله تقدمت منه ورويت له قصة غارتنا المفاجئة على « العقبة » . فأعارني انتبـاهه الكلّي . وبعد ذلك طلبت منه ان يأمر الاميرال بارسال سفينة موئن على جناح السرعة إلى « العقبة » . فقال ان الباخرة « الدفرين » ستصل في ذلك النهار وستفرغ في السويس حمولتها ، ومن ثم تكمل طريقها فوراً إلى « العقبة » وتتولى نقل الاسرى من هناك . وسيعطي بنفسه أوامر كي لا يمانع الاميرال واللنبي ، فصرخت : « اللنبي » وماذا يفعل هنا ؟

— « اوه ، لقد أصبح قائداً عاماً . »

— « وموري ؟ »

— « عاد إلى انكلترة . »

لقد كان هذا الخبر غاية في الاهمية بالنسبة إليّ بصورة خاصة . عدت إلى القطار ورحت أفكّر . ترى هل يشبه هذا الرجل السمين

القرمزي اللون الجنرالات العادين ؟ وهل سيتوجب علينا قضاء ستة أشهر أخرى لدراسة أفكاره وطرقه في العمل ؟ لقد بدأ كل من « موري » و « بليندا » بداية متعبة للغـاية إلى درجة جعلت همّنا في ذلك الوقت ينحصر ليس في محاربة العدو بل في الحصول من قادتنا على حريـة العيش . والوقت والتجربة وحدهما قد أتاحا لنا فرصة اقناع السير ارشيبالد ورئيس اركانه العامة ، بعد جهود حثيثة ، بجدوى المغـامرة العربية وبأفضلية التعاون مع فيصل بصورة خاصة .

عندما وصلتُ إلى القاهرة كان أول ما فعلته التوجه إلى فندق « سافوي » لمقابلة « كلايتون » . ولما دخلت عليه في مكتبه وجدته غارقاً بين أوراقه المتراكمة . ودون ان يعرف من أنا قال ساعة أحس بوجودي : « مش فاضي » . ولكن ما ان تكلمت حتى استقبلني مذهولاً . في مساء اليوم السابق كنت قد اعددت في السويس تقريراً قصيراً ، ولذلك لم يعد علينا الآن سوى التحدث عما يجب عمله . وقبل انتهاء الساعة الواحدة تلفن الاميرال قائلاً ان « الدفيرين » محملة بالدقيق تستعد للسفر إلى « العقبة » .

سحب « كلايتون » ستة عشر ألف ليرة ذهبية ونظّم حاشية لنقلها محروسة إلى السويس في قطار الساعة الثالثة . وقد كان ارسال هذا المبلغ ضرورة قصوى ، وهو لا يكاد يكفي لدفع ديون ناصر التي كان قـد استلفها في « باير » و « الجفر » و « القويرة »

وفيما بعد في الفندق استحصلت بعد جهد كبير دام ثلاثة أيام على ثياب أوروبية . وخلال ذلك كانوا قـد حدّثوني عن قيمة « اللنبي » وعن مأساة « موري » الاخيرة — هذا الهجوم الثاني على غزة الذي فرضته لندن على رجل أضعف من ان يقاوم . حيث قذف الجميع من جنرالات ضباط الاركان العامة وجنود بأنفسهم في ذلك الاتون وهم على يقين بأنهم يسيرون إلى الفشل الذريع .

كانت حصيلة تهورنا ٥٨٠٠ قتيل . و « اللنبي » يسعى جهده الآن إلى حشد القوات بعد ان تزوّده بمائة مدفع . وقيل لي بأن الامور ستتغير كذلك في أيامه .

لم أكن قد تيسّرت لي الثياب اللائقة بعد عندما أرسل القائد العام في طلبي حباً في الاستطلاع . ففي تقريري الذي يستشهد بصلاح الدين وابي عبيدة كنت قد أشرت إلى الاهمية الاستراتيجية لقبائل شرقي سورية والاستفادة التي يمكننا ان نجنيها منها إذا جعلناها تهدد المواصلات مع القدس . وكان هذا يتفق مع مخططات « اللنبي » . ولذلك أراد أن يمتحنني .

وكان لقاؤنا مثيراً للضحك حقاً . فهو ضخم الجثة واثق من نفسه ، مؤمن كل الايمان بأن الدور الاهم في الحرب يقع على عاتق المدفعية ، كما تأكد له من اشتراكه الفعلي في الحرب في فرنسا . وأنا نحيل الجسم حافي القدمين ، ألبس قفطاناً من الحرير يجعلني أبدو دجّالاً أكثر مني رجل أعمال ، خاصة عندما طلبت لتنفيذ مهمتي مؤناً وسلاحاً و ٢٠٠ ألف ليرة ذهبية فقط (سوفرين) . لاحظت حيرة « اللنبي » في شخصي من وراء نظارتيه ، ولم أفعل شيئاً لمساعدته على الخروج من حيرته . لم يلق عليّ إلاّ بضعة أسئلة ، ولكنه كان يتتبع حديثي على الخريطة المبسوطة أمامه ، وأنا أشرح له معلوماتي عن سورية الشرقية وأهلها . وأخيراً رفع نظره إليّ وقال : « طيب ، سأبذل المستطاع لخدمتك . » كان هذا كل شيء . وكنت أجهل لأية درجة استطعت أن أقنعه ، ولكن سرعان ما تأكّد لنا أمران :

١ ــ الجنرال اللنبي يزين كلماته ويتمسك بكل ما يقول .

٢ ــ وما كان في استطاعته كان من طبيعته ان يرضي أكثر المتطلبين من مرؤسيه .

٥٧

تحدثت مع « كلايتون » بصراحة متناهية . « فالعقبة » كان قـد تم الاستيلاء عليها وفقـاً لمخططي ، وبفضل جهودي . وكان ذلك على حساب عقلي وأعصابي . ولكنني رغماً عن ذلك كنت أميل إلى عمل شيء آخر وكنت متأكداً من قدرتي على ذلك ، إذ كان يعتقد بأنني قد اكتسبت الحق في أن أكون سيّد نفسي .

وافقني « كلايتون » مبدئياً على آرائي . ولكنه لفت نظري من جهة أخرى إلى أن القيادة الرسمية لا يمكن أن يوكل أمرها إلى ضابط صغير . ثم اقترح وضع « جويس » على رأس « العقبة » . فوافقت فوراً على الاقتراح لأن « جويس » من النوع الذي يمكن الركون اليه . فهو هادئ صلب صريح .

كان « جويس » قد نال التأييد الاكبر في رابغ و « الوجه » على الاخص بشأن العمل الذي تستلزمه « العقبة » .

وأما الباقي فقد كان سهلاً . كرئيس للتموين سنأخذ « جوسليت » رجل الاعمال اللندني الذي جعل من حطام « الوجه » مدينة على آخر طراز . إن الطائرات لا يمكنها بعد ان تنتقل ، واما السيارات المصفحة فيمكنها ان تتحرك قريباً ، والاميرال سيعطينا سفينة حربية إذا كـان كريماً . اتصلنا هاتفياً بالسير « روسلني ويميس » الذي كان كريماً جداً وستكون « الاوريالوس » في ميناء العقبة خلال أسابيع .

كان ذلك تصرفـاً بارعاً ، لأن العرب يقدّرون السفن وفقاً لعدد مداخنها ، و « الاوريالوس » ، بمداخنها الاربع ، كانت سفينة فريدة .

من الجانب العربي طلبت أن تلغى قاعدة « الوجه » الباهظة التكاليف وان ينتقل فيصل إلى « العقبة » مع كل جيشه . اعتبرت القاهرة هـذا

الطلب سابقاً لأوانه . فاضطررت لأن أذهب إلى أبعد من ذلك وأوضح بأن قطاعَ ينبع ــ المدينة أصبح هو الآخر من مخلفات الماضي ثم نصحت بأن تُحوّل كل المساعدات من مال وسلاح وعتاد وذخائر وضبــاط الممنوحة حتى ذلك التاريخ إلى العقبة . رأت القاهرة ان تحقيق ذلك هو من المستحيلات . ولكن رغبتي فيما يختص « بالوجه » لاقت الاستحسان شرط التوصل إلى اتفاق .

عندئذ أوضحت بأن « العقبة» أصبحت الجناح الأيمن لجيش « اللنبي » على مسافة ١٠٠ ميل فقط من قلبه بينما تفصل مسافة ٨٠٠ ميل بين ذلك الجيش وبين جناحه الحالي في مكة . ونجاح العرب سيقرّب نشاطهم أكثر فأكثر إلى منطقة فلسطين . ومنطقياً يجب أن ينفصل فيصل عن الشريف حسين ويصبح قـائداً للجيش في الحملة الحليفة المنطلقة من القاهرة بقيادة « اللنبي » .

أثارت هذه الفكرة بعض الصعوبات . ترى هل سيقبل فيصل ؟ كنت قد بحثت هذا الأمر معه في « الوجه » قبل عدة أشهر . والمفوض السامي هل يوافق ؟؟ لقد كان جيش فيصل أهم وحدات الحجاز وأفضلها . ومصيره لن يكون كيف ما كان . والجنرال « وينغات » كان قد تحمل المسؤولية كاملة في الحركة العربية في أحلك ساعاتها مجازفاً بسمعته . فهل سنتجاسر الآن ونطلب اليه ان يترك طليعة الحركة بعد ان أصبحت على عتبة النجاح ؟

لم يتردد « كلايتون » الذي كان يعرف « وينغات » جيداً في عرض الفكرة عليه . وبسرعة جاء الرد من « وينغات » إذا كان في استطاعـة « اللنبي » ان يفيد أكثر من فيصل وجيشه فسيكون مسروراً هو بـأن يؤدّي واجباً في سبيل المصلحة المشتركة .

أما العقبة الثالثة فكان يمكن أن تأتي من جانب الشريف حسين وهو كما نعرف شخص عنيد ضيق الافق كثير الشكوك وغير مستعد اطلاقـاً

لأن يتخلى عن أيّ جزء يسير من عجبه وزهوه في سبيل توحيد القيادة ومعارضته ستعرّض كل مخططنا للخطر . فاقترحت ان أذهب اليه وأحاول اقناعه ، مع نية المرور على فيصل الذي سيعطيني المستندات اللازمة المؤيدة للنقل ، والتي من شأنها ان تدعم الرسائل التي كان « وينغات » نفسه قد أرسلها إلى الشريف حسين . ولما نال اقتراحي الموافقة استعددت للسفر . ثم صدرت الأوامر إلى الباخرة « دفرن » العائدة من العقبة بأن تنقلني إلى جدة لتنفيذ المهمة الجديدة .

بعد يومين أوصلتني السفينة إلى « الوجه » . غير ان فيصل و «جويس» و « نيوكمب » والجيش بكامله كانوا جميعهم في « جيده » على مسافة ١٠٠ ميل إلى الداخل . فتولى « ستانت » الذي حل محل « روص » في قيادة الطيران العربي نقلي جواً إلى « جيده » .

ضحك فيصل – لدى سماع تفاصيل حملتنا – كثيراً من حروبنا كمبتدئين . وقضينا كل تلك الليلة في وضع مخططات . ثم كتب إلى والده وأمر بأرسال هجانته إلى العقبة واتخذ الاجراءات الاولية كي ينقل جعفر باشا وجيشه على متن « الهاردنغ » البطيئة الحركة .

في فجر اليوم التالي أعادتني الطائرة إلى « الوجه » . وبعد ساعة واحدة كانت « الهاردنغ » في طريقها إلى جدة . وكان الدعم القوي الذي قدمه « ويلسون » قد سهّل مهمتي . ولتدعيم الموقف في « العقبة » ، القطاع الذي نعلّق عليه أكبر الآمال ، أمر على جناح السرعة بارسال سفينة إلى هناك محمّلة بالمؤن والذخائر ثم وضع ضباطه تحت تصرفنا . فقد كان « ويلسون» من مدرسة « وينغات » .

والشريف الذي عاد من مكة بدا كثير الكلام . وكان « ويلسون » بالنسبة للمشروعات المشكوك بها العصا السحرية الملكية . وبفضله قبل الشريف حسين فوراً ان ينتقل ابنه فيصل إلى امرة « اللنبي » ، ثم اغتنم الفرصة كي يبرهن لنا عن اخلاصه للحلف القائم بيننا . وبعد ذلك ودون

منطق ظاهر كالعادة بدأ يشرح على مسامعنا وجهة نظره الدينية .

وفيما كنا نحن في جدّة نقوم بالدور الملقى علينا جاءتنا برقيتان مستعجلتان من مصر لتقضيا على هدوئنا . ورد في البرقية الاولى ان « الحويطات » كانوا يخونوننا ويتصلون سراً « بمعان » . والثانية تتهم « عودة » بأن له ضلعاً في هذه الخيانة . وقعت علينا هذه الاخبار وقع الصاعقة . فـ« ويلسون » كان قد سافر مع « عودة » وتأكّد له حسن مسلكه وانه مخلص كل الاخلاص . واما محمد الضغلان فمن المحتمل ان يلعب دوراً مزدوجاً ، وكذلك ابن جاد وأصدقاؤه كانوا موضع شك . فقررنا في الحال ان نتوجه إلى « العقبة » لأننا أنا وناصر كنا قد وضعنا مخططات الدفاع عن المدينة دون أن نأخذ بعين الاعتبار امكانية حصول خيانة بين صفوفنا .

لحسن الحظ كانت « الماردنغ » في الميناء تحت تصرفنا . وبعد ظهر اليوم الثالث ألقت الباخرة مرساتها في ميناء العقبة ونحن على متنها . لم يخطر ببال ناصر ان هناك شيئاً سيئاً . وكل ما قلته له انني ارغب في رؤية « عودة » لألقاء التحية عليه ، فسارع إلى وضع دليل وفرس تحت تصرفي . وفي الفجر وجدت « عودة » ، ومحمد ، وزعل ، في خيمة واحدة في القويرة . اعتراهم الذهول لرؤيتي أهبط عليهم بهذه الصورة المفاجئة ثم قالوا لي بأن كل شيء على أحسن ما يرام . وبعد ذلك تناولنا طعام الفطور معاً كأصدقاء .

في هذه الاثناء دخل علينا بعض رجال « الحويطات » ، وتحدثنا أحاديث طريفة عن الحرب ، ثم وزعت على الجميع هدايا الملك ، وأعلنت وسط الحبور العام بأن ناصر قد نال اجازة لمدة شهر سيقضيها في مكة . والشريف حسين في حماسته الفائقة للثورة ينتظر من مرؤوسيه ان لا يكونوا أقلّ حماسة منه .

وبعد الغداء تظاهرت بالنعاس للتخلص من الزائرين ، ثم طلبت فجأة

إلى « عودة » ومحمد أن يرافقاني في نزهة إلى الخرائب الاثرية . ولما أصبحنا وحدنا فتحت موضوع مراسلتهم الاخيرة مع الاتراك . فراح « عودة » يقهقه ضاحكاً بينما تغيّرت سحنة محمد . وأخيراً شرحا لي ملابسات القضية ، بأن محمد كان قد أخذ خاتم « عودة » وكتب إلى حاكم « معان » ، وسريعاً جاء ردّ الحاكم التركي واعداً بمكافآت كبيرة . فطلب محمد قسطاً على الحساب . ولما علم « عودة » بذلك كمن للرسول المحمل بالهدايا وجرّده من كل ما معه ومن ثيابه ليتركه عارياً تماماً . وهو الآن يرفض أن يعطي محمداً أي جزء من الغنائم . ضحكنا جميعنا لهذه النكتة . ولكن هذا لم يكن كل شيء .

كان « عودة » ومحمد غاضبين لأنهما لم يتلقيا مساعدات عسكرية (مدافع ، جنود) ولم يستلما مكافآت نقدية بعد الاستيلاء على العقبة . وكانا كذلك يودان ان يعرفا كيف حصلت على مراسلاتهما السرية ، وماذا كنت أعرف حقيقة . كنا نسير فوق منحدر خطر ، وتعمّدت إثارة خوفهم لمزاحي المتطرف ، وكنت من وقت لآخر أورد بعض العبارات التي جاءت في رسائلهم . ففعل هذا فعله وبدت الملامح تتغير . ومما قلته ان جيش فيصل سيصل قريباً وان « اللنبي » سيرسل إلى العقبة بنادق ومدافع ومتفجرات ومؤناً وأموالاً . وأخيراً ألمحت بأن مصاريف « عودة » للضيافة يجب أن تكون باهظة ، ثم تساءلت : ألا يمكنني ، لمساعدته ، ان أقدّم شيئاً من الهدية المهمة التي سيقدمها فيصل اليه شخصياً عند وصوله إلى العقبة ؟ رأى « عودة » بأن الفرصة الحاضرة ليست بدون فوائد ، وبأن مجيء فيصل سيكون مربحاً ، وبأن الاتراك في متناول يده دائماً إذا أفلتت الموارد الأخرى من يديه . لذلك قبِلَ ما قدّمته له شاكراً وقال بأنه سيصرف ذلك المال على تحسين أحوال رجاله .

في تلك الاثناء كانت الشمس قد قاربت الغروب ، فعدنا إلى المضارب

وتناولنا طعام العشاء ، ثم ركبت عائداً مصحوباً « بمفدّي » (الذي سيحمل المال الموعود إلى « عودة ») وبعبد الرحمن ، خادم محمد ، حتى يكون تحت تصرفي ، في حال تغيير رأيي . سرنا طول الليل باتجاه « العقبة » . ولما وصلناها أيقظت ناصر في الحال لأنهاء ما عندنا من عمل لا يقبل التأجيل . ومع أول خيوط الفجر كنت في طريقي إلى « الهاردنغ » حيث نزلت إلى مقصورتي ، وأخذت حمّاماً ثم نمت حتى الساعة العاشرة . ولما صعدت إلى السطح كانت السفينة تمخر الخليج بأقصى سرعتها عائدة إلى مصر . وهناك كان ظهوري السريع مفاجأة للجميع ، وذلك لأنه لم يكن يخطر مطلقاً في بال أحد انني أستطيع أن أذهب إلى قويرة للتأكّد من صحة المعلومات والعودة قبل ستة أو سبعة أيام .

طلبنا القاهرة على الهاتف كي نعلن بأن الوضع في « قويرة » كان ممتازاً وليس فيه أيّ أثر للخيانة . ربما كان هذا على حافة الصدق ، ولكن بما ان مصر تبقينا على قيد الحياة بالتضييق على نفسها ، فمن الواجب تلطيف الحقائق للاحتفاظ بثقتها وللابقاء على اسطورتنا .

٥٨

من جديد برزت عقبات في طريقي . ومرة أخرى برهنت أفكاري عن قدرتها على التنظيم وعلى ايجاد المخارج . حتى قدوم فيصل مع جعفر و « جويس » على رأس الجيش لم يكن علينا سوى التفكير . ومن أجل ذلك كان هذا أمراً أساسياً . وحتى الآن كان في حربنا عملية واحدة قد درست وهي احتلال العقبة . ولعبات القدر هذه مع رجال تحملنا مسؤولية قيادتهم ، كانت تقلل من شأن فكرنا . ولكن ، ابتداء من هذه

اللحظة أقسمت بأن أعرف قبل الاتيان بأية حركة الهدف المقصود والطرق المؤدية اليه .

لقد كانت « الوجه » بشير كسب حرب الحجاز ، فجاء احتلال العقبة ينهي تلك الحرب . وجيش فيصل تحرّر الآن من سلبيته العربية ، وبات له دوره في المساهمة في تحرير سورية العسكري ، في ظل قيادة « اللنبي » الموحدة . غير ان الاختلاف بين الحجاز وسورية يشبه إلى حد بعيد التباين بين الصحراء الجدبة والارض المحروثة . فالمشكلة التي واجهتنا كانت مشكلة شخصية : تجريد البدوي . وكانت قرية وادي موسى أول دفعة من المتطوعين الفلاحين ، وإذا لم نتحول نحن أنفسنا إلى فلاحين وقرويين ، توقفت حركتنا التحريرية حيث هي .

وكان لصالح الثورة العربية ان تغيّر من صفتها وفقاً لمراحل نموها . كنا قد عملنا جاهدين لحراثة أرض بور محاولين خلق قومية في أرض كان يسود فيها اليقين الديني . وبين القبائل الرحّل توجّب على ايماننا ان يشبه عشب الصحراء . والاهداف كالافكار كان علينا ان نترجمها إلى تعابير مادية محسوسة . فرجال الصحراء كانوا زاهدين جداً عن هذا التعبير ، بعيدين كل البعد ، لفقرهم المدقع ، عن كل تعقيد . وإذا كنا نريد ان نطيل عمر حركتنا فعلينا ان نندمج بالارض المزدانة بالألوان، وبالقرية حيث السطوح والحقول تواجه الانظار في كل اتجاه . كان علينا ان نبدأ حملتنا الثانية كما سبق لنا وبدأنا الاولى في وادي « عيس » بدراسة للخريطة باستطلاع موضعي للمكان الذي ستدور فيه : واعني سورية .

كنا نقبع على حدودها الجنوبية . وإلى الشرق كانت تمتد الصحراء موطن البدو الرحّل . في الغرب يحدّ سورية البحر المتوسط من غزة إلى الاسكندرونة ، وفي الشمال يحدها الاناضول بسكانه الاتراك . وداخل هذه الحدود تقسم البلاد إلى عدة أقسام طبيعية وفقاً للنتوءات والسلاسل الجبلية . وأولى هذه السلاسل وأهمها تلك التي تفصل من الشمال إلى

الجنوب المناطق الساحلية عن الداخل السهلي . وبما أن المناخ متباين بين هاتين المنطقتين الكبيرتين ، فقد شكل تقريباً بلدين تتفاوت عقلية سكانهما . فسكان الساحل وسكان الداخل يعيشون في بيوت مختلفة الشكل ، كما ان طبيعة عملهم وغذائهم مختلفة ، وكذلك لهجاتهم العربية التي ينطقون بها . وعلى الساحل تراهم يتحدثون عن سورية الداخلية دون أية عاطفة ، كأنهم يتحدثون عن منطقة نائية في المجاهل .

وفي الداخل قسّمت الانهار السهل الفسيح إلى عدة أقسام جغرافية ، وجعلت من الاودية أخصب أراضي سورية وأكثرها ضماناً . واما السكان في هذه المناطق فهم انعكاس لأراضيهم ، يعيشون تحت الجفـاف ، والجراد ، والغزو من جهة الصحراء ، ويقاسون الكثير من عادة الاخذ بالثأر .

وهكذا فان الطبيعة قسّمت البلاد إلى مناطق ، وجاء الانسان يضيف إلى هذه التقسيمات تعقيدات جديدة ، لأن من طبيعته زيادة تعقيد الطبيعة . فكل من الاقسام الطولية من الشمال إلى الجنوب معزول عن غيره اصطناعياً لوجود جماعات فيه متخاصمة دائماً . وكان علينا ان نبسط نفوذنا على كل تلك الجماعات والفئات ، وتذليل ما بينها من تباعد وتنافر ، ثم حشدها متراصة في عمل مشترك ضد الاتراك . هنا في هـذا الطلسم السياسي السوري كانت تكمن كل امكانات فيصل ، وكذلك كل العقبات التي قد تسدّ عليه طريق النجاح .

في أقصى الشمال الاكثر بعداً عنا تتبع الحدود اللغوية تقريباً طريق الاسكندرونة ـ حلب . وعند النقطة التي تلتقي فيها هذه بخط بغداد الحديدي تتجه الحدود شمالاً مع الخط في وادي الفرات . غير انه توجد إلى جنوبي هذا الحد العام في القرى التركمانية حول انطاكية في الاماكن التي لجأ اليها الارمن جماعات تتكلم اللغة التركية .

وإلى جانب هذا ، كان هناك عامل أساسي لا يمكن تجاهله لدى سكان

الساحل وهو وجود الطائفة النصيرية التي تكره كل ما هو أجنبي ، وهذه الطائفة تعيش وفقاً لطقوس خاصة مشاعرها كسياستها عشائرية . ومن قوانينها انه لا يمكن لنصيري ان يخون نصيرياً آخر ، بينما يحق له في كل وقت أن يخون الآخرين .

إلى جانب هؤلاء النصيريين هناك مستعمرات مسيحية سريانية . وعند منعطف العاصي جماعات متراصة من الارمن أعداء الاتراك الالداء . وفي الداخل قرب « حارم » يعيش الدروز وهم من أصل عربي وبعض الشركس القادمين من بلاد القفقاس . وإلى الشمال الغربي وراء هؤلاء يعيش هؤلاء الاكراد المقيمون هناك منذ عدة أجيال والذين يتزاوجون مع العرب وينتهجون سياستهم . ومن المعروف عن هؤلاء الاكراد انهم يكرهون أول ما يكرهون جيرانهم من المسيحيين ثم الاتراك .

وفي منطقة مجاورة للاكراد يعيش بعض اليزيديين ، وهم يتكلمون اللغة العربية ، ولكنهم تأثروا بالمانوية الايرانية ويميلون إلى تهدئة روح الشر . وإذا ما اوغلنا أكثر إلى الداخل لنصل إلى حلب فاننا نجد في تلك المدينة التي تعد مائتي الف نسمة صورة مصغرة لكل العناصر والاديان الموجودة في تركيا . وإلى الشرق من حلب في منطقة يربي عرضها على ستين ميلاً يعيش العرب المسلمون .

وإذا ما أخذنا الآن قطاعاً آخر من سورية إلى جنوبي القطاع الأول ومثله يمتد بين البحر والداخل فاننا نجد بالقرب من الساحل جيوباً شركسية مسلمة يتحدث أبناء الجيل الجديد منها العربية ولكنهم في نزاع مستمر مع جيرانهم العرب . وفي الداخل يعيش أبناء الطائفة الاسماعيلية الذين رغم كونهم من العجم في الاصل قد استعربوا على مر العصور . وهم يحلمون بعودة محمد الذي يتجسد في الآغا خان . ولذلك تراهم يقدمون إلى هذا الاخير ولاء فريداً من نوعه ، ويحبون الانكليز لأنهم أصدقاء له . وهم يتحاشون المسلمين السنيين ويحاولون جاهدين اخفاء

معتقداتهم .

وأكثر إلى الداخل يبدو المشهد الغريب لقرى تقطنها قبائل عربية مسيحية بأمرة مشايخ . انهم مسيحيون نشيطون جداً وأقوياء خلافاً لأخوانهم في الدين المتباكين على التلال . وهم يعيشون وفقاً لعادات جيرانهم السنيين وعلى وفاق تام معهم . إلى الشرق منهم تعيش جماعات اسلامية على رعاية المواشي . وأخيراً عند طرف الاراضي المزروعة يوجد عدد من القرى الاسماعيلية الساعية أبداً مع جيرانها إلى سلام لا تنعم به اطلاقاً . وبعد ذلك تبدأ الصحراء نطاق البدو الرحّل .

وإلى الجنوب من هذا القطاع الثاني بين طرابلس وبيروت يقع قطاع ثالث نجد فيه أولاً بالقرب من الساحل مسيحيي لبنان وأكثرهم من الموارنة والروم الارثوذكس . ومن الصعب جداً الفصل بين سياسة الكنيستين . الاولى تميل إلى ان تكون فرنسية والثانية روسية ، غير ان قسماً من أبناء الكنيستين كان قد هاجر ، طلباً للرزق ، إلى الولايات المتحدة الاميركية واكتسب هناك إلى حد بعيد الروح الانكلو ساكسونية العنيفة . ومن الجدير بالذكر ان الكنيسة الارثوذكسية تفاخر بكونها جزءاً لا يتجزأ من سورية القديمة ، وبكونها وطنية . كما ان اقليميتها العنيفة تجعلها تميل إلى تفضيل الارتباط بتركيا على الرضوخ للسيطرة النهائية لدولة رومانية .

ويلتقي أبناء الطائفتين عند الطعن الذي لا حدود له بالمسلمين ، كلما تيسّر لهم ذلك . ويبدو ان هذا الميل ناتج عن التصور بأنهم أقلية . ومن الملاحظ انه تعيش بين هؤلاء المسيحيين ، عائلات مسلمة ، لا تختلف عنهم مطلقاً في العنصر والعادات سوى ان لهجتها أقل رخاوة .

وعلى منحدرات الجبال العالية لجهة الشرق تكثر جماعات المتاولة ، وهم من الشيعة الذين هاجروا من ايران منذ أجيال عديدة . وابناء هذه

الطائفة يرفضون ان يأكلوا أو ان يشربوا مع أبناء الطوائف الأخرى ، وهم يأبون الانقياد إلا لأئمتهم وأعيانهم . وعلى قمم الجبال قرى معلقة كأعشاش النسور يقطنها صغار الملاكين من المسيحيين ، وهم على وئام تام مع جيرانهم المسلمين .

وإلى الشرق أكثر نجد قرويين من العرب المسلمين الذين هم في طريق الاستقرار ، ومن ثم تبدأ البادية .

أما القطاع الرابع إلى الجنوب فيقع في أنحاء عكا . وفي هذا القطاع يتآلف السكان ابتداء من الساحل من عرب سنيين ، ثم دروز ، ثم متاولة (شيعة) . وعلى ضفاف الاردن توجد مستعمرات من اللاجئين الجزائريين الكثيري الشكوك حتى المرارة ، مقابل القرى اليهودية . واما اليهود فهم خليط عجيب من الاجناس والانواع . البعض متمسكون بالتقاليد العبرانية يعيشون وفقاً لطقوس البلاد . والبعض الآخر قادمون من أوروبا مؤخراً وجلّهم ذوو ثقافة المانية أدخلوا إلى البلاد طقوساً وطرق حياة غريبة لا تتفق مع طبيعة فلسطين . ومن الجدير بالذكر هنا ان هؤلاء اليهود الجدد لا يلاقون في الجليل العداء نفسه الذي يلاقونه في المنطقة اليهودية المجاورة .

ووسط السهول الشرقية التي يدبّ فيها عشرات الالوف من العرب يمتد لسان بركاني « اللجاة » حيث تجمّع على مر العصور بقايا شعوب سورية القديمة . يعيش أحفاد هؤلاء في قراهم على هواهم دون حسيب ولا رقيب في منجى من الاتراك والعرب والبدو على السواء . واما هذه المنطقة وجنوبها الشرقي فينفتحان على سهل حوران الخصيب موطن الفلاحين العرب الشجعان .

إلى الشرق من هذه المنطقة يعيش الدروز وهم فئة من المسلمين من أتباع سلطان من سلاطين مصر قضى من زمن بعيد . ومن

المعروف عن الدروز انهم كانوا يكرهون الموارنة كرهاً شديداً . وكثيراً ما أدى هذا الكره ، بتشجيع من الدولة العثمانية ومن بعض المتعصبين إلى مذابح دورية كبرى . وهم في اقتتال مستمر مع البدو وفقاً لعادة الاخذ بالثأر التي يعملون بها ، كما انهم يحتفظون في معاقلهم بشكل من أشكال الاقطاعية التي كانت تسود لبنان في عهد امرائه الوطنيين المستقلين .

وأما القطاع الخامس الذي يبدأ عند القدس فيشمل عند الساحل سكاناً من الالمان الذين يدين بعضهم باليهودية ، وهم يتكلمون اللغة الالمانية أو اليديش الالمانية ، وهم متعصبون جداً ويرفضون كل اتصال مع الغير ، يحيط بهم بحر من العداوة ، حيث يقيم الفلاحون الفلسطينيون .

وإلى الشرق في الداخل يمتد وادي الاردن الذي يقطنه ارقاء ومماليك جعلت اشعة الشمس لونهم شبيهاً بالبرونز . وبعد ذلك تنتشر قرى سكانها من المسيحيين الذين كاخوانهم مسيحيي منطقة العاصي لم يشكوا ابداً من مجاورة المسلمين لهم . وبين هؤلاء وإلى الشرق منهم يعيش عشرات الالوف من العرب نصف الرحّل المحتفظين بايمان الصحراء . وعلى طول هذه المنطقة المتنازع عليها كانت الحكومة التركية قد أسكنت مهاجرين من الشركس الذين استقدمتهم من بلاد القفقاس التركية . وهؤلاء يدينون بوجودهم وبقائهم هناك إلى قوتهم وسيوفهم وإلى عطف الحكومة التركية عليهم الامر الذي جعلهم مخلصين لها لأنّ بقاءهم مرهون ببقائها [1] .

---

١ – يلاحظ القارىء ان المؤلف في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، قد اشتط في افكار واستنتاجات وأوصاف نحن لا نقره عليها . ولكن الأمانة العلمية في النقل تحتم علينا ان ننقل الى قراء العربية ما قاله المؤلف الانكليزي . مع العلم أننا قد حذفنا بعض العبارات التي ما كان من سبيل لنا الى نقلها . (الناشر)

٥٩

لا تكتمل الصورة البشرية لسورية بمجرد تعداد العناصر والاديان والطوائف المتباينة . فالى جانب سكان الارياف تشكل كل من المدن الست الكبرى : القدس ، بيروت ، دمشق ، حمص ، حماه وحلب كياناً قائماً بذاته ، له مميزاته ونزعاته الخاصة . والقدس أولاها من الجنوب مدينة مقدسة في نظر جميع الاديان السامية يحج اليها المؤمنون من المسيحيين على السواء بينما يرى فيها بعض اليهود المستقبل السياسي لعنصرهم . هذه القوى المتحدة في الماضي كانت قوية إلى درجة جعلت المدينة تعيش بدون حاضر واضح المعالم . سكانها فيما خلا بعض الشواذ يشبهون من حيث فقدانهم لكل ميزة خدم الفنادق ويعيشون مما يتكرّم به عليهم الزوار الكثيرون الذين يؤمّون المدينة . والمثل الاعلى الذي تتطلع اليه القومية العربية بعيدٌ عنهم بعدَهم عن الكرامة والعزة والاباء . كما ان الخلافات المستمرة بين أبناء الطوائف المسيحية المختلفة جعلت المسيحيين بمجموعهم موضع هزء واحتقار .

أما بيروت [١] فهي مدينة حديثة جديدة . وكان من الممكن لها ان تكون فرنسية اللسان والشعور (ولو بصورة غير شرعية) لولا ميناؤها اليوناني وكليتها الاميركية . والرأي العام فيها هو رأي تجارها المسيحيين ، الكثيري السمنة الذين يعيشون من التجارة . والطبقة الاقوى بعد طبقة التجار كانت طبقة المهاجرين الذين يعيشون بعد عودتهم أثرياء من المهجر في بحبوحة كبيرة من مداخيل أموالهم ، في المدينة السورية التي تذكّر أكثر من غيرها بجادة واشنطن حيث كانوا يعملون ويجدون . وبيروت ، باب سورية ، والمصفاة التي تعبر منها

---

١ – كانت بيروت لدى تأليف هذا الكتاب قبل بروز دولة لبنان الكبير ولاية عثمانية . (المعرب)

التأثيرات الاجنبية الرخيصة أو المشوّهة إلى الداخل ، فتمثل سورية بمقدار ما تمثل «سوهو» و «كونتبات» لندن .

ومع ذلك بفضل مركزها الجغرافي الفريد ومدارسها المتعددة والحرية المتولّدة عن التجارة مع الاجانب ، تكوّنت في بيروت منذ قبل الحرب نواة من الرجال الذين يكتبون ويفكرون كالموسوعيين الذين عبّدوا الطريق للثورة الفرنسية الكبرى . هؤلاء الافراد ، وثراء المدينة وصوتها المتعالي أبداً ، كل ذلك جعل بيروت مدينة غـاية في الأهمية .

أما دمشق وحمص وحماه وحلب فهي المدن العريقة التي يصح لسورية ان تتباهى بها . وكلها تقوم في أودية خصبة بين البادية والجبال . وهي بحكم مواقعها تدير ظهرها للبحر وتتطلع إلى جبهة الصحراء . انها مدن عربية بكل معنى الكلمة . وتأتي دمشق بدون أي منازع في طليعة تلك المدن . وهي على رأس سورية مركز الحكومة المدنية ومقر ديني كبير . شيوخها ورجال دينها هم أصحاب الرأي فيها . وسكانها الكثيرو الغلبة المستعدون دائماً إلى اللجوء إلى العنف متطرفون في أفكارهم بقدر ما هم جانحون في ملذاتهم . ومن بين ما تفاخر بـه المدينة كونها أكثر تقدماً من أية منطقة سورية أخرى . وكان الاتراك قد اتخذوهـا مقراً لقيادتهم العسكرية العـامة دونما خوف من الثورة العربية ، وكـان «اوبنهايم» يقيم فيها وكذلك الشيخ شاويش . وكانت دمشق تشكل النجم الذي يقود العرب ، والعاصمة الطبيعية التي لا ترضخ إلا مرغمة إلى سيطرة عنصر أجنبي .

وأما حمص وحماه المدينتان التوأمان المتنافستان فهما مدينتان صناعيتان ، الأولى تهتم بصناعة القطن والصوف والثانية بالبروكار . والصناعة فيهما مزدهرة دائماً نظراً لأن تجارهما يملكون المهارة اللازمة لغزو أسـواق جديدة واشباع الرغبات الناشئة في شمالي افريقيا وبلاد البلقان وآسـيا الصغرى ، والجزيرة العربية ، وبلاد ما بين النهرين . وهاتان المدينتان

هما أصدق برهان على قدرة سورية الانتاجية دون عون خارجي ، كما تشكل بيروت البرهان القاطع على قدرتها على التوزيع . وإذا كان نجاح بيروت يجعل منها مدينة مشرقية فان ازدهار حمص وحماه يزيد وطنيتهما المحلية رسوخاً . وهذا التآلف مع التكنيك الصناعي وقوته يبدو انه يعلّم سكانهما بأن عادات اسلافهم هي الافضل .

وأما حلب ، المدينة السورية الكبرى ، فليست مع ذلك سورية ولا أناضولية ولا عراقية . وذلك لأن جميع العناصر والمعتقدات واللغات الشائعة في أنحاء الامبراطورية العثمانية توجد متداخلة فيها ، حتى أصبحت نتيجة لذلك أشبه ببرج بابل ، ونقطة تلتقي فيها كل الحضارات المحيطة . سكانها أكثر تعصباً من سكان المدن السورية الاخرى . وهم قادرون على فعل كل شيء ، مع عدم ايمانهم بأي شيء .

ومن خصائص حلب الفريدة ، انك تجد فيها رغم حرارة الايمان تآلفاً غريباً وتعايشاً سلمياً بين المسيحيين والمحمديين واليهود ، وبين الارمن والعرب والاكراد والاتراك ، لا تجد له مثيلاً في أية مدينة أخرى في الامبراطورية العثمانية . يتظاهر سكان حلب بأنهم لطفاء مع الاوروبيين ، رغم كونهم غير متسامحين . وفي السياسة ، تعيش المدينة في عزلة فيما عدا الاحياء العربية منها المحيطة بقلعتها من الشرق والجنوب المتميزة بكثرة مساجدها التي يعود تاريخ بنائها إلى القرون الوسطى .

والجدير بالذكر ان هذه الفئات التي تقطن سورية قد انفتحت على بعضها بفضل اللغة المشتركة . فالخلافات فيما بينها كانت سياسية ودينية . ومن الناحية الاخلاقية كانت تلك الفئات تعرف بسلسلة من الدرجات تبدأ بالحساسية المريضة على الساحل ، وتنتهي بالانكماش المتزمّت في الداخل .

منذ طفولتهم يرفض السوريون الرضوخ لأية سلطة . والخوف من

القصاص الجسدي وحده يجعلهم يطيعون آباءهم . وهو نفسه الذي يجعلهم فيما بعد يحترمون حكومتهم . الجميع يتوقون دوماً إلى شيء جديد ، ولذلك تراهم يضيفون في الواقع ، إلى نظراتهم السطحية للامور ، وتمردهم المستمر على الاوضاع التي تواجههم ، ميلاً كبيراً إلى السياسة : العلم الذي من السهل عليهم تلبسه ولكن من العسير جداً تفهمه . وهكذا كانت حكومتهم تراهم دائماً مختلفين معها على عدة أمور ، ولكن اولئك الذين يفكرون باصلاحات طويلة العمر نادرون . واندر منهم اولئك الذين يستطيعون الاتفاق على أمر ما .

وحتى أكثر السوريين ثقافة يتعامون بشكل غريب عن الاهمية الحقيقية التي لبلدهم وعن أنانية الدول الكبرى التي تقدم مصالحها الخاصة على مصالح الشعوب التي لا قوة عسكرية لها . بعض السوريين يطالبون عالياً باقامة مملكة عربية . وهؤلاء عادة هم من المسلمين . وأما المسيحيون الكاثوليك ، فعلى العكس ، يطالبون بحماية أوروبية من النوع الذي يمنح امتيازات دون ان يربط بقيود . وهذان الاقتراحان لا يثيران بالطبع حماسة الفئات الوطنية التي تطالب بالاستقلال لسورية ، وهي مطلعة نوعاً على مفهوم الاستقلال ، ولكنها جاهلة كلياً لكلمة سورية ، وذلك لأن كلمة « سورية » لا وجود لها في اللغة العربية ، وهي ليست سوى كلمة عابرة تطلق على مجموعة من المناطق وفقاً لتصور رجال السياسة . والجذر الفعلي للأسم المأخوذ عن لغة روما هو الدليل القاطع نفسه على وجود التفكك السياسي فمن مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ترى التنافس والتحاسد والتقاتل ضارباً أطنابه وقد حرص الاتراك على زيادة حدته خدمة لمصالحهم .

ويبدو ان القرون قد كتبت لهذه البلاد ان لا تنعم مطلقاً بوحدة مستقلة سيدة . فتاريخياً كانت سورية دوماً بين البحر والصحراء ممراً يربط بين افريقيا وآسيا ، وبين جزيرة العرب وأوروبا . وكل من الاناضول واليونان وروما ومصر والجزيرة العربية وبلاد فارس وبلاد ما بين

النهرين ، جعلت منها بدورها أرضاً تابعة ، أو مجالاً محرّماً على سواها . وإذا أتاح لها ضعف البلدان المحيطة بها مؤقتاً ان تتنشق ريح الاستقلال والحرية تفككت بسرعة إلى ممالك متخاصمة متذابحة في الشمال والجنوب والشرق والغرب مع العلم بأن هذه الممالك لم تكن مساحاتها لتزيد في حدها الاقصى على مسافة « يوركشاير » وفي حدها الادنى على « روتلاند».

والمفتاح الموجّه للرأي يبقى تلك اللغة المشتركة التي هي في الوقت نفسه مفتاح الخيال . والمسلمون الذين يفتخرون بلغتهم الأم يعتقدون انهم شعب مختار . وإرثُ القرآن والادب الكلاسيكي هما أفضل اداة رابطة بين الشعوب التي تتكلم كلها اللغة العربية . والفكرة القومية المرتبطة عادة بالارض أو بالعنصر تقوم هنا على اللغة .

وتجد السياسة العربية كذلك دعامة ثانية لها في الامجاد الغابرة التي بناها الخلفاء الاوائل . فذكرى اولئك الخلفاء بقيت حية عند الشعب رغم فساد الادارة التركية . ولدى البسطاء اعتقاد راسخ بأن الماضي العربي يتخطى بأمجاده الحاضر العثماني

نحن نعلم ان هذا من عالم الاحلام . وحكومة عربية في سورية أياً كانت الدوافع العربية الكامنة وراءها ستكون « مفروضة » فرضاً تماماً كأية حكومة تركية أو حماية أجنبية ، أو خلافة تاريخية . فسورية تبقى قطعة فسيفساء عنصرية ودينية زاهية الالوان واضحة المعالم . وكل محاولة للتوحيد الشامل الواسع ستؤدي حتماً إلى تكوين جسم متلاصق القطع والاجزاء وإلى انشاء ادارة غير مقبولة عند شعب تشدّه غريزته دوماً إلى تنظيم آخر أبسط وأضيق ، هو التنظيم المحلي والعائلي .

وعلى الرغم من كل ذلك كانت سورية مهيأة للانقلاب على العثمانيين ويمكن دفعها إلى الثورة العامة إذا برز عامل جديد قادر على تحقيق الفكرة القومية الوحدوية التي ينادي بها مفكرو بيروت الموسوعيون مع القضاء على الخلافات الطائفية والطبقية . هذا العامل يجب ان يكون جديداً

كي يتحاشى ايقاظ روح الحسد .

إذا ما تطلّعنا حولنا نجد ان العامل الوحيد الذي يبدو ان له قاعدة مقبولة ، وقوة عسكرية محترمة هو أمير سنّي مثل فيصل الذي يدّعي بأنه سيحيي أمجاد الامويين أو الايوبيين . ففي امكانه القبض على زمام الامور ، وتوحيد الكلمة في الداخل حتى يتم النصر . وعندئذ يصبح من الواجب تحويل حماسة الكسب إلى خدمة منظمة . إن رد الفعل أمر لا بدّ منه ، ولكنه لن يحصل إلا بعد النصر ، ومن أجل النصر . لذلك يمكن حشد كل القوى والعناصر المادية والمعنوية للعمل .

يبقى تكنيك الثورات الجديدة وادارتها . وأما الادارة فالاعمى يستطيع ان يراها . وإذا انتقلنا إلى التنفيذ وفتشنا عن المكان فاننا لن نجد خيراً من وادي اليرموك . لقد كان على مر العصور المركز الحيوي . وبمجرّد كسب حوران إلى جانب حركتنا ، نكون قد كتبنا لها النصر في باقي أنحاء سورية . واما التكنيك فيجب ان يكمن في وضع سلّم جديد للقبائل مشابه لذاك الذي أوصلنا من « الوجه » إلى « العقبة » . وفي هذه المرة ستكون درجات سلّمنا مؤلفة من « الحويطات » ، و« بني صخر » و « شرارة » و « الرولا » و « سرحان » . وهكذا بعد تسلق ٣٠٠ ميل نصل إلى « الازرق » ، الواحة الاقرب إلى حوران وجبل الدروز .

ولا بدّ ان يكون لعملياتنا التوسعية قبل الضربة النهائية صفات المناورات البحرية : سهولة في الحركة ، سرعة وجود في كل مكان ، استقلال في القواعد والمواصلات ، استهانة بالعوائق الطبيعية ، وبالمناطق الاستراتيجية ، وبالاتجاهات والنقاط الثابتة . فمن يملك السيادة على البحر هو الاكثر حرية في تحركاته . يمكنه ان يفرض مكان المعركة ويحدد زمانها . وقد كنا نحن أسياد الصحراء .

وسير الحرب سيرشدنا ، من جانب العدو ، إلى المراكز والنقاط الواجب تخريبها . وسيكون تكتيكنا قائماً على أساس « اضرب واهرب » .

وسيكون مبدأنا : اطلاق القوة الاصغر والاسرع إلى المكان الابعد .

هذه السرعة وذاك المدى اللازمين لحرب بدون التحام يمكننا تأمينهما بفضل صبر البدو وسرعة تحرك جمالهم . فالجمل ، هذه السفينة الطبيعية العجيبة المعقدة ، يعطي بين ايد مجربة النتائج الاعظم اثراً . ويمكن لغزواتنا ان تستمر ستة أسابيع في استقلال كامل إذا ما كلف الواحد نفسه عناء حمل ٢٢ كلغ من الدقيق معه على متن مطيته .

بالنسبة للماء يكفي احتياطي من نصف ليتر . والجمال يجب ان تشرب ، ولذلك لن نفيد شيئاً من التحسب لنا أو لمطايانا. وبعض رجالنا لا يشربون مطلقاً بين البئر والاخرى ، غير ان صبراً كهذا يبدو نادراً ، وأكثرهم يرتوون كفاية عند كل بئر ثم يحملون معهم ما يقيهم شر العطش خلال اليوم الجاف بين بئرين . والجمال يمكنها أن تقطع مسافة ١٥٠ ميلاً دون أن تشرب ، أي مسيرة ثلاثة أيام . ومسافة الخمسين ميلاً تشكل مرحلة ارتحال عادية بل سهلة قد تصل أحياناً إلى الثمانين ميلاً ، وعند الضرورة يمكننا اجتياز ١١٠ اميال (١٧٧ كلم) خلال الاربع والعشرين ساعة . غزالة ، ناقتي الفريدة ، مكنتني مرتين من أن أقطع على متنها ١٣٤ ميلاً (٢٣٠ كلم) في اليوم . وبما ان المسافة بين البئر والاخرى نادراً ما تتعدى المائة ميل ، فان احتياطي نصف الليتر من الماء يكون أكثر من كاف .

وتجهيز فرق الاغارة هذه يجب ان يعتمد على البساطة مع الاهتمام بالتفوق التكنيكي على الاتراك في مجال رئيسي . ولذلك فقد طلبت من مصر ارسال كميات كبيرة من الاسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة (هوتشكيس، أو لويس) اللازمة للعمل الفردي .

وهناك نقطة أخرى مميزة يمكن ان تكون ، وهي استعمال المتفجرات القوية ، لذلك وضعنا شيئاً فشيئاً تكنيكاً خاصاً للنسف بالديناميت بعد أن اظهر « اللنبي » كرماً زائداً في هذا الحقل . والمدافع فقط تأخرت في

الوصول حتى الاشهر الاخيرة .

لم يكن توزيع غزواتنا على شيء من الاستقامة . ولم يكن في امكاننا ان نخرج بين القبائل ولا ان نرسل أفراد هذه القبيلة إلى اراضي تلك . وكي نعوض هذا النقص عمدنا إلى تقسيم القوى إلى أكبر حدّ ممكن ، واضفنا السيلان إلى السرعة باستخدامنا هذا القطاع يوم الاثنين ، وذاك يوم الثلاثاء ، وآخر يوم الاربعاء ... وهكذا احتفظنا بسرعة تحرّكنا الطبيعية . وعندما كنا نطارد العدو كانت صفوفنا تتألف دائماً من عناصر جديدة ومن قبائل جديدة ، كل بدورها محتفظة بكامل حيويتها ونشاطها. والفوضى القصوى كانت تشكل بالفعل توازننا المنشود .

وكان الاقتصاد الداخلي لغزواتنا يدفع إلى الحد الاقصى مرونة مفاصلنا وشذوذها . فالظروف لم تكن مطلقاً هي نفسها ، بالنسبة لنا ، في مرتين اثنتين ، ولذلك كان علينا في كل مرة ان نتبنى طريقة خاصة متلائمة مع الظروف . وكان تنوع طرقنا وتغيرها المستمر من بين الاسباب التي كانت تضيع استخبارات العدو . فمعلوماتها كانت ترتكز على جنسية الافواج والفرق . وفرقة من ثلاث كتائب يمكنها ان تجعلها تعتقد بوجود جيش كبير منظم .

كنا نخدم مثلاً أعلى مشتركاً دون تنافس بين القبائل . كثيرة هي الجيوش التي تكونت من متطوعين ، ولكن قلائل هم الذين يخدمون فيها طوعاً . وكل من الاعراب المنضوين تحت لوائنا كان يمكنه أن يعود إلى قومه ومضاربه أو دياره ، دون ان يكون عليه تقديم أي حساب . والذي كان يمنعه هو ايمانه بالقضية المشتركة . والشرف وحده كان الرباط الوحيد في كل ذلك .

قدمت المراكب تشق بأقصى سرعتها مياه خليج العقبة ، ثم ترجّل منها فيصل مصحوباً بجعفر وجويس وأركانه العامة . ثم وصلت السيارات المصفحة ، و « غوسليه » ، وفرق العمال المصريين وآلاف الجنود . ولاصلاح الخراب الذي سببّته ستة أسابيع من السلام ، كان « فولكنهاين» قد جاء ينصح الاتراك وذكاؤه هو الذي جعل العدو أكثر استحقاقاً لعملنا . وكانت « معان » تشكّل قطاعاً خاصاً تحت امرة بهجت القائد العام لجيش سيناء سابقاً . وكان هذا قد حصّن « معان » بطريقة تجعلها أمنع من ان تسقط في أيدينا بالوسائل العادية المتوفرة لدينا . كان يوجد في « معان » ٦٠٠٠ جندي من المشاة ، وفرقة من الخيالة وأخرى من الهجانة. كما كان سرب من الطائرات يصل يومياً اليها حيث تكدّست الذخائر بكثرة .

وما ان انتهت الاستعدادات حتى بدأ الاتراك المناورة وهدفهم كما يبدو كان « قويرة » أفضل طريق إلى « العقبة » . تقدم الفان من المشاة حتى « ابو اللسن » وحصّنوها . بينما كانت فرقة الخيالة تراقب المناطق المحيطة تحسباً من غارة معاكسة قد يشنها العرب من جهة وادي موسى .

وضعتنا هذه الحالة العصيبة على الخط ، فقررنا ان نداورهم ونحملهم على أن يخرجوا للبحث عنا في وادي موسى حيث تشكّل طبيعة الارض أكبر مساعد لنا كمدافعين .

ولاثارة الاتراك دفعنا بني دلاغة على مناوشتهم وتكبيدهم خسائر فادحة في الارواح والعتاد ، ثم تعمّدنا نشر أخبار تلك المكاسب والغنائم في صفوف فلاحي وادي موسى أخصام بني دلاغة . وفي الحال هب مولود ، المحارب القديم ، على رأس جماعته من البغالة وأقام بين خرائب بترا قاطعاً الطريق . وعلى الاثر دبّت الحماسة في نفوس « اللياتنة » فراحوا بقيادة شيخهم الاعور «خليل» يغيرون على الهضبة حيث

يتنقل الاتراك مع مواشيهم ويستولون على تلك المواشي بعد القضاء على حراسها . وقد دامت الاحوال على هذا المنوال عدة أسابيع جعلت الاتراك يفقدون صوابهم واتزانهم .

كان في امكاننا التضييق عليهم أكثر بالطلب إلى الجنرال « سلمون » الاغارة جوياً على « معان » وفقاً لوعد سابق كان قد قطعه لنا . وبما ان المهمة كانت صعبة ، فقد اختار « سلمون » لها « ستانت » وبعض رفاقه المجربين في معارك رابغ والوجه ، وطلب اليهم بذل كل طاقتهم . وهكذا وسط الذهول الكلي تلقت معان ومحطتها اثنتين وثلاثين قنبلة من طائراتنا المغيرة التي عادت إلى قاعدتها الاحتياطية في « كونتيللا » شمالي « العقبة » سالمة .

وفي فجر اليوم التالي خرجت طائراتنا من جديد ، وقصفت مركز « ابو اللسن » قصفاً محكماً . وأعادت الطائرات الكرة عند الظهر ، ثم عادت إلى قاعدتها في العريش بعد ان أدت مهمتها على أحسن وجه . وقد غمر هذا العمل قلوب العرب بالبهجة والسعادة ، وألقى الرعب في نفوس الاتراك الذين راحوا بناء لأوامر قائدهم بهجت باشا يحفرون الخنادق الواقية .

بعثت هذه الغارات الجوية القلق والاضطراب في نفوس العدو وجعلته يقع في فخ مرامينا الوهمية . وكان لدينا أيضاً وسيلة ثالثة لشل أية حركة هجومية انتقامية قد يلجأ اليها أولاً وهي تعطيل الخط الحديدي . فمن شأن هذا التعطيل ان يجمد كل حركاتهم . لذلك وضعنا مخططاً عاماً للنسف حددنا أواسط ايلول (سبتمبر) لتنفيذه .

قررت كذلك ان أعود إلى فكرتي القديمة ، نسف أحد القطارات . وكنت لهذه الغاية في حاجة إلى متفجرات أقوى من اللغم الاوتوماتيكي . وهكذا قادني التفكير لأن اشعل مباشرة بواسطة تيار كهربائي كمية من المتفجرات تحت القاطرة . وقد شجع ضباط الهندسة البريطانيون هذه

الفكرة ، وأرسل لي الجنرال « رايت » كل ما يلزم لذلك . وعلى الاثر قدّمت نفسي إلى الكابتن « سناج » قائد الباخرة « همبر » الموضوعة الآن تحت تصرفنا لاستلم الهدية الرائعة التي ستمكنني من تحقيق فكرتي الغالية .

من بين كل الاهداف الممكنة لتحقيق فكرتي كانت أكثرها اغراء وأقربها منالاً « المدوّرة » نقطة الماء الواقعة على مسافة ٨٠ ميلاً إلى الجنوب من « معان » . واخترت ، كمرافقين ، نفراً من « الحويطات » المحاربين المجربين ، وكذلك ثلاثة من الفلاحين الحوارنة : رحيل ، وعساف وحميد الذين علّموني الكثير عن بلادهم خلال هذه الرحلة .

غير ان الاستيلاء على القطار ، بعد النسف ، يتطلب مدافع ورشاشات . ولتلافي ذلك طلبنا السلاح اللازم والخبراء من القيادة في مصر ، فأرسلت لنا على جناح السرعة مدافع « لويس » و « ستوكس » وخبيرين من كلية « الزيتون » العسكرية هما « يلز » و « بroوك » ، انصرفا ، لمدة شهر من الزمن إلى تعليم رجالنا كيفية استعمال السلاح الجديد .

وفيما نحن نعد العدة للغارة ازداد نهمنا . وبدت لنا محطة المدوّرة ، لقمة سائغة واقعة في أيدينا بسهولة فائقة إذا ما جندنا لها ٣٠٠ من رجالنا . وستكون هذه المغامرة مفيدة جداً لنا ، لأن بئرها كانت الوحيدة المتيسّرة إلى الجنوب من « معان » .

٦١

وفيما نحن نتداول في أمر هذه المغامرة دفعت الحماسة بالضابطين الخبيرين في المدفعية « يلز » و « بروك » لأن يطلبا السماح لهما بالاشتراك

في تلك الغارة على المحطة ، فنزلت عند رغبتهما بعد ان أوضحت لهما صعوبة المحاولة . وفي السابع من ايلول (سبتمبر) قطعنا جميعاً وادي « اثم » كي نلحق في « قويرة » بـ « عودة » ورجاله من « الحويطات » . وبما اننا كنا أسياد أنفسنا في ذلك اليوم فقد سرنا على مهل شفقة برفيقينا الجديدين اللذين لم يسبق لهما أن ركبا البعير لا سيما وان الجو في هـذه الاراضي الموحشة كان كثير القيظ .

استطاع « يلز » الاسترالي منذ البدء ان يتآلف مع العرب ، ولكنه كان يذهل كثيراً عندما يعاملونه بلطف لم يكن لينتظره منهم .

ومما كان يجعل الوضع مثيراً للضحك أكثر ان « يلز » هذا كان أشد سمرة من الاعراب . أما « بروك » البريطاني ، فكان كلما تقرب رجالنا منه يزداد انكماشاً على نفسه . وكل تصرفاته كانت تذكّر رجالي بأنه انكليزي . وكان هذا التصرف يبعث الاحترام في المقابل .

لقد كانت تلك الصفات عامة على الرغم من انهـا متفاوتة البروز . ومن المخجل حقاً ان نرى ان تجربتنا الكتبية عن كل البلدان وعلى مرّ العصور ما زالت إلى اليوم تزودنا بعقلية سطحية دون أن يكون ذلـك مشفوعاً بمهارة ولباقة تسهلان تعاملنا وتفاهمنا مع الغير . والانكليز في الشرق الاوسط يقسمون إلى فئتين : الفئة الاولى مرنة ، حاذقة تتكيّف مع الزمان والمكان ، تتبنى طرق الحياة مع من تعيش بينهم وتتعلم لغتهم وتقاسمهم بنات افكارهم .. ظاهراً وسراً تعمل جاهدة لتسيير هؤلاء حسب مشيئتها .

وأما الفئة الثانية فهي فئة متمسكة كل التمسك بانكليزيتها وتزداد في ذلك كلما بعدت عن انكلترة . ولمصلحتها تعمد إلى خلق وطن ام محاط بهالة كبرى غاية في الروعة والجمال إلى درجة انه عندما يعود هؤلاء إلى انكلترة تصدمهم الحقيقة المغايرة لمـا تصوروه ، فينكمشون على أنفسهم متحسرين على الايام الخوالي . إن وجود هذه الفئة لا يمكن إلاّ ان يثير

حفيظة الشعوب حيثما تكون لأنهم يلجأون إلى القسوة والعنف أكثر من سواهم .

وكلتا الفئتين تنظر إلى الانكليزي على انه كائن مختار لا يُجارى ، ومن الوقاحة محاولة تقليده . لهذا السبب أبدينا اعجابنا بالتقاليد الوطنية ودرسنا لغتها وكتبنا الكثير عن فنها الهندسي وفنونها الشعبية وصناعاتها المهدّدة . وأخيراً اكتشفنا لدى يقظتنا ان هذه الاقليمية أصبحت مبدأ سياسياً فهززنا رؤوسنا حزناً ازاء هذه القومية المحدودة .

والفرنسيون أيضاً قد انطلقوا من مذهب مماثل يجعل الفرنسي في نظر نفسه مثالاً للكمال الانساني ، ولكن الفرنسيين ما انفكوا يشجعون رعاياهم على تقليدهم مع العلم بأنهم يعتقدون ان من المستحيل على واحد من رعاياهم ان يصل إلى مستواهم في الكمال ومع ذلك كلما ضاق الشق أصبح هذا التابع أكبر قيمة في نظرهم . ان الانكليز يرون التقليد مسخاً و « تزويراً » بينما يرى الفرنسيون فيه مدعاة للاطراء .

وفي الغد مع أشعة الصباح الدافئة اقتربنا من « قويرة » عبر سهل رملي وإذا بازيز يقلق راحتنا ويدفعنا على جناح السرعة إلى التفرق بين اكمات الاشواك حتى لا تكون الخسائر فادحة . دارت الطائرة العدوة دورتين حول صخرة « قويرة » قبالتنا ، ثم قذفت المكان بثلاث قنابل مدوّية ، وابتعدت .

تجمع شمل قافلتنا من جديد ، ثم توجهنا على مهل إلى المعسكر . كانت « قويرة » في ذلك اليوم تزخر بالمياه فقد كانت سوقاً لحويطات الجبال والهضاب . وعلى مدى النظر في السهل كانت قطعان الابل متراصة وكانت كثرة عددها تسبب نضوب الآبار القريبة مع الفجر في كل يوم وتضطر المتخلفين إلى السعي بعيداً ، وراء الماء .

لم يكن لهذا الأمر كبير أهمية . مع ذلك لم يكن لدى العرب ما يفعلون سوى انتظار طائرة الصباح ، ثم التحدث في أي شيء لقتل

الوقت حتّى يرخي الليل سدوله وينصرف كل واحد إلى خيمته وينام .
وكان من شأن هذه البطالة وتلك الاحاديث المتشعبة انها احيت الحزازات القديمة . كان « عودة » يحاول ان يُلحِق بـه القبائل مستفيداً من كوننا في حاجة اليه . وبما انه كان يقبض حصة الحويطات من الاعتمادات ، فقد كان يستخدم هذا المـال في محاولة اخضاع القبائل الصغيرة الحرة إلى سلطانه . وبسبب من هذا الضغط كانت تلك القبائل تهدّد إما بالانسحاب والعودة إلى الجبال وإما بالاتصال بالاتراك . لذلك أرسل الشريف مستور للوساطة تلافياً للمشاكل . وكانت هذه الالوف من الحويطات المقسمين إلى مئات الفئات والبطون كلها عنيدة وجموحة إلى حد انه كان من العسير جداً ارضاؤها دون اغضاب « عودة » .

وكانت البطون الثلاثة الجنوبية التي نعتمد عليها في غارتنا المقبلة من بين الفئات المنشقة . ولذلك بذلنا جهدنا لاقناعها عبثاً بالعودة إلى الحظيرة. فقد كلمها « مستور » ، ثم مشايخ ابي تايه وأنا ، ولكن دون نتيجة . وعندئذ بدا لنـا ان مخططاتنا قـد أصبحت غـير ذات بال وفاشلة سلفـاً .

وذات يوم ، فيما كنت أتظلّل قبيل الظهر ، جاءني « مستور » ليعلمني بأن رجال الجنوب يستعدّون لترك المعسكر والتخلي عن الحركة فقفزت من مكاني كالمجنون أتطيّر غضباً وتوجهت إلى خيمة « عودة » . وبعد حديث طويل معه خرجت على أمل ايجاد حلّ للامور . وما ان استأجرت الجمال اللازمة لنقل المتفجرات حتى اتفقنا على ان تبدأ مغامرتنا في صباح الغد بعد قيام الطائرة بساعتين .

لقد كانت الطائرة المنظّم الغريب للشؤون العامة في معسكر « قويرة » . الجميع ينهضون مـع الفجر لانتظارها . « مستور » يرسل على عجل أحد عبيده إلى القمة لينبئ عن مقدمها . وعندما تدنو الساعة يقرب الجميع من « القرف » ، ثم يصعد كل منهم إلى صخرته المفضلة غير

عابئ بشيء .

وفجأة يدوي صوت المحرك من جهة معبر شتار . فيتمدد الجميع ، ويقطعون أنفاسهم دون أدنى حركة . ثم تصل طائرة العدو ، وتدور عدة دورات فوق هذا المشهد الغريب ، وتلقي عدداً من القنابل وتغيب عن الانظار عائدة من حيث جاءت .

٦٢

تركنا « قويرة » غير آسفين على شيء لتخلصنا من صخبها ومشاكلها . وبعد مسير مُضْنٍ في جو خانق اقتربنا من « رم » البئر الخاصة ببني عطية في الشمال . وكان النهار لا يزال في دغشته عندما بدأنا نهبط المنحدر المؤدي إلى وادي الرمّ ، ذاك الوادي الغني بمناظره الطبيعية الخلابـة . وبعد أن سرنا بضع ساعات فيه مسحورين بتلك المناظر انتقينا مكاناً جميلاً حططنا فيه رحالنا . وما ان اشعلنا نارنا لطهي طعام العشاء حتى علم الاعراب المخيمون حول الينابيع بمقدمنا فجاؤوا للسلام علينا وتبادل الاحاديث معنا . وقـد تجمع في حلقتنا في تلك الليلة مشايخ الدراوشة ، والزلباني ، والزوايدة والطقايقة . ومن الحديث تبين لنا ان هؤلاء المشايخ الحاقدين على « عودة » بسبب اطماعه وتسلطه يشترطون لخدمة الشريف ان ينالوا منه المساندة الكاملة في مطالبهم كلها . وكان قاسم ابو دميك ، الفارس الجميل الذي قاد الرجال من على الهضاب ، وانقضّ على مخفر « ابو اللسن » أكثر الجميع ثورة وعناداً يتطيّر غضباً من الطوايخـة ، فاستخدمت كل ما عندي من حنكة ودهاء لإخماد ثورته وتحويله عن عناده . وما ان لاذ بالسكوت حتى اغتنمت الفرصة وتوجهت إلى الآخرين

للتأثير عليهم . وفعلاً دبّ الاضطراب في النفوس وبدت الهمهمة ضد المشايخ ، ثم سمعت أصوات تقول بوجوب الذهاب معنا . بعد هذا النجاح قلت لهم بأن «زعل» سيصل في الصباح واننا على استعداد لقبول المؤازرة من الجميع ما عدا الدوقانية ، بعد الذي صدر عن زعيمهم قاسم ، وبأن اسمهم سيشطب من حساب فيصل كما سيخسرون كل ما كسبوه حتى اليوم . على الاثر اقسم قاسم بأنه سينضم إلى الاتراك . وترك المكان غاضباً .

٦٣

في صباح اليوم التالي كان قاسم ابو دميك لا يزال بيننا مع رجاله مستعداً لأن ينضم الينا أو لأن يقاومنا ، حسب الرياح . وفيما كان يتخبط في حيرته وتردده ، وصل زعل ، وسرعان ما علا صياحهما وكادا يتضاربان لولا اننا أبعدنا واحدهما عن الآخر . ولكن الصدام كان عنيفاً إلى درجة قضي معها على كل تحسن جنيناه أثناء الليل . فاشمأزت القبائل من تصرف قاسم الفجّ وجاءت تنضم الينا الواحدة بعد الأخرى راجية مني ابلاغ فيصل ولاءها قبل رحيلنا . نتيجة لهذا الموقف القلق قررت ان أتصل فوراً بفيصل لتذليل الصعوبات من جهة ولتأمين جمال من جهة أخرى بعد ان بات من المتعذّر علينا الآن استئجار جمال الدومانية . وخوفاً من ان يقطع قاسم الطريق على رسولي لفيصل ويقتله ، عزمت على أن أسافر أنا بنفسي إلى العقبة وأعود بأسرع ما يمكن .

لقد أخافت عودتي المفاجئة فيصل ، ولكنني سارعت إلى تطمينه ثم قصصت عليه مأساة «الرم» . وبعد الغداء ، أخذنا الاجراءات اللازمة .

واعددنا لنقل المتفجرات عشرين جملاً مع جمّاليها لتسير بعد الغد إلى وادي الرم . ولاصلاح ذات البين بين العشائر كلف فيصل الشريف عبد الله الفعر أحد أنصاره المتحمسين، بمرافقتي والقيام بمهمة الوساطة .

في فجر اليوم التالي قفلت عائداً إلى « وادي الرم » وبرفقتي الشريف عبد الله . وبعد الظهر كنا في المخيم ، فوجدنا كل شيء على ما يرام ، وزال قلقنا . وبدون تلكؤ انصرف عبد الله إلى تنفيذ مهمته ، فجمع الاطراف المتنازعة من الاعراب ، بما في ذلك قاسم ابو دميك ، واستطاع ان يجمع ذات البين بما لديه من حنكة ودراية كزعيم عربي مجرب .

٦٤

احرزت دبلوماسية عبد الله بعض التقدم . وقاسم ، الصامت الآن ، يرفض ان يتخذ أي قرار . وعلى الاثر دبّت الحماسة والجرأة في حوالى مائة رجل من العشائر الصغيرة فتحدوه ووعدوا بمرافقتنا . فعقدتُ اجتماعاً مع « زعل» وقررنا أن نفيد من هذه القوة .

لقد كانت فرقة هجومنا صغيرة أقلّ من ثلث ما كنا نأمله . واجبرنا هذا الضعف على تغيير مخططاتنا بصورة مؤسفة . وفضلاً عن ذلك كان ينقصنا زعيم لقيادة الحملة . صحيح ان « زعل » خير من يصلح لهذه المهمة ، ولكن قرابته من « عودة » تجعل الآخرين يترددون في تنفيذ أوامره .

في الغد وصلت الجمال التي ارسلها فيصل لنقل المتفجرات . فاعددنا عدّتنا . وفي فجر السادس عشر من ايلول (سبتمبر) تركنا « الرمّ » .

كان «زعل» يقود النواصرة الخمسة والعشرين وهم من أتباع «عودة». وكان «مطلق» الاعور يسير في المقدمة على متن ناقته «الجدّة» أجمل ناقة في الشمال.

كانت قافلتنا هذه المرة كحبات متناثرة من عقد لؤلؤ. فقد كانت تضم جماعات من الزوايد، والدراوشة، والطقايقة، والزلباني. وأثناء هذه الحملة تكشفت لي لأول مرة فضيلة حماد الطقايقي. وبعد مضي نصف ساعة على انطلاقنا انضم الينا من بطن الوادي نفر من الدومانية بعد أن تعذر عليهم تحمّل الاهانة والبقاء كالنساء فيما انطلق الآخرون إلى ساحة الشرف.

كانت كل عشيرة ترفض ان تحاذي الأخرى وتبادلها الحديث. وقد ذهبت كل جهودي هباء في محاولاتي التقريب فيما بينهم. ولكنها جميعها كانت لا تتفق إلاّ على أمر واحد هو رفض قيادة «زعل» لهم رغم اعترافهم بأنه أفضل الجميع لمثل هذه المهمة. وأنا شخصياً كنت لا أثق إلاّ بـه. فاضطررت لفضّ النزاع ان أتحمّل بنفسي مهمة القيادة. وقد كان ذلك ضد مبادئي، ولا يتفق مـع تفكيري، كما ان ضرورة اللف دائماً مع ادعاء معرفة ما كنت أجهله حرمتني من رؤية ما حولي ولم تتح لي فرصة دراسة كيفية الهجوم على «المدوّر» وكيفية استعمال المتفجرات.

توقفنا للاستراحة عند منتصف النهار في مكان خصب. ثم تابعنا سيرنا حتى الغروب حيث خيّمنا في طرف وادٍ موحل. وقد تجمّع الرجال في ثلاث حلقات حسب حزبياتهم، فكانت الاولى تضم رجالي والثانية رجال «زعل»، والثالثة سائر الحويطات. وبعد ان تناول الجميع طعام العشاء دعوت المشايخ إلى حلقتي المحايدة للتداول بشأن تنظيم مرحلة الغد.

لقد بدا لنا انه في امكاننا عند غروب شمس اليوم التالي، ان نصل

إلى إحدى آبار « المدوّرة » على بعد ثلاثة أميال من المحطة في لحف الوادي . وتحت جنح الظلام نتسلل لمراقبة المحطة عن كثب ودراسة خطة الهجوم عليها . وبعد أخذ ورد تولّد شيء من الانسجام فيما بيننا ، وانصرفنا إلى النوم تعمر قلوبنا الثقة .

وفي الصباح بدأنا المسير مجتازين الوادي الموحل ثم السهل الكلسي ومنطقة من التلال . وعند العصر وصلنا إلى البئر المقصودة كما خططنا الامس . ومع الغسق تسللنا أنا و « زعل » ونفر من الرجال إلى مكان قريب من المحطة للاستطلاع ، فوجدناها تضم عدة مبان من الحجر ، وقدّرنا عدد الحامية بمائتي رجل . بينما كان عددنا نحن ١١٦ فقط .

وبعد اجراء حساب الخسائر والارباح وجدت انه من الافضل عدم التعرض للمحطة وتركها إلى مناسبة أخرى نكون فيها أكثر استعداداً لذلك . وفي الواقع كتبت الصدف المتتالية لمحطة « المدوّرة » ان تنجو من غاراتنا ، وتبقى على حالها حتى شهر آب (اغسطس) سنة ١٩١٨ ، عندما سقطت في يد « بوكستون » وهجانته .

٦٥

عدنا إلى حيث كانت جمالنا وسائر الرجال ، وقضينا هناك باقي ليلتنا . وفي صباح الغد قفلنا عائدين من حيث أتينا ، ثم توجهنا إلى الشرق ، بناء لاقتراح « زعل » ، على أمل نسف الخط الحديدي . وتوغلنا في المنطقة الجبلية حتى أصبحنا على مسافة نصف ميل فقط من الخط . وهناك أعطينا إشارة التوقف في مكان محجوب عن الانظار .

وتقدّم بعضنا لرؤية الخط عن كثب . فوجدنا « عبّارة » ملائمـة كل الملاءمة لتنفيذ مخطط النسف ، خاصة وان المكان مناسب للانسحاب ولمواجهة كل طارئ . وعلى الاثر عدنا ادراجنا حيث توقف الرفاق ، وأنزلنا الاحمال ، ثم عمدنا إلى تركيز المدافع في الاماكن الملائمة لها . وبعد ذلك توجهت مع المتفجرات برفقة بعض الرجال إلى حيث كانت « العبّارة » وبدأت في اخفاء اللغم . وقد استغرق هذا العمل من وقتي ساعتين كاملتين لأن الارض كانت قاسية جداً وكنت لا أريد ان ينكشف أمر اخفاء المتفجرات . ثم عمدت إلى طمر الشريط الكهربائي الذي سيوصل ما بين المتفجرات وجهاز التفجير الكهربائي الذي تزوّدنا بـه مؤخراً . وعلّمنا سالم ، أفضل عبيد فيصل ، كيفية استعماله والضغط عليه . وبعد ذلك عدنا إلى المخيم تاركين حارساً في مكان مشرف على الخط لينبئنا بمقدم القطار . ولمـا وصلنا إلى المخيم لم نجد أياً من رجالنا هناك . وبعد البحث والمناداة تبين لنا ان الجميع قـد اعتلوا رؤوس الصخور المحيطة . فصرخنا بهم ان انزلوا أو اخفوا رؤوسكم . وقبل أن يفعلوا كان قـد فات الاوان وشاهدهم حراس حامية « حلّة عمار » وبدأوا في اطلاق النار عليهم ، الامر الذي نبّه حراس محطة « المدوّرة » إلى وجودنا كذلك . ولحسن حظنا ان الليل هبط ليلفّنا بوشاح من الظلمة ويخفينا عن أنظار العدو . فأخلدنا إلى السكينة يحدونا الأمل بأن يظـن الاتراك اننا قـد هربنا تحت جنح الظلام . وتناولنا طعامنا معـاً في تلك الليلة بعد ان جمع بيننا العمل المشترك والخوف المشترك والخجل المشترك من حادثة تسلق الصخور ، واخترنا « زعلاً » قائداً لنا .

طلع علينا صباح اليوم التالي هادئاً . وبقينا ساعات طويلة نراقب الخط الحديدي والمخافر الساكنة . ونجح « زعل » بمعونة « حويمل » وابن عمه الاعرج ، في فرض الهدوء على الجميع . غير ان هذا لم يتم بدون صعوبة ، فما من شيء يستطيع ان يهدئ اضطراب البدو ، الـذيـن

يعجزون من البقاء في مكان واحد عشر دقائق بدون حركة . وكانت هذه النقيصة تجعلهم أقل قيمة من الانكليز المعروفين بجلدهم وثباتهم وصبرهم . ولذلك كنّا غاضبين منهم في ذلك النهار .

عند الساعة التاسعة خرج حوالى الاربعين جندياً تركياً من الخيام القائمة على رأس التلة جنوبي «حلّة عمار» وتوجهوا نحونا . ولو تركناهم يفعلون لقطعوا عنا ، في ظرف ساعة من الزمن الاتصال بالمكان الذي وضعنا فيه المتفجرات . واما إذا صددناهم بفضل قوتنا المتفوقة فستعمد المحطة إلى ايقاف تسيير القطارات . وهكذا وجدنا أنفسنا في موقف حرج للغاية . حاولنا أن نخرج أخيراً من هذا المأزق بحمل فرقة منا على ان تهاجم العدو من جهة جانبية ثم تنسحب أمامه لابعاده عن مكاننا وابقاء وجودنا مخفياً عنه ريثما يتم تنفيذ المهمة التي جئنا من أجلها .

خلال بضع ساعات تم كل شيء كما تمنينا وابتعد العدو عن مكاننا بعد أن سرت عليه الخدعة . ولكن ما ان هدأ خاطرنا ، حتى خرجت علينا قادمة من الجنوب دورية نظامية مؤلفة من ثمانية جنود وعريف ضخم الجثة يمسح العرق عن وجهه باستمرار . غير ان تلك الدورية لحسن الحظ مرت من أمامنا وتابعت طريقها إلى « المدوّرة » كأنها لم تشعر بوجودنا أو لم تأبه لنا . ولكنا كنا على خطأ .

٦٦

حمل الينا بعد ظهر ذلك اليوم مشاغل مقلقة جديدة . فمن خلال منظاري القوي ، رأيت حوالى مائة من الجنود الاتراك يخرجون من محطة « المدوّرة » متوجهين إلى حيث كنا نخيم . كان اولئك الجنود يتقدمون

ببطء ، وبلا ريب رغماً عنهم ، لحرمانهم من لذة النوم والقيلولة . ولكن أياً كان نوع مزاجهم وطبيعة سيرهم فسيصلون إلى مكاننا في أقل من ساعتين .

ولذلك بدأنا في الاستعداد للرحيل ، بعد ان قررت ان نبقي المتفجرات حيث هي حتى نعود ونفجرّها فيما بعد وأرسلت من يقول إلى الفرقة التي غطتنا بأن تلاقينا في مكان ما بعيداً عن هنا بالقرب من الصخور التي تخفي جمالنا في المرعى .

ولكن ما ان انصرف الرسول لتأدية مهمته حتى صرخ أحد حراسنا قائلاً ان الدخان يتصاعد من جهة « حلّة عمار » . فأسرعت أنا وزعل إلى رأس التلة للتأكد ، فتبين لنا ان قطاراً قد وصل إلى المحطة . وما هي إلا لحظات حتى تحرك القطار باتجاهنا . فأصدرنا أوامرنا إلى الجميع بأن يأخذ كل منهم مكانه استعداداً لما سيحدث . بينما بقيت أنا أترقب قدوم القطار ومروره من فوق اللغم حتى اعطي اشارة التفجير إلى سالم المتراقص فرحاً لتمكنه من خدمة سيده بهذا العمل .

وهكذا عندما وصلت القاطرة إلى فوق الجسر « العبّارة » أعطيت إشارة التفجير ، فدوّى المكان دوياً هائلاً واختفى الخط من أمام انظارنا وراء ستار كثيف من الدخان والغبار ، زاد ارتفاعه عن مائة قدم ، وكذلك عرضه . ومن خلال ذلك تهادت إلى اسماعنا أصوات وقرقعة . ثم ساد سكون رهيب . وبعد انقشاع ستار الدخان والغبار رأينا الاتراك يقفزون من أبواب القاطرات الخلفية ويختبئون وراء العارضات استعداداً للرد على نيران بنادقنا ورشاشاتنا ومدافعنا . ولكن قنابلنا أجبرت العدو على الفرار دون أن يلوي على شيء . وفي أقل من عشر دقائق كان قد انتهى كل شيء . وانقضّ رجالنا على بقايا القطار يستولون على ما فيه . بالطبع ، كان لا يزال أمامنا نصف ساعة من الزمن . وبعد ذلك نصبح مهددين من الجانبين .

لقد نجحت مهمتنا نجاحاً منقطع النظير وتناثرت بقايا القطار على جانبي الخط كما نسف الجسر وتخرّبت معه مسافات طويلة من الخط . واما القتلى فقد كان عددهم كبيراً ، وبين الاسرى العسكريين التسعين كان يوجد خمسة من المصريين ، سرعان ما تعرفوا عليّ وشرحوا كيف وقعوا في الاسر في ايدي الاتراك أثناء غارة قام بها دافنبورت ، فكلفت اولئك الجنود الخمسة بقيادة الاسرى إلى نقطة التجمع بين الصخور .

٦٧

كان «يلز» و «بروك» قد نزلا إلى مكان الانفجار للحاق بي ورؤية نتيجة عملنا الجليل عن كثب . وقد انصرف «يلز» إلى احصاء عدد القتلى الذين خلفتهم قنابله بينما راح «بروك» يبحث عن الذهب التركي بين البقايا .

في هذه الاثناء جاءني أحمد يقول بأن سيدة مسنّة في العربة قبل الاخيرة تريد أن تراني فكلفته باحضار جمال لنقل المدافع قبل أن يداهمنا العدو والجميع مشغولون بالغنائم ، ثم توجهت لرؤية السيدة . لقد كانت سيدة عجوزاً بالفعل يدلّ مظهرها على انها من علية القوم ، وكانت مضطربة للغاية ، فبادرتني بالسؤال : ماذا يعني هذا ؟ فقدمت لها بعض التفسيرات . وأخبرتني بعد ذلك ، انها صديقة قديمة لفيصل . ثم سألتني : والآن ما العمل ؟ لقد كانت هزيلةً جداً عاجزة عن السير معنا . فأكدت لها بأن الاتراك سيصلون قريباً ويعتنون بالجميع بينما نحن يتعذر علينا ذلك في وضعنا الحرج . قبلت السيدة العجوز كلامي ،

ورجتني ان أبحث لها عن جاريتها التي أرسلتها في طلب الماء ، ففعلت. وبعد بضعة أشهر تلقيت سراً من دمشق رسالة وسجادة بلوخستانية بديعة ، من قبل السيدة عائشة ابنة جلال الليل في المدينة تذكاراً لمصادفة غريبة .

لم يحضر أحمدُ الجمالَ. وكان رجالي الذين استبدّ بهم شيطان الجشع قد تناثروا في الصحراء مع البدو . وهكذا وجدت نفسي وحيداً مع « يلز » و « بروك » في مكان الفاجعة حيث يخيم سكون غريب الآن . فخفنا أن نضطر لأن نهرب بعد قليل تاركين المدافع للعدو . وإذا بنا نشاهد عن بعد جملين قادمين نحونا بأقصى سرعتهما . وكان على متنهما « زعل » و « حويمل » اللذان لاحظا غيابنا فسارعا إلى البحث عنا .

كنا نلف الشريط الكهربائي عندما وصل « زعل » وقفز عن بعيره طالباً إليّ ركوبه . فـآثرت ان أحمل الشريط وجهاز التفجير الأمر الذي حمل « زعل» على التهكم من غنيمتنا الغريبة ، بينما غرق الآخرون في الذهب والاسلاب الثمينة . حملنا مدفعين على جمل « حويمل » الأعرج وحملنا الآخرين على جمل وجده « بروك » ضالاً بالقرب من المكان . ثم اركبنا « بروك » على جمل « زعل » بسبب ما يقاسيه من ألم الزحار . وتولى « حويمل » قيادة الجمال إلى نقطة التجمع .

وقبل أن نترك المكان رأينا ان نشغل بال العدو الذي أصبح قريباً منّا ، فجمع « زعل » و « يلز » كميات القنابل والخرطوش الباقية لدينا ثم اشعلوا فيها النار ، وبدأت أصواتها تدوّي تباعاً فيما كنا نحن نسرع الخطى للحاق برفاقنا . على اثر سماع ذلك ظن العدو اننا متحصنون وكثيرو العدد ، فتوقف عن التقدم وبدأ في رسم خطة لتطويقنا .

وهكذا تمت العملية على الوجه الاكمل ، ولم نفقد سوى رجل واحد متهور وأصيب ثلاثة من رجالنا بجراح خفيفة . وفيما نحن نحصي الرجال صرح أحد عبيد فيصل قائلاً ان سالم غير موجود . فجمعت الرجال

واستجوبتهم بشأنه ، وعرفت أخيراً على لسان أحدهم بأنه مسجى على الارض بالقرب من القاطرة ، وتأكدت من صحة ذلك عندما تذكر « يلّز » بأنه شاهد بين الجرحى شخصاً تنطبق عليه أوصاف سالم ولكنه لم يتنبه ساعتئذ إلى انه واحد من رجالنا . لم يقل لي أحد شيئاً عن هذا الامر من قبل ، فاستشطت غضباً ، لأن نصف الحويطات على الاقل ، يجب أن يكونوا على علم به ، ولا يجهلون بأنني مسؤول عن سالم . وهكذا بسبب خطـأ من الحويطات تركت أحد الاصدقاء خلفنا للمرة الثانية .

طلبت متطوعين للبحث عنه ، فتقدم « زعل » ومعه اثنا عشر من عرب النواصرة . وعلى جناح السرعة امتطينا ظهور مطايانا واجتزنا السهل بأقصى سرعة في اتجاه الخط الحديدي . ومن على التلة الاخيرة المطلة على الخط ، بدا لنا القطار يعجّ بالاتراك الذين قدرنا عددهم بمائة وخمسين على أقل تقدير . ظهرت لنا محاولتنا عقيمة . فسالم يجب أن يكون قـد لاقى حتفه على أيدي الاتراك الذين لا يأخذون اسرى من العرب بـل يقتلونهم ويفظعون بهم ، ولذا توجب علينا ان ننزع قصة سالم من رؤوسنا . ولكن كي لا نعود عبثاً قررت أن نأخذ معنا بعض ما كنا قد تركناه في معسكرنا القديم . ولكن ما ان تسللنا إلى هناك حتى أمطرنا العدو بوابل من الرصاص ، وأخذ في الالتفاف حولنا بعد أن تبيّن له قلة عددنا . فقاومنا مقاومة الابطال ، وعلى الاخص « زعل » الذي تولّى إلهاء العدو عنّا ليغطي انسحابنا نحو قاعدتنا .

بعد أن تراجع العدو تاركاً إيانا وشأننا خوفـاً من أن يصبح بعيداً عن قاعدته وصلنا إلى المعسكر وأعطينا اشارة المسير ، وكان الوقت قد قارب العصر ، كما كانت المياه قـد نضبت منا فاضطررنا ان نعرج على بئر المدوّرة كي نتمكن بعد ذلك من مواصلة السير حتى وادي الرمّ . لقد كانت البئر قريبة جداً من المحطة لذلك كان علينا ان نذهب اليهـا

بحذر شديد ونغادرها بأسرع ما يمكن حتّى لا يفاجئنا الاتراك في ذلك المكان ونحن بدون دفاع .

أثناء المسير تقدّم « يلز » و « بروك » مني وطلبا سيفاً كتذكار لأول حملة غير نظامية يشتركان فيها . وفيما أنا اذرع القافلة لهذا الغرض صادفت فجأة خدم فيصل ووراء أحدهم سالم يتلوّى من آلام جراحه .

أسرعت خبباً نحو فرحان أسأله تفسيراً لذلك . فروى لي بأن سالم كان قد قفز نحو القطار بعد القنبلة الاولى التي قذفها عليه « بروك » ، فأطلق عليه النار أحد الاتراك من الخلف ، إلاّ ان الرصاصة لم تصب منه مقتلاً ، رغم مرورها بالقرب من العمود الفقري . وأثناء السلب انتزع منه الحويطات معطفه وخنجره وعقاله وبندقيته ، وبعد ذلك عثر عليه « مقبل » احد خدم فيصل وحمله معه ليفر دون اعلامنا . غير انه أي فرحان ، لحق به في الطريق ، وأعفاه من تلك المهمة ، وأخذ سالم منه وعالجه بنفسه . وعندما شفي سالم لاحظت انه احتفظ تجاهي بشيء من الضغينة لأنني تخليت عنه جريحاً ، وأنا مسؤول عنه لأنه في إمرتي . وكنت في نظره قد خنت الأمانة . وهذا عار كبير عند العرب .

وصلنا إلى البئر بعد ثلاث ساعات ، وما ان تزوّدنا بالماء اللازم ، حتّى تابعنا المسير عشرة أميال أخرى كي نصبح في مأمن من شر العدو . وبعد ذلك توقفنا لقضاء الليل وطلع علينا الصباح ليجدنا منهوكي القوى ، ولكن سعداء . وبما اننا كنا بدون احمال أنا و « يلز » و « بروك » فقد تولينا مهمة الكشافة وسبقنا القافلة كي نصل إلى وادي الرمّ قبيل غروب الشمس .

وصلنا أخيراً إلى حيث كنا نخيّم بالقرب من المياه فوجدنا موسى حارسنا لا يزال مستيقظاً . فأوقدنا النار وتعشينا ، ثم نمنا نوماً عميقاً

حتى الصباح ، ولم يوقظنا وصول الآخرين في الساعات الاخيرة من الليل .

بعد استراحة يومين توجهنا إلى العقبة حاملين أكاليل الغار ومعلنين ان القطارات التركية باتت تحت رحمتنا . وبمجرد وصولنا اليها سارع « يلز » و « بروك » بالسفر إلى مصر على متن أول باخرة متوجهة إلى هناك بعد أن تيسر لهما كسب معركة مشرّفة ، وبعد أن عرفا داء الزحار ، وعاشا على حليب النياق ، واجتازا على ظهر البعير ثمانين ميلاً في اليوم بدون ألم ولا تأفّف وبعد أن بات أمراً مفروغاً منه حصولهما على وسامين من اللنبي لشجاعتهما .

٦٨

مضت عدة أيام في التحدث مع فيصل في السياسة والتنظيم والاستراتيجية بينما كان يجري إعداد العدة للحملة المقبلة . وحسن الطالع الذي واجهنا ، في مهمتنا ، كان قد عصف بالمعسكر بكامله ، وفن نسف القطارات مهيّأ لأن يصبح شعبياً فيما لو تمكّنا من تلقين أصوله إلى عدد من الرجال يكفي لتوسيع نطاق العمل ، وارسال عدة حملات إلى أماكن مختلفة في الوقت نفسه . وقد كان الكابتن « بيزاني » أول المتطوعين ، وهو الرئيس المجرب للفرقة الفرنسية في العقبة والجندي المتحرّق شوقاً للمغامرة واحراز الانتصارات ومن ورائها المكافآت . ثم اكتشف لي فيصل ثلاثة شبان من ابناء خيرة العائلات الدمشقية يرغبون في ترؤس حملات الغزو على القطارات . عدنا بعد ذلك إلى الرم لنعلن ان شرف قيادة الحملة قد رسا على قاسم وعشيرته . وفي الحال بدأ الرجال يتدفّقون علينا طالبين

الانضمام إلى الحملة ، يدفعهم إلى ذلك ما سمعوه عن الحملة السابقة وما شاهدوه من غنائمها . فاضطررنا ان نرفض الكثيرين واستبقينا ١٥٠ رجلاً وعدداً كبير من الجمال على أمل أن نعود بها محمّلة بالغنائم .

قررنا في هذه المرة ان نعمل في جهة معان . ولذلك كان علينا أن نتجه نحو « بترا » ، ونتنقل من الحر إلى البرد ، ومن الجزيرة إلى سورية .

قال لنا الدليل بأن الكيلومتر رقم ٤٧٥ يناسب تماماً لوضع لغم عنده . ولكن هذه القطعة من الخط كانت مراقبة من عدة مخافر محصّنة ، فتوجّب علينا ان نهرب دون جلبة . وبعد ذلك توجهنا إلى نقطة يمر فيها الخط في واد ، فوق ثلاثة جسور . وبعد منتصف الليل تسللنا إلى تحت الجسر ولغمناه بالمتفجرات . وقد استنفد منا ذلك مدة من الزمن جعلت نور الفجر يفاجئنا في العمل . وبعد انتهائنا من ذلك انسحب رجالنا إلى مسافة ألف متر في المنحدر الكثير الاشواك كي يكونوا بعيدين عن الانظار خلال النهار .

دام انتظارنا طول النهار ، ثم الليل الذي تلاه . في صباح اليوم التالي بينما كنت أعقد اجتماعاً لمشايخ العشائر المشتركة في الحملة صرخ الحارس يعلمنا بقدوم قطار نحونا .

لقد كان قطاراً خزّاناً قادماً من « معان » مرّ فوق اللغم دون أن نفجره تحته . شكرني الاعراب على تصرّفي الحكيم هذا لأن سلب الماء لم يكن ما يحلمون به . وعلى كل حال كان اللغم قد فسد ولم يعد صالحاً . وعند الظهر تسللت مع مساعدي إلى تحت الجسر من جديد لنضع تحته لغماً كهربائياً . في هذه المرة ومن تحت الجسر الجنوبي نقلنا المتفجرات إلى تحت الجسر الوسطي ، ثم خبّأنا المدافع تحت الجسر الشمالي كي تتولى قنابلها قصف مؤخرة القطار بعد الانفجار . وبعد ذلك اختبأ الرجال بين العليق على مسافة ٣٠٠ م. من الخط إلى جهتنا . وعدنا إلى

الانتظار من جديد طول ذلك النهار نرقب تحركات الدوريات التركية في الصباح وعند الظهر وفي المساء .

وعند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي تعالت سحب من الدخان فوق معان ، كان يخلّفها وراءه قطار متجه نحونا . غير ان دورية من ستة أنفار كانت قد اتجهت نحونا في الوقت نفسه الامر الذي أقلقنا لأنه في حالة وصولها إلى الجسر قبل القطار فهي بلا شك ستنذره ، وتبوء كل جهودنا بالفشل .

لدى الحساب تبيّن لنا ان القطار سيسبق الدورية بمسافة ٢٠٠ إلى ٣٠٠ م. فأصدرنا الاوامر بأن يأخذ كل من رجالنا مكانه ويستعد . كان القطار يتقدم على مهل فيما كنت أنا أراقب عن بعد مائة متر عن اللغم . ومن مكاني كنت أرى ، علاوة على اللغم ، رجالنا حول جهاز التفجير والرشاشات . وعندما سمع فايز وبدري صوت القاطرة تمر من فوق جسرهم بدأوا يرقصون رقصة الحرب حول الجهاز الكهربائي الصغير . وأما الآخرون ، المختبئون في الحفرة فقد أومأوا لي بأن اللحظة قد حانت . ولكنني فضّلت الانتظار ريثما تصل القاطرة فوق الجسر تماماً ، وعندها أعطيت الاشارة المتفق عليها ، وضغط فايز على الجهاز ، ثم ردد الوادي صدى الانفجار الهائل كما حصل في « المدوّرة » قبل اسبوع من هذا التاريخ . وبعد طلقات ثلاث من مدافع « لويس » علا الصراخ ، وأغار رجالنا على القطار وكأنهم سيل عرم .

في هذه الاثناء سارع أحد الاتراك وفك المقطورات الاربع الاخيرة لتسقط في الوادي المجاور . فحاولت جاهداً منع ذلك ، حتى لا يضيع علينا هذا القسم من الغنائم ، ولكن عبثاً ، حيث عاجلني ضابط تركي بطلقة من مسدسه « الموزر » أصابتني في وركي .

كان من حصيلة عملنا هذا ان تهدم الجسر ونسف القطار . واما القتلى من الاتراك فزادوا على العشرين ، وكان من بين الاسرى اربعة

من الضباط .

وكان ذلك القطار محملاً بما يقارب سبعين طناً من المؤن الضرورية جداً ، كما ورد في اللائحة المرفقة . فأرسلنا نسخة من تلك اللوائح إلى فيصل ، لتشهد بنجاحنا . ثم كلّفنا « بيزاني » بمراقبة الغنائم ، فيما كنت بمساعدة فراج وسالم والضغلان ، أحمّل جهاز التفجير والاشرطة على احد الجمال . وعندما كنا على وشك الرحيل ظهرت في الافق على مسافة ٤٠٠ م. النجدات التركية ، غير اننا تمكنا من الافلات من يدها ولم يصب أحد من رجالنا بأذى .

بعد ذلك عمد تلامذتي وحدهم إلى مزاولة فن النسف بالمتفجرات ، وتعليمه إلى غيرهم . وكانت أخبار أرباحهم تعصف من قبيلة إلى أخرى ، وكأنها موجة متعالية دائماً ، حتى ان بني عطيه كتبوا إلى فيصل : « ارسل لنا أحد تلامذة لورانس ، ولن نترك قطاراً يمر في الجوار بعد ذلك إلا وننسفه . » فأرسل لهم سعد ، أحد بني عقيل ، الموثوق به ، فنسف بمساعدتهم قطاراً مهماً .

وفي الاربعة الاشهر التي تلت ، نسف خبراؤنا المنطلقون من « العقبة » سبعة عشر قطاراً . وبعد ذلك أصبح السفر بالقطار ، بالنسبة لأعدائنا ، مغامرة محفوفة بالاخطار . وفي دمشق بات المسافرون يتزاحمون لحجز أمكنة لهم في مقطورات المؤخرة . كما عمد عمال الخطوط الحديدية إلى اعلان الاضراب العام حفظاً لأرواحهم . ثم توقف النقل المدني بالقطارات أو كاد وأصبح من المتعذر عليهم امكانية الاخلاء السريع عند الحاجة للمدينة المنورة أو للقدس بعد أن تزايد الخطر البريطاني هناك .

في هذه الاثناء وصلتني برقية من مصر . ثم جاءت طائرة خاصة ونقلتني إلى مركز القيادة العامة هناك . وكان اللنبي في هذا الوقت يسعى جهده إلى تدعيم قوة الحلفاء في فلسطين ، فطلب إلي تقدير قيمة جهودنا

على الخط الحديدي ، وما إذا كانت ذات فائدة عملية ، ام انها فقط محاولة دعائية لفيصل ؟!

عندئذ عرضت عليه خطتي ، نترك الخط يعمل . ولكن فقط بطريقة تضطر قوات فخري باشا إلى البقاء محجوزة في المدينة المنورة ، لأن حجزها هناك أوفر علينا بكثير من أسرها في معتقلات مصر . والطريقة الاسلم والاضمن للحد من سير القطارات على الخط هو مهاجمة بعضها من وقت لآخر . والعزب يبذلون لهذه الغاية أقصى ما عندهم من جهود دون أن يتكبدوا مع ذلك أية خسائر عسكرية . كما انه لا يخفى اننا ما زلنا في الوقت الحاضر اعجز من ان نمنع السير نهائياً على الخط لأن رأسه – أي نقطته الاقوى والامنع – يوجد على مقربة من دائرة نشاطنا ، غير اننا نفضل عدواً ضعيفاً في الجوار ما دام جيشنا النظامي ليس مستعداً بعد للاستيلاء على معان .

سألني اللنبي بعد ذلك ، عن وادي موسى لأنه يعتقد بأن تحركات الاتراك تدل على انهم سيضربون هناك بدون تأخر ، فشرحت له بأننا نتعمد جر الاتراك إلى معركة في وادي موسى ، ونُعدّ لهم فخاً محكماً لهذه الغاية . وأفضليتنا عليهم في ذلك اننا نعرف كل شيء عن تحركاتهم وقواتهم بينما هم يجهلون كل شيء عن حقيقتنا .

وفي النهاية صحّ ما توقعته واستطاع « مولود » ان يشتّت قوات جمال باشا التي هاجمته في وادي موسى وكبدها خسائر فادحة وحرّر « العقبة » بذلك من كل خطر قريب .

الجزء السادس

٦٩

فشل الغارة على الجسور

لقد كان تشرين الاول شهر انتظار اذن بالنسبة لنا . وكنا نعلم في الواقع ان اللنبي يُعدّ مع « بولز » و « داوني » هجوماً على خط غزة – بئر السبع . أما الجيش التركي الصغير المتحصّن جيداً في مواقعه والمزوّد بوسائل ممتازة للمواصلات الجانبية فقد كان سكران بانتصاراته إلى درجة بات يعتقد معها بأنه ما من جنرال بريطاني يستطيع ان يحتفظ بما ربحته له قواته بعد معارك ضارية .

كان الجيش التركي مخدوعاً لأن اللنبي استطاع فعلاً ان يخلق روحاً وثابة جديدة في صفوف القوات الحليفة ، وإذا كان « موري » ورجاله قد عملوا دائماً وراء غشاوة كثيفة من التحاسد المكتبي (البيروقراطي) فان اللنبي جاء يقضي على كل ذلك بشخصيته الفذة . وحلّ الجنرال « بولز » ، رئيس أركان حرب اللنبي سابقاً في فرنسا محل « ليندن بل »

و « بولز » رجل حي شجاع ساخر مخطّط بارع وأفضل مساعد متوار عن الاضواء . ولكن لسوء الحظ لم يكن كلاهما حراً في اختيار معاونيه إلاّ انّ تبصّر « شيتوود » عرف كيف يخدمهما بأن اختار لهما « غي داوني » ليكون الشخص الثالث في الاركان العامة .

لم يكن عند « بولز » يوماً ما رأياً خاصاً كما كانت تنقصه الوسيلة لتكوين ذلك . واما « داوني » فكان متوقد الذكاء . كانت تنقصه حيوية « بولز » وكذلك اندفاع اللنبي وتفهمه الانساني .

انعكست هذه الميزات المتباينة على المخطط المعقّد . فقد كانت غزة محاطة بخطوط من الخنادق على المستوى الاوروبي تؤمن لها عدة خطوط دفاعية . وقد كانت بالفعل أمنع مركز للعدو جعلت القيادة البريطانية العليا تعتبرها هدفاً رئيسياً في حملتين رئيسيتين . ألحّ اللنبي القادم من فرنسا بأن يتمّ أي هجوم ، على يد أكبر عدد ممكن من الرجال والعتاد ، فوافق « بولز » على ذلك بأيماءة من رأسه .

لم يكن « داوني » الرجل الصالح لمعركة تصادم رأسي . لذلك كان يسعى لأن يقضي على قوة العدو بأقلّ توريط ممكن . وكأحد أساطين السياسة كان « داوني » يستخدم لقب « رئيس » إلى جانب الدهاء لتغطية حيله التي لها ما يبررها . فنصح بشن غارة على طرف الجبهة التركية من جهة بئر السبع . وكي يحصل على الانتصار بأقل ثمن أراد أن يبقي الجزء الاكبر من قوة العدو وراء غزة ، ويتم ذلك في حالة بقاء تجمع القوات البريطانية امراً مجهولاً عند الاتراك . وعندئذ ينظر العدو إلى الهجوم الجانبي على انه تظاهر غير ذي بال . فوافق « بولز » على ذلك بايماءة من رأسه .

وهكذا تمت التحركات كلها وراء ستار من الكتمان المطبق . غير ان « داوني » وجد في قلم استخباراته حليفاً نصحه بأن لا يكتفي بالاجراءات الاحترازية السلبية ، وبأن يعطي العدو معلومات دقيقة ولكن وهمية عن

المخططات التي هي قيد الدرس ، لتضليله .

لقد كان « مايزتزاغن » حليفاً يبغض العدو إلى درجة قصوى . وقد استطاع ان يقنع « داوني » بصواب فكرته ، ثم اقتنع بها اللنبي بعد شيء من التردد . ووافق عليها أخيراً « بولز » ، وانصرف الجميع إلى العمل السريع الدقيق .

وضع « مايزتزاغن » بدقة متناهية المستندات العسكرية الوهمية اللازمة ثم عمد إلى ايقاعها في أيدي العدو بأية وسيلة ونجح في مهمته ، ووقع الاتراك في الفخ ، وأبقوا الجزء الاكبر من قواتهم وراء غزة ميممين انتباههم واستعداداتهم شطر الساحل .

ومن جهتنا على الجهة العربية كانت لدينا معلومات دقيقة كافية عن العدو . فضباطنا العرب كانوا جميعاً قد سبق لهم وخدموا في الجيش التركي ، ويعرفون كل ضباطه معرفة شخصية . تدربوا مثلهم على الفنون الحربية نفسها ، وتعودوا أن يفكروا بالطريقة ذاتها وان يتبنّوا وجهات النظر عينها . وهكذا من خلال ضباطنا كنا نسبر غور عقلية ضباط العدو فنتحسّب لهم . واما العلاقات بيننا وبين العدو فقد كانت مستمرة لأن السكان المدنيين في المناطق التي يحتلها الاتراك كانوا جميعهم لنا دون أن يكلفنا ذلك درهماً واحداً . وهكذا فقد كان لدينا جهاز الاستعلامات الاوسع والاضمن والاكمل والأرخص .

كنا إذن أفضل من « اللنبي » ندرك فراغ العدو ووهنه ، وسعة الموارد الانكليزية وقوتها . وعلى العكس كنا من جهة الجيش البريطاني نسيء تقدير أهمية المدفعية وتعقيد تحركات المشاة والخيالة . وفي رأينا كان يكفي للجنرال « اللنبي » شهر واحد من الزمن كي يحتلّ القدس وحيفا أيضاً ، وتشتيت العدو في الجبال .

وعندئذ تحين ساعتنا ، ويتوجب علينا ان يجدنا « اللنبي » على أتم الاستعداد للاجهاز على العدو في الوقت الذي لا يكون فيه قد حسب

حساب قواتنا . وفي نظري كانت النقطة الاهم « درعا » حيث تلتقي الخطوط الحديدية القدس — حيفا — دمشق — المدينة المنورة ، وحيث تتجمّع القوات التركية لتتوزّع فيما بعد على كل الجبهات الجنوبية . ولحسن حظنا فان « درعا » المقصودة تقعُ في منطقة لنا فيها احتياطي هائل من الرجال الذين تدرّبوا في معسكرات فيصل في العقبة وعادوا ينتظرون منا اشارة العمل . فقد كان لنا في تلك المنطقة قبائل الرولا ، والسراحين والسردية ، والقريشية ، وقبل كل هؤلاء أهالي حوران وجبل الدروز ، وهم أقوى بكثير من أبناء القبائل وأشدّ عزماً .

ساءلت نفسي فترة من الوقت إذا كان علينا ان نحرّك دفعة واحدة ، كل هؤلاء الانصار ، ونقطع دفعة واحدة كل مواصلات العدو . فعلى أقل تقدير كان يمكننا تجنيد ١٢ ألف رجل . وهذا لعمري كاف لاحتلال « درعا » عن طريق المباغتة ثم لتخريب كل خطوط المواصلات وبالتالي الاستيلاء على دمشق . وواحدة من هذه النتائج البادية في مخيلتي كانت تكفي لشلّ حركة العدو في جهة بئر السبع وجعل بقائه هنـاك أمراً من المستحيلات . ولذلك كانت الرغبة جامحة عندي للمقامرة بكل رصيدنا .

إلا انه في هذه المرة أيضاً — وهي لم تكن الاولى ولا الأخيرة — كلّفتني شخصيتي المزدوجة اذ انني في خدمة سيّديْن ، كلفتني غالياً وحدّتْ من حرية تصرفاتي . فقد كنت أحد ضباط « اللنبي » وتابعاً له . ولذلك كان ينتظر مني أن أفعل جهدي من أجله . وكنت كذلك مستشاراً لفيصل . وكان فيصل يثق باخلاصي وكفاءتي لدرجة انه كثيراً ما كان يعمل بمشورتي دون مناقشة . ومع ذلك لم يكن في امكاني ان اشرح للجنرال « اللنبي » كل دقائق الوضع العربي . كما لم يكن في استطاعتي ان اكشف لفيصل عن كل مخططات الانكليز .

كان السكان المحليون ينتظرون مقدمنا على أحرّ من الجمر ويتوسلون

الينا لتقديم موعد ذلك . وكثيراً ما كتب لنا الشيخ طلال الحريديني سيّد السهل المحيط بدرعا يعلمنا بأنه مستعد لأن يسلّمنا درعا إذا ارسلنـــا لمساعدته بضعة من الفرسان فقط وذلك كعربون منه لولائه لفيصل . ان مغامرة ناجحة كهذه من شأنها ان تخدم « اللنبي » كثيراً . ولكن فيصل لا يمكنه الاقدام عليها إلا إذا امّن سيادته على المنطقة المحتلة . والاستيلاء المفاجيء على درعا ثم التقهقر امام نجدات العدو معناه حصول مذبحة هائلة في المنطقة يذهب ضحيتها الاهالي الآمنون .

ومن ناحية ثانية لا يمكن تحريك هؤلاء القوم ودفعهم إلى العمــل المسلح الاّ مرة واحدة . وجهدهم يجب أن يكون قاطعاً فيها . وباثارتها الآن قــد نقامر بأفضل ورقة يحتفظ بهــا فيصل لليوم الفاصل الحاسم ، خاصة واننا لسنا متأكّدين من نجاح « اللنبي » السريع في فلسطين . وبعد تفكير طويل رأيت حرصاً على مصلحة العرب الذين أحببتهم ان اؤجّل عملية المقامرة هذه إلى وقت آخر أكثر مناسبة .

٧٠

لقد كانت حياة الحركة العربية مرهونة بمزاج « اللنبي » . ولذلك كان من الضروري القيام بعمل مــا أقل من الثورة العامة وراء خطوط العدو . عمل يتم عن طريق غزو لا يسبّب الاضرار للسكان المحليين . ولكنه يرضي مع ذلك القائد البريطاني بمساعدته عملياً في مطاردة العدو . وهكذا بعد البحث والتدقيق وجدت ان أفيد عمل يمكننا القيام به هو نسف أحد جسور وادي اليرموك الكبرى .

ففي وادي اليرموك كان يمرّ الخط الحديدي الذي يربط مدن فلسطين

بدمشق ، ونظراً لوعورة المسالك اضطر الخط ان يسير مع مجرى النهر ويتخطاه مراراً فوق جسور شاهقة كان بناؤها من الاعمال الشاقة . وعلى الاخص الجسران القائمان عند الطرفين في الشرق وفي الغرب .

ونسف واحد من هذين الجسرين كان يكفي لقطع كل اتصال بين الجيش التركي الموجود في فلسطين وبين قاعدته الموجودة في دمشق مدة خمسة عشر يوماً على الاقل . ويحرم ذلك الجيش من كل أمل في الفرار تخلصاً من وطأة جيش « اللنبي » الذي يشن عليه هجوماً عاماً . وكي نصل إلى اليرموك كان علينا ان نجتاز حوالى ٤٢٠ ميلاً مروراً بالازرق . وبما ان الاتراك كانوا يعتبرون الخطر بعيداً عن تلك الجسور فقد خففوا الحراسة عليها .

عرضت اذن هذا المخطط على اللنبي فطلب إليّ تنفيذه في ٥ تشرين الثاني أو في أحد الايام الثلاثة التي تليه . فاذا نجحنا وناسبتنا الظروف يكون معنى ذلك انعدام أي أمل بالنجاة أمام جيش « فون كريس » والانسحاب حتى دمشق . وعندئذ ستتاح الفرصة أمام العرب لأن يشنّوا ثورتهم العارمة ويحتلوا دمشق بعد ان تكون قد انشلّت تحركات العدو كلياً .

لمواجهة كل الاحتمالات كان يلزم ان يكون لدينا في الازرق زعيم قادر على ان يجمع حوله السكان المحليين ويعدّهم للضربة القاضية . في ذلك الوقت كان ناصر ، رائدنا المعتاد ، غائباً . غير انه بين بني صخر كان يوجد علي بن الحسين ، الشريف الحارث الذي أبلى بلاء حسناً إلى جانب فيصل في الساعات الصعبة حول المدينة المنورة ، ثم أصبح فيما بعد ساعد « نيوكمب » الايمن حول « العلا » .

كان « علي » أثناء حلوله ضيفاً على جمال باشا في دمشق قد اطّلع على الكثير من أحوال سورية . كما كان قد برهن لنا منذ بدء الحركة بأن ما من شيء يثنيه عن عزمه ويجعله يتقاعس عن الاستماتة في سبيل القضية

العربية .

وكان « علي » هو الذي ضمّ إلى حركتنا قبيلة بني صخر . كما ان أملنا في بني سرحان كان كبيراً وهم أسياد الازرق . بالطبع كان عرب الرولا خلال هذا الفصل في مراعيهم الشتوية . وهذا افقدنا أفضل ورقة في أيدينا كان يمكن ان نلعبها في حوران . وكان فايز الغصين قد ذهب إلى « اللجاه » لاعداد العدة لنسف الخط الحديدي في منطقة حوران بمجرد استلام اشارة منا لذلك . وكنا قد خزّنا المتفجرات في الاماكن اللازمة . واما أصدقاؤنا في دمشق فكانوا قد تلقوا تعليماتنا وباتوا على أهبة الاستعداد للعمل ، وعمد علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق العسكري على عيون الاتراك ورأس العاملين لقضية فيصل فعلاً إلى اتخاذ كل ما يلزم للاحتفاظ بالسلطة عندما تحين الفرصة .

وتفاصيل خطتي كانت الانقضاض على ام قيس من الازرق بقيادة رافع على رأس حفنة من الرجال لا تزيد على الخمسين . فالمدينة تشرف على الجسر الواقع في الطرف الغربي من وادي اليرموك . وكانت الحراسة على ذلك الجسر مؤمنة من قبل ستة حراس لا أكثر ، تشد ازرهم عند الحاجة حامية من خمسين جندياً ، تعسكر في محطة « الحمّة » . وكنت آمل في ان ينضم لنا في غارتنا هذه بعضٌ من قبيلة « ابي تايه » بقيادة « زعل » . وذلك لأنني مع هؤلاء الشجعان أكون واثقاً من النجاح . وكي نحول دون وصول نجدات للعدو لا بدّ من ان ننظف الجوار برشاشات على يد فرقة من الهنود يقودها الجادار حسن شاه وهو رجل صلب ومجرب . ومنذ عدة اشهر وهذه الفرقة تتولى قطع الخطوط الحديدية من جهة « الوجه » الامر الذي جعلنا نوقن من ان افرادها قد أصبحوا هجانة بارعين .

وكانت عملية نسف جسور حديدية شاهقة بكميات محدودة من المتفجرات غاية في الدقة وتتطلب سلسلة من الالغام مع جهاز تفجير

كهربائي . فاستدعيت لذلك الضابط « وود » ليكون مساعدي في هـذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر البالغة الاهمية .

كنا على وشك الانتهاء من استعداداتنا عندما برز حليف جديد غير منتظر هو الامير عبد القادر الجزائري حفيد البطل الذي يحمل الاسم نفسه والذي قاوم الفرنسيين بضراوة للدفاع عن الجزائر . لقد اختارت هذه العائلة مدينة دمشق مقراً لهـا منذ جيل من الزمن على اثر نفيهـا من الجزائر ، وكان لهـا مواقف مشرفة مع الوطنيين حتّى ان جمال باشا شنق عمر ، أحد أبنائها ، على اثر معلومات كشفتها مستندات « بيكو » . وقد روى لنـا عبد القادر بالتفصيل كيفية هربه من « بروز » وعودته إلى دمشق بعد آلاف المغامرات عبر الاناضول . ويقال ان الاتراك قـد عتقوه على اثر التماس مقدّم من الخديوي عباس حلمي الذي أوفده مفاوضاً إلى مكة . وبهذه الصفة كان عبد القادر قد قابل الشريف حسين وعـاد محملاً بالهدايا .

تفانياً في سبيل العرب وهب عبدُ القادر فيصلَ اتباعه بأجسامهم وأرواحهم . وكان هؤلاء الاتباع منفيين يعيشون على الضفة الشمالية من وادي اليرموك . رقصنا طرباً لهذه المناسبة التي أتاحت لنا ، هكذا دون مشقة ، السيطرة على القسم الاوسط من الوادي وعلى القسم من الخط المـار هناك . وبعد ان كنت قـد طلبت إلى « رافع » موافاتنا إلى الازرق عزفت عن ذلك كما استغنيت عن « زعل » ولم أفاتحه بالموضوع وقصرت كل جهدي العقلي والجسدي على وادي خالد وجسوره .

كنا نعدّ خطتنا في هذا الاتجاه عندما وصلتنا برقية من الكولونيل « بريمون » ، تحذّرنا من عبد القادر الجزائري وتعلمنا بأنه جاسوس يعمل في خدمة الاتراك . وقع علينا الخبر وقع الصاعقة ، لأن من شأنه إذا كان صحيحاً أن يقضي على كل مخططاتنا ، فقررنا مراقبة عبد القادر جيداً ، ولكن دون فـائدة ، ولم نستطع أن نضبط أي برهان ضده .

فملنا إلى الاعتقاد بأن « بريمون » ألصق هذه التهمة بعبد القادر لأن الأخير لا ينفكّ يهاجم فرنسا في كل مناسبة خاصة أو عامة بسبب احتلالها للجزائر .

دعا فيصل عبد القادر الجزائري إلى مرافقتنا أنا وعلي ، وأسرّ الامير في أذنيّ : « أنا أعرف انه مجنون ولكنني أعتقد بأنه شريف . احفظوا رؤوسكم واستخدموه » ، فعملنا بنصيحة فيصل وقررنا ان نفيد من عبد القادر قدر المستطاع ، غير ان تعصبه ومزاجه وتعذر تعايشه معنا كلّ ذلك جعله يتخلى عنا في منتصف الطريق ويذهب لا ندري إلى أين .

٧١

كان الانطلاق صعباً كالعادة ، فأضفتُ إلى حراسي ستة بينهم محمود أحد مواليد وادي اليرموك ، وهو شابٌ في التاسعة عشرة من عمره ، يشتعل حماسة .

وفي اليوم المقرر للسفر أكملنا باقي استعداداتنا . ثم تناولنا طعام العشاء وسرنا ليلاً . وكنا في مرحلتنا الاولى نسير ببطء كما هي العادة دائماً وكانت الجمال كالرجال ترفض الانسياق في مغامرات جديدة .

استطال خط قافلتنا . وكان « وود » يسير في المؤخرة ، ورجالي المكلفون بارشاد الفرقة الهندية سرعان ما رأوها تغيب عن أنظارهم . لأنها وحدها مع « ثورن » كانت قد قصّرت عن المنعطف لجهة الشرق وسط الظلام الحالك الذي يخيّم فوق وادي اثم . فتبع الانكليزيان الطريق الرئيسية نحو قويرة . وبعد سير عدة ساعات قررا انتظار طلوع النهار

وسط واد جانبي . وأيّ منهما لم يكن يعرف المنطقة من قبل ، كما كانا غير واثقين من العرب ، لذلك تبادلا الحراسة في تلك الليلة . ولما توقفنا عند منتصف الليل للاستراحة ، ولم نجدهما معنا ساورتنا الشكوك والمخاوف بشأنهما . وقبل الفجر عاد أحمد وعزيز وعبد الرحمن بتكليف منا للبحث عنهما ونقلهما إلى وادي الرمّ .

بقيت مع لويد على رأس القافلة نقودها بين الحنايا والمنعطفات بين الوديان والتلال المؤدية إلى الرمّ . وقد أثبتت لنا التجربة ان الهنود ما زالوا هجّانين فاشلين . ولما وصلنا إلى وادي الرم الذي اكسبته أشعة الشمس ألواناً بديعة وجدنا « وود » و « ثورن » هناك . وقد عثر عليهما عبد الرحمن واقتادهما عبر طريق قصيرة مرهقة وكان « وود » مريضاً مستلقياً مكان مخيّمنا القديم . ويظهر انه تألم كثيراً من الجوع والحر والقلق . ورفض غاضباً ان يأكل الطعام الذي استحصل عليه عبد الرحمن من خيمة بدو على حافة الطريق .

وفي اليوم التالي ركبنا مطايانا فاذا بعليّ وعبد القادر يطلاّن علينا . ولما كانا يتخاصمان فقد عمدنا أنا ولويد إلى تناول الطعام ثانية معهما لأن واجبات الضيافة تقضي بوقف النزاع وتناسي الاحقاد . ولحسن الحظ كان لويد من ذاك الطراز من المسافرين القادرين على تناول أي طعام مع أي كان وكيف ما كان وفي أي وقت . وبعد ذلك حثثنا الخطى للحاق بالقافلة . فاجتزنا سهل القاع ، ولحقنا بالقافلة في وادي حفيره حيث توقفنا وقضينا ليلتنا هناك .

في صباح اليوم التالي صعدنا المنحدر المؤدي إلى « بترا » . وقبيل الظهر وصل الجميع إلى القمة سالمين دون أي حادث . ثم هبطنا بعد ذلك إلى وادٍ مخضوضر ، وتوقفنا لتناول الطعام .

٧٢

توجّهتُ إلى الشمال للاستكشاف ، ومعي عوّاد شاب من بني شرارة كنا قد ألحقناه في خدمتنا في وادي الرم بدون استقصاء . طفنا حول « ابو اللسن » للتأكّد من ان الاتراك مستمرون في بطالة لائقة . فقد كان من عادتهم في الواقع لدى أول انذار ان يسارعوا في ارسال دوريات الخيالة إلى انحاء « بترا » ولم أكن ارغب في ان اجرّ رجالي إلى معركة عديمة الفائدة . كان « عوّاد » في الثامنة عشرة من عمره سليم البنية خيّالاً بارعاً ، صمّم لحسن معاملتي له على ان يتفانى في ارضائي . وارضائي في هذا الظرف كان يعني السير على طريق معان المكشوفة للفت نظر الاتراك . وما ان وقع نظرهم علينا حتى هبّوا لمطاردتنا فيما قفلنا نحن عائدين ، الامر الذي اضطرّهم لأن يرسلوا فرقة البغالين تشدّ في اثرنا إلى جهة الشمال بالاتجاه المضاد للخطر . وقد برع « عوّاد » في تأدية هذه المهمة على خير ما يرام .

تسلّقت واياه بعد ذلك قمة جبل مشرف على « بترا » والاودية المؤدية إلى « ابو اللسن » وبقينا حيث نحن ، حتى بعد الظهر نراقب الاتراك وهم يبحثون عبثاً عنا ويشقون في تلك الاراضي الوعرة فيما كان رفاقنا ينعمون بساعة القيلولة وجمالنا تمرح في المراعي الخضراء . وعندما رأينا قافلتنا تتقدم عبر ممر ضيّق وعلى رأسها عليّ سارعنا إلى ملاقاتها . وبمجرّد وصولي أخبرني علي انه قد تخاصم من جديد مع عبد القادر وبات يتمنى الخلاص منه ومن رفقته المزعجة . واما عبد القادر الذي كان لا يعرف شيئاً عن الطريق فقد رفض باصرار أن يشكّل معنا أنا ولويد قافلة خاصة على سبيل الاحتراز .

تابعنا سيرنا إلى الامام ، على أمل ان يلحق بنا عبد القادر في المساء .

وبما انه لم يكن معه دليل فقد اعرته « عوّاد » واتفقنا على ان نلتقي في مخيم « عودة » . اجتزنا في ذلك النهار عدداً من الوديان والتلال . ومن على قمة التلة الاخيرة أشرفنا على محطة غدير الحاج المعزولة والوحيدة وسط سهل فسيح . كان الوادي وراءنا محجوباً وراء ستار كثيف من الضباب فقررنا ان نبقى حيث نحن . وأوقدنا ناراً في ذلك المساء . وقد خطر لحسن شاه أن يقدّم الينا بعد العشاء كوباً من الشاي الهندي فرجوناه أن يفعل الشيء نفسه في كل مساء .

بعد العشاء انصرفت مع لويد إلى تحديد اتجاه النقطة التي سنعبر الخط الحديدي منها بالقرب من « شدية » . كانت النجوم متلألئة في تلك الليلة ، فاتفقنا على أن نعتمد على الجوزاء في تحديد اتجاهنا . وعلى الاثر شددنا رحالنا وسرنا ساعات طويلة مسترشدين بالجوزاء ، فاجتزنا منطقة التلال وقطعنا مسافات طويلة من السهل الفسيح .

تقدمنا عن القافلة أنا ولويد في محاولة للعثور على الخط الحديدي تحاشياً لحصول المحظور والاصطدام بدورية تركية . كانت مطايانا تسرع الخطى في تلك الليلة المنعشة . ومن غير أن ندري سبقنا بمسافات الفرقة الهندية التي لم تحسن مماشاتنا . فعمد قائدها حسن شاه إلى ارسال الكشاف تلو الآخر من رجاله ، حتى لا يفقد أثرنا . وأصبحت فرقته في النهاية مجرد سلسلة متصلة الحلقات من الكشافين فاضطر ان يرسل من يقول لنا بوجوب تخفيف السير .

توقفنا وسط ذلك الليل الهادئ الذي لا يعكره سوى جلبة قافلتنا . وبعد ان نلنا قسطاً يسيراً من الراحة عاودنا المسير ببطء هذه المرة رفقاً بالهنود ، وامتدّ بنا الوقت وكذلك السهل ، كأنه أبى ان يكون أقصر من الليل . عند ذلك راودنا الشكّ بأننا قد ضللنا الطريق فسارعنا إلى البحث عن بوصلة كانت موجودة بين حاجيات « لويد » . وبعد ان صححنا اتجاهنا بواسطة إبرتها عاودنا المسير . وفجأة توقف « لويد »

ليقول لنا بأن انظروا إلى الامام ، ففي الافق قبالتنا تماماً كانت تقوم محطة « شدية » التي كدنا نصل اليها .

بسرعة أدرنا رؤوس مطايانا إلى اليمين وسارعنا إلى الابتعاد يلفنا ستار الليل . ثم شكرنا الرب على خلاصنا بسلام ورحنا نتحسّس طريقنا من جديد . وبعد لأي عثرنا على الخط الحديدي الذي تبين لنا بعد الاستكشاف انه كان خاوياً ، فاجتزناه بأقصى ما يمكن من السرعة وتوغلنا في الصحراء إلى جهة الشرق . وقبل أن نغيب عن الخط أبى « ثورن » إلاّ أن يتسلّق أحد أعمدة أسلاك البرق ويقطع الاسلاك . وبعد مسيرة ساعة أخرى أصدرنا أوامر التوقف ريثما ينبلج الفجر .

طلعت علينا شمس صباح اليوم التالي ، ونحن في الطريق من جديد بمحاذاة الخط كي نلقي تحية الصباح على أول قطار قادم من « معان » ثم ولجنا إلى سهل « الجافور » ، فيما كانت حرارة الشمس تزداد حدة . وعند الظهر وصلنـا إلى مخيم « عودة » الكائن إلى شمال غربي البئر فوجدنا أتباعه من الطوايخة يتنازعون ويتخاصمون بسبب تقسيم الغنائم .

بذلت جهدي لكي أضع حداً لهذا الخصام . وبعد توفيقي في ذلك توجهت إلى خيمة محمد الضغلان لتناول الطعام معه . وبعد الغداء عرضت على « زعل » مشروع غارتنا على جسور اليرموك فلم تعجبه الفكرة . ومن الحديث معه تبيّن لي ان « زعل » تشرين يختلف كل الاختلاف عن « زعل » آب . وذلك لأن النجاح كان قد حوّل فارس الربيع الشجاع والمقدام إلى رجل شديد الحذر . وثراؤه الجديد جعل الحياة غالية عنده . وفي الربيع كان يقودني إلى أي مكان ، ولكن الغارة الاخيرة قد وضعت أعصابه في التجربة . ولذلك بات يعلن الآن بأنه لن يقوم بأي عمل إلاّ إذا كان ذلك يهمني شخصياً .

طلبت منه على الاثر ان يرشدني إلى كيفية تأليف فريقنا الجديد ، فأشار علي بثلاثة من الطوايخة يصلحون حسب رأيه للقيام بمهمة يائسة

كهذه . غير ان قبول هؤلاء ما كان ليفيد في شيء ، بل على العكس سيُضرّ بنا لأن عجرفتهم ستغير الآخرين ، ولن يتمكنوا وحدهم من القيام بالمهمة الصعبة . فأجبته بأنني افضل البحث عن رجال في مكان آخر ، الامر الذي جعل « زعل » يتنفس الصعداء .

كنا لا نزال نتناقش مع « زعل » (الذي أثق به كل الثقة) في أمر مشروعي غير المكتمل عندما دخل علينا شاب لاهث معلناً ان فرقة من الخيالة الاتراك قادمة من جهة معان تتجه نحونا على جناح السرعة مخلفة وراءها ستاراً متعالياً من الغبار . لقد كان عند الاتراك في تلك الناحية فرقتان من الخيالة والبغالة اعتادتا ان تزورا قبيلة ابي تايه ، من يوم لآخر . فهبّ الجميع لاستقبال القادمين .

كان يوجد مع « عودة » خمسة عشر رجلاً بينهم خمسة فقط قادرون على حمل السلاح والآخرون من الشيوخ أو الاولاد . ولكنا كان عددنا نحن يربي على الثلاثين . فسارعنا إلى تخبئة الجمال ونصبنا المدافع في نقاط جعلتها تسيطر على ٨٠٠ م من أمامنا في السهل . ثم تحصّن الرجال بانتظار اقتراب العدو . وأخيراً أطلّ علينا بعض فرسان الفرقة فتبينا انه من فرقة علي بن الحسين وعبد القادر الجزائري القادمة من جهة العدو للحاق بنا . وعلى الأثر هبّ الجميع فرحين لاستقبال القادمين .

٧٣

كان على « لويد » ان يسافر إلى فرساي للاشتراك في محادثات دولية هناك . فكلفنا « عودة » بأن يرافقه على ناقتي الشهيرة « غزالة » ويؤمّن له اجتياز الخط الحديدي في طريق عودته بسلام . ورؤية لويد يسافر

ويتركنا كانت في الواقع أمراً محزناً لأنه كان يفهمنا ويساعدنا بكل ما لديه من حكمة وحنكة ويتمنى لنا صادقاً نجاح مهمتنا وقضيتنا . وقد كان لويد فضلاً عن ذلك الرجل الوحيد المثقف ثقافة كاملة في الجزيرة العربية آنذاك . فأتاحت لي رفقته ان أعود إلى أجواء الفكر التي لا نهاية لها . وسفره الآن سيعيدنا من جديد إلى جو الحرب والقبائل والجمال ، والنياق ...

وأصدق دليل على ذلك ان ليلتنا تلك بدأت في محاولة يائسة لاصلاح ذات البين بين الحويطات المتخاصمين .. وقد هدرت ساعات طويلة وأنا أحاول عبثاً تضييق شقة الخلاف ، لأن جماعة ابي تايه كانوا معروفين بعنادهم وتصلبهم ، كما كانت حرارة الحماسة قد خبت عندهم ، بعد أن طالت مدة خدمتهم لقضية الثورة العربية .

شيئاً فشيئاً مع ذلك اقتربت من النجاح غير ان المناقشة كانت لا تزال مستمرة قبيل منتصف الليل عندما رفع « عودة » عصاه طالباً السكوت . فسكت الجميع وهم يتساءلون عن موطن الخطر . ولكن ما هي إلا لحظات وتهادت إلى أسماعنا أصوات قصف بعيدة قال عنها « عودة » انها اصوات قصف مدفعية اللنبي في فلسطين . وكان هذا الخبر كافياً لفض مناقشاتنا ومنازعات عرب الحويطات .

في صباح اليوم التالي كان جو المخيم صافياً هادئاً . ولدى وداعنا « للويد » و « عودة » ، ضمني الاخير اليه بكل قوته ، وأسر في اذني الكلمات التالية : « احذروا القادر » . تابعنا سيرنا بعد ذلك في وادي « الجافور » الذي بدا كأنه لا نهاية له ولكنه غاية في الروعة والجمال . وهبط الليل علينا ونحن عند أسفل حاجز صخري يقوم كالحائط فوق السهل فحططنا رحالنا وسط مكان منخفض تكثر فيه الافاعي . كانت مراحل سيرنا في هذه المرة قصيرة بطيئة رفقاً بالهنود الذين معنا ، وكنا نقطع ٣٥ ميلاً في اليوم فقط .

وكانت الايام تتوالى علينا وكأننا في نزهة مرتاحي البال نفسانياً وجسدياً . وفي أحد الايام توقفنا لتناول طعام الفطور ، فاذا بنا نسمع انذاراً مفاجئاً من حراسنا . فقد أقدم علينا فرسان وهجانة من جهتي الغرب والشمال ، وهم في طريقهم إلى تطويقنا ، وفي الحال هبّ الجميع إلى أسلحتهم واتخاذ مواضعهم الدفاعية . وفيما يشير الشريف علي علينا بأن نطلق النار فقط بعد أن نتأكد من فائدة ذلك قفز عوّاد ضاحكاً واتجه نحو العدو ملوحاً بطرف كمه الواسع فوق رأسه علامة الصداقة . أطلق العدو على « عواد » وأخطأه فرد هذا بالمثل وأطلق عياراً نارياً كاد يلمس رأس أول الفرسان القادمين تحذيراً من الاستمرار في اطلاق النار . على الاثر تجمع القادمون وبعد مداولة قصيرة حركوا عباءتهم جواباً على اشارتنا الصديقة ، وبدوا كأنهم يفعلون ذلك مرغمين .

ترجل واحد منهم بعد ذلك وتقدم نحونا فلاقاه « عواد » بحراسة بنادقنا . وكان ذلك الرجل واحداً من بني صخر أصابه الذهول لدى معرفة من نكون . وعندئذ تقدمنا جميعنا بقيادة الشريف علي وكذلك فعل المهاجمون . وتبين ان الحادث كان مجرّد عملية غزو يقوم بها بنو زين من صخر المقيمون قبالتنا في وادي باير .

وبعد ان نال الغزاة قسطهم من التأنيب القاسي من فم الشريف علي أوفدناهم إلى باير ليعلنوا عن مقدمنا . وتبديداً لهذه الغيمة رأى سيدهم مفلح انه من الانسب ان يقوم ورجاله بعرض أمامنا لتأكيد صداقتهم وولائهم . وتخلل ذلك ألعاب فروسية واطلاق عيارات نارية في الفضاء وأهازيج وأدعية بالنصر والتوفيق والتحية لعلي بن الحسين و « لاورانز » بطل الحركة ، الامر الذي أثار حسد عبد القادر الجزائري وجعله يمتطي فرسه ويبدأ مع حراسه السبعة في اطلاق النار بطريقة مجنونة استفزت البدو ، وكادت تؤدي إلى معركة كان الجميع في غنىً عنها .

وضعنا رحالنا بالقرب من الخرائب فيما كانت خيام بني صخر السوداء منثورة في الوادي أمامنا كأنها قطيع من الماعز . وبعد ذلك جاءنا رسول يدعونا إلى موافاة مفلح في خيمته . غير ان علي كان عليه ان يقوم بتحقيق قبل قبول دعوة مفلح . ففيصل كان قد أرسل منذ عدة أشهر على اثر التماس قدمه بنو صخر فرقة من البنائين لاصلاح ما هدمته متفجرات الاتراك من آبار وادي باير . وحتى الآن لم ينته العمل الامر الذي استوجب اجراء هذا التحقيق لمعرفة سبب التأخير .

في تلك الليلة أعدّ مفلح لنا عشاء فاخراً حقاً وأظهر كرماً لا مثيل له عند غير العرب ، فأكل الجميع حتى شبعوا . وبعد العشاء جلسنا امام الخيمة المشرفة على الوادي نستمع من وقت لآخر وسط هدوء الليل إلى قصف مدفعية اللنبي في فلسطين .

أثناء جلستنا تلك عرضنا على مفلح ان يرافقنا مع خمسة عشر من رجاله في غارة نقوم بها في منطقة درعا . ولم نفصح عن الهدف المباشر لغارتنا بعد الفشل الذي أصابنا ، بسبب ذلك ، عند الحويطات . على كل حال لم يجب مفلح أملنا بل قبل العرض شاكراً ووعد بأن يختار لمرافقته أفضل خمسة عشر محارباً من قبيلته مع ابنه تركي صديق الشريف علي ابن الحسين الحميم ورفيق فتوته .

٧٤

كان الليل قد سلخ ساعاته الاولى عندما تركتْ قافلتنا وادي باير مزودةً بكامل حاجتها من الماء . أما نحن القادة فقد تأخرنا عن القافلة بعض الوقت ريثما يُنهي بنو صخر استعداداتهم ويزورُ سيدهم مفلح قبر

« أسد » جد العائلة .

بعد ذلك سلكنا طريقاً قديمة قادتنا عبر المنحدر إلى حيث خيم الآخرون في لحف قمة خارج وادي باير . ولكننا في تلك الليلة لم نشرب القهوة ولم نتجاذب اطراف الحديث بل نمنا على صوت مدافع « اللنبي » تدك المواقع في جهة فلسطين .

في اليوم التالي مررنا شمالي « ثلاث اخوات » التي تعتبر لبياض قممها وسيلة هداية في المنطقة . وعند الغروب خيّمنا عند أحد روافد وادي « جيشا » بالقرب من بعض شجيرات نابتة هناك . في تلك الليلة كانت أصوات المدافع تسمع بجلاء وقوة الامر الذي حمل الاعراب على التمتمة انهم أقرب الآن . الانكليز يتقدمون كان الله في عون البشرية ليخلصهم من هذا النوع من الامطار . كان الاعراب يشفقون على الاتراك مستعبديهم الضعفاء لمدة طويلة من هذا المصير . وبسبب هذا الضعف نفسه كانوا لا يزالون يفضلون الاتراك (رغم ظلمهم وطغياتهم) على الاجنبي القوي وعدالته العمياء التي لا تعرف كيف تميز .

عاودنا المسير باكراً على أمل الوصول قبل غروب الشمس إلى عمّارة. كانت كثبان الرمال تتتابع على مدى النظر وكانت الاودية قليلة العمق مغطاة بالاعشاب ، وتوءدّي كلها إلى وادي السرحان الكبير .

قبيل الظهر أطلت علينا من وراء الكثبان قافلة من الجمال تجري مسرعة نحونا ، فسارع تركي على ناقته السريعة يستطلع الخبر بينما كانت القافلة لا تزال يفصلها عنا ميل من المسافة هتف مفلح آه هذا فوءاد على متن شقرائه يتقدم القافلة . انهم حلفاوءنا وقد كانوا كذلك بالفعل . ففهد وادهب من مشايخ بني صخر كانا يخيمان مع رجالهما بالقرب من « زيزا » غربي الخط الحديدي عندما حمل اليهم احد بني جمعان خبر حملتنا فهبّا يحاولان اللحاق بنا قبل فوات الاوان ... ولما أدركانا أنّبني فهد بلباقة قائلاً : « هل تعتقد انه يمكنك المرور في منطقتنا سعياً وراء المغامرة

وابناء ابيه يتظللون تحت خيامهم ؟! »

كان فهد رجلاً كئيباً قليل الكلام رخيم الصوت ، في الثلاثين من عمره شاحب الوجه ، غائر النظرات . واما أدهب ، أخوه الاصغر ، فقد كان أكبر منه جثة وأكثر حيوية وأقلّ اعتناء بنفسه وهندامه وكان كل من الاخوين محارباً مشهوراً بشجاعته .

في عمّارة هبّت علينا عاصفة هوجاء قارسة البرد ، غطت ميـاه الآبار بالغبار فحرمتنا من لذة الشرب . وعند انبلاج نور النهار خفّت حدة العاصفة وهدأت الرياح فمشينا نحو بلدة الازرق التي ما زال يفصلها عنا نصف مرحلة . ولكن مـا ان خرجنا من منطقة الآبار حتى فاجأنا كشافتنا بانذار جديد . فقد وقع نظرهم على عدد من الفرسان يختبئون بين الصبير . وكانت هذه المنطقة فردوساً لعمليات الغزو . فتجمعنا في المكان الافضل للدفـاع ثم وزعنا القوة بطريقة جعلت العدو يخرج من مخبأه بعد طلقات معدودات ويلوح لنا طالباً الصلح . فتبين لنا بعد ذلك انهم من قبيلة السرحان ، في طريقهم إلى قسم يمين الولاء لفيصل . وبعد ان عرفوا من نحن عزفوا عن ذلك وقرروا الانضمام الينا ثم حملونا على الذهاب معهم إلى عين البيضاء حيث تخيم قبيلتهم . وهناك جرى لنا استقبال حافل .

توزعنا مشايخ القبيلة على خيامهم تدليلاً على احتفائهم اللائق بنا . وكنا أنا وعلي وعبد القادر ، و « وود » قـد رسونا على « مطير » الذي أبدى كرماً زائداً في تقديمه أفضل ما عنده من طعام لنا . وبعد العشاء أرسلنا في طلب « مفلح بن باني » الذي يقود رجالهم في المعارك وعرضنا عليه حاجات فيصل والعمل اللازم لأجله ثم كشفنا عن المخطط الذي ننوي تنفيذه .

أصغى الينا السرّاحون جيداً . ثم قالوا لنا ان نسف الجسر الغربي يكاد يكون من المستحيلات بعد أن ملأ الاتراك المنطقة المحيطة بمئـات

الحطابين العسكريين . وعملية غزو هناك لا يمكنها أن تمرّ دون أن يحسوا بوجودها . يضاف إلى ذلك عدم ثقتهم بجماعة عبد القادر المقيمين هناك في الجوار . واما في تل الشهاب حيث يقع الجسر الأقرب اليهم فكانوا يخافون غدر القبائل المناوئة لهم من الخلف . هذا عدا تعذر المسير في سهل « رمث » الموحل إذا أمطرت السماء .

هذه المحاذير سببت لنا الكثير من القلق ، فبنو سرحان كانوا آخر ورقة في يدنا ، ورفضهم مؤازرتنا في تنفيذ مهمتنا يعني تعذّر تنفيذ مخطط « اللنبي » في الوقت المناسب . ولذلك قرر علي ان يقوم بمحاولة أخيرة ، فدعا مشايخ بني سرحان إلى اجتماع عقد حول نارنا بحضور فهد ومفلح وادهب . وعرضنا عليهم مخططنا بجلاء هذه المرة ومن زاويتهم الخاصة . وقد وفقنا إلى اقناعهم بمرافقتنا مهما كانت المحاذير . ولذلك نادينا عبد القادر قبيل الفجر وأبلغناه بأن السراحين سيرافقوننا وسيكونون تحت امرته ليقودهم مع شروق الشمس إلى وادي خالد .

٧٥

تمددنا منهوكي القوى طلباً لقسطٍ من الراحة فترة من الوقت ؛ ثم عمدنا إلى استعراض هجانة بني سرحان . وكان أكثر ما أقلقنا كونهم يفتقرون إلى قائد حقيقي يقودهم في المعركة . « فمطير » كان قد تقدمت به السنون و « بن باني » تدفعه اطماعه إلى السياسة أكثر منها إلى الحرب . ولكن لم يكن في اليد حيلة ، ولم يكن بد من الرضا بالواقع . وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر توجهنا جميعنا إلى الازرق .

لم يكن الشريف علي قد رأى الازرق قبلاً فتسلقنا القمة المحجوجرة مستعيدين ذكرى حروب الملوك الرعاة الاول وأغانيهم وقصص حبهم . ثم حملنا الخيال إلى التحدث عن الجحافل الرومانية التي ذرعت هذه الاماكن في سالف الازمان . وفجأة من على القمة بدت لناظرنا القلعة الزرقاء القائمة فوق أكمة صخرية عالية ومن حولها في الاسفل بساتين النخيل وينابيع المياه العذبة الرقراقة والمروج الخضراء .

بعد وقفة استطلاع هزّ علي عنان بعيره فراح يهبط بحذر المنحدر الصخري البازالتي حتى المرج الاغن بالقرب من الينابيع حيث سارع إلى الارتماء على العشب الذي قلما اكتحلت به عينا ساكن الصحراء .

وعندما عدنا إلى اعمالنا لم نعثر لعبد القادر الجزائري على أثر لا في القصر ، ولا بين البساتين والمروج . وأخيراً أرسلنا بعض الرجال للبحث عنه فعادوا ليقولوا لنا بأن بعض الرعاة العرب شاهدوه يتّجه شمالاً نحو جبل الدروز . لم يكن الرجال يعرفون شيئاً عن مخططنا وكانوا يبغضون عبد القادر . لذلك اغتبطوا بذهابه عنا ، واما نحن فقد وقع علينا الخبر وقوع الصاعقة .

من النقاط الثلاث التي كان من الممكن ان نهاجم فيها : ام قيس، كانت قد أسقطت . وبدون عبد القادر الجزائري كان وادي خالد محرماً علينا ، ولذلك لم يبق أمامنا سوى جسر تل الشهاب . وللوصول اليه كان علينا ان نجتاز مكشوفين السهل الواقع بين الرمثا ودرعا في وقت تخلّى فيه عبد القادر عنا ، وتوجه إلى مقر العدو لاعلامه بنوايانا ومخططاتنا . وبعد المداولة في وضعنا الذي باتَ غاية في الحرج قررنا أن نستمرّ في تنفيذ مخططنا مهما كانت الظروف .

وفي صباح الغد شددنا رحالنا عبر وادٍ كثير الحصى ثم اجتزنا قمة وهبطنا في وادي الحارث الذي كان العشب الاخضر يكسو مجراه . وتوقفنا لتناول طعام الفطور ولما طابت لنا الاقامة هناك بين الماء والخضراء

ارسلنا ادهب واحمد وعواد لصيد الغزلان فعادوا بثلاثة غزلان أتاحت لنا فرصة إقامة وليمة عامرة باللحوم .

قطعنا من مرحلتنا الثانية أميالاً عديدة في أراض غنية بالمراعي والمروج. وفي ابي صوانة عثرنا على حفرة مليئة بمياه المطر العذبة فقررنا أن نتخذ هذا المكان نقطة انطلاقنا للاغارة على الجسور . وفي الغد تزودنا بالماء اللازم للشرب وعاودنا المسير . كانت الصحراء في تلك المنطقة تنتهي بمنخفض قليل العمق عند طرف سهل شاسع مزروع يمتد مستوياً حتى الخط الحديدي على مسافة عدة أميال ، فاضطررنا ان ننتظر الغسق كي نجتاز الخط الحديدي . وكنا نعتقد بقدرتنا على الوصول إلى سفوح التلال القريبة من درعا في الجانب الآخر من الخط الحديدي . وبالفعل توفقنا إلى ذلك ، ثم توقفنا للاستراحة وتناول الطعام في غدير الابيض. قضينا تلك الليلة هناك ، وكذلك نهار الغد لأن تحركاتنا في النهار كانت محفوفة بالمخاطر . ولصعوبة الانتظار وجدنا ذلك النهار كأنه لا نهاية له . وبعد غروب الشمس كان يتوجب علينا التسلل إلى تل الشهاب ، ونسف الجسر هناك ، ثم العودة إلى شرقي الخط الحديدي قبل طلوع الفجر . وهذا يعني اننا سنقطع على الاقل ١٣٠ ميلاً ، على متن الجمال خلال ساعات الليل الثلاث عشرة إلى جانب عملية النسف الدقيقة التي قد تتطلب منا وقتاً طويلاً . يضاف إلى ذلك ان فرقة الهنود التي معنا من المستحيل عليها مجاراتنا في هذا العمل القاسي .

وهكذا وجدنا أنفسنا ملزمين ان نختار أفضل ستة خيالة من بين الهنود ، ونعهد اليهم بأفضل مطايانا ، ونكلفهم بقيادة حسن شاه ان يشكلوا قوتنا الهجومية . واما بنو سرحان فقد عهدنا اليهم لعدم ثقتنا بهم ، بحراسة الجمال ونقل المتفجرات حتى الجسر . بينما شكل بنو صخر فريق الاغارة لثقتنا التامة بهم ولعلمنا بأنهم جنود بواسل .

٧٦

كانت الشمس ترسل على المكان آخر أشعتها عندما تفرقنا . فسار فريقنا نحو القمة بخطى متثاقلة كأنه خروف يقاد مرغماً إلى المسلخ . وبعد ان لفّنا الظلام بوشاحه تقدمنا إلى الغرب عبر سلسلة من التلال والمنحدرات وأطللنا أخيراً على الطريق . وكانت هذه الطريق نفسها هي التي رافقني العرب في اجتيازها لدى قدومنا من رابغ أول يوم لي في الجزيرة العربية . ومنذ ذلك اليوم قبل اثني عشر شهراً ، ونحن نكافح ونحارب لبسط سيطرتنا على الاميال المائتين بعد الالف . وكان لا يزال علينا الكثير للوصول إلى دمشق ، نقطة الانطلاق ونهاية مطاف حجّنا المسلح .

ولكننا في تلك الليلة كنا خائفين وكانت أعصابنا متوترة بسبب هرب عبد القادر الخائن الوحيد لتجربتنا . إلاّ انه كان عندنا ، رغم ذلك أمل كبير في النجاح ، فقررنا الا نهدره عبثاً .

كان مفلح الجمعان يسير في المقدمة ونحن نتبعه في هبوط المنحدرات واجتياز الممرات وتسلق المرتفعات يلفنا ظلام الليل ، وتحدونا الرغبة في اتمام العمل بأسرع ما يمكن ، الامر الذي جعلنا نسير بحذر شديد . وكانت إلى الشمال منّا تتلألأ أنوار محطة درعا . هذه الانوار التي ستخبو مع الفجر ، حسب تقديرنا وتبقى كذلك مدة سنة من الزمن حتى نعيد نحن اضاءتها بعد سقوطها في أيدينا . تابعنا سيرنا وسط الاراضي المحروثة في سهل الرمثا ، وبدأنا حوالى الساعة التاسعة نهبط المنحدر المؤدي إلى وادي اليرموك ، حيث بدأ يتهادى إلى سمعنا صوت شلالات المياه تحت تل الشهاب . ولما اقتربنا من المكان ترجلنا بحذر كلي ثم عقدنا اجتماعاً عاجلاً لتوزيع المهام النهائية ، وكان الليل قد بدأ يشحب أمام

دبيب الفجر . وبعد أن وزعت أكياس المتفجرات على الرجال الموجلين بنقلها تقدمنا نحو الجسر وراء كشافينا من بني صخر . وفيما نحن نتقدم من الجسر مرّ قطار قادم من الجليل كان ينقل اسرى إلى آسيا الصغرى . وبدا الجسر لنا اسود في ذلك الليل ، كما كان كل شيء هادئاً في خيمة الحرس التي أرشدنا إلى مكانها النور المضاء أمامها .

كان «وود» الذي سيحل محلّي في نسف الجسر إذا أصابني مكروه يُعدّ الهنود في أماكن يستطيعون منها صبّ نيرانهم على العدو لتغطية انسحابنا . واما علي وفهد ومفلح وباقي الفرقة مع بني صخر وحاملي المتفجرات فقد تقدموا حتى الخط الحديدي عند المنعطف الذي يسبق مدخل الجسر . وهناك توقّف الجميع لأتقدّم أنا وفهد وحدنا . تسللنا حتى الركائز الحجرية التي يستند اليها الجسر ، ثم زحفنا على بطوننا في ظل الخطوط وكدنا نصل إلى حيث العوارض الحديدية المعلقة . ومن هناك بات من الممكن علينا رؤية الحارس التركي الوحيد يستند إلى الركائز الحجرية المقابلة على مسافة ٦٠ متراً منا . وفيما نحن ننظر اليه بدأ الحارس يروح ويجيء بتثاقل أمام ناره دون أن تطأ قدمه الجسر الشاهق . تسمّر نظري بذلك الحارس فبقيت منبطحاً أنظر اليه ، وكأن لا فكر لي ولا ارادة بينما عاد فهد زحفاً على بطنه إلى النقطة التي تبدأ عندها ركيزة الجسر في لحف التلة .

ما هو النفع من ذلك ؟ فأنا أريد ان أنسف العوارض الحديدية نفسها ، ولذلك عُدت للبحث عن حملة المتفجرات . وقبل أن أصل اليهم تهادى إلى سمعي قرقعة بندقية تتدحرج من عل ، وقد افلتت من يد أحد رجالنا . فذعر الحارس وأجال نظره في المكان ليلمح على رأس التلة ، في ضوء القمر هنوداً يغيّرون مكانهم للاختباء في الظل . وعلى الاثر انتهر الاشباح وبدأ في اطلاق النار وهو يصرخ برفاقه لايقاظهم .

وما هي إلاّ لحظات حتّى بدأت البلبلة فأخذ بنو صخر المتحصنون وراء الصخور يطلقون النـار جزافـاً والاتراك يسارعون إلى خنادقهم ويصوبون على منطلق نيراننا . والهنود يردون برشاشاتهم ، والسراحون حملة المتفجرات يلقون بهـا في الوادي ويفرون . وبقينا أنا وفهد وراء الركائز بعيدين عن أنظار العدو ولكن بدون سلاح ، ثم جاءنا علي وأخبرنا بمصير المتفجرات . وبما انه كان من المتعذر علينا البقاء حيث نحن أو الذهاب للبحث عن المتفجرات تحت هذا الوابل من الرصـاص الطائش فقد انسحبنا إلى الهضبة حيث كان ينتظرنا « وود » وفرقتـه الهندية . وبادرته بالقول ان كل شيء قـد انتهى . وفي الحال أسرع الجميع إلى مطاياهم وابتعدنا بأسرع مـا يمكن فيما كان الاتراك لا يزالون يطلقون النار بلا هوادة . في هذه الاثناء ، استفاقت قرية « طُرّة » على صوت الرصاص ، وأضاءت أنوارها ثم تبعتها القرى الأخرى القريبة من الوادي وعلت الجلبة في كل مكان . ثم شيئاً فشيئاً ابتعدنا ولم نعد نسمع صوتاً . وعند الفجر كنا قـد وصلنا إلى الخط الحديدي فعمد « وود » وعلي وبعض كشافتنا إلى تقطيع أسلاك البرق ، ريثما يتم مرور القافلة . في الليلة السابقة كنا قد اجتزنا هـذا الخط على أمل نسف جسر تل شهاب وقطع كل اتصال بين فلسطين ودمشق ، وها نحن الليلة بعد كل الجهود العقيمة نكتفي بقطع أسلاك البرق بين المدينة ودمشق . في هذا الوقت كانت مدافع « اللنبي » لا تزال تدوّي وكأنها تعمدت تذكيرنا بالفشل الذريع الذي مُنينا به . وهكذا عدنا إلى « ابي صوانة » نجرّ ذيول الخيبة والغضب من أنفسنا وحماقتنا .

٧٧

بلغنا «ابي صوانة» مع غروب الشمس ، وبتنا تلك الليلة منهوكي القوى شاردي الافكار . وفي الصباح استعدنا رشدنا ووجدنا ان الطعام سيصبح شغلنا الشاغل ، وقد نفد مـا حملناه معنا من الازرق . وبمـا انه كان لا يمكننا العودة خالي الوفاض فقد طلب بنو صخر مغامرة جديدة تعوض عن السابقة . ولما كان لا يزال معنا حوالى ٣٠ ليبرة من المتفجرات فقد اقترح «علي» نزولاً عند طلبهم ان ننسف احد القطارات القادمة من معان . سُرّ الجميع لهذا الاقتراح ، وتسمّرت العيون عليّ طالبة الجواب ، ولكن لم يكن في امكاني مقاسمتهم هذا الرأي بالسهولة التي يريدون .

وبعد ان قلبت الامر على جميع وجوهه نزلت عند إلحاح علي وبني صخر وقبلت القيام بهذه المغامرة ، فهلل الرجال للقرار فرحين وقضينا ليلتنا تلك تدغدغ أفكارنا الغنائم المقبلة غير مكترثين بالجوع الذي ينهش بطوننا ، ولا بالبرد والمطر اللذين يقضّان مضاجعنا .

عند الفجر ارسلنا الهنود والاعراب غير الصالحين للمهمة إلى الازرق . وكي أهون عليهم وقع الفشل ، ارسلت «وود» معهم .

وأما الباقون وعددهم ستون رجلاً فقد اتجهوا معي نحو الخـط الحديدي ، أي منهم لم يكن يعرف المنطقة ، فتوليت قيـادتهـم إلى «منفطر» المكان الافضل من عدة نواح . مركز مراقبة ، مخيم مرعي .. بقينا هناك حتى غروب الشمس وعيوننا مسمّرة على السهل الممتد أمامنا حتى قمم جبل الدروز المكلّلة بالثلوج .

ومع الغسق هبطنا كي نضع اللغم عند الكيلومتر رقم ١٧٢ الذي بدا لي أفضل نقطة لذلك . ولكن ما كدنا نصل إلى المكان المقصود حتى

قدم نحونا قطـار من الشمال اضطرنا إلى الاختباء ريثما يمر . وبعد ذلك وضعنا اللغم تحت « عبّارة » من اربعة امتار ثم أخفينا السلك الكهربائي وطوله ستون متراً وسط الوادي الصغير .

بسبب الوحل أخذ العمل منّا وقتاً طويلاً ولم ننته منه إلاّ مع انبلاج الفجر . وفيما كنت أحاول ازالة اثر عملنا اومأ لي حرّاسنا بأن أول دورية تركية تقترب . فاختبأت في مكان هناك لتعذّر وصولي إلى حيث كان الرفاق .

في هذه الاثناء مرّ قطار قادم من الشمال فضاعت علينا فرصة نسفه . وتزايد حزننا بعد هذا الفشل الجديد وبدأ علي يعزو ذلك إلى سوء الطالع . ويقول بأن ما من شيء سيتم على ما يرام في هذه الحملة كلها . وكان ذلك ملاحظة خطرة ، لأنها قد تؤدي سراعاً إلى اكتشاف عن الشر ، ولذلك تعمدت تغيير الموضوع ، وكلفت حراسنا بأن يبتعدوا أكثر قليلاً إلى الشمال والجنوب .

لم يكن عندنا مـا نأكله فادعينا لخداع أنفسنا بأننا لسنا جائعين ثم شغلنا عن ذلك المطر المنهمر بغزارة والبرد اللاسع كالسوط . وهكذا في تلك الليلة ، لم يكن عندنا طعام ولا عمل ولم نجد مكاناً نجلس فيه سوى الصخور المبللة والاعشاب المشبعة بالمياه والاوحال . ولكن هـذا الطقس العاطل لم ينفكّ يذكرني بأن تقدم « اللنبي » على القدس سيتوقف فالمطر ينتزع منه أفضل ورقة في يده ألا وهي الصحو .

في أفضل الظروف يبدو الانتظار متعباً فكيف به في مثل هـذا الطقس ؟؟!! وأخيراً ، قرابة الظهر ، أعلمنا حرّاسنا بمقدم قطار من جهة الجنوب . وفي أقل من ظرفة عين كان كل واحد منّا في المكان المعهود اليه ، غير ان انتظارنا قـد طال لأن القطار كان يتقدم ببطء ولم يصل الاّ حوالي الساعة الواحدة . وفي الوقت المناسب ضغطت على جهاز التفجير اربع مرات متتالية ، ولكن دون نتيجة فتأكدت من أن شيئاً ما

قد حصل ولم يعد من الممكن اتمام المهمة . وبما انه كان من المتعذر علي معرفة ذلك في الحال أو الانسحاب إلى حيث يتخذ جماعتنا مراكزهم فقد بقيت مكاني حتى لا ألفت أنظار العدو إلي فيوقفون القطار ويقضون علينا جميعاً خاصة وان ذلك القطـار الكبير كان يعج بالجنود والضباط . وما كاد القطار يبتعد حتى قفزت من مكاني بأسرع من البرق ولحقت بالرفاق .

٧٨

كان مفلح بادي الغم لاعتقاده بأنني قـد تعمدت ترك القطار يمر . ولكن بعد الاطلاع على حقيقة الامر الذي سبب فشلنا قال بنو سرحان نحن الذين سبّبنا لكم هـذا النحس .. تاريخياً كانوا على حق . ولكن بما انهم أرادوا بذلك رجماً بالغيب فقد ألمحت ساخراً إلى شجاعتهـم قرب الجسر في الاسبوع الماضي ، وقلت بأن قبيلتهم من الافضل لهـا أن تترك الحرب إلى أهلهـا ، وتنصرف إلى رعاية المواشي . فما ان أنهيت كلامي حتى هبّ السراحون يريدون ان يمزقوني إرباً للاهانة التي وجّهتها اليهم . غير ان بني صخر صدّوهم ووقفوا إلى جانبي . وما ان سمع علي الضجّة تتعالى حتى أسرع ، وأنهى القصة بالتي هي أحسن ثم تناسى الجميع الحادث كأنه لم يكن . وبكلماته المعسولة استطاع علي ان يعيدنا إلى رشدنا وإلى المهمة التي جئنا من أجلها . فاستعاد الرجال ثقتهم بأنفسهم وانصرفت أنا لمعالجة جهاز التفجير واصلاحه . وتوفقت إلى ذلك .

عاد كل منا على الاثر إلى مكانه بالقرب من الخط الحديدي . ولكن

عبثاً فلم يمر أيّ قطار . وهبط الليل علينا مضاعفاً برودة الطقس ورطوبته فصار الجميع يرتجفون وتصطك أسنانهم ، وقضينا الليل بكامله على هذه الحال . وفي الصباح ذبحنا ناقة لعدم امكاننا تحمّل الجوع أكثر من ذلك . وفيما نحن نأكل صرخ حارس الشمال ان قطاراً قادماً من الشمال يقترب منا بسرعة . وفي الحال نسي الجميع طعامهم وهبوا إلى مراكزهم، وما ان وصلت القاطرة فوق اللغم حتى ضغطت على جهاز التفجير ودوّى الانفجار بقوة مرعبة قاذفاً نحوي كتلاً من التراب والحجارة سببت لي جراحاً في ساعدي الايسر وساقي اليمنى وأدارت لي رأسي . فزحفتُ متثاقلاً إلى معقل رجالنا وأصبحت بين نارين : العدو من الوراء ورجالنا المتحصنون من الامام . وما ان وقع نظر الشريف علي عليَّ حتى سارع إلى نجدتي مع تركي وبني صخر وعدد من الخدم واقتادوني إلى مكان أمين . ومن هناك بعد أن تأكدت من ان جراحي ليست ذات بال ألقيت نظرة لجهة الخط لأرى نتيجة عملي ، فوجدت ان العبّارة قد نسفت وتهدمت والقاطرتين قد تناثرت أجزاؤهما ، والمقطورات قد خرجت عن الخط . إحدى تلك المقطورات كانت مزدانة بالاعلام ، لأن محمد جمال باشا القائد العام للجيش الثامن التركي كان يسافر فيها على جناح السرعة للدفاع عن القدس ضد « اللنبي » . وقد لاحظنا إلى جانب القائد العام وجود شيخ ديني رجحنا ان يكون اسعد شقير ، الامام الموالي للأتراك ، فقررنا قتله ، وصوّبنا عليه نيراننا وارديناه قتيلاً .

غير ان هذا ما كان ليفيدنا بشيء ويغيّر أوضاعنا لجهة التحسن . فحظنا في نهب ما في القطار كان ضئيلاً جداً لوجود اربعمائة جندي تركي فيه عدا المسافرين الذين استعادوا رشدهم وأخذوا يطلقون علينا النار بدورهم . وكان العدو قد تمكّن من جرح فهد وأجبر مفلح وادهب على التراجع إلى حيث كنّا متحصنين نحن فوق التلة . ولما اقترب العدو منا على المنحدر أصليناه ناراً حامية أجبرته على التقهقر مخلفاً وراءه

حوالى العشرين قتيلاً ، عدا اولئك الذين تساقطوا بالقرب من القطـار ويعدّون بالعشرات .

لم يبق منّا سوى اربعين ، وبات من المتعذر علينا القيام بأي عمل حاسم ، فتقهقرنا نحو القمة حيث كانت المطايا ثم ركبنا على جناح السرعة وهربنا إلى الشرق لنجد ملجأ لنا في الصحراء . وبعد ان سرنا حوالى ساعة من الزمن ، وتأكدنا من زوال الخطر توقفنا لاستعادة أنفاسنا ثم قصدنا مكاناً ظليلاً في وادي « خليل » لنتناول طعامنا لأول مرة منذ ثلاثة أيام . وبعد ذلك ضمدنا جراح فهد وباقي الجرحى . وفي اليوم التالي عدنا إلى الازرق حيث استقبلنا استقبالاً حافلاً وقد تبجحنا زوراً بأننا عدنا منتصرين .

٧٩

كانت السماء قد صممت على متابعة ارسال المطر وحرمت « اللنبي » بذلك من حلمه اللذيذ بالطقس الجميل وحالت بينه وبين تقدمه السريع هذه السنة في جبهة فلسطين . ولكننا قررنا مع ذلك ان نبقى في الازرق. وذلك لأن الازرق ستكون بالنسبة لنا مركزاً للتبشير بالثورة العربية تنطلق منها لتمتد إلى الشمال كما ستكون مركزاً صالحـاً جداً لجمع المعلومات عن العدو وتحركاته ، وستكون أخيراً حاجزاً بين نوري الشعلان والاتراك . ووجودنا هناك سيحول دون ارتداد الشعلان وانضمامه إلى العدو على الاقل خجلاً منا . وهكذا بدت الازرق لنا المقرّ الافضل ، خاصة وانه من الممكن تحويل قصرها العتيق إلى مقر عام لنا يقينا شر البرد في ذلـك الشتاء القارس .

أقمت أنا في برج الباب الجنوبي وكلفت حراسي الحوارنة بتغطية سقفه بالطين والاغصان بينما أقام علي في برج الجهة الجنوبية الشرقية . والهنود في الجهة الشمالية الغربية حيث عينا زعيمهم حسن شاه قاضياً . وكمسلم مؤمن كان أول ما فعله حسن شاه اصلاح المسجد وجعله صالحاً للصلاة . وبعد ذلك تولّى حسن شاه وضع الرشاشات في الاماكن الملائمة في أعلى الابراج تحسباً لكل طارئ ، ونظّم قضية الحراسة الدائمة .

في هذه الاثناء كنا نحن ندرس قضية التموين التي زاد من صعوبتها كون الطرقات المؤدية إلى « العقبة » أصبحت غير صالحة للسير في هذا الشتاء الفريد من نوعه في تلك المنطقة المحاذية للصحراء . وفي النهاية قرّ رأينا على ارسال قافلة إلى جبل الدروز الذي يفصلنا عنه مسير يوم واحد وأوكلنا أمرها إلى مطر الذي عاد من مهمته محملاً بكل ما يلزمنا من مؤن .

ما هي إلاّ بضعة أيام حتى اشتد المرض على « وود » أنيسي الوحيد ، فقررنا أن ننقله إلى « العقبة » ، مهما كلف الامر وعهدنا بهذه المهمة إلى أحمد وعبدالرحمن ومحمود وعزيز الذين عادوا من هناك على رأس قافلة مؤن أخرى .

وما ان شاع خبر وجودنا في الازرق حتى أخذ الضيوف يتدفقون علينا جماعات جماعات ، ويومياً تقريباً . فتارة كانت تلك الجماعات كناية عن سلاسل متصلة من الاستعراضات البدوية يقوم بها قبائل : الرولا ، شرارة ، سرحان ، سردية ، صخر ، وطوراً كانت تضم فرساناً من جبل الدروز أو من السهل الغربي . وكثيراً ما كان يهبط علينا لاجئون سياسيون من سورية أو تجار غير معتادين على السفر في مثل هذا الطقس . وفي احد الايام استقبلنا مائة من الارمن المساكين الهاربين من الجوع وظلم الاتراك . وأحياناً كان ينزل في ضيافتنا ضباط

عرب بأسلحتهم الكاملة، وقد هربوا من الجيش التركي لينضموا إلى الثورة العربية .

وهكذا في كل يوم كنّا نستقبل أناساً من كل حدب وصوب كلهم يريدون الاستطلاع عن الشريف فيصل ، وعن الجيش العربي وأحياناً عن الجيش البريطاني ويصرّون على رؤيتي والشريف علي شخصياً لسماع ذلك من أفواهنا . كان التجار من دمشق يحملون الينا كثيراً من الهدايا : حلويات عربية أقمشة سجاد و ...

فنرد اليهم الجميل بأن نهديهم نحن بدورنا ما ينقصهم من دمشق : سكر ، ارز ، قطن . وسرعان ما شاع الخبر بأن كل شيء متوفر في « العقبة » يصلها بطريق البحر المفتوحة ، فأخذ الناس يتهافتون للانضمام إلى حركتنا خدمة لمصالحهم بعد ان كانوا من قبل يستجيبون في ذلك إلى عاطفتهم .

وأفضل ورقة في يد فيصل لكسب هذه المناطق الشمالية لقضيته كانت شخصية أخيه الشريف علي . فما من أحد كان يراه ويجالسه إلاّ ويرغب في أن يتاح له ذلك مرة أخرى . فقد جمع علي بين الجاه والثروة والذكاء والهيبة والوقار ، وكلها أمور سحرت من حوله وجعلته ذا شعبية كبيرة .

أمضينا كل تلك المدة محجوزين وراء ابراجنا نقتل الوقت في الحديث وسرد الحكايات والخرافات ففكرت ان نفيد من هذا الوقت وننطلق إلى استكشاف منطقة درعا . وفيما كنت أفكر في ذلك هبط علينا في صباح ممطر دون سابق انذار طلال الحريديني الخارج على القانون الذي وضعت جائزة كبيرة ثمناً لرأسه . وقيل لي بأن قتلاه من الاتراك يزيدون على الثلاثة والعشرين ، وبأنه لا يخرج إلاّ وبرفقته ستة أتباع من أشجع الفرسان . وما ان تأكد لي من حديثي الطويل معه خلال اليوم الأول لوصوله انه معنا قلباً وقالباً حتى غمرني البشر وكشفت له عن رغبتي .

وافقته الفكرة وطابت له فقرر ان يرافقني ويقدّم لي كل خدمة لازمة في منطقة درعا التي ترهبه والتي له فيهـا الكثير من الاصحـاب والاتباع .

وفي الغد قادني طلال عبر طريق يعرفها جيداً إلى تل عرار المشرف على درعا بالقرب من خط دمشق الحديدي . وبعد ذلك انتقلنا إلى مزيريب على خط فلسطين ، وكنت خلال كل ذلك اخطط للمحاولات المقبلة عندما سنعلن الوثبة العـامة التي ستكتب لنا النصر الاكيد . وربما كان ذلك في الربيع المقبل .

٨٠

كي يكون استطلاعي السري كاملاً وافياً في حوض حوران كان من الضروري زيارة درعا قاعدته . فقد كان في مقدورنا في الواقع أثناء هجومنا العام ان نعزلها من الشمال والغرب والجنوب ، بنسفنا الخطوط الحديدية الثلاثة التي تربطهـا بدمشق شمالاً ، وبالمدينة جنوبـاً ، وبالقدس غرباً . ولكن كان الافضل لنا الاستيلاء على نقطة الوصل ، والانطلاق منها توسعاً فيما بعد . وبمـا ان طلال كان معروفاً كثيراً في وسط المدينة فقد اعتذر عن مرافقتي اليها وتابعت سيري اليها وحدي مع مرافقي من رجالي . وعند طرف المدينة ترجلنا وكلفت خادمي حليم بأخذ المطـايا والتوجه إلى بيت نسيب الكائن في الطرف الجنوبي من درعا . وقـد كان مخططي ان أطوف في المحطة وأنحاء المدينة بصحبة فارس كي نصل إلى بيت نسيب بعد غروب الشمس فمظهر فارس يدلّ على انه فلاح بسيط لا يُثير الشكوك ، وكنت أنا قد تخفيت بثياب حليم

الرئة الممزقة .

قصدت أول ما قصدت الخط الحديدي الذي يربط درعا بفلسطين . ومن وراء منعطف استراتيجي تفحّصت المحطة فوجدت ان المكان مغطى كثيراً لا يصلح لغارة مفاجئة . وقررت على الاثر ان أستطلع خطوط الدفاع الشرقية وسجلت خلال ذلك كل ما يلزم من معلومات عن تلك الخطوط . وفي هذه الاثناء كان الجنود الاتراك يروحون ويجيئون دون ان يعيرونا أي انتباه .

وعند زاوية المطار ، في الطرف الجنوبي من المحطة ولجت إلى داخل المدينة . كان يوجد هناك أكواخ قديمة ، يدور حولها الرجال . فعمد أحدهم ، وهو جندي سوري ، إلى القاء أسئلة عن قوانا لمعرفة مدى قوة «الحكومة» حيث نعيش وقد كان ، كما لاحظت ، من اولئك التائقين إلى الهرب من الجيش التركي ، وهو يبحث عن وسيلة أمينة لذلك . ولكننا استطعنا أخيراً ان نتخلص منه ونتابع سيرنا وتجسسنا . غير اننا ما كدنا نبتعد حتّى سمعنا صوتاً ينادي بالتركية ، ولما حاولنا تجاهل ذلك ، أسرع أحد الرقباء وأمسكني بذراعي قائلاً : «البيك يطلبك» . لم يكن هناك مجال للهرب أو للعراك لكثرة الشهود ، ولذلك أطعت وتبعت الرقيب بينما بقي فارس حيث هو دون أن ينتبه اليه أحد .

وراء السور كانت تقوم أبنية المعسكر . قادني الرقيب إلى أمام احدها حيث كان يجلس ضابط تركي قدمني اليه بعد ان أجرى معه حديثاً طويلاً بالتركية . سألني الضابط عن اسمي ، قلت :

— «أحمد بن بكر ، شركسي من القنيطرة .»

— «انت فراري ؟»

— «نحن الشركس ، لا نخضع للخدمة العسكرية .»

وعلى الاثر فغر فاه صارخاً :

— «كذاب . خذه شاويش حسن ، وافعل اللازم حتّى يرسل

البيك في طلبه . »

اقتادوني إلى قاعة كبيرة فيها عدد من الجنود الوسخي الثياب ، ثم انتزعوا مني حزامي وخنجري وأمروني بالاغتسال ، ثم قدّموا لي شيئاً من الطعام . بقيت هناك طول النهار رغم كل محاولاتي الخروج بأي ثمن . وكل ما فعلوه من أجلي هو محاولة تطميني ، وقولهم بأن حياة الجندية ليست بالسوء الذي أظن . وبعد ذلك قالوا قد تحصل على اذن بالخروج غداً إذا اشبعت في هذا المساء رغبات البيك . بدا لي ان هذا البيك هو الحاكم الناهي وأضافوا قائلين : « إذا لم يكن راضياً فسترسل إلى مدرسة المشاة في بعلبك » . تظاهرت بالبله وسعيت جهدي لاخفاء شخصيتي .

وخلال السهرة جاء ثلاثة رجال في طلبي فظننت ان الفرصة قد جاءت كي أهرب ، ولكن ظني خاب وبقي الحراس ممسكين بي ونحن نجتاز الممر ثم الخطوط الحديدية ، لنصل إلى دارة من طبقتين يحرسها عدد كبير من الجنود . أدخلوني إلى غرفة « البيك » في الطابق الأول ، وكان ساعئذ متمدداً فوق سريره في ثياب النوم ، يرتجف ويتصبب عنه العرق كأنه مصاب بالحمى . لم يرفع رأسه ساعة دخولنا ، وكل ما فعله أن أومأ إلى الحراس بالخروج ، ثم عاد إلى صمته بعد أن أشار إلي بالجلوس قبالته على السجادة . وبعد برهة رفع رأسه وبدأ يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي ، ثم طلب إليّ أن أقف وأستدير . فأطعت ، وإذا به يأخذني بين ذراعيه عنوة ، فتملصت بعد أن تبينت غايته ، ووقفت قبالته يملأني الحبور لاكتشافي بأنني كنت نداً له ، في العراك على الاقل ...

أخذ « البيك » عندئذ يلاطفني ويتغزّل بقوامي ولون بشرتي الابيض واستدارة قفاي ، ثم وعدني باعفائي من الخدمة العسكرية والسخرة مجزلاً لي العطاء ... كل هذا مقابل اشباع رغباته الجنسية الشاذة .

ولما قابلته بالعناد والصمم غيّر لهجته وأمرني بخلع سروالي . وعندما لاحظ تردّدي انقض عليّ فرددته . عندئذ صفق بيديه منادياً الحارس الذي دخل فوراً وأوثق ذراعي ببعضهما . في هذا الوقت كان البيك يكيل لي الشتائم المقذعة ، ثم أمر الحارس بتمزيق ثيابي ففعل . وعلى الاثر ظهرت آثار اصابتي الاخيرة بالرصاص والشظايا فاعترى البيك الذهول . ولكنه سرعان ما استعاد رشده وعاد إلى التطلع النهم إلى جسدي العاري . عندئذ عيل صبري فهجمت عليه وضربته بركبتي على بطنه فتراجع ليرتمي على السرير مزمجراً من الالم فيما كان الحارس يستغيث برفاقه ورئيسه . دخل هؤلاء وأوثقوا لي رجلي بعد يدي . ولما لم يعد في امكاني القيام بأية حركة مقاومة استأسد البيك من جديد وبصق في وجهي ، ثم خلع خفه وراح يصفعني بـه على وجهي متوعداً . بعد ذلك اغرز أظافره في عنقي ثم اسنانه . وبعد ذلك قبّلني . ولما أشبع رغبته هذه استلّ حربة الحارس وأخذ ينكزني بها ، فصرخت من الألم ، فيما كان الدم يسيل على فخذي . وقد بدا على البيك انه مغتبط جداً بمـا يفعل .

بلغ مني اليأس أقصاه ، فتكلمت . وعلى الاثر تغيرت ملامح وجهه وقال بصوت الواثق :

— « يجب ان يكون معلوماً عندك بأنه من الافضل لك الاستجابـة إلى رغباتي . »

ولما رفضت من جديد أمر رئيس الحرس بجلدي . فاقتادني إلى غرفته متوعداً ثم انقض علي بسوطه جلداً مبرحاً حتى أدركه التعب فكلف رجاله بمتابعة الجلد . واستمروا في عملهم هذا حتى فقدت الوعي . وفي الصباح التالي أيقظتني رفسة رئيس الحراس ثم سوطه ينهال عـلى جسدي الممزق من جديد . وبعد ان تعب من ذلك أمر ثلاثة من رجاله

بأن يمسك اثنان منهم برجلي والثالث برأسي ويشدّ كل إلى جهة .
وفيما هم ينفذون الامر طلبني البيك ، فغسلوا لي وجهي ومسحوا الدماء
عن جراحي ، ثم نقلوني اليه . ولكن منظري أرعبه فأمر بارجاعي واحتفظ
برئيس الحراس الوسيم في غرفته لبعض الوقت . أخذوني إلى تخشيبة وراء
دارة الحاكم لقضاء ليلتي الثانية هناك وكلّفوا خياطاً ارمنيـاً بتضميد
جراحي . ولكن واحداً من الحراس تبيّن لي من لهجته انه درزي همس
في أذني قبل انصرافه بأن الباب لن يقفل بالمفتاح .

بقيت نائماً منهوك القوى حتّى التباشير الاولى من الفجر إذ أيقظني
من سباتي وأعادني إلى الحياة صوتُ قاطرة تتحرك . اكتشفت عندها
بأن آلامي قد زالت ، فتطلعت حولي ، ثم تحرّكت وقمت لأرتدي
شيئاً على جسدي ، فلم أجد سوى ثياب رثة سارعت إلى ارتدائها كيف
ما كان ، وقفزت من النافذة ثم من على السور ، ورحت اركض باتجاه
القرية ، بأسرع ما يمكن . وعند الجسر كان يوجد عدد من الآبار
شربت من احداها وغسلت وجهي ، ثم تابعت سيري السريع في الوادي
باتجاه الجنوب حيث أصبحت في منجى عن الانظار . وقد بدا لي
الوادي وأنا أجتازه انه الطريق الاصلح للقيام بغارة مفاجئة مباغتة على
درعا . وهكذا أثناء هربي تمكنت ولو متأخراً ، أن أحلّ المشكلة التي
من أجلها جئت إلى المدينة .

صادفت وأنا في طريقي إلى القرية رجلاً يركب جملاً فرجوته ان
يركبني خلفه لألم في قدمي ، ففعل ، شفقة عليّ . وفي القرية وجدت
فارس وحليم قلقين جداً ، فقصصت عليهما كل ما صادفني في درعا .
وأثناء الليل أعددت العدة لرؤية الجسر الحجري الكبير ، الكائن قرب
بيت نسيب . وبعد ذلك ركبنا مطايانا وعدنا إلى الازرق .

٨١

قبيل وصولنا إلى الازرق سبقنا إلى هناك « كسوري » امير صلخد الدرزي . وكانت هـذه أول زيارة يقوم بها للشريف علي ، روى لنا خلالها نهاية قصة الامير عبد القادر الجزائري . ومن القصة تبيّن لنا ان عبد القادر بعد تركه صفوفنا توجه إلى صلخد ودخلهـا دخول الفاتحين تحت الراية العربية ووسط استعراض كبير جعل أهـل القريـة يذهلون ، والحاكم التركي يحتج بشدة على اعتبار ان مثل هذه المظاهرات تُعَدّ تحدياً له وإهانة لشخصه . وفيما كان الحاكم يزوره في الديوان الذي اتخذه لنفسه أعلن عبد القادر ان سلطة الشريف فيصل قد شملت جبل الدروز برمّته ، وانه أي عبد القادر قدم إلى صلخد ممثلاً عنه ، وهو يرى بأن يبقى كلٌّ في وظيفته .

وفي صباح الغد قام عبد القادر باستعراض آخر عبر المنطقة جعـل الحاكم الصبور يقدم شكوى جديدة . وعندئذ استلّ عبد القادر سيفه المكي المرصع بالذهب وأقسم بأنه سيقطع بـه رأس جمال باشا . فلامه الدروز الحاضرون على ذلك وقالوا بأنهم لا يقبلون أن تقال مثل هـذه الاشياء في بيوتهم وأمام صاحب السعادة الحاكم . وعلى الاثر طـار صواب عبد القادر وراح يكيل لهم الشتائم ويقذفهم بأقذع الكلمـات والصفات الامر الذي أغضب الدروز كثيراً . ولكن عبد القادر لم يكترث بل خرج من المنزل وامتطى حصانه مع مرافقيه السبعة صائحاً بأنه يكفيه ان يضرب قدمه في الارض حتى يهب جبل الدروز هبة واحدة للوقوف بجانبه .

ودائماً مع مرافقيه السبعة قـاد الغرور الامير عبد القادر إلى درعـا التي دخلها على الطريقة ذاتها . وبما ان الاتراك كانوا على علم سـابق

بهوسه فقد تركوه يفعل . وعندما أخبرهم بأننا سنهاجم جسر تل الشهاب في وادي اليرموك لم يأخذوا ذلك على مأخذ الجد . ولكن ما ان أكدت الاحداث أقواله حتى غيّروا رأسهم وأرسلوه وسط حراسة مشددة إلى دمشق . وهناك استقبله جمال باشا وسخر منه مـا طاب له ذلـك ثم أطلق سراحه بعد أن نال وعداً منه بالعمل لمصلحة الاتراك عن طريق اثارة السكان المحليين وتشويه غاية الثورة العربية .

كان الطقس في الازرق رديئاً جـداً في تلك الايام لمـا فيها من برد وثلوج وعواصف وجليد ... لذلك لم يكن في امكاننا القيام بأي عمل سوى الصلاة وتبادل الآراء والاحاديث ، وفض مشاكل البدو والقرويين . وبعد ان طال أمد ذلك قررت ان أسافر إلى الجنوب لأرى مـا إذا كان من الممكن عمل شيء في منطقة البحر الميت .

أعطيت ما كان قـد تبقى معي من أموال إلى الشريف علي ليصرف منه على رجـاله حتى الربيع ، وتركت الهنود في عهدته كذلك . وبعد ذلك أعددت العدة للسفر وودّعت علياً وداعاً مؤثراً . ثم توجهت إلى الجنوب يرافقني خادمي رحيّل .

تركنا الازرق مع غروب الشمس . وسرعان ما تبيّن لنا ان رحلتنا ستكون شاقة لأن مياه الامطار كانت قـد غمرت كل الطرقات بشكل جعل المسير فوقها أمراً في غاية الصعوبة . وقـد تمكّنا من وادي بطم ولم نصل إلى « الغدف » إلاّ عند منتصف الليل . وهنا بدا لنا ان متابعة السير أصبحت من المستحيلات نظراً للانهاك الذي أصابنا . فقررنا ان نبيت في « الغدف » بين الاوحال ريثما ينجلي نور الصباح . ولما استيقظنا مع الفجر وجدنا ان الرياح تعصف بشدة ، ولكن الامطار كانت قد انقطعت والارض بـدأت تجف ، فسارعنا إلى ركوب مطـايانا مغتنمين فرصة الجفاف الثمينة هـذه . وبعد الظهر وصلنـا إلى سفوح « ثـلاث اخوات » .

وفيما نحن نحث الخطى نزل علينا فجأة اربعة رجال من على المنحدر وقطعوا علينا الطريق مدّعين انهم من الحويطات . ولكنهم كانوا يكذبون لأن وسم جمالهم كان يدلّ على انهم من بني فايز . وكي اتخلّص منهم لجأت إلى الحيلة متظاهراً بالبله . ولما داهمنا الليل كنا قد وصلنا إلى وادي « باير » فتوقفنا نصف ساعة ثم تابعنا المسير العسير في مثل تلك الليالي المطرة الباردة رغم احساسي بأن حرارتي كانت مرتفعة من جرّاء الحمى ورغم توسلات « رُحيّل » بالتوقف حتى الصباح .

وعندما انبلج الفجر كنا قد وصلنا إلى الجفر يلفنا ستار كثيف من الضباب . وفي الساعات الاولى من النهار وصلنا إلى مخيم « عودة » ، فتوقفنا للتحية ولتناول شيء من تمر الجوف . وبعد استراحة وجيزة ركبنا من جديد على أمل اجتياز الخط الحديدي في تلك الليلة . ولكنا ضللنا الطريق وكدنا نقع في أيدي الاتراك قرب مخفر « ابو اللسن » واضطررنا للنجاة ان نقوم بدورة كبيرة أوصلتنا إلى « بترا » . وفي القاع توقفنا ساعة للقيلولة لعلمنا بأنه بات من المتعذر علينا الوصول إلى « العقبة » في مدة ثلاثة أيام

وعند منتصف الليل وصلنا إلى « العقبة » حيث قضينا باقي ليلتنا خارج المعسكر . وفي الصباح دخلت على « جويس » وهو يتناول فطوره .

فيما بعد جاءت أوامر مشدّدة تطلب إليّ التوجه على جناح السرعة إلى فلسطين . فنقلني « كروال » على متن طائرته حتى السويس ومن هناك توجهت إلى المقر العام لقيادة « اللنبي » بالقرب من غزة . وكنت أقدّم تقريراً له عن فشل خطتنا في وادي اليرموك عندما جاءته رسالة سريعة من « شتوود » يُعلمه بسقوط القدس . فقرر على الاثر دخول المدينة في احتفال استعراضي مهيب دعاني إلى المشاركة فيه كضابط في الاركان البريطانية العامة . وكان هذا كرماً زائداً منه .

الجزء السابع

٨٢

حملة الشتاء

بعد الاستعراض عدنا بالسيارة إلى القيادة العامة . وفي الحال سارع الجميع هناك إلى سلال الاطعمة الباردة وساد جوّ من الصمت حيث انصرف الجميع إلى تناول الطعام . وفجأة قطع الصمت دخول السيد « بيكو » الممثل السياسي الفرنسي الذي كان « اللنبي » قد أذن له بالمسير إلى جانب « كليتون » اثناء الاستعراض ، وقال : « ابتداء من الغد يا عزيزي الجنرال سأتخذ الاجراءات اللازمة من أجل اقامة حكومة مدنية في القدس . »

لم يعرف التاريخ ، مطلقاً ، كلمة تصدر بهذه الجرأة . وتلا ذلك صمت رهيب جعل الافواه تبقى مفتوحة من الذهول ، فيما استدارت الانظار كلها تجاه الجنرال « اللنبي » الذي بدا في تلك اللحظة عاجزاً عن الرد . وبدأ يساورنا القلق . وفجأة تورّد وجهه وقال بجفاف : « لا يوجد

في المنطقة العسكرية سوى سلطة واحدة هي سلطة الجنرال القائد العـام أي سلطتي أنا . » فتمتم بيكو : « والسير غراي ، السير ادوارد غراي » فقطع اللنبي عليه كلامه بقوله : « السير ادوارد غراي سيهتم بالحكومة المدنية التي ستقوم عندما أرى الوقت مناسباً لذلك . »

بعد تناول الطعام ركبت إلى جانب « اللنبي » و « داني » في السيارة للقيام بجولة استطلاعية والعودة إلى المعسكر . وأثناء ذلك علمت منهما ان القوات البريطانية التي وصلت إلى الجبال الكائنة بين الرملة والقدس باتت تتقدم ببطء نظراً لوعورة المسالك ومقاومة الاتراك العنيفة في تلك المنطقة . ولشدّ ازر القوات البريطانية كان « اللنبي » يرغب منا اذن أن نتجه شمالاً نحو البحر الميت ونحاول الاتصال بجناح قواته الايمن وتكوين جبهة واحدة معه إذا كان ذلك ممكناً . ولحسن الحظ كنت قد واجهت امكانية القيام بمثل هذه المحاولة مع فيصل الذي كان يعد هجوماً على طفيلة كمرحلة اولى ضرورية .

وقد رأيت الوقت مناسباً ان اسأل « اللنبي » عما يعتمد ان يفعله فيما بعد . فأجابني بأنه سيتريّث حتى أواسط شباط ثم يشنّ هجومه على « اريحا » . ولما كان القسم الاكبر من امدادات العدو يأتي عن طريق البحر الميت فقد طلب إليّ « اللنبي » اعتبار وقف هذه الامدادات هدفاً ثانياً إذا نجحت مهمتنا في طفيلة . كنت آمل ان أفعل أكثر من ذلك فأجبت : إذا استمر الاتراك في خوفهم وقلقهم يمكننا الاتصال بالجيش البريطاني عند طرف البحر الميت الشمالي ، وإذا كان من الممكن تسليم الخمسين طناً من المؤن والذخائر اللازمة يومياً لفيصل في اريحا فقد نترك « العقبة » ونتخذ من احدى قرى وادي الاردن مقراً جديداً لنا لنكون على مقربة من العمليات بعد ان أصبح الجيش العربي قادراً على حماية ساحتنا على الضفة الشرقية .

راقت الفكرة للجنرال « اللنبي » و « داني » . فتسهيلات التموين هذه

تمكنهم بكل سهولة منحنا إياها بمجرد اصلاح الخط الحديدي المؤدّي إلى القدس في أواخر كانون الثاني . وبعد شهرين من ذلك التاريخ يصبح في مقدورنا نقل مقرنا العام إلى وادي الاردن .

من هذه المحادثة خرج برنامج واضح المعالم . على العرب ان يصلوا إلى البحر الميت في أقرب وقت ممكن . وعليهم بعد ذلك ان يقطعوا خط التموين التركي عن اريحا قبل أواسط شباط . كما ان عليهم اخيراً ان يصلوا إلى وادي الاردن قبل نهاية شهر آذار . لتنفيذ المرحلة الاولى كان يلزم شهر كامل من الاستعداد ولكن بما ان كل التدابير التمهيدية قد سبق لنا واتخذناها فقد رأيت انه في امكاني الحصول على اجازة قصيرة . وهكذا فقد توجّهت إلى القاهرة وأمضيت أسبوعاً كاملاً في التدرب على المتفجرات .

بعد مرور اسبوع رأيت انه من الانسب العودة إلى « العقبة » الـتّي وصلتها صباح عيد الميلاد . كل شيء على ما يرام ، قال لي جويس ، فالوضع قـد تحسّن كثيراً وتغير تغيراً محسوساً بعد انتظار مولود . لقـد تجمّع الاتراك في « ابو اللسن » في البدء . ولكننا بغاراتنا المتواصلة على الخط الحديدي أجبرناهم على التقهقر إلى جنوبي معان . ولما كـان عبد الله وعلي يضيقان عليهم الخناق كذلك من جهة المدينة المنورة فقد اضطر الاتراك لنقص في الرجال إلى سحب بعض قوات « ابو اللسن » ودعم المراكز المهددة .

أفاد « مولود » كثيراً من هذا الانسحاب ، فأقام له مراكز كشافـة على الهضبة ، وقطع طريق التموين على « معان » بسطوه على ما كانت تحمله القوافل اليها . وقـد سببت هذه الاعمال الكثير من القلق للعدو فاضطر لأن يسحب عدداً آخر من قواته الـتّي حشدها في « ابو اللسن » .

وهكذا فقد حان الوقت لأن يصبح الاتراك أضعف من أن يستطيعوا

الصمود والدفاع عن مركز مهم كبير كأبي اللسن . وفي أول كانون الثاني (يناير) تولّى « مولود » طرد العدو إلى المريجة ، فانقضّ البدو على مؤخرته وفتكوا بها . بينما سارع الباقون إلى « وحيدة » الواقعة على مسافة ستة أميال من « معان » . غير ان جنودنا تبعوا العدو إلى هنـاك فاضطر إلى الانسحاب إلى « سمنة » على أبواب معان . وهكذا في السابع من كانون الثاني (يناير) كان مولود ورجاله يدقّون أبواب معان ، ويزرعون قلوب الاتراك هلعاً وخوفاً .

لقد أتاح لنا تطور الاوضاع بهذا الشكل ان ننعم بعشرة أيام من الراحة ، فقررنا ان نذهب أنا و « جويس » في رحلة استجامية استطلاعية إلى « المدوّرة » على متن سيارة بعد ان شقّ « جلبان » و « دوسيت » ورجالهما المصريون الخمسون طريقـاً إلى « قويرة » . واخترنا لـذلك سيارتين من ماركة « رولز » زودناهما بكل ما يلزم لرحلتنا التي ستستغرق أربعة أيام ، ثم انطلقنا بسرعة ١٠٥ كلم بالساعة . وقضينا ليلتنا الأولى في وادي « ابو صوّانة » . وفي صباح اليوم التالي توجهنا إلى « المدورة » فوصلنا إلى مقربة منها بسهولة فائقة شجعتنا على العودة والتزود بالسيارات المصفحة ومدافع الجبال للقيام بعملية مباشرة . وفي الغد انطلقنا من قويرة من جديد لنصل إلى حيث عسكرنا في الامس على مقربة من المدورة عند غروب الشمس . ومع تباشير الصباح الاولى خرجنا نجوب الجوار للاستكشاف ، وعند المساء وقع اختيارنا على مكان مناسب تحجبـه التلة الاخيرة بالقرب من « تل شحم » ، المحطة الثانية إلى الشمال من المدورة .

فكرنا في البدء ان ننسف احد القطارات ، ولكن المنطقة بدت لنـا مكشوفة والدوريات التركية تجوبها باستمرار وبكثرة . فقررنا ان نهاجم نقطة صغيرة محصنة أمامنا تحميها بعض الخنادق . وبعد ان أكملنـا استعداداتنا ووقفنا أنا « وجويس » نرقب العملية عن كثب . بدأت مدافعنا

الستة تقصف الهدف ، ومصفحاتنا تهاجمه وتسير عليه كأنها كلاب مسعورة . كانت المفاجأة مذهلة على الاعداء فراحوا يطلقون نيرانهم دون تسديد ولكنهم عاندوا ولم يستسلموا ونحن لم نكن نرغب في حملهم على ذلك فانسحبنا بعد جولة صغيرة إلى الاعلى ، ثم إلى أسفل الخط كي نستطلع جيداً . وبعد ذلك ونزولاً عند رغبة رجالنا المتعطشين إلى القتال والنصر تقدمنا إلى الجنوب حتى أصبحت « شحم » قبالتنا . ومن هناك قصفنا المحطة بعدد من القنابل حمل الاتراك على الانسحاب منها والهرب نحو نقطة حصينة قريبة . وهكذا أصبحنا أسياد المحطة وبات في امكاننا الدخول اليها بدون أقل عناء . ولكن بما ان ذلك لا فائدة منه فقد قررنا الرجوع نحو الجبال . فالمشكلة التي كانت تشغلنا كانت الوصول إلى الخط ، مع عتادنا (مدافع مصفحات) من خلال عقبات السهل والجبل . وما ان عثرنا على حل لهذه المشكلة ، حتى عجزنا عن التفكير بما يجب عمله .

كان الخط على مسيرة يوم من قويرة بالنسبة لنا كما ان النقل عليه أصبح تحت رحمتنا . والقوات التركية الموجودة في الجزيرة العربية متجمعة لم يكن في مقدورها مواجهة سيارة مصفحة واحدة في أرض مكشوفة كالتي نسيطر عليها . وهكذا فجأة تحوّل الوضع في المدينة من سيء إلى اسوأ ، بالنسبة للعدو ، بل أصبح لا يرتجى منه شيء . وكانت الاركان العامة الالمانية قد تأكدت من ذلك . وبعد زيارة « فولكنهاين » لـ « معان » ، حثت الاتراك مراراً على التخلي عن كل مواقعهم جنوب هذه النقطة . ولكن الاتراك أصرّوا على البقاء في المدينة . فهي كل ما تبقى لهم من سيادة على الاماكن الاسلامية المقدسة والحجة الوحيدة للاحتفاظ بلقب الخلافة .

وفي المقابل كان الانكليز مصممين على الاستيلاء على المدينة المنورة . لذلك ما انفكوا يقدّمون إلى عليّ وعبد الله كل ما يطلبانه من مال

ومتفجرات من أجل العمليات التي يقومان بها ضد الاتراك انطلاقاً من قاعدتهما في ينبع .

٨٣

بعد عودتي إلى « العقبة » كرّست الايام الباقية لتنظيم شؤوننا الخاصة . وكان أول ما فعلته تشكيل فرقة لحراستي الشخصية بعد أن شاع صيتي وذاع ، وبات معروفاً انني شخص ذو أهمية . عندما بدأنا أعمالنا منطلقين من رابغ وينبع كان الاتراك يبدو عليهم حب الاستطلاع ثم الضجر . وأخيراً قرّ رأيهم على القول بأن الانكليز هم الذين حرّكوا الثورة العربية ويتولون قيادتها . وكنّا نحن نتملق أنفسنا كذلك بردنا القيمة التركية العسكرية إلى وجود النفوذ الالماني في تركيا .

على كل حال كثيراً ما ردّد الاتراك هذه القصة إلى درجة أصبحت معها أمراً مقبولاً كأركان الايمان ، وبدأوا يقدّمون جوائز من ١٠٠ ليرة ذهبية ثمناً لرأس أي ضابط بريطاني ميتاً كان أم حياً . وفيما بعد زادت قيمتي في نظرهم فجعلوا لرأسي ثمناً خاصاً ضاعفوه بعد استيلائنا على العقبة . وبعد نسفنا لقطار جمال باشا بات ثمن كل منا أنا وعلي عشرين ألف ليرة ذهبية أحياء وعشرة آلاف ليرة أموات . وهكذا جمّعت حولي فرقة بلغ عدد أفرادها التسعين نصفهم من بني عقيل كنت أدفع لكل منهم ست ليرات استرلينية في الشهر . اخترتهم فرداً فرداً مع مطاياهم بصورة دقيقة جداً . وكان في امكان الواحد منهم ان يصل سير النهار بسرى الليل دون أن يشكو تعباً أو عناء ، ويمكنه في ظرف نصف ساعة فقط ان يستعد لسفر قد يدوم ستة أسابيع ، هي الحد

الاقصى للسفر في الصحراء . ومن الجدير بالذكر ان رجالي هؤلاء كانوا ينتسبون إلى ثلاثين قبيلة مختلفة بينها دماء ثأر ولولا سهري عليهم وتشددي لقتلوا عدواً جديداً في كل يوم . كان تباغضهم يمنعهم من التكتل ضدي ، كما كان الخلاف المستحكم بينهم ييسّر لي ولمبعوثي ايجاد جواسيس لنا في كل مكان بين العقبة ودمشق وبئر السبع وبغداد . وستون منهم ماتوا في خدمتي .

٨٤

بعيداً عن خط النار في « العقبة » كان في امكاننا ان نرى الوجه الآخر للوسام . لذلك غمرتنا السعادة أخيراً عندما تحررنا وخرجنا إلى جبال « قويرة » .

كان أول فصل الشتاء هذا يمنحنا اياماً مشمسة دافئة تارة ، وطوراً أياماً قاتمة ، كثيفة الغيوم لاسعة البرد .

بقينا في « قويرة » حتى جاءنا الخبر بأن العمليات ضد طفيلة قد بدأت . وكانت « طفيلة » مركزاً مهماً يشرف على الطرف الجنوبي من البحر الميت . وكنا قد قررنا أن نعمل من ثلاث جهات : الغرب والجنوب والشرق . على أمل ان نبدأ من الشرق بمهاجمة ابجوف أقرب محطة على خط الحجاز الحديدي . وكانت مهمة قيادة هذا الهجوم قد أنيطت بالشريف ناصر المحظوظ يرافقه نوري السعيد رئيس اركان حرب جعفر وبعض القوات النظامية مع مدفع وعدد من الرشاشات . كان الشريف ناصر قد اتخذ من الجفر قاعدة له وخلال ثلاثة أيام وصل رسوله . وكالعادة تبين ان ناصر قد قاد حملته بدقّة وكفاءة . أما

« الجوف » ، هدف الحملة ، فقد كانت محطة محصنة ، تضمّ ثلاثـة مبان حجرية وعدداً من مراكز المراقبة والخنادق يحميها من الوراء مركز مراقبة حصين أقيم فوق تلة وزُوّد بمدفع وعـدد من الرشاشات . وكانت وراء هـذه التـلة ترتفع قمة عالية هي الاخيرة التي تفصل بين « الجفر » و « باير » .

هنا في هذه القمة كانت تكمن نقطة الضعف في الدفاع التركي . فالاتراك لقلة عددهم لم يكن في امكانهم الدفاع عن المحطة والقمة الجبلية في وقت واحد . غير ان هذه الاخيرة كانت تشرف على المحطة حيث فضّل ان يحتشد الاتراك . وذات ليلة احتلّ ناصر ورجاله دون أي عناء تلك القمة ، ثم قَطع الخط الحديدي قبل المحطة وبعدها وعزلها عن كل اتصال . ومع تباشير الصباح الاولى فاجأت قنـابل مدفع نوري السعيد المركز التركي الحصين فوق التـلة القريبة وأسكتت إلى الأبد المدفع التركي الذي كان مقاماً هناك .

على اثر ذلك طار ناصر فرحاً ، وهبّ بنو صخر إلى مطاياهم منقضّين على العدو الذي ما زال متحصناً وراء خنادقه رغم محاولات نوري السعيد الذي ردعهم عن هذا العمل الجنوني . غير ان العدو ما ان رأى هذا الهجوم الصاعق حتى خـاف سوء المصير ، وفرّ محاولاً الالتجاء إلى المحطة . وقـد أسفر هـذا الهجوم في جانبنا عن جرح اثنين جروحاً بليغـة .

صوّب نوري السعيد بعد ذلك نيرانه على المحطة وقصفها قصفـاً شديداً بالقنابل ، فيما كان بنو صخر يتابعون انقضاضهم الجنوني عـلى العدو . وأسفرت النتيجة عن سقوط المحطة واستسلام مائتي تركي بينهم سبعة ضباط .

أما الغنائم فقد كانت وفيرة : اسلحة ، ٢٥ بغلاً ، مؤناً معدّة لضباط المدينة المنورة ، ٧ مقطورات مشروبات ، سجائر ، لحومات

باردة الخ ..) .

وبعد عملية النهب التي اشترك فيها الجميع عمد جنود الهندسة إلى نسف قاطرتين وخزان المياه والمضخة ومفاتيح وصل الخطوط وجسر قريب . وكالعادة بعد النصر كانت الاحمال ثقيلة فخيمنا وراء المحطة التي أضرمنا النيران في مبانيها . وحوالى منتصف الليل سمعنا انذاراً ثم ظهرت أنوار قطار قادم من جهة الجنوب . وبعد لحظات توقف القطار عند المكان الذي كنا قد قطعناه في الليلة الفائتة . فأرسل « عودة » كشافة للمراقبة عن كثب ، وما كاد الكشافة يعودون حتى دخل على مخيمنا رقيب جاء يطلب الانضمام إلى جيش الشريف . وكان هذا قد جاء من قطار للنجدة ارسله الاتراك للاستكشاف في المحطة . وروى لنا هذا الرقيب ان قطار النجدة يحمل ستين جندياً فقط مع مدفع واحد ، ثم وعد بتسليمنا القطار دون قتال إذا تركناه يعود إلى رفاقه بأخبار مطمئنة. وعلى الاثر استدعى بدوره رجال الحويطات وذهب على رأسهم لأعداد الفخ . غير ان كشافتنا ، وقد دفعهم الهوس إلى مهاجمة القطار كانوا قد فتحوا نيرانهم على العدو دون الرجوع الينا فسارع سائق القطار إلى تغيير اتجاه سيره ، وقفل عائداً إلى معان . وكان هذا هو الشيء الوحيد المكدّر الذي واجهنا في الجوف .

بعد هذه الغارة ساء الطقس من جديد واستمرّ تساقط الثلج ثلاثة أيام متتالية . فعاد ناصر ورجاله إلى مخيمهم في الجفر ، وهم في حالة يرثى لها من الانهاك تصطك أسنانهم من شدة البرد .

من ضمن مخططنا كان في حالة نجاح مهمتنا في الجوف ارسال قوة من عرب بترا بقيادة الشريف عبد المنعم ، إلى شوبك ، عبر الغابات والجبال . وقد تمّ ذلك رغم سوء حالة الطقس وتعذّر المسير في الغابات وعلى طرقات الجبل الوعرة .

وما ان رأى العدو رجالنا الشجعان يتقدمون برباطة جأش رغم كل

الصعوبات والاهوال حتى داخله الخوف والرعب وخرج من مخـابئه ومغاوره حيث كان يحتمي محاولاً الوصول إلى الخط الحديدي قبل أن يقع في أيدي رجالنا . غير ان عبد المنعم تبع العدو إلى هناك وقصفه بالمدافع مرغماً إياه على الاستسلام بعد وقوع الكثير من الضحايا . وبعد ذلك استولى العرب على مخازن « شوبك» القائمة فوق قمة مرتفع مشرف على واد متعرج . ثم اتخذ عبد المنعم من ذلك المكان الاستراتيجي مقراً عاماً له واخبر ناصر بذلك « مستور » الذي هبّ على رأس رجاله يجتاز الممر الشرقي في طريقه إلى طفيلة .

غير ان ناصر ربح قصب السباق فقد انطلق من الجفر مجتازاً المسافة كلها في مرحلة واحدة ، وبعد سرى ليلة عاصفة أطلّ مع خيوط الفجر الاولى على الوادي الذي يلتحف طفيلة ثم انذر القرية بالاستسلام تحت طائلة القصف بالمدفعية . لم يكن الاتراك سوى ١٨٠ شخصاً في القرية . ولكن كان يقف إلى جانبهم بنو مُحَيْسِن ، ليس حباً بهم ، بل نكاية بخصم محلي ، هو ذياب الذي أعلن ولاءه لفيصل . وهكذا كان الرد الذي تلقّاه ناصر من قعر الوادي طلقة طائشة .

لكي يردّ عرب الحويطات على النار تحصّنوا وراء حاجز صخري . ولكن هذا لم يرضِ « عودة » الليث العريق الذي استشاط غضباً لأن قرويين مأجورين قـد تجرأوا على الوقوف في وجه بني تايه اسيادهم التقليديين . وما هي إلاّ لحظات حتى شوهد « عودة » بعدها يهزّ زمام فرسه ثم يهبط كالسيل العرم إلى الوادي حيث تقوم بيوت القرية ويقف في مواجهة تلك البيوت مهدداً متوعداً : « أيها الكلاب ، ألا تعرفون عودة ؟ » وما ان عرف الاهالي صوته المزمجر الراعد حتى خـانتهم قواهم وارتعدت فرائصهم . وبعد مضي ساعة واحدة فقط على هـذا التهديد كان ناصر يحتسي كوباً من الشاي في منزل مضيفه حاكم القرية التركي وقد استسلمت القرية دون قتال .

في الليلة التالية وصل « مستور » إلى القرية . ولكن رجاله من المطالقة عندما رأوا أخصامهم بني تايه يحتلون أفضل المنازل بدأ الشرر يتطاير من عيونهم . فاضطر الشريفان تحاشياً لكل اصطدام ان يفصلا بين القبيلتين .

وفي صباح اليوم التالي استفاق الاهالي على تخاصم القبيلتين وتبادلهما الشتائم والتهديدات . ومما زاد من خطورة الوضع في ذلك اليوم محاولة بني محيسن تأكد سلطانهم على أهل القرية الأمر الذي بدا صعباً بالنسبة للسنوسيين الذين استقدمهم الاتراك من شمالي افريقيا ومنحوهم أفضل الاراضي الزراعية ، وبالنسبة للمهاجرين الارمن الذين لجأوا إلى هناك بعد التنكيل الذي أصابهم على يد جماعة تركيا الفتاة في سنة ١٩١٥ .

ساد سكان طفيلة قلق رهيب في ذلك اليوم . وكنا نحن كالعادة تنقصنا المؤن وحيوانات النقل . وكان الاهالي يرفضون تقديم أي عون لنا . لذلك ساورني الاعتقاد بأنه في استطاعتهم ان يطردونا من قريتهم . ولكن ، لحسن حظنا لم يكن عندهم أي ميل للمقاومة . وهكذا كان عدم الاكتراث أقوى حليف للنظام الذي فرضناه . كان فيصل قد كلّف شقيقه الشاب زيد بقيادة هذا الهجوم على البحر الميت . وكانت هذه أول حملة لزيد في الشمال . ولذلك انطلق بحماسة زائدة لاستلام منصبه . وقد اختار جعفر باشا ليكون مستشاراً فنياً له . وعندما وصل زيد وجعفر إلى « طفيلة » كنا على قاب قوسين من الكارثة بسبب محاولة متعب وعناد الثأر لأبيهم عبطان من « عودة » الذي كان ابنه قد قتله فيما مضى . ولتلافي الكارثة عمد زيد إلى شكر « عودة » ثم دفع له نصيبه وطلب اليه الرجوع إلى صحرائه . وارسل بني محيسن ليكونوا ضيوفاً على أخيه فيصل . وبفضل المال الذي حمله زيد معه تحسّن وضعنا الاقتصادي . وبعد ذلك عينا أحد الضباط حاكماً ونظّمنا خمس قرى لتكون منطلقاً لنا في عملياتنا الحربية المقبلة .

٨٥

ومع ذلك سرعان ما حادت مخططاتنا عن الطريق التي رسمناها لها . وكنا لا نزال نتناقش عندما حاول الاتراك فجأة ان يستعيدوا طفيلة منا . فكانت هذه المحاولة كافية لاذهالنا . ولم يكن ليخطر ببالنا مطلقاً ان الاتراك يأملون أو يرغبون في الاحتفاظ بطفيلة . ف « اللنبي » كان قد دخل إلى القدس . والمخرج من الحرب بالنسبة للاتراك أصبح منوطاً إلى حد بعيد بدفاعهم عن وادي الاردن . وسواء سقطت اريحا أو لم تسقط فان طفيلة ستبقى قرية مغمورة لا تُعلّق عليها أية أهمية . ونحن أنفسنا لم نكن متمسكين بها ، وكل ما كنا نرجوه هو العبور منها إلى مواجهة العدو في المراكز الامامية . وفي وضع عسير كوضع الاتراك في ذلك الوقت بدت المخاطرة لاستعادة طفيلة عملاً جنونياً .

إلاّ أن حامد فخري باشا الذي كان يتولى قيادة القطاع الثامن والاربعين في جهة عمان كان يرى غير هذا الرأي أو تلقّي أوامر عليا . فحشد ثلاثة أفواج مشاة (حوالى ٩٠٠ نفر) ، ومائة فارس ، ومدفعين و ٢٧ رشاشاً ، ثم أرسلها إلى الكرك . ومن هناك ، سار لمهاجمتنا واسترجاع طفيلة . فكان ذلك مباغتة لنا كاملة ، ولم نشعر إلاّ وقد أصبح على مشارف القرية . وبناء على اقتراح جعفر أمر زيد باخلاء القرية أثناء الليل ، والتحصن وراء التلال المحيطة من جهة الجنوب . فساد القرية جوّ من الاضطراب والخوف والقلق لأن عودة الاتراك كانت تخيفهم . لذلك كانوا مستعدين إلى مساندة كل من يقف في وجه هذه العودة غير المرغوب فيها . وكنت أنا سعيداً لملاحظة ذلك لأنه يتفق مع رغبتي في البقاء في القرية والمقاومة بأي ثمن .

وأخيراً صادفت « متعب » و « عنّاد » شيخا بني جازي فأرسلتهما

للبحث عن عمهما حمد العرّار . ولما جاء هذا طلبت اليه ان يذهب إلى شمالي الوادي ويطمئن الاهالي بأننا سننجدهم إذا استمروا في المقاومة ، فتوجه إلى هناك على رأس عشرين من أتباعه بينما توجهت أنا إلى المرتفعات المقابلة لكي أتشاور مع الشريف زيد . كان الشريف زيد جالساً فوق صخرة هناك يراقب بمنظاره عن كثب سير المعركة بهدوء أعصاب غريب . وكنت أنا على العكس أتطيّر غضباً لأن الاتراك بعملهم هذا قد تخطّوا كل القواعد العسكرية . وراودني الاعتقاد بأن عددهم يجب أن لا يكون كبيراً لسرعة تحركاتهم ، لذلك اعتقدت بأننا سنتمكن منهم لأن الطقس والمكان والعدد كل ذلك كان إلى جانبنا . وبعد البحث والتدقيق وجدت ان أفضل تكتيك للقضاء على العدو هو رفض العراك معه وجرّه إلى فخ يتيح لنا تطويقه فيما بعد . فنصحت قبل كل شيء بارسال عبد الله مع مدفعي هوتشكيس لجسّ قوة العدو ومواقعه . فأصدر زيد أوامره بذلك وتسلق عبد الله المنحدر المقابل ثم أصلى الاتراك ناراً حامية اشعلت الحماسة في قلوب أهل القرية الفرسان المطالقة فأغاروا على الفرسان الاتراك وأجبروهم على التقهقر حتى مشارف الوادي .

في الواقع كان يتجمع القسم الأكبر من جيش الاتراك . ولذلك اضطر عبد الله على التوقف بعد أن واجهه العدو بسيل من القنابل . فأشرت على زيد بوجوب التقدم ومؤازرة عبد الله ولكنه آثر الانتظار ريثما تصل التعليمات من عبد الله نفسه . وبعد ذلك تقدمت بمفردي للاستطلاع ، وتسلّقت منحدراً قادني إلى رأس تلة مشرفة على الجوار ، وجدت انها تناسب جداً لأن تكون آخر خط دفاعي لنا نحشد فيها احتياطينا . وقد كلفت بذلك بني عقيل أتباع زيد الشخصيين وعددهم حوالى العشرين .

وفيما كنت أتابع استطلاعي في الشمال من جهة المعركة التقيت بعبد الله وقد جاء ينقل الاخبار لزيد . فقد نفدت منه الذخائر وفقد خمسة من

رجاله ، وحسب اعتقاده يوجد مع العدو مدفعان . وكان من رأيه أن يتقدم زيد ويواجه العدو في معركة مكشوفة ، فلم ازد شيئاً على ذلك وتركت أسيادي السعداء يتخذون قرارهم بأنفسهم . وفي انتظار ذلك انصرفت إلى دراسة المكان الذي ستدور فيه معركتنا القادمة . لقد كان سهلاً صغيراً تحيط به سلاسل من التلال المخضوضرة ويمر فيه طريق طفيلة — الكرك . وكان الاتراك يسيرون على هذا الطريق ببطء وهم يردّون على نيراننا بعد أن تمكن عبد الله من احتلال التلة الغربية واتخذها خطاً لنيراننا مؤقتاً . وفيما كنت أتطلع حولي رأيت جنود العدو يتسلقون التلة الشرقية وراء الخندق الذي يمر فيه طريق الكرك على أمل مفاجأتنا من الجانب الايمن .

٨٦

كنا نحن ستين شخصاً مقسومين إلى مجموعتين وراء التلة الاولى عند أسفلها والثانية عند أعلاها . في الاسفل كان يوجد القرويون المشاة الذين قالوا لي بأن ذخائرهم قـد نفدت ، ولم يعد في امكانهم الصمود ، فطمأنتهم بأن الأحوال ستتحسّن وان احتياطينا فوق التلة سيشغل العدو عنهم ريثما يتزودون بالذخائر اللازمة ويعودون إلى مراكزهم . توجهت بعد ذلك إلى القمة لأتفقد رجالنا هناك . كان على رأسهم الشاب متعب الذي سعى جهده كي يبرهن لنا عن مقدرته في معركته الاولى هذه . وفيما أنا أتحدّث إلى « متعب » أصلانا العدو ناراً حامية أجبرتني على التواري مع الطلب إلى متعب بالصمود لمدة عشر دقائق إذا كان ممكناً ، ففعل ثم أخلى المكان ولحق بي إلى التلة الثانية ، حيث كان يحتشد رجالنا من

بني عقيل .

كانت تلتنا هذه ترتفع حوالى ٤٠ قدماً وذات شكل مناسب للدفاع . وكان عليها ثمانون من رجالنا والآخرون يأتون تباعاً . كان حراسي هناك مع رشاشاتهم .وكان لطفي يُسرع الخطى إلى اللحاق بنا مع مائة آخرين من بني عقيل يحملون رشاشين . وعلى الاثر عمدنا إلى تركيز الرشاشات .

وبعد الظهر وصل زيد ومعه مستور وراسم وعبد الله على رأس خمسين فارساً من المطالقة ومائتين من القرويين وكانوا مزودين بخمسة رشاشات صغيرة واربعة كبيرة وبمدفع جبلي .

ما ان رأى الاتراك تجمعنا حتى فتحوا النار علينا ، فقررنا ان نتحرك وكلّفنا راسم أن يتولى قيادة خيالتنا الثمانين ويحاول تطويق جناح العدو الايسر من وراء التلة الشرقية . ثم عمدنا إلى اظهار رجالنا في الوسط كي لا نتيح للعدو فرصة ملاحظة حركة خيالتنا ورحنا نرد على نيرانه بالمثل . وفيما نحن كذلك جاءتنا نجدة تضم مائة رجل كلفناهم بتطويق جناح العدو الايسر ، من جهة الغرب .

نجحت خطتنا وفوجئ العدو بنيراننا تقصفه من الخلف ومن الامام ، فلم يعد يدري ماذا يفعل . وعلى الاثر أصدرنا أوامرنا إلى الهجّانة والمشاة من القرويين بأن يتقدموا فسار محمد الغاضب على رأسهم يحمل راية بني عقيل . وفيما كان راسم وخيالته يجبرون العدو على التقهقر نحو المنخفض كان رجالنا يحصدون الهاربين حصداً ، وكان قلب جيش العدو يتراجع مذعوراً أمام هجانتنا ومشاتنا المغيرين بقلوب عامرة بالحماسة . كانت حصيلة تلك المعركة الضارية التي انتهت بانتصاره مدفعين سكودا و٢٧ رشاشاً ، و٢٠٠ حصان وبغل ، و٢٥٠ أسيراً و٧٥٠ قتيلاً . ولم ينج من الاتراك إلاّ نفر قلائل استطاعوا الهرب نحو الخط الحديدي .

وفيما نحن عائدون إلى طفيلة أخذ الثلج يتساقط . ودامت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام متتالية لم نفعل خلالها شيئاً سوى الانتظار وارسال

تقرير بالنتائج إلى القيادة العامة في فلسطين نلت من جرائه وسام الاستحقاق ورضى القائد العام .

٨٧

كان الدرس الذي تعلمته من « الحسا » هو الربح الوحيد الذي أفدناه منها . فما من شيء يمكنه ان يجرّنا بعد اليوم إلى معركة إلاّ إذا قورناها نحن . بعد ثلاثة أيام نظمنا عملية رصينة ناجحة بالتعاون مع عبد الله الغبر الذي كانت مضاربه قائمة إلى الجنوب منا في هذا الفردوس الأرضي القائم على الشاطيء الجنوبي للبحر الميت حيث الخضرة التي تأخذ الألباب . فقد حمل له رسولنا خبر انتصارنا في طفيلة ، وعرض عليه باسمنا مشروع غارة مشتّركة على ميناء الكرك الواقعة على شاطئ البحر الميت ، الهدف منها اتلاف الاسطول الترّكي الراسي هناك .

اختار عبد الله الغبر حوالى سبعين فارساً من بدو بئر السبع وسار على رأسهم ليلاً قاطعاً الطريق الوعرة بين جبال مؤاب والساحل لكي يصل مع التباشير الأولى للفجر إلى مقربة من المركز الترّكي . ثم أغار على الجون الشمالي حيث كانت ترسو الزوارق البخارية والمراكب الشراعية التابعة للأتراك ، وبالقرب منها بحارتها نائمون على الشاطئ غير عابئين بشيء في أكواخ من القصب .

لم يكن هؤلاء البحارة مستعدين أبداً لمعركة برية ، فكيف بها تأتيهم على يد فرسان راكبين . لذلك ما كاد هؤلاء البحارة يفتحون عيونهم ليعرفوا ما الخبر حتى رأوا النار تلتهم أكواخهم والفرسان يطوقونهم وينهبون ما في مخازنهم ، ثم يثقبون مراكبهم في عرض البحر الميت

لأغراقها ، فاستسلموا صاغرين دون مقاومة تذكر . وعاد رجالنا مكللين بأكاليل الغار يجرون وراءهم الاسلاب ويسوقون الأسرى وعددهم يناهز الستين . وهكذا في ٢٨ كانون الثاني نفذنا المرحلة الثانية من أهدافنا : تعطيل حركة النقل عبر البحر الميت قبل اسبوعين من التاريخ الذي حددناه للجنرال اللنبي .

كانت المرحلة الثالثة من أهدافنا ، مصب الاردن بالقرب من اريحا قبل نهاية آذار . وكان يمكن لهذه العملية ان تبدو سهلة المنال لولا الطقس السيء والخوف من الآلام التي كانت تشلّنا منذ يومنا الاحمر في الحسا . في « طفيلة » كانت الاحوال قد تحسنت بعد ان أمدّنا فيصل بالمؤن والذخائر وبعد أن وثق الاهلون بقوتنا وهبطت الاسعار . وكانت القبائل الضاربة في منطقة الكرك تتصل يومياً بالشريف زيد معلنة ولاءها واستعدادها لحمل السلاح إلى جانبنا ساعة نشاء .

ولكن حمل السلاح هو الشيء الذي كان متعذّراً علينا في ذلك الوقت . فالشتاء القاسي كان يجبر الرجال والمشايخ على اللجوء إلى القرية اتقاء للبرد القارس والثلج . وفي الواقع كان الخروج في مثل هذا الطقس إذا تمّ يعتبر ضرباً من الجنون . يضاف إلى ذلك ان الجمال غير معتادة على مثل هذا الطقس . وقد اضطررنا ان نرسلها إلى الغور بعد أن نفد عندنا الشعير وغطّى الثلج العشب . وكانت الغور هذه على مسيرة يوم كامل عنّا . وهكذا كتب لنا أن ننتظر ونتحمل البرد وقرص البراغيث . ومن يوم إلى يوم كان التوتر يزداد بيننا لعدم وجود ما يلهينا عن ذلك . وقد انفجر أخيراً عراك بالخناجر بين عواد ومحمس اللذين نالا جزاءهما عدداً من الجلدات .

حملتني هذه الحياة المملة تارة المثيرة للاعصاب تارة أخرى على تسريح رجالي من الحرس ريثما أذهب بنفسي إلى « العقبة » وأحضر ما نحتاجه من مال لعملياتنا القادمة ، بعد أن صرف زيد أكثر ما كان معنا

على التموين في طفيلة وعلى عملية الكرك .

وهكذا في يوم صحو ركبت مع خمسة من الرجال ووجهتنا قويرة . ولكن ما كدنا نصل إلى الرشيدية حتّى عاد الجو إلى التلبد وأخذت الرياح تعصف باردة جداً من الشمال الشرقي . وعند شوبك بدأ المطر ينهمر بغزارة ، ولكننا آثرنا متابعة السير على التوقف والموت من البرد . وهبط الليل ومعه الضباب الكثيف ليلفّنا في ناحية اذرع . وبعد عناد لا فائدة منه قررنا ان نتوقف في مكان واقٍ ريثما يطلع علينا ضوء النهار .

وفي الصباح اكتشفنا ان الطريق تمر على مسافة ربع ميل إلى اليسار فاتجهنا اليها سيراً على الاقدام لتعذر الركوب في مثل ذاك الطقس الجليدي .

بعد ظهر ذلك اليوم كنّا قد نجحنا في قطع مسافة الاميال العشرة التّي كانت تفصلنا عن ابي اللسن . وهنا أصبح الطقس ادفأ والسير أسهل . فركبنا مطايانا ، نشدّ حتّى سهل قويرة حيث الدفء والراحة في مخيم قواتنا المعسكرة هناك . فوصلناه بنجاح منهوكي القوى .

٨٨

تلا وصولنا ثلاث ليال استراحة قضيناها في معسكر المصفحات في قويرة . ولحسن حظي وجدت هناك « آلن داوني » و « جويس » وآخرين . فلم أشعر بوحدة أو بملل ، بل شعرت بكثير من الغبطة . أما أصدقائي على العكس فقد اغتاظوا قليلاً من حسن طالعي . فالحملة الكبرى التّي كانوا قد نظموها مع فيصل قبل اسبوعين على « المدوّرة » ،

آلت إلى الفشل . ومن أسباب ذلك كما قالوا كانت المشكلة المزمنة الناجحة عن وجود القوات النظامية مع قوات غير نظامية ثم محمد البدوي .

وهذا الاخير ، وقد وضع على رأس بني عطية كان في أحد الايام قد توجه مع رجاله نحو الآبار وأعلن التوقف للقيلولة التي دامت شهرين ، وجعلت محمد البدوي ينسى واجباته بل العالم كله من حوله وقد نعم بالماء والكلأ .

في هذه الاثناء وصلتني من « العقبة » ثلاثون الف ليرة ذهبية مع ناقتي الشهيرة « وديعة » . ولما كان حراسي موزعين بين طفيلة والازرق فقد طلبت من فيصل حاشية مؤقتة فأعارني فارسين من بني عتيبة ، أحدهما « سرج » والثاني « رميض » . وكلف بمرافقتي أيضاً الشيخ « مطلق » الذي ذاع صيته أثناء الجولة الاستكشافية بالسيارات المصفحة في ناحية تبوك الواقعة في السهول المحيطة بالمدوّرة .

والسبب في تلك الشهرة ان الشيخ مطلق كان مسؤولاً عن العبارة لأنه كان الوحيد بين القائمين بها الذي يعرف الطريق . وفيما كان من على متن سيارة الفورد يدلّ على الطريق والسيارات منطلقة بسرعة بين كثبان الرمال انقلبت السيارة ، وقذفت بالشيخ مطلق بعيداً الامر الذي جعل سائقها مارشال يتوقف ويسرع مستعداً لتقديم الاعتذار ولكن الشيخ نهض ونفض الرمال العالقة على رأسه وثيابه وفاجأ مارشال بقوله : « لا بأس عليك فلست معتاداً على ركوب هذا النوع من الحيوانات » .

كان الذهب معبأ في أكياس بمعدل ألف ليرة في كل كيس فحملت أنا كيسين على ناقتي ثم كلفنا اربعة عشر من رجال الشيخ مطلق العشرين بحمل الباقي ، بمعدل كيسين لكل منهم . وعند الظهر بدأنا المسير على أمل اجتياز مسافة محترمة قبل الوصول إلى الجبال ولكن المطر بدأ يتساقط بغزارة لسوء الحظ بعد نصف ساعة من ارتحالنا فأعاق سيرنا .

أثناء ذلك لمح الشيخ مطلق خيمة مضروبة فوق تلة رملية هي خيمة الشريف فهد ، ورغم إلحاحي بمتابعة المسير قرّر مطلق قضاء الليل هناك ورؤية ما سيخبئه الغد لنا لاجتياز الجبال . وبما انه كان مصراً على ذلك ولا مجال لاقناعه بتغيير رأيه فقد ودّعته وتابعت طريقي مع حارسيّ وستة من عرب الحويطات كانوا متجهين إلى شوبك انضموا إلى قافلتنا .

أخّرنا النقاش . لذلك لم نصل إلى معابر الجبال إلاّ عند هبوط الليل مما جعلنا بسبب المطر نحسد « مطلق » على الضيافة التي لاقاها في خيمة الشريف فهد . وفيما نحن كذلك ، تراءى لنا بريق نور إلى يسارنا فقصدناه عبر الوادي وإذا به مخيم صالح بن شفيع ومعتوقيه المائة من ينبع . فاستقبلنا وبتنا تلك الليلة ضيوفاً عليه .

في الصباح الباكر ودّعنا مضيفنا ، وعدنا إلى متابعة سيرنا بين مطاوي الجبال التي غطّى الثلج قممها . وما ان وصلنا إلى القمة الأخيرة حتى واجهتنا ريح شمالية شرقية قارسة البرد إلى درجة جعلتنا نبحث فوراً عن ملجأ يقينا شرّها . فتوجهنا نحو الوادي على أمل العثور على مخيمات بعض الاصدقاء هناك حتى لا يقضي رجالي نحبهم من البرد الشديد . وقد تحاشينا بذلك المرور في المرتفعات التي يحتلها مولود ولم نصادف أياً من رجاله الذين يواجهون العواصف بصبر وجلد .

منذ شهرين وهؤلاء الرجال التابعون لمولود يعسكرون فوق هذه المرتفعات على علو اربعة آلاف قدم عن البحر ، لا ملجأ لهم سوى المغاور المحفورة في لحف الجبل ، ولا نار سوى تلك التي يشعلونها من الزبل المبلل . وكانت لا تستر أجسامهم المرتجفة سوى ثياب صيفية صنعت في الاساس ليرتديها الجنود البريطانيون في الصيف . كما لم يكن عندهم ما يفترشونه ويلتحفون به سوى أكياس الدقيق الفارغة .

أكثر من نصف هؤلاء الرجال قضوا نحبهم من البرد أو مرضوا بسبب الرطوبة ، أما الباقون فقد صمدوا في مراكزهم وكانوا في كل

يوم يصلون مراكز العدو الأمامية ناراً حامية تضطره إلى الانكماش والبقاء في مكانه . لذلك ندين نحن لهؤلاء الابطال بالشيء الكثير وبصورة أخصّ لمولود الذي كان لهم مثلاً وقدوة .

وتاريخ هذا المحارب القديم في الجيش التركي كان صراعاً مستمراً جرّه اليه تعلقه الشديد بالشرف وتمسكه العنيد بالقومية العربية . وفي سبيل هذا الايمان الصامد بالشرف والقومية ضحّى مولود بمركزه أكثر من مرة . وكم يجب ان يكون قوياً ذلك الايمان الذي حمل صاحبه على الصمود مدة ثلاثة أشهر في وجه العدو الرابض في معان رغم سوء الطقس .

وبالنسبة لنا كان اليوم الوحيد الذي أمضيناه في تلك المنطقة كافياً لانهاكنا ، وجعلنا نتمنى خلاصنا منه بأسرع ما تمكن . فعلى القمة بالقرب من « ابو اللسن » كانت الارض مغطاة بطبقة سميكة من الجليد كما كانت الريح الباردة تلفح أجسامنا كالاسواط . وتابعنا المسير في هذه الظروف القاسية نمشي تارة ونركب طوراً ، مقاومين البرد والرياح . وعند المساء وصلنا إلى « ساقية بسطه » . ولكن خوفاً من أن يحل التعب بالرجال والمطايا ، إذا ما توقفنا للمبيت قررت أن أتابع السير ليلاً . إلاّ انه حوالى الساعة التاسعة ، ارتمى الرجال ارضاً ورفضوا باصرار متابعة المسير . فنزلت عند طلبهم وجعلنا الجمال بشكل دائرة ، ثم احتمينا بها من العاصفة متمددين داخل الحلقة .

٨٩

عاودنا المسير مع الفجر بعد ان استعدنا قوانا . وقبيل الظهر بلغنا

خرائب ادرع ، فانحرفنا إلى اليمين تحاشياً للبدو الضاربين بين أذرع وشوبك . غير ان رفاقنا من عرب الحويطات على عكس ذلك ، كانوا يريدون منا أن نسير رأساً إلى حيث يخيم البدو . ومرافقيّ من بني عتيبة كانا ثائرين لما أصابهما من إنهاك . لذلك أصرا على الذهاب إلى الخيام المضروبة ، فتوقفنا على قارعة الطريق نتجادل والثلج يتساقط علينا .

بالنسبة لي كنت أشعر بحيوية وسعادة وبنفور من الضيافة الطويلة العديمة الفائدة . وقد أتاح لي نفاد الاموال مع زيد ، ان أنازل الشتاء في هذه المعركة الفريدة . كانت عشرة أميال ما زالت تفصلنا عن شوبك، ولكن كان لا يزال أمامنا خمس ساعات من النهار فقررت أن أتابع طريقي وحدي غير عابئ بشيء يشجعني على ذلك ان الطريق ملكي أنا وحدي ، لتعذر خروج أي واحد آخر عربياً كان أم تركياً ، في مثل هذا الطقس . وأخذت أكياس الذهب الاربعة التي كانت مع « سرج » و « رميض » ثم تركتهما ينضمان إلى البدو ، وتابعت طريقي .

عقب غروب الشمس توقف الثلج عن السقوط ، وكنت حينئذ أهبط المنحدر المؤدي إلى نهر شوبك . وبعد صعوبات جمة نجحت في عبور النهر المتجمد ، وتسلقت التلة المقابلة متابعاً سيري إلى القرية على أمل وجود الشريف عبد المعين فيها . وبعد أن اجتزت طريق القرية الرئيسي وصلت إلى القصر العتيق الذي اتخذه عبد المنعم مقراً رسمياً له . وما ان ناديت حتى فتح لي باب كبير ولجت منه إلى الداخل معلناً عن نفسي وعن حاجتي السريعة إلى عشاء أتناوله مع السيد ، فاقتادني الخدم إلى حيث يسهر الشريف عبد المعين .

وبعد التحية والسلام أعطاني عبد المعين ثياباً جافة فتخلصت من ثيابي المبللة ، واحتسينا بعد ذلك كوبين من الشاي بانتظار اعداد الخروف المحمر . وفيما نحن نتناول طعامنا شرح لي عبد المعين انه ورجاله

المائتين ، لم يعد لديهم مال ولا طعام بعد ان حال الثلج دون عودة رسله الذين أرسلهم في طلب ذلك من عند فيصل . ولانقاذه من ورطته سارعت إلى إعطائه ٥٠٠ ليرة ذهبية على الحساب قائلاً ان زيد يعاني هو الآخر ازمة مماثلة .

في صباح اليوم التالي أعلنت عزمي على متابعة المسير ، فأصرّ عبد المعين على ارسال اثنين من رجاله معي . ولكنني ما ان وصلت إلى السهل حتى أمرتهما بالعودة إلى سيدهما ، وتابعت وحدي تارة على الاقدام وطوراً على متن « وديعة » ، كما فعلت في الامس . في هذه الاثناء كان المطر قد عاد ينهمر من جديد وعادت الرياح الشمالية الشرقية بسمومها كذلك تلفح جسمي الواهن . وبعد مسير ثلاث ساعات نجحت في اجتياز السهل . ولما وصلت إلى معارج الجبال وجدت ان الثلج قد محا كل معالمها فرحت أتلمس طريقي بين الثلوج بصعوبة زائدة . وبعد ثلاث ساعات أخرى نجحت في الوصول إلى قمة الجبل التي كانت الرياح الغربية قد خففت سماكة الثلوج عنها ، فتابعت المسير وقد تشدّد عزمي ، وكانت في الاسفل تمتد أمام ناظري بيوت دانا وخلفها واحة وادي عربة المخضوضرة . وبعد صعوبات كثيرة أشرفت على قرية الرشيدية السنوسية في الشمال .

في هذه الناحية من الجبل التي تعرضت إلى أشعة الشمس طول بعد الظهر والتي لا تصلها الرياح كان الثلج قد بدأ يذوب تاركاً طبقة من الوحل اللزج الذي جعل مسيرنا ضرباً من الجنون . هناك وجدت بعضاً من جنود زيد كان الطقس قد حجزهم ومنعهم من اللحاق بفيصل في الوقت المناسب . وما ان سمعوا بمقدمي حتى خرجوا من بيوتهم لاستقبالي . ولما سألتهم عن الاخبار قالوا لي ان كل شيء على ما يرام . ولذلك بعد استراحة وجيزة ركبت من جديد لاجتياز الاميال الثمانية الباقية التي ما زالت تفصلني عن طفيلة . ولما وصلت هناك سلّمت زيداً

رسائله وشيئاً من المال ، ثم أويت إلى فراشي طلباً للراحة الـتي تقتُ اليها جداً .

٩٠

استيقظت في صباح اليوم التـالي لأجد نفسي أعشى تقريبـاً بسبب الثلج ولكن بكامل قوتي يملأ الحبور صدري . فرحت أبحث عما يشغلني ريثما تصل الدفعة الثانية من الذهب . وقررت في النهاية ان أتوجه إلى مشارف الكرك وأدرس عن كثب الطريق التي سنسلكها في تقدمنا في وادي الاردن . لذلك طلبت إلى زيد ان يستلم من الشيخ مطلق الاربع والعشرين ألف ليرة .

كان يوجد في « طفيلة » ، كما قال زيد ، انكليزي آخر . أدهشني الخبر ، فذهبت لزيارة الملازم « كيركبرايد » ، وهو ضابط شاب من الاركان العـامة يجيد التكلم باللغة العربية أرسله « ديدس » لاعداد تقرير للاستخبارات العـامة عن امكانات جبهتنا . وكان هـذا بداية عمل مشترك لصالحنا ، وعلى حساب « كيركبرايد » . فقد بقي هـــذا الشاب الغامض العنيد مـدة ثمـانية اشهر الرفيـق الصامت للضبـاط العرب .

كان البرد قد خفّت وطـأته وبات في امكاننا السير فوق المرتفعات فاجتزنا وادي « حسّا » وأشرفنا على وادي الاردن الذي بدأت تتردّد في أعماقه أصداء تقدم « اللنبي » المظفر في فلسطين . ومن الاهالي عرفنا ان الاتراك كانوا لا يزالون في اريحا ، فعدنا إلى « طفيلة » راضين عن جولة استكشاف أنارت لنـا الطريق في المستقبل بيننا وبين الانكليز. كانت

الطريق دائماً ممكنة وأحياناً سهلة . وكان الطقس جميلاً إلى درجة كان يمكننا معها ان نبدأ العمل دون تأخر ، على أمل الوصول إلى غايتنا في ظرف شهر من الزمن .

أصغى زيد إلى كلامي دون تأثر . وكان « مطلق » إلى جانبه فحييته وتبادلت معه بعض النكات . ثم عدت إلى تعداد ما يمكننا عمله فوراً ، فأوقفني زيد قائلاً : « ولكن هذا يتطلب أموالاً كثيرة . » فقلت : « أبداً ، ان الاموال التي في حوزتنا تفيض عن حاجتنا . » غير ان زيداً ردّ قائلاً بأنه لم يعد يملك شيئاً من المال وقد صرف كل ما حملته له منه . فظننت انه يمزح في بادئ الامر ، ولكنه أصرّ موضحاً انه كان عليه ديون كثيرة إلى دياب شيخ طفيلة وإلى القرويين وكذلك إلى عرب الحويطات وبني صخر .

اعتراني على الاثر ذهول كبير . فكلام زيد يعني القضاء المبرم على كل مخططاتي وآمالي والعجز الكلي عن تنفيذ الوعد المقطوع للجنرال « اللنبي » . ولكن زيد أصرّ ثانية انه لم يعد لديه مال . فتركته حانقاً ورحت أبحث عن الحقيقة عند الشريف ناصر ، الذي أجبرته وعكة صحية على ملازمة الفراش فصدّقني القول بأن الامور ليست على ما يرام لأن زيداً لا يزال فتياً عاجزاً عن ان يقاوم مستشاريه الجبشاء وغير الشرفاء .

أمضيت تلك الليلة كلها في التفكير والبحث عن مخرج من هذا المأزق ، ولكن عبثاً . وفي الصباح لم أجد أمامي سوى ارسال كلمة إلى زيد ، طالبت فيها باعادة المال والا فاني مضطر للذهاب . فردّ عليّ بأن أرسل كشفاً بالحساب . وفيما أنا أعد حقائبي وصلَ « جويس » و « مارشال » . فقد جاءا من « قويرة » لمفاجأتي . اطلعتهما فوراً على ما نحن فيه وقلت انني عائد إلى مقر اللنبي لكي أطلب منه تكليفي بأي عمل آخر . تدخّل جويس عبثاً مع زيد ، ووعدني أخيراً بشرح

الموقف كاملاً إلى فيصل :

كلفت «جويس» فضلاً عن ذلك بتصفية كل ما يتعلق بي هناك ، وتمكّنت من أن أغادر طفيلة بعد ظهر ذلك اليوم إلى بئر السبع بصحبة اربعة رجال فقط ، وهي أقرب طريق مؤدية إلى مقر القيادة العـامة . وفي قرية بوصيرة توقفنا للاستراحة وتناول شيء من الطعام . ثم تابعنا سيرنا على أمل الوصول إلى بئر السبع ، في صباح اليوم التالي . وفي وادي عربة ضللنا الطريق وأضعنا نصف ساعـة من الزمن في محـاولة الاهتداء إلى الطريق الصحيح . فوُفّقنا إلى ذلك بعد جهد .

وفي المنعرجات الصغيرة التي تسبق وادي مرّة وقع نظرنا فجأة على نار متأججة ، ولكننا لم نجد أحداً حولها رغم انها تؤكد وجود أناس هناك . وبعد البحث تبين لنا انها نار أشعلتها كتيبة سيارات مصفحـة بريطانية تقوم بجولة استكشافية للبحث عن طريق صالحة للربط بين سيناء والعقبة . وكان أفرادها قد اختبأوا بـين اشجار الغابة لدى سماعهم وطء أقدامنا .

وفيما نحن نعبر الممر مع الخيوط الاولى للفجر هطل علينا رذاذ خفيف ولكنه لم يعرقل سيرنا بل تابعنا اجتياز السهل . وعند الظهر وصلنا إلى بئر السبع .

حال وصولنا إلى بئر السبع علمنا ان اريحا قـد سقطت . فهرعت إلى مقر قيادة «اللنبي» العـامة ووجدت هناك «هوغارث» فاعترفت له بأنني أفسدت كل شيء وبأنني جئت أطلب من «اللنبي» تكليفي بعمل آخر أكثر تواضعاً . لقد بذلت كل ما عندي من طاقة في هذه القصة العربية وخرجت منها نهائياً لا أحمل سوى حكم خاطيء عـلى زيد ، اخ فيصل ، الرجل الطيب الذي كنت أكن له كل ود واحترام . والآن لم يعد يوجد في جعبتي ما له أدنى قيمة في السوق العربيـة . ولذلك جئت أطلب لنفسي الاشياء العـادية المـألوفة ، وبالتالي عدم

المسؤولية .

كنت أشكو من نفسي ، فمنذ أن وطئت قدماي أرض العرب وأنا حر في الاختيار ، لا أتلقى الاوامر من أحـد . وكنت قد تعبت كثيراً حتى الانهاك من لعب دور الحكم وما يحيط به . سنة ونصف أمضيتها في الحركة العربية وأنا أقطع على متن الجمل أكثر من (١٥٠٠) كلم شهرياً ، هذا عدا السفر بالطائرات أو السفن أو السيارات المصفحة . وكنت خلال هذه المدة قـد جرحت مراراً وقاسيت الكثير من الالم والجوع والبرد والقذارة .

وهذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي وإنما هناك الخداع المرهق الذي اضطررت ان أحمل نفسي وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد ان لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل ، وتسلّحت بلغة أجنبية يصعب عليّ التبشير بها ، مـع يقيني التام بأن «الوعود» الـتي أطلقناها للعرب لن تكون لهـا أيـة قيمة عملية فيما بعد إلا بمقدار مـا سيظهر العرب أنفسهم من قوة . وأما الآن بعد الذي رأيته وقاسيته فقد ضقت أنا بنفسي وبت أخاف مـن الوحدة والمسؤولية .

٩١

بقي هوغارت صامتاً . ولمـا انتهيت من حديثي اقتادني بدبلوماسية إلى مكتب « كلايتون » حيث تناولنا طعامنا . وهنـاك علمت بـأن « سماطس » قـد جاء إلى فلسطين مبعوثاً من قبل وزارة الحربية ومعـه تعليمات من شأنها ان تغيّر وضعنا كلياً تقريباً . ولمدة أيام كانت الاركان

العامة قد حاولت عبثاً دعوتي إلى مؤتمراتها واجتماعاتها . وقد ارسلت أخيراً بعض الطائرات للبحث عن طفيلة فرمى الطيارون رسائلهم فوق « شوبك » بين الاعراب الذين آثروا عدم الحركة في ذلك الجو القارس البرد .

وبعد اطلاع « كلايتون » على عزمي رفض هذا رفضاً باتاً حججي وقال ان قضية تركي للحركة العربية في الظروف الجديدة ليست واردة أبداً . فالشرق لم يكد يتحرك ويفيق من سباته . و « اللنبي » بدوره قال لي ان وزارة الحربية تعتمد عليه لرفع الضيق عن الجبهة الغربية . لذلك عليه ان يحتل على الاقل دمشق وحلب في أقرب وقت ممكن ويجب القضاء نهائياً على قوة تركيا الضاربة في المنطقة ومصاعبه ناتجة حالياً عن جناحه الايمن الذي يعتمد على وادي الاردن . وقد استدعاني لمعرفة ما إذا كان العرب قادرين على تحمل هذا الحمل عنه .

لا مجال لأيّ تهرب أو تملّص . فقد فرض عليّ ان أعود من جديد إلى لبس قناع الخداع في الشرق . ورغم الاحتقار الذي أواجه به أنصاف الحلول سارعت إلى القناع لألعب الدور المناط بي . وكل ما قلته هو سؤال « اللنبي » إذا كان لا يزال يوافق على مخططي الذي كنت أعددته سابقاً لاحتلال وادي الاردن . فأجاب بالموافقة وسألني إذا كنا لا نزال قادرين على ذلك . فأجبت لا في الوقت الحاضر . إلا إذا تمت تصفية بعض الأمور أولاً .

وقد كانت « معان » أولى هذه الأمور . وكان علينا احتلال هذه المدينة قبل الانتقال إلى منطقة أخرى . فلو زودت القوات العربية النظامية بوسائل نقل كافية ، لبات في امكانها ان تنتقل إلى شمالي « معان » وتقطع الخط الحديدي بصورة دائمة الامر الذي سيضطر حامية معان التركية على الخروج لمواجهة تلك القوات وعندئذ يتمكن العرب من الانتصار على الاتراك في الارض المكشوفة . وللقيام بذلك يلزمنا (٧٠٠) جمل

للنقل وعدداً من المدافع والرشاشات وضماناً ضد هجوم محتمل من جهة عمان فيما نحن نصفي قضية معان .

تم وضع مخطط شامل على هذه الاسس . وأمر اللنبي بارسال وحدتين من الهجانة إلى « العقبة » كما وعد بتقديم ما يلزمنا من المدافع والرشاشات . أما بشأن حمايتنا من هجوم محتمل من جهة عمان فقد اعلن « اللنبي » بأن ذلك ليس صعباً لأنه كان ينوي لحماية جانب قواته نفسها احتلال السلط على الضفة الشرقية من الاردن وابقاء حامية هندية فيها . وفي الغد عقد مؤتمر لضباط الاركان ودُعيت شخصياً لحضور ذلك المؤتمر .

لقد تقرر في ذلك المؤتمر ان ينتقل الجيش العربي على جناح السرعة إلى مشارف معان كمقدمة للاستيلاء عليها . ومن جانبهم سيجتاز الانكليز نهر الاردن ويحتلون السلط ، ثم يعمدون إلى تعطيل الخط الحديدي جنوبي عمان وبصورة خاصة النفق . وبعد ذلك سنرى إلى أي مدى سيُسهم عرب عمان في هذه العملية الانكليزية .

كان « بولز » يعتقد ان علينا ان نُسهم فعارضته فيما ذهب اليه ، ذلك لأن الارتداد إلى السلط ، بعد الغارة سيترك أثره في نفوس الاهالي ومهمة الانصار العرب تكون أسهل بكثير لو انهم يدخلون المسرح فقط بعد هبوط تلك الحمى .

وسألني « شيتوود » الذي سيتولى قيادة تلك الغارة عن الوسيلة التي تمكن رجاله من التمييز بين العرب الاصدقاء والعرب الاعداء . وذلك لأن رجاله يبغضون ، مبدئياً ، كل من يرتدي ثوباً عربياً . ولما كنت أنا نفسي ارتدي ثوباً خلال المؤتمر فقد أجبت طبعاً بأن لابسي الثوب العربي بدورهم يبغضون كل من يرتدي الزي العسكري . وانتهى النقاش إلى ضحك عام شارك فيه جميع الحاضرين . ثم اتفقنا على ان نساند الاحتلال البريطاني للسلط فقط عندما تعود اليها القوات الانكليزية

للراحة بعد الغارة . وبمجرد ان تسقط معان تتجه القوات العربية إلى الشمال وتتمون من اريحا ، الامر الذي سيتيح لهـا ان تُسهم شمالي عمان في هجوم « اللنبي » العام على طول الجبهة الممتدة بـين البحر المتوسط والبحر الميت وهو المرحلة الثانية من العملية التي ستنتهي بالاستيلاء على دمشق .

ولما لم يعد لي من شاغل هناك ، فقد توجهت إلى القاهرة لتمضية يومين . ثم عدت بالطائرة إلى القبة لكي أتخذ مع فيصل الترتيبـات الجديدة وأطلعه على الاسباب الـتي دعتني إلى ترك أخيه زيد ثم على ما حصل في مقر قيادة « اللنبي » وعلى الوعود التي نلتها منه . وبعد ذلك قفلت عائداً إلى مصر .

٩٢

حملة الأردن

كان للمخطط الموضوع بالاتفاق مع «اللنبي» مرام ثلاثة : إقامة الوصل عبر الاردن ، الاستيلاء على معان ، قطع الاتصال بين المدينة المنورة وقاعدتها . كل ذلك في عملية حربية واحدة . وقد كان هذا المخطط جسوراً جداً وأي من الفرقاء لم ينفذ كل ما كان مطلوباً منه . لقد استبدل العرب اذن المهمة السهلة القاضية بمراقبة خط الحجاز الحديدي بالحمل الثقيل القاضي بمواجهة قوة معان التركية التي يزيد عدد أفرادها على عدد أفراد القوات العربية النظامية .

لمساعدتنا زاد «اللنبي» وسائل نقلنا الامر الذي ضاعف مرونة تحركاتنا وسرعتها . وبما انه كان من المتعذر مهاجمة معان وجهاً لوجه . فقد قررنا ان نحصر جهودنا في هدف واحد قطع طريق الشمال ومنع الاتراك من ارسال نجدات إلى معان من جهة عمّان .

بالطبع لا يمكن هذا التكنيك ان يجر إلى قرار . ومن ناحية ثانية

حرم التقدم الالماني في شمالي فرنسا وبلجيكا في ذلك الوقت اللنبي من وحداته الانكليزية وبالتالي من تفوقه على الاتراك ، فأخبرنا بأنه ليس في وضع يمكنه من الهجوم .

وترك الضيق الحالي يطول خلال سنة ١٩١٨ كان امراً لا يحتمل . فاقترحنا لذلك ان ندعم الجيش العربي من أجل عمليات خريفية بالقرب من درعا وفي منطقة بني صخر . وعملنا بابعاده قسماً من الجيش التركي عن جبهة فلسطين سيتيح القيام بهجوم بريطاني مقابل من شأنه ان يؤدي إلى اقامة اتصال بنا عبر الاردن قرب اريحا . وبعد شهر من الاستعدادات اهمل هذا المخطط لأنه محفوف بالمخاطر أولاً ولأنه عرض علينا مخطط أفضل من جهة ثانية .

* * *

في القاهرة حيث أمضيت أربعة أيام لم تعد شؤوننا متروكة إلى الصدف بل على العكس تماماً لأن ابتسامة « اللنبي » كانت قد زودتنا بهيئة اركان كاملة وبات يوجد الآن في خدمتنا عدد كبير من الضباط بعضهم يهتم بالتموين والبعض الآخر بالذخائر وآخرون بالنقل البحري . وكذلك مكتب استعلامات على رأسه « آلن داوني » شقيق واضع خطط معركة بئر السبع الذي عاد الآن إلى فرنسا .

لقد كانت الثورة العربية حتى الآن ضرباً من المخاطرة تعيش على كف عفريت بوسائل صغيرة صغر الواجبات المطلوبة منها والامكانات المعقودة عليها واما منذ الآن فصاعداً فقد بات « اللنبي » يعتمد عليها ويفرد لها دورها في مخططاته . وهذا بالطبع كان يفرض علينا ان نفعل

أفضل مما كان ينتظر منا ، لأن أي فشل سنلاقيه معناه ان يدفع اللنبي ثمنه من حياة جنوده . ولذلك ابعدتنا هذه المسؤولية كثيراً عن أيام المغامرات السليمة العاقبة .

وضعت مع « جويس » مخططاً مثلثاً لمساندة جهود « اللنبي » الأولى . ففي القلب كلفت القوات العربية النظامية بقيادة جعفر ان تحتل الخط الحديدي إلى الشمال من معان . وجويس على رأس مصفحاتنا سيتسلل حتى المدوّرة ويعطّل الخط بصورة دائمة هذه المرة لاننا كنا مستعدين لعزل المدينة المنورة . وفي الشمال سنقيم أنا ومرزوق الارتباط مع اللنبي عندما سيرتد إلى السلط حوالى الثلاثين من آذار (مارس) . وبما ان هذا التاريخ كان لا يزال بعيداً فقد رأيت أن أذهب إلى شوبك برفقة زيد وناصر .

كانت تباشير الربيع قد بدأت تظهر آنذاك بعد ذلك الشتاء القاسي . كل شيء استعاد حيويته وشبابه . وكنا ننعم في هذا الجو البديع عندما جاءتنا أخبار من الازرق حيث كان علي بن الحسين يتولى مهمة الحراسة مع الفرقة الهندية . وفي هذه الاخبار جاء ان أحد الهنود قد مات من البرد . وكذلك داود خادمي العقيلي صديق فراج الحميم . وكان فراج الذي نقل الينا هذه الاخبار .

لقد كان فراج وداود صديقين منذ طفولتهما يعيشان في حبور مستمر . يعملان معاً وينامان معاً ، يتقاسمان المكاسب والارباح ، ويتبادلان الود الكامل الصريح . لذلك لم يعترني الذهول لرؤية فراج في شرود مستمر بعد موت داود رغم محاولات الجميع التخفيف عنه .

لقد لاقى مخططنا في ابي اللسن النقد الشديد العنيف . كنا قد اقترحنا تمركز الجيش العربي النظامي على الخط الحديدي شمالي معان ، وقضاءه على حامية تلك المدينة في المعركة المكشوفة التي سيجرها اليها . هذا فيما يكون « اللنبي » منصرفاً إلى مهاجمة قاعدتها والنجدات التي قد تأتيها من

جهة عمان . لقد وافق فيصل وجعفر على مخططنا . غير ان ضباطهما طالبوا بشن هجوم مباشر على معان . فلفت « جويس » نظرهم إلى انه ينقصهم لذلك المدافع والرشاشات وقواتهم لم تجرّب بعد ومشروعنا استراتيجياً هو الاحكم .

ولكن عبثاً . و « مولود » الذي كان يتحرق شوقاً لشن الهجوم دون تأخر اشتكى في مذكرته إلى فيصل من الخطر الذي يلحقه التدخل البريطاني بالحرية العربية . في هذه الاثناء أصيب جويس بذات الرئة واضطر لأن يعود إلى السويس للاستشفاء . فجاء « داوني » بدوره يحاول إعادة الحانقين إلى جادة الصواب . ولكنه وصل متأخراً . وكان قد فات الاوان بعد أن أصرّ الضباط العرب على خوض معركة ربطوا بها شرفهم .

رأينا ان نستجيب لرغبتهم هذه رغم اننا كنا أقوياء جداً في الحقيقة . فقد كنا آنذاك نمسك زمام المال والمؤن وحتى وسائل النقل . ولكن ما العمل والديموقراطية في الجيش العربي حيث الخدمة ما زالت طوعية هي المسيطرة .

ما من أحد في الجيش العربي كان يملك سلطة فرض العقاب على أي جندي خلافاً لما هي الحال عليه في الجيوش النظامية الأخرى .

٩٣

بعد ذهاب « جويس » و « داني » تركت أنا نفسي « ابا اللسن » مع مرزوق . وكنت قد جلبت معي ألفي جمل من وادي السرحان حملنا عليها الذخائر والمؤن . وكي لا نرهق الجمال كان الجنود يتقدمون ببطء .

ولذلك لم نصل إلى الخط إلا بعد هبوط الليل .

كان حراسي يرافقونني كما كان مرزوق مصحوباً برجاله العقيليين . ولذلك تولينا مهمة الاستكشاف . وقبيل غروب الشمس بدا لنا الخط الحديدي واضحاً ، وكان كل شيء هادئاً . فتقدمنا على أمل التوقف في الجانب الآخر من الخط لمراقبة عبور القافلة الطويلة . وهكذا كان، وقادتْنا مرحلة الغد إلى وادي « الجنز » حيث حططنا رحالنا لقضاء الليل .

وبعد المرحلة الرابعة وصلنا إلى « عطارة » حيث كان ينتظرنا حلفاؤنا مفلح وفهد وادهب . وبعد استراحة قصيرة اجتزنا الخط متجهين إلى « ثمد » نقطة تجمع بني صخر الرئيسية . ومن ثم توجهنا إلى « مأدبا » كي نتخذ منها مقراً عاماً لنا . ريثما يعبّد « اللنبي » لنا طريق اريحا — السلط . وكان علينا إقامة الوصل مع الانكليز بالسهولة القصوى ودون الحاجة إلى اطلاق رصاصة واحدة .

ومع ذلك لم يكن علينا سوى الانتظار في « العطاطير » الغنية بالعشب والماء . وأخيراً جاءنا الخبر بأن الانكليز قد احتلوا عمان . ولذلك في ظرف نصف ساعة فقط كنا نجتاز الخط المهجور في طريقنا إلى « ثمد » . وفي هذه الاثناء جاءنا رُسُل جدد يعلنون ان الانكليز يتراجعون ، فخابرنا الاعراب الذين اعتراهم القلق والذهول مثلنا . ثم وصل رُسُل آخرون وأعلنوا بأن الانكليز قد هربوا من السلط . وهذا كان يخالف تماماً نوايا « اللنبي » فلم أصدقه . وأخيراً وصل خيّال مسرع ليخبرنا بأن الانكليز بعد جهود يومين كاملين تمكنوا فقط من تعطيل الخط الحديدي جنوبي عمان . فبدأت هذه الاشاعات تقلقني ولكي أضع حداً لها وأعرف الخبر اليقين حملت « أدهب » رسالة وأرسلته إلى « شيتوود » أو إلى « شيحا » طالباً مذكرة عن الوضع الحقيقي .

وفي الهزيع الاخير من الليل وصل ادهب ليخبرنا ان جمال باشا

دخل السلط ظافراً وعمد فوراً إلى شنق العرب الموالين للانكليز في المدينة . وأضاف ادهب ان الجيش التركي ما زال جاداً في اثر اللنبي في وادي الاردن على أمل استرجاع القدس منه . وبما انني كنت أعرف مواطني جيداً فقد استبعدت حدوث مثل هذا الامر . غير ان هذا ما كان لينفي بالطبع كون الوضع سيئاً للغاية . لذلك سارعنا إلى التقهقر نحو « عطاطير » .

لقد أذهلتني هذه القهقرى ذهولاً زائداً . فقد بدا لي مخطط اللنبي انه سهل ومتواضع . وها هو الآن بعد انهياره يبدو في نظر العرب على انه يستحق الرثاء . خاصة وانهم لم يقتنعوا يوماً بقدرتنا على تنفيذ كل ما وعدنا به . وقد استعادوا الآن استقلالهم ، وبات في امكانهم الاستفادة من الربيع يشجعهم على ذلك قدوم بعض « النَّور » (الغجر) الرحّل من الشمال على متن عدد من الحمير . استقبل بنو زين صخر اولئك الغجر ببشاشة لم أفهم كنهها حتى الساعة التي رأيت فيها الغجريات علاوة على مكاسب مهنتهن مستعدات دائماً لقبول عروض أخرى ...

فقد كنّ غاية في السهولة مع العقيليين ، وعرفن لفترة من الوقت ازدهاراً منقطع النظير ، لأن كرم رجالنا كان يوازي شهوتهن . أما أنا فقد استخدمتهن كذلك ولكن على طريقتي . وذلك لأنه كان يبدو من الحماقة حقاً البقاء هكذا دون عمل على مشارف عمان حتى ولا القاء نظرة على الاقل . وهكذا رأيتني استأجر مع فراج ثلاثة من هؤلاء النسوة الجميلات واتزيى بزيهن ، ثم نقوم بجولة متخفية في الجوار ، ونطوف في مدينة عمان . ونجحنا في مهمتنا إلى درجة مرضية جداً ، ولم يحرج موقفنا إلاّ مرة واحدة قرب الجسر ، ونحن في طريق عودتنا عندما صادفنا بعض الجنود الاتراك ، ما ان غرّتهم مظاهرنا حتى حاولوا اشباع رغباتهم الجنسية منا . ولم نتخلص من الورطة إلا بعد اللجوء إلى الحيلة والخداع على طريقة الغجر .

بعد عودتي قررت ان أطلب إلى الفرقة الهندية المعسكرة في الازرق العودة إلى معسكر فيصل وان أعود اليه أنا نفسي . وقد اخترت لذلك يوماً جميلاً مشرقـاً ، واتجهت مع الخط إلى الجنوب على أمل الالتقاء بالهنود القادمين من الازرق . وبالقرب من « فريفره » ظهرت في الافق دورية تركية من ثمانية جنود تتجه نحونا . فأصرّ رجالنا على مهاجمتها والقضاء عليها واضطررت ارضاء لهم ان أقبل بذلك رغم تأكدي من انه غير ذي فائدة . وبعد ان رسمنا خطة مهاجمة الدورية انصرف كل منا إلى تنفيذ مهمته . وبنتيجة الاصطدام الذي بدا لنا سهلاً في أول الامر سقط فراج جريحاً بسبب طلقة نارية أصابته في عموده الفقري ومات واحد من الجنود الاتراك بينما فرّ الآخرون .

حاولنا عبثاً ايقاف نزيف الدم عند فراج . وفيما نحن منصرفون إلى ذلك صرخ عبد اللطيف منذراً بقدوم كتيبة تركية من خمسين جندياً من جهة الجنوب . وبعد لحظات سمعنا صوت قاطرة سريعة قادمـة من الشمال . تجـاه هذا الموقف الحرج رأيت انه لا بدّ لنا من الهرب خاصة وان عددنا لا يتعدى ستة عشر وجميعنا في وضع سيء . ولكن حـالة فراج كانت تزداد سوءاً ، ولم يعد في امكاننا نقله معنا . كما لم يكن يصح تركه في مكانه مخافة وقوعه في يد العدو ، وقد رأيناه من قبـل يحرق جرحانا أحياء أمام أعيننا . فقررنا ان نريحه من آلامه . وتوليت بنفسي اطلاق النار عليه .

في هذه الاثناء كانت القاطرة قـد أصبحت قريبة منا وفتحت علينـا نيران رشاشاتها فيما كنا نهرب نحو الجبل . وعندما أرخى الليل سدوله توقفنا لقضاء الليل وتناول شيء من الطعام .

٩٤

في الصباح بالقرب من وادي الجنز التقينا بالهنود الذين كانوا قـد توقفوا عند شجرة يتيمة هناك . ثم تابعنا سيرنا معاً واجتزنا الخط الحديدي غير ان سيرهم البطيء ازعجني فتركتهم هناك وتابعت السير ليلاً قاصداً « اذرع » .

ومن على القمة لمحنا ناراً مشتعلة إلى يسارنا . ثم بدأ بريق النار يتتالى دون انقطـاع حول ابي جردان ، فتوقفنا ، وإذا بنا نسمع دوي الانفجارات ، الامر الذي جعلنا نعتقد ان النار تشتعل في المحطـة . سارعنا الخطى كي نستوضح الأمر من « مستور » ، ولكننا لم نجد له من اثر حيث كان يقوم مخيمه ، فقررت أن أتجه رأساً إلى فيصل وبأسرع ما يمكن حتى لا يفاجئنا ضوء النهار .

اقتربنا من مكان اطلاق النار . وكانت « سمنة » المرتفع المشرف على معان هي المكان المقصود . فرأينا قوات تهبط منحدراتها ببطء لتتمركز في لحف القمة . بالطبع يجب ان نكون قـد استولينا على سمنة وقواتنا الآن في طريقهـا إلى احتلال مواقعها الجديدة . وفي السهل الممتد أمامي صادفت جملاً محملاً قال لي الرجل الذي يقوده مشيراً إلى المحمل :

— « هنا مولود باشا . »

فأسرعت نحوه صارخاً :

— « مولود . هل هو مجروح ؟ » .

أجابني المحارب القديم :

— « نعم يا لورانس بك أنا مجروح ، ولكن بعون الله الامر ليس بذي أهمية . والمهم هو اننا استولينا على « سمنة . »

فأجبته بأنني متوجه إلى هناك . عندئذ تحـامل مولود على نفسه

وأخذ يشرح لي بالتفصيل كيف يجب أن ينظم الدفاع عن الجبل .

عندما وصلنا كان الاتراك يرسلون على المنحدرات قنابلهم الأولى التي بدت بغير فعالية . كان نوري السعيد قد تولى القيادة مكان مولود . وقد بقي فوق القمة مستخفاً بنيران العدو هادئاً رزيناً بمقدار ما كان زيد يبدو ضجراً .

سألت عن جعفر فقال لي نوري السعيد انه يتوجب عليه ان يكون قد هاجم « ابا جردان » عند منتصف الليل حسب الاتفاق . فحدثته على الاثر عن النيران التي رأيناها في الليل . وفيما نحن نتبادل حديثنا المفرح وصل رسل جعفر وأخبرونا بأنه خرب المحطة وأتلف قسماً كبيراً من الخط الحديدي واستولى على عدد كبير من الرشاشات والذخيرة ، وأخذ عدداً من الاسرى . وهكذا فقد تمكن جعفر اذن في غارته الليلية هذه ان يعطل الخط الشمالي لعدة أسابيع . وبعد ذلك روى لي نوري السعيد انه كان قد أغار عند فجر أمس على محطة غدير الحاج وخربها ثم نسف خمسة جسور وأتلف كيلومتراً من الخط الحديدي . وبذلك يكون خط الجنوب قد لقي ما لقيه خط الشمال وتعطل الخطان .

بعد الظهر خيّم على المكان سكون رهيب بعد أن توقف الطرفان عن قصف عديم الفائدة . وقيل لي بأن فيصل قد انتقل إلى « وهيدة » ، فعبرت الساقية بالقرب من المستشفى الموقت حيث يعالج مولود على يد الطبيب الملتحي محمود الذي كان يأمل في شفائه دون بتر ساقه . كان فيصل يراقب من على رأس التلة فذهبت اليه حيث مد يديه إليّ هاتفاً :

— « خير إن شاء الله أخبار طيبة ؟ »

فأجبت :

— « الحمد لله والظفر له وحده . »

واقتادني على الاثر إلى خيمته لتبادل المعلومات .

كان فيصل قد عرف عن طريق « داوني » أكثر مما كنت أعرف عن فشل الانكليز امام عمان والطقس العاطل والفوضى ومخابرة « اللنبي » الهاتفية إلى شيحا ، وقراره المفاجئ : أوقفوا النفقات . انه قرار حكيم بلا ريب رغم انه ألحق بنا الكثير من الضرر . « فجويس » كان في المستشفى ، ولكن ينتظر شفاؤه سريعاً ، و « داوني » كان لا يزال في قويرة ومستعد لأن يغير على المدورة بمصفحاته .

سألني فيصل عما أعرفه عن معركة « سمنه » وجعفر . فقلت له ما سمعته من نوري السعيد . وأمضيت الايام التالية أراقب العمليات مع « مينارد » فقد استولى بنو تايه بقيادة « عودة » على مركزين أماميين للعدو في الجهة الشرقية من المحطة بينما سيطر صالح بن شفيع على حاجز دفاعي مهم مع رجاله العشرين ورشاشه الوحيد . وأتاح لنا هذا الكسب ان ننتقل الآن بحرية أكثر حول معان . وفي اليوم الثالث ركّز جعفر مدفعيته على القمة الجنوبية فيما كان نوري السعيد يُغير على مخازن المحطة ومستودعاتها . وبما انه قد نجح في الوصول اليها فقد توقفت المدافع الفرنسية عن القصف . وكنا نحن في سيارة فورد نحاول اقتفاء آثار قواتنا عندما أقبل علينا نوري السعيد . وطلب منا التوجه إلى الكابتن « بيزاني » رئيس المدفعية والطلب اليه بوجوب المساندة الفورية بالمدفعية . غير اننا وجدنا « بيزاني » يقضم أظافره من اليأس . وقد نفدت منه الذخائر كلياً . فقال لنا انه كان قد توسل إلى نوري السعيد ان لا يهاجم في الوقت الذي لا يملك فيه الذخيرة الكافية .

لم يكن أمامنا لذلك سوى التطلع إلى رجالنا وهم يخلون المحطة وقد تكدست فوقها جثث القتلى وأجسام الجرحى المتطلعين الينا بعين المتهم . غير ان مجرد التفكير بأننا خسرنا المعركة كان يمنعنا من سماع أو رؤية أيّ شيء .

تبيّن لنا فيما بعد ان جرأة مشاتنا قد تخطت بكثير ما كنا نأمله

منهم . وقاوموا مقاومة عنيفة . كما أغاروا باندفاع نادر المثيل ، غير عابئين بنيران مدافع العدو ورشاشاته . وهكذا أثبتت لنا معركة معان ان العرب يمكنهم ان يقاتلوا بشجاعة ويحاربوا بضراوة وحنكة دون مساندة الانكليز . وهذا جعلنا نتحرر أكثر في وضع مخططاتنا . وبذلك نكون قد عوضنا عن خسائرنا للمعركة لأننا أفدنا منها الكثير .

وفي صباح الثامن عشر من نيسان (ابزيل) رأى جعفر انـه من الحكمة الحدّ من الخسائر والانسحاب إلى مراكزه في « سمنه » حيث استراحت القوات المحاربة . وكرفيق دراسة للقـائد التركي وجّه جعفر اليه رسالة يدعوه فيها للاستسلام . فجاء الجواب بأن هذا الحل هو ما يتمناه مع جنوده ، لو لم تكن لديه أوامر بالمقاومة حتى آخر رصاصة . عندئذ اقترح جعفر عليه مهلة يمكن للاتراك خلالها اتلاف ما تبقى لديهم من خرطوش ولكنهم تردّدوا ما دام جمال باشا يمكنه أن ينجدهم من عمان ويستعيد « ابا جردان » ويرسل اليهم المؤن والذخائر رغم الحصار المضروب حول مدينتهم . ولكن الخط الحديدي كان لا يصلح للعمل مدة عدة أسابيع .

ذهبت بالسيارة للحاق « بداوني » فقد كنت قلقاً على الطريقة الـتي سيتولى بهـا ضابط نظامي قيادة أول معركة غير نظامية له مـع أكثر أنواع الاسلحة تعقيداً أعني السيارات المصفحة . وفضلاً عن ذلك لم يكن « داوني » مستعرباً ، كما لم يكن « بيلك » خبيره في الجمال و «مارشال » طبيبه يحسنان التحدث بالعربية . وأما جنوده فكانوا خليطـاً عجيباً يضم الانكليزي إلى جانب البدوي . وهكذا توقفت في « تل شحم » بعيـد منتصف الليل وعرضت خدماتي كمترجم . لحسن الحظ أحسن « داوني » وفادتي ، وطفت معه على المراكز التي نظمها تنظيماً هندسياً رائعـاً . ووزع عليها الرجال توزيعاً حكيماً بعد أن زود كلاً منهم بالتعليمات اللازمة . سنهاجم المركز الكائن في السهل ، مع الفجر . وتكـون

المصفحات قد تقدّمت في سكون الليل إلى الخندق وفاجأت العدو هناك قبل انبلاج الفجر . وعندئذ تتولى الشاحنات ١ و ٣ نسف الجسرين المشار اليهما بحرفي (أ) و (ب) على مخطط العمليات ، عند الساعة صفر +١،٣٠ فيما تكون السيارات المصفحة متجهة إلى المركز المحصن لاحتلاله بمؤازرة هزاع ورجاله عند الساعة صفر + ٢،١٠ .

وعلى الاثر يتجه « هورني » ومعه المتفجرات في « تالبوت » رقم ٤٠٥٣١ و ٤١٢٢٦ وينسف الجسور المشار اليها بأحرف « د » و « ف » فيما تكون القوات منصرفة إلى تناول طعامها . وبعد الفطور عندما تكون الشمس قد ارتفعت إلى درجة تمكّن من الرؤية الجيدة أي عندما تكون الساعة قد بلغت صفراً + ٨ ، تهاجم القوات مجتمعة المركز الجنوبي ، المصريون من الشرق والبدو من الشمال تحميهم نيران رشاشات الدبابات البعيدة المدى . ومدافع « بروديه » المركّزة فوق تلة المراقبة . وعندئذ يسقط المركز في أيدينا فتنتقل القوات من هناك إلى محطة تل شحم التي تكون المدفعية قد تولت قصفها من الشمال الشرقي والطائرات المغيرة من « الرم » زرعتها بقنابلها وذلك عند الساعة صفر + ١٠ ، حيث تكون قد وصلت السيارات المصفحة المغيرة من جهة الغرب . وعلى الاثر يهجم العرب وراء الدبابات ، بينما يغير « بيك » وهجانته من المركز الجنوبي وتسقط المحطة في أيدينا عند الساعة صفر + ١١،٣٠ كما يقول المخطط .

وبعد أن استأذنت ونلت قسطاً من الراحة والنوم استيقظنا في الفجر لنرى المصفحات تتقدم بسكون حتى الحاجز الرملي الذي تمتد وراءه الخنادق حيث أصيب العدو بالذهول وخرج منها رافعاً يديه علامة الاستسلام . وهكذا تمّ الصيد الاول بأهون ما يكون . وفي الحال أسرع هورني على متن شاحنتي « الرولز » ووضع خمسين كيلو من المتفجرات تحت الجسر (أ) ونسفه ثم انتقل إلى الثاني وجعل بقاياه تتطاير

في الهواء .

وفيما نحن عند الجسر (ب) صبت المصفحات نيران رشاشاتها على حاجز المركز المحصن فيما كان هزاع ينتظر على أحر من الجمر خروج الاتراك مذعورين من المركز لكي يقبض عليهم باليد . وكان هذا الصيد رقم (٢) .

على اثر ذلك أعلنت استراحة للجميع ما عدانا أنا وهورني حيث انصرفنا إلى نسف الخطوط والجسور بأقصى سرعة تحمينا الدبابات . وبعد الغداء جاء دور المركز الذي سقط في الوقت الذي كان محدداً لذلك .

وبعد ذلك آن أوان العمل الرئيسي في ذلك النهار . وهو الهجوم على المحطة ، فأغار « بيك » على رأس هجانته من جهة الشمال بينما كانت المدافع والطائرات تزرع المحطة بالقنابل والمصفحات تتقدم اليها بعناد . فلما رأى الاتراك هذا الهجوم الكاسح رفعوا الاعلام البيضاء وخرجوا من الخنادق أيديهم فوق رؤوسهم . عندئذ أغار الرجال على المحطة يحاول كل منهم ان يكسب قصب السباق . فنجحت أنا وانتزعت جرس المحطة ليكون ذكرى لتلك المعركة السهلة النصر بينما راح البدو ينهبون كل شيء . (٢٠٠) بندقية ، (٨٠٠٠) صندوق خرطوش ، قنابل يدوية ، مؤن ، ثياب .

لقد كانت غنائم محطة تل شحم كبيرة إلى درجة جعلت ثمانية من كل عشرة من العرب يكتفون بها ويعودون إلى مضاربهم .

وفي الصباح لم يبق منهم للمشاركة في العمليات المقبلة سوى هزاع وحفنة من الرجال وقد كانت محطة الرملة المرحلة الثانية في برنامج « داوني » . غير ان أوامره للعمليات كانت لا تزال في طور التجربة ، لأن المركز لم يكن قد خضع للمراقبة بعد . ولذلك أرسلنا « واد » للاستكشاف وألحقناه بمصفحة للنجدة فتقدم ببطء وحذر . ووسط سكون

رهيب وصل أخيراً إلى باحة المحطة دون أن يسمع طلقاً نارياً واحداً . رش المكان بسيل من الطلقات ، ولكن أحداً لم يرد ، فترجل من سيارته وفتش المحطة فلم يجد فيها من اثر لانسان ولكنها كانت مليئة بالبضائع الثمينة التي زادت عن حاجة هزاع ورجاله . وبعد ذلك صرفنا يومنا في نسف الخطوط والجسور ما طاب لنا ذلك دون أن نعثر للاتراك على اثر .

أما اليوم الثالث فكان من المقرر أن يكون يوم المدوّرة . غير اننا كنا قد فقدنا الامل مع النقص المتزايد في عدد قواتنا . فالبدو عادوا إلى مضاربهم محمّلين بالغنائم ، ورجال « بيك» ليسوا على قدر المهمة ، ولكن ربما يكون رجال المدوّرة قد تولاهم الذعر وهربوا كما فعل زملاؤهم رجال محطة الرملة . وهكذا أمضينا ليلتنا تلك يحدونا ذلك الامل .

وفي الصباح قمنا بجولة استكشاف لجهة المدوّرة فلاحظنا وجود قطار طويل واقف في المحطة .

نجدة أم اخلاء ؟... وما هي إلا لحظات حتى صوّب القطار علينا نيران مدافعه « الهوتشكيس » الاربعة فتراجعنا كي نتوجه من هناك إلى جسر كبير تولينا نسفه ، ثم عدنا إلى محطة الرملة نتابع عمليات النسف هناك لدرجة تجعل فخري اعجز من ان يفكر باصلاح الخط بعد ذلك . في هذا الوقت كان فيصل قد ارسل محمد الضغلان لاحتلال المحطات الأخرى بين معان وقطاعنا . وفي اليوم التالي أقام « داوني » الاتصال مع رجال الضغلان . وهكذا أصبح الخط الحديدي بين معان والمدوّرة كله في أيدينا بعد سقوط محطاته السبع الواحدة تلو الاخرى . وكانت هذه العملية الموفقة قد وضعت نهاية عاجلة للدفاع الايجابي عن المدينة المنورة .

في هذه الاثناء انضمّ الينا « يونغ » ضابط الاركان الذي كان يخدم

في العراق قبلاً . وهو ضابط مجرب يجيد اللغة العربية اجادة طيبة . وكانت مهمته معاونتي في عملي مع القبائل لحملها على القيام بأعمال حاسمة واوسع نطاقاً . وكي أتيح له فرصة التعود على ظروفنا الجديدة أفسحت له مجال التعاون مع زيد وناصر ومرزوق في مهمة الاستيلاء على ثمانين كيلومتراً جديدة في الخط الحديدي شمالي معان . واما أنا فقد عدت إلى العقبة ومنها إلى السويس لاستشارة « اللنبي » بشأن العمليات المقبلة .

٩٥

لاقاني « داوني » واتفقنا على رأي واحد قبل أن نتوجه إلى معسكر « اللنبي » . وهناك طالعنا الجنرال « بولز » بوجه بشوش يدل على انه كان غاية في السعادة ، وقال :

— « هيه . إن السلطة في أيدينا الآن . »

ولكي يخرجنا من ذهولنا أضاف :

— « ان زعيم بني صخر قد جاء ذات صباح جميل إلى اريحا يعرض علينا التعاون المباشر برجاله العشرين الفاً الضاربين في « ثمد » .

وفي الغد أعدّ وهو في الحمّام الخطة الواجب اتباعها . وكان كل شيء قد تقرر .

سألته عمن يكون زعيم بني صخر هذا ، فأجاب « بولز » مزهواً لتمكنه من احراز نصر فيما كان متعارفاً عليه انه مجالي أنا :

— « إنه فهد . »

ولكن سرعان ما تبيّن لي ان «بولز» قد جُرّ إلى الخديعة . ففهد كما هو معلوم لديّ لا يمكنه حشد اربعمائة رجل فكيف بعشرين الفاً كما ادعى أمام «بولز» ، يضاف إلى ذلك ان قبيلة صخر في هذا الفصل من السنة ترفع مضاربها في «ثمد» وترحل إلى الجنوب .

أسرعنا إلى المكتب لمعرفة الحقيقة . ولسوء الحظ وجدنا ان الجميع قد اقتنعوا بهـا مثل «يونغ» ، وارسلوا في الحال فوج الخيالة البريطاني إلى جبال مؤاب مكتفين بوعد هوائي قطعه زعيم بني صخر الذي لم يكن في نيته سوى الافادة من كرم «اللنبي» .

لم يكن يوجد آنذاك مساعد ثالث في القيادة العامة . ان «غي داوني» شقيق القائد الذي وضع خطة الهجوم على القدس كان قد الحق بأركان «هايغ» العامة و «بارتولوميه» الذي يتوجب عليه وضع خطة الهجوم على دمشق في الخريف . كان لا يزال مع «شيتوود» وهكذا كانت السلطة التنفيذية التابعة للجنرال اللنبي في تلك الفترة أعجز من ان تكون في مستوى قدرته على الادراك .

وذلك لأن الحملة قد فشلت بالطبع عندما كنت لا أزال في القدس حيث تعزيت عن عدم كفاءة «بولز» و «ستورز» الذي أصبح الآن حاكماً لمدينة القدس نظراً لكفاءته الادارية واطلاعه على الشؤون البلدية . في هذه الاثناء كان بنو صخر نائمين في خيامهم أو ضاربين بعيداً مع (يونغ) واي منهم لم يساعد الجنرال «شوفيل» الذي رأى الاتراك من ورائه يستعيدون جسور الاردن ، ويستولون على الطريق التي كان قد سلكها . والغريزة وحدهـا ارشدت اللنبي إلى الخطر في الوقت المناسب، فتلافى الافظع وأنقذ سمعة الجيش البريطاني . ولكن رغماً عن ذلك كانت خسائرنا فادحة ، وأعطى هذا الفشل الانكليز درساً كي يكونوا أكثر تفهماً لأوضاع فيصل الصعبة . واقتنع الاتراك بأن قطاع عمان كان مكمن الخطر وجعل بني صخر يتأكدون من ان الانكليز قوم

يصعب فهمهم . ولكن فشل عمان الاول عوّض إلى حد ما باعادة النظر فيما كان قد بدا عارضاً . وفي الوقت نفسه قضت هذه العملية على كل الآمال التي كانت عند فيصل بامكانية التفاوض الحر مع بني صخر . فهذه القبيلة الحذرة والغنية كانت تطلب حلفاء يمكن الاعتماد عليهم .

ومناورتنا المحددة بوضوح منذ كنا وجهاً لوجه مع العدو باتت الآن مشوشة بعد ان دخل عليها شريك ثالث ، وبات علينا أن نرقص على انغام « اللنبي » . إلا ان هذا لم يكن راضياً . فالهجوم الالماني في فرنسا قد انتزع منه كل قواته . صحيح انه يحتفظ بالقدس ولكنه كان عاجزاً عن الحركة والقيام بأي عمل ايجابي في المنطقة . لقد وعدته وزارة الحربية بتزويده بعدة فرق هندية ، وربما تمكن بعد وصول الفرق هذه من إعادة تنظيم قواته والقيام بعمليات جديدة . ولكن في الوقت الحاضر كلانا كان مرغماً على البقاء حيث هو . والدفاع عن هذا البقاء بأي ثمن .

لقد قال « اللنبي » لي ذلك في الخامس من أيار (مايو) . وكان هذا في خطة « سماطس » التاريخَ المحدّد لتقدم الجيش بكامله إلى الشمال حتى دمشق وحلب للاستيلاء عليهما . وكمرحلة أولى لهذه الحركة الجماعية كنا قد أخذنا على عاتقنا محاصرة معان . وتوقف « اللنبي » يعْني تركنا وحدنا نواجه عدواً أقوى منا عدة وعدداً . وفضلاً عن ذلك أصبح في امكان الاتراك المنسحبين من عمان ان يحملونا على التقهقر أمامهم من « ابو اللسن » حتى « العقبة » . في وضع محرج كهذا كان من الاولى عليّ اتباع الطريق العادية للتعاون وترك الأخرى تذهب إلى الشيطان . ولكن ولاء « اللنبي » كان قد بدأ يفعل فعله للتخفيف عنا . فقد هدد العدو باقامة رأس جسر على الاردن كمقدمة لعبوره مرة ثالثة . وهكذا بقيت عمان في حالة تأهب . ولكي يقوى مركزنا على الهضبة

زوّدنا اللنبي بالتجهيز التكنيكي الذي قد نحتاج اليه .

أفدت من الفرصة كي أطلب قيام الطائرات بشن غارات متواصلة على خط الحجاز الحديدي ، فكان « اللنبي » عند حسن الظن ، وأصدر أوامره في هذا الشأن إلى الجنرال « سالموند » الذي برهن على انه كفوء لذلك . ومنذ ذلك اليوم حتى انهيار تركيا العسكري استمر الطيران الملكي البريطاني يغير على المنطقة وجعل كل محاولة للوصول اليها من جانب العدو أمراً مستحيلاً . وأثناء تناولنا للشاي أشار اللنبي إلى فرقة الهجانة الامبراطورية وقال بأنه مضطر إلى حلها والحاق أفرادها بقواته الالية . وقد سارعت إلى سؤاله : « وماذا سنفعل بالجمال ؟ » فضحك وقال :

« سل الجنرال المولج بادارة المعسكر والتموين والعتاد . »

أطعت فوراً وتوجهت عبر الحديقة إلى مكتب الجنرال المذكور وكان يدعى السير « والتر كامبل » ، ورددت على مسمعه السؤال ذاته . وطلبت منه اعطائي الفي جمل للقوات العربية . ولكنه رفض طلبي بحجة ان تلك الجمال ستستخدم للنقل . فعدت إلى اللنبي شاكياً فطمأنني واستدعى السير « والتر كامبل » ثم أمره بالاستجابة إلى طلبي .

وفي صباح الغد قصدت فيصلاً في المعسكر وتحادثنا في كل شيء ، عن الطقس والقبائل والارتحال والمراعي والعشائر والقصص والحكايات المختلفة . وأثناء ذلك أعلمته بدون اكتراث ان اللنبي قد أعطانا ألفي جمل ... فانتفض وأمسكني من ركبتي وهو يقول :

— « ولكن كيف ؟ »

وبعد أن رويت له قصة ذلك هبّ واقفاً وقبلني ، ثم صفق بيديه فأطلّ « هجرس » من باب الخيمة . قال فيصل :

— « استدعهم بسرعة . »

سأل هجرس :

— « ومن تريد ؟ »

قال فيصل :

— « فهد وعبد الله الغبر وعودة ومطلق وزعل . »

فسأل هجرس :

— « ومرزوق ؟... »

أجاب فيصل :

— « يالك من أحمق !! »

وبعد ذلك قلت لفيصل :

— « ها هي نهاية المطاف تقترب . وبعد مدة وجيزة سأستأذنك بالرحيل . »

احتج فيصل على قولي هذا قائلاً :

— « انه يتوجب عليك البقاء معنا دوماً ، وليس فقط حتى دمشق كما وعدت في « ام لج » . »

بعد لحظات دخل علينا المشايخ وهم يتساءلون :

— « خير ان شاء الله ، ما الاخبار ؟ »

أجاب فيصل :

— « ما في إلا الخير . الحمد لله . »

ثم أخبرهم عن النعمة التي هبطت والجمال التي سترسل لنا من عند « اللنبي » ، فغمرت البهجة الجميع . وتكلم « زعل » باسمهم ليقول لي :

— « الله يحفظ حياتك يا لورانس بيك انت واللنبي . »

فأجبت :

— « عسى أن يكتب لنا النصر . »

ثم نهضت واستأذنت من فيصل بالخروج وتوجهت إلى حيث جويس لأخبره بالأمر . فلم يكن سروره ليقل عن سرور مشايخ القبائل . وسرعان ما بدأت تتوالى الاسئلة في أية غارة سنستخدمها ؟ وكيف سننظم نقلها من بئر السبع إلى العقبة ؟ وأين سنجد لها المراعي الكافية لمدة

شهرين ؟

ولكن ما زال لدينا كل الوقت للتفكير في ذلك . والمهم الآن هو كيفية البقـاء على الهضبة خلال الصيف ومحاصرة معان وابقـاء الخطوط الحديدية مقطوعة . طبعاً هذا ليس بالأمر اليسير .

كانت جبهة الثورة في اتساع مستمر . وفيصل ما انفك يبشر بالثورة العربية .. وكانت « العقبة » تعيش أجمل أيام ازدهارها .. وحتى خدماتنا في الريف كانت سائرة على ما يرام . وقواتنا النظـامية استولت مؤخراً للمرة الثالثة على « ابي جردان » هذه المحطة التي بات من المـألوف جداً انسحابنا منها ثم عودتنا اليها . وسياراتنا المصفحة كتب لهـا مرة ان تلقن الاتراك المغيرين من معان درساً قاسياً جعلهم لا يفكرون باعـادة الكرة مرة ثانية . وزيد الذي كان يقود نصف الجيش المعسكر في شمالي « وهيدة » كان يظهر الكثير من الحيوية والحنكة . وقـد كان لطلعتـه وحماسته ومزاجه تأثير على الضباط المحترفين يفوق تأثير شاعرية أخيه فيصل ورصانته . وهكذا أتاح تعاون الاخوين لكل نوع من الرجال ان يجد عند كليهما المزاج الذي يرغبه .

كان يوجد مع ذلك غيوم تتلبد في الشمال . ففي عمان كانت تُحشد قوات كبيرة برسم « معان » ، بمجرد ان تسمح لهـا ظروف التمويـن بالتحرك . وكان يجب ان تنقل مخزونات التموين من دمشق بالقطار إلى حيث تسمح غارات الطائرات البريطانية بذلك .

ولكي نواجه هذا الخطر ونبعده عنا ولو لفترة من الوقت كُلّف ناصر بأن يذهب مع هورني إلى الشمال لجهة وادي الحسا ويعمل على تأخير تحركات العدو بمناورته ونسف الخطوط الحديدية أمامه كلما سمحت له الظروف بذلك . وطالمـا ان اللنبي لا يستطيع شيئاً ريثما تصلـه الامدادات فقد كان علينا ان نحارب لكسب الوقت . ويستطيع ناصر ان يقدم لنا خدمة جلى إذا تمكن من عرقلة تقدم العدو مدة شهر من

الزمن . وأما إذا فشل في مهمته فعلينا ان ننتظر ضربات عنيفة انتقامية في معان وابو اللسن .

٩٦

هاجم ناصر محطة الحسا وفقاً للتكتيك القديم . قطع الخط الحديدي مع الشمال والجنوب ، قصف المحطة بالقنابل ، ثم أغار عليها ونهب ما فيها . وبالتالي نسفها بالمتفجرات مع أكبر قسم ممكن من الخطوط والجسور .. وفي اليوم التالي أصاب محطة « فريفرة » ما أصاب محطة الحسا . فقررت أن أتوجه إلى هناك بنفسي واشهد انتصاراتنا الكبيرة بقوات صغيرة .

رافقني في رحلتي هذه اثنا عشر رجلاً ووصلنا إلى وادي الحسا كي نجد ناصر ورجاله السمّائة يختبئون بين الصخور والاشواك خوفاً من غارات الطائرات التركية التي أكثرت من زياراتها لهم في الايام الاخيرة . فطلبنا إلى قائد طيراننا ان يرد للعدو الكيل كيلين .

استطاع ناصر ان يبقي الخط الحديدي تحت رحمته طالما ان هورني ما يزال يرافقه ومعه مخزون كاف من المتفجرات . وامتد التخريب من « سلطاني » في الشمال إلى « الجوف » في الجنوب على طول اربعة عشر ميلاً . وكان ناصر خلال ذلك قد عثر على مغارة واسعة تقيه ورجاله شر قنابل طائرات العدو . ومما زاد من متانة مركزه كون طفيلة قد أصبحت وراءه ويكفيه ان يطلق كلمة واحدة عند الخطر ليرى الفلاحين قد هبوا إلى نصرته من كل صوب في المنطقة .

وفي اليوم الذي وصلت فيه إلى الحسا كان الاتراك قد أرسلوا قوة

لاسترجاع فريفرة ، غير ان ناصر كان لتلك القوة بالمرصاد فأبادهـا .
ولما قصدت كهف ناصر وجدت هناك نوافاً وفوازاً شقيق مثقال زعيم بني صخر . وكنت قـد تعرفت إلى نواف قبل الحرب . وتجدد تعارفنا سراً في السنة الماضية عندما تسلل ثلاثة منا بعد غروب الشمس إلى مضارب قبيلتهم بالقرب من « زيزا » وكان فواز كبير بني فايز واحداً من الاعيان العرب المنضمين إلى لجنة دمشق . ويلعب دوراً بارزاً في المؤامرة من أجل الاستقلال . استقبلنا فواز بالترحيب في تلك الليلة وقدّم لنا أفضل الأطعمة ثم أحسن الاغطية كي ننعم بنوم هادئ لذيذ .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان مضتا على نومي حتى فوجئت بصوت يهتف بي محذراً . وقد كان هذا الصوت صوت نواف الذي جاء يعلمني بأن فوازاً قد خاننا ووشى بنا عند الاعداء الذين هم في طريقهم الآن للقبض عليّ . ثم أشار عليّ بأن أتبعه وتسللنا إلى حيث مطايانا وهربنا بأسرع ما يمكن ناجين برؤوسنا . وبعد أيام جاءنا خبر وفاة الشيخ فواز .

٩٧

شرحت لفيصل ان العمل الذي يقوم بـه ناصر سيدوم شهراً آخر . وان الاتراك بعد تخلصهم منه سيحتاجون إلى شهر ثالث كي يصبحوا على استعداد لأن يهاجموا « ابا اللسن » . وفي هذا الوقت تكون الجمال قد وصلتنا من بئر السبع . ويمكننا ان نطلب إلى أبيه الشريف حسين نقـل الوحدات النظامية العـاملة تحت امرة علي وعبد الله في الحجاز إلى العقبة . وبذلك يرتفع عدد قواتنا النظامية المجهّزة إلى عشرة آلاف رجـل . نقسمها إلى ثلاثة أقسام الاول يستمر في محاصرة معان . والثاني (ألف

رجل) يغير على قطاع درعا — دمشق ، بينما يتوجه الباقون (ثلاثة آلاف) عبر منطقة بني صخر إلى اريحا لاعادة الاتصال مع قوات « اللنبي » . والقوة نحو الشمال إذا استطاعت ان تستولي على درعا أو دمشق ، ستضطر الاتراك إلى سحب فوج أو فوجين من قواتهم المرابطة في فلسطين كي تعيد تأمين مواصلاتها . وهذا بالطبع من شأنه أن يضعف جبهة العدو في فلسطين ويتيح لقوات « اللنبي » فرصة التقدم حتى نابلس على الاقل . وسقوط نابلس من شأنه ان يقطع المواصلات الجانبية ويضطر العدو إلى الانكماش والتراجع حتى عمان الامر الذي يجعلنا أسياد وادي الاردن بكامله . وعملياً اقترحت استخدام عرب حوران على قدر الامكان لعلّنا نصل إلى اريحا الواقعة على منتصف الطريق إلى دمشق هدفنا النهائي . وافقني فيصل على ما ذهبت اليه وأعطاني رسائل إلى والده تنصح بتبني هذا التكتيك .

لسوء الحظ لم يكن العجوز مستعداً في ذلك الوقت لأن يعمل بنصيحة فيصل هذا الابن الذي استطاع أن يستحصل من انكلترا على مساعدات جعلته يتطير من الحسد . وكي أتفاوض مع الشريف واقنعه بسلامة فكرتي قررت أن أستنجد بـ « وينغات » و « اللنبي » مموّليه ، وتوجهت لذلك إلى مصر كي أحملهما على كتابة رسائل له بهذا المعنى . وفي القاهرة وافقني « داوني » على خطتي ووجوب القيام بهجوم عربي مستقل عن الهجوم البريطاني ، ثم توجهنا معاً إلى مكتب « وينغات » وأقنعناه بعد مناقشة بسلامة الخطة ، فكتب إلى الشريف حسين يطلب اليه نقل قواته النظامية إلى العقبة ووضعها تحت امرة فيصل .

وبعد ذلك انتقلنا إلى مكتب اللنبي كي يكتب الآخر رسالة إلى الشريف حسين زيادة في الاطمئنان . غير اننا وجدنا في القيادة العامة جواً لم يكن لنا عهد به من قبل . وبعد عرض خطتنا سمعنا « اللنبي » يعلننا صراحة بأنه سيشن هجومه العام في نهاية شهر ايلول وفقاً لمخطط

« ساطس » القاضي باحتلال دمشق وحلب ودورنا في ذلك هو الاغارة على درعا . وأما التفاصيل فستصلنا عما قريب .

وكي تكون غارتنا مضمونة النصر استحصلت على مباركة اللنبي لفكرتي بنقل قوات الحجاز النظامية إلى العقبة لشد ازرنا . ثم سافرت إلى جدة حيث تحطّمت آمالي في تحقيق خطتي . وذلك لأن الشريف حسين وقد علم بخطتي مسبقاً تهرب من مقابلتي وسافر إلى مكة التي لا يمكنني دخولها . ولما اتصلت هاتفياً به تظاهر بعدم فهم مقصدي فقفلت عائداً إلى القاهرة على متن أول سفينة مسافرة اليها .

الجزء التاسع

٩٨

المحاولة الاخيرة

تخطّى « اللنبي » في تنظيمه السريع للنجدات التي جاءته من الهند والعراق كل آمالنا . وسرعان مـا أصبح قادراً على وضع خطة هجوم الخريف . وطالما ان قواتنا وقوات العدو نكاد تكون متساوية فأن النصر سيكون مرهوناً بلباقتنا في خداع الاتراك . كان يتوجب علينا اقناعهم بأن كل الخطر بالنسبة لهم يكمن فيما وراء الاردن .

كان يمكننا الاسهام في ذلك ببقائنا ساكنين مدة ستة أسابيع وبالتظاهر بالضعف الذي سيحمل الاتراك على مهاجمتنا .

وعندئذ يتزعم العرب قيادة الحركة في الفترة الحرجة بقطعهم الاتصال عن طريق الخط الحديدي بفلسطين .

غير ان تكنيكاً كهذا للحيل والخداع يفترض حسن اختيار الوقت الانسب للعمل الافيد ، طالما ان التوازن قـد انهار في الواقع من جراء

الانسحاب التركي السابق لأوانه في فلسطين . وزيادة في التمويــه على العدو كنّا قد طلبنا إلى « اللنبي » اعارتنا فرقة من الهجانة الامبراطوريين للتدليل على ضعفنا .

وفي الوقت ذاته كنا نعمل جاهدين لاعداد كل ما يلزم لغارتنا على درعا دون أية صعوبة غير تلك النــاتجة عن غضبة غير مؤاتية للشريف حسين .

* * *

في الحادي عشر من تموز (يوليو) أجريت و « داوني » محادثات جديدة مع « اللنبي » و « بارتولوميه » وقــد أتاح لنا كرمهما الواثــق رؤية نفسية القــائد وهي تعمل على سجيتها . وقــد كان ذلك تجربة كبرى مرشدة مطمئنة ثمينة جداً بالنسبة لي . لم يكن « بولز » و «كامبل» حاضرين في تلك الجلسة فقرر « بارتولوميه» و «ايفانز » إعــادة تنظيم نقليات الجيش دونما اكتراث للتشكيلات النظامية ، وبمرونة تمكن من مساندة أية ملاحقة .

كانت ثقة « اللنبي » بنفسه قوية كالحائط . وقبل الهجوم قام بجولة على قواته المتجمعة سراً بانتظــار اشارة البدء في التحرك . وأفصح لها عن يقينه من انه بمساعدتها سيتمكن من أسر ثلاثين الفاً من جنود العدو في الوقت الذي كان مصيرنا كله فيه على كف عفريت . « فبارتولوميه » بدأ يراوده القلق الشديد لأن إعادة تشكيل الجيش قبل ايلول (سبتمبر) تبدو أمراً عسير التحقيق . وحتى في حالة نجاح ذلك يبقى من الصعب جداً تنفيذ الهجوم وفقاً للمخطط الموضوع سابقاً ، وذلك لأنه لا يعقل

ان نقوم بكل استعداداتنا والعدو متعام عما نفعل .

كان مخطط « اللنبي » يقضي بحشد قوات الخيالة والقسم الأكبر من قوات المشاة بين بساتين الليمون والزيتون في « الرملة » قبل حلول التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) . وكان يأمل أن يتمكن في الوقت نفسه بواسطة سلسلة من التظاهرات في وادي الاردن من حمل الاتراك على الاعتقاد بأنه يحشد جيوشه في تلك المنطقة . يساعد على امكانية ذلك كون الغارتين على السلط قد سمرّتا عيون العدو على الضفة الشرقية للاردن . وأقل تحركات عربية أو بريطانية هناك كانت كافية لحمل الاتراك على اتخاذ ترتيبات مضادة الامر الذي يكشف عن مدى مخاوفهم. وأما في القطاع الساحلي فعلى العكس لم يترك العدو سوى قوات رمزية . ومنتهى اللباقة والدهاء كان يكمن في جعل العدو يستمرّ على هذا الاعتقاد الخاطئ .

بعد نجاح « ماينرتزاغن » في التنكر الذي يعتبر بالنسبة للقائد العادي مقبلات روحية قبل المعركة أصبح عند « اللنبي » نقطة أساسية في فن الاستراتيجية . وبناء على ذلك قرر « بارتولوميه » ان يقيم معسكراً وهمياً بالقرب من اريحا يحمل العدو على الاعتقاد بأن القوات تتجمع في تلك المنطقة استعداداً لشن هجوم الخريف .

وكان « بارتولوميه » يرغب في رؤيتنا نشدّ أزر جهوده بكل ما اوتينا من اخلاص وقوة وحيوية في منطقة عمان ، ولكنه انذرنا في الوقت نفسه بأن النجاح غير مضمون على كل حال ، لأن الاتراك ، لأنقاذ جيشهم واجبارنا على إعادة تجميع جيشنا مرة أخرى ، لم يكن عليهم سوى الانسحاب بضعة أميال فقط في القطاع الساحلي . وعندئذ يصبح الجيش البريطاني كالسمكة التي تسبح في الهواء . الخط الحديدي ، المدفعية الثقيلة ، المخازن ، المعسكرات كل شيء سيكون في غير موضعه . ولن يكون من السهل ايجاد بساتين أخرى لأخفاء عملية التجمع الجديدة .

وهكذا رغم تأكيده بأن الانكليز سيفعلون جهدهم لم يرغب في جرّ العرب بسببه إلى مأزق يصبح من العسير عليهم الخروج منه .

عدنا إلى القاهرة أنا و « داوني » تغمرنا الحماسة أمام هذه الامكانات السامية . غير ان أنباء « العقبة » أعادت إلى بساط البحث من جديد قضية الدفاع عن الهضبة . فالاتراك الذين طردهم ناصر من « الحسا » بدأوا يعدون العدّة لمهاجمة « ابو اللسن » في أواخر آب (اغسطس) أي في الوقت الذي يجب أن تتحرك قواتنا فيه إلى درعا . ولذلك كان يتوجب علينا تأخير تقدم الاتراك مدة اسبوعين على الاقل ، وإلاّ فشلت كل حركاتنا فيما بعد . ومن أجل تلافي ذلك كان يلزمنا نجدة سريعة .

في هذه الظروف الحرجة اتجهت أنظار « داوني » إلى فوج الهجانة الامبراطوري الذي لا يزال في مصر . فربما وافقت القيادة العامة على اعارتنا إياه لصد الخطر التركي الداهم . اتصلنا هاتفياً بـ « بارتولوميه » فتفهم الوضع وساند طلبنا عند « بولز » و « اللنبي » . وبعد تبادل سريع للبرقيات نلنا مأربنا واعير لنا الكولونيل « بوكستون » مع (٣٠٠) رجل لمدة شهر من الزمن بشرطين : اولهما ان نقدم كشوفاً عن خطة عملياته وثانيهما ان لا يتكبد ذلك الفوج خسائر .

وهكذا جلسنا أنا وداوني إلى خريطة المنطقة لكي نرسم خطة العمليات التي سيقوم بها « بوكستون » من قناة السويس إلى العقبة ، ومن هناك إلى المدورة ، عن طريق الرم ، التي سيستولي عليها ليلاً . وبعد ذلك يتوجه عن طريق « باير » إلى ضواحي عمان لتخريب الجسر والنفق والعودة إلى فلسطين في ٣٠ آب (اغسطس) .

وفيما نحن نضع هذا المخطط وصلنا من « العقبة » مخطط آخر أكثر تعقيداً وضعه يونغ بلجويس وفقاً لاتفاق حزيران (يونيو) القاضي بأن يقوم العرب بعمل مستقل في حوران . وفي هذا المخطط إشارة إلى

كل الكميات : موٴن ، ذخائر ، علف ، وسائل نقل لألفي رجل من « ابو اللسن » إلى درعا . كل امكاناتنا كانت قد اتخذت بعين الاعتبار . ووفقاً لهذا المخطط المفصل يمكننا ان نبدأ هجومنا في تشرين الثاني (نوفمبر) .

ودون أن نأخذ بالاعتبار حتى « اللنبي » وجيشه المعاد تنظيمه وتدعيمه لم يعد لهذا المخطط أية قيمة . فهو يعتمد على المساندة التي ستأتي إلى الجيش العربي في ابي اللسن . والشريف حسين امتنع عن تقديم هذه المساندة . يضاف إلى ذلك ان شهر تشرين الثاني (نوفمبر) قريب جداً من فصل الامطار الذي يجعل السير شبه مستحيل على طرقات حوران الموحلة .

كان من الممكن اخضاع الوقت والفعالية للمناقشة . ولكن « اللنبي » ينوي شن الهجوم في ١٩ ايلول (سبتمبر) ، ويرغب في ان نبدأ عملياتنا نحن قبل ذلك التاريخ بيومين إلى اربعة أيام . ثلاثة رجال وصبي مسلحين بمسدسات امام درعا في ١٦ ايلول (سبتمبر) . هذا ما كان ينتظره « اللنبي » منا . وكان يفضل ذلك على وجود آلاف الرجال أمام درعا قبل أو بعد أسبوع . وذلك لأن اللنبي كان لا يهتم كثيراً بقوتنا العسكرية التي لم يدخلها في حسابه التكنيكي . وكل ما هنالك انه كان يرسم لنا هدفاً معنوياً نفسانياً ابقاء لعيون القيادة التركية مسمرة على ضفة الاردن الشرقية .

وهكذا دون تردد استبعدنا مخطط « يونغ » كي نتمّم وضع مخططنا . المسير من ابي اللسن إلى درعا يستغرق اسبوعين ويلزم اسبوع آخر لقطع الخطوط الحديدية والكرّ إلى الصحراء لاعادة بناء الصفوف ، وهذا يعني ان على رجالنا التزود بموٴونة كافية لثلاثة أسابيع . وكنت أدرك تماماً ماذا يعني ذلك — فمنذ سنتين وأنا في هذا العمل — فسارعت إلى بسط حاجتنا امام « داوني » وأعني الفيْ جمل وكتائب اضافية للتموين

لخمسمائة هجان نظامي ، مدافع فرنسية سريعة الطلقات من عيار (٦٥) للجبال ورشاشات ثقيلة وخفيفة ، سيارات ، مصفحات ، بلطجيون ، وكشافة . وقد كان هـذا في نظرنا تفسيراً كريماً لقول اللنبي : ثلاثة رجال وصبيي مزودين بمسدسات . ولما عرضناه على « بارتولوميه » وافق عليه وزودنا ببركات القيادة العليا .

تمتم « يونغ » و « جويس » عندما عدت لأعلنهما بأن مخططهما كان مصيره سلة المهملات . لم أقل شيئاً عن عدم توازنه ولا عن توقيتـه المتأخر . بل حصرت سبب عدم الاخذ بـه بالتغييرات الـتي طرأت على تنظيم جيش « اللنبي » . واما اقتراحي الجديد الذي جررتهما إلى الموافقة عليه مسبقاً فكان يقضي بالقيـام بغارتين خلال شهر ونصف من الزمن . الغـارة الاولى يقوم بهـا فوج الهجانة الامبراطوري لعرقلة تحركات العدو ، والغـارة الثانية تقوم بهـا القوات العربية على درعا .

اعترى « جويس » شعور بأنني قـد ارتكبت هفوة . فقدوم أجانب حسب رأيه يُسيء إلى العرب ، وذهابهم خلال شهر سيكون وقعه عليهم اسوأ كذلك . وأما « يونغ » فرأى في اقتراحي أمراً غير قابل التحقيق . واعتبر ان فوج الهجانة سيستأثر بالجمال التي كان من الممكن لها ان تنقل القوات العربية إلى هدفها في درعا . ثم ذكرني بالقول المأثور : « من يسع وراء ارنبين في وقت واحد يفقد كلا الارنبين » . ولما حاولت الدفاع عن مخططي نشب نقاش عنيف فيما بيننا .

وللرد على « جويس » بشأن فوج الهجانة قلت : سيصل الانكليز على حين غرة وقبل ان يبدأ العرب يحسون بوجودهم سينتقلون إلى وادي الرم . ومن « المورة » إلى « جسر قصير » سيأخذون طريق الصحراء بعيداً عن أعين الجيش العربي وآذان القرويين . واما استخبارات العدو فبأبقائها هكذا في الجو المبهم ستعتقد بوجود كل سلاح الهجانة على جبهة فيصل . وهذا الاعتقاد سيجعل الاتراك يخافون على خطهم الحديدي .

وظهور « بوكستون » في « جسر قصير » سيضفي قيمة للروايات الطائشة عن عزمنا على مهاجمة عمان في القريب العاجل . بعد تقديم كل هذه التبريرات اقتنع « جويس » بصواب مخططي وتبني وجهة نظري .

أما صعوبات « يونغ » بشأن النقل فقد تركتني حاقداً . فهو يعلن بأنه مشاكلي مستعصية الحل . ولكنني سبق لي وحللت مشاكل مشابهة لها ، دون أن تكون لي قوته ولا نصف مهارته . وفيما يختص بفوج الهجانة تركنا « يونغ » يهتم بالمهام والتوقيت . فالجيش البريطاني كان مجال حملة . ومع انه لم يرد ان يؤكد شيئاً سوى ان الامر كان مستحيلاً فقد تم الامر وقبل التاريخ الذي كان محدداً له بثلاثة أيام . وأما الغارة على درعا فقد كانت مهمة ثانية اضطررت أن أبحثها معه نقطة نقطة وفقاً للمفهوم الذي كونه عنها .

حذفتُ العلف (اثقل حمل) بعد « باير » . فتهكّم « يونغ » على صبر الجمال الطويل . ولكن المراعي كانت جيدة في تلك السنة في منطقة الازرق — درعا . ومن المؤونة للرجال حذفت كل ما كان محسوباً للغارة الثانية وللعودة . فتساءل « يونغ » عما إذا كان الرجال يحاربون بصورة أفضل وبطونهم خاوية . شرحت له بأننا سنأكل من المنطقة .

قال « يونغ » ان العودة ستستلزم منا مسير عشرة أيام على الاقل . وهذه المدة تشكل صوماً طويلاً . ولكن لم تكن عندي أية رغبة في العودة إلى العقبة ، كما لم يخطر ببالي مطلقاً أن تصل بي البلاهة إلى حد مكاشفته بامكانية الفشل أو النصر ، بل قلت له بأن كل شخص سيكون معه حمل ، ويكفي أن نذبح ستة جمال يومياً كي نطعم الجيش بكامله . غير ان هذا لم يطمئنه ، واستمررت بعد ذلك أخفض له كميات الوقود والسيارات والذخيرة حتى الحد الادنى المتفق مع مخططنا . ولما وصلت إلى هذا الحد ثارت ثائرته فاضطررت لأن أعلنه بأن قاعدتنا الذهبية هي ان نعمل بطريق شاذة ، ووفقاً لأساليب غير محددة تجعل العدو يضيع

صوابه تجاه تصرفاتنا . والخطأ في مخطط « يونغ » كان انه خاضع للقواعد الحسابية .

سنرسل على العكس كتيبة من ألف هجان إلى الازرق وسيتمّ تجمعهم هناك في ١٣ ايلول (سبتمبر) . وفي ١٦ ايلول سنغشى درعا ونقطع خطوطها الحديدية . وبعد يومين من ذلك التاريخ سننسحب إلى شرقي خط الحجاز الحديدي بانتظار ما سينتج عن تحركات « اللنبي » . ولمواجهة كل طارئ سنشتري شعيراً من جبل الدروز ونخبئه في الازرق .

وفي مهمتنا هذه سيرافقنا نوري الشعلان على رأس فرقة من عرب الرولا . وسيكون إلى جانبنا كذلك بنو سردية وبنو سرحان وجماهير الفلاحين الحوارنة بقيادة طلال الحريديني . وصف « يونغ » مغامرتنا هذه بأنها تستحق الرثاء . وأما « جويس » فقد رأى انها تستحق المخاطرة . واما أنا فقد كنت واثقاً على كل حال بأنهما سيبذلان أقصى جهودهما لانجاحها ، طالما ان الرأي قد استقر على القيام بها . وكان « داوني » قد سهل مهمة تنظيمها باستعارته الضابط « استرلنغ » من القيادة العامة ، وهو ضابط الاركان المعروف بلباقته ودرايته وحبه للخيل الذي يجعله يكسب قلب فيصل واعجاب مساعديه بسرعة .

تلقى عدد من الضباط العرب أوسمة عسكرية بريطانية من « اللنبي » مكافأة لهم على جهودهم في محاصرة معان . وكانت هذه البادرة كافية لأن تبعث الحماسة في نفوس القوات العربية . فاقترح نوري السعيد ان يوكل اليه أمر قيادة الغارة على درعا . وبعد موافقتنا على ذلك انصرف إلى اختيار معاونيه الاربعمائة واحداً واحداً . وكان « بيزاني » ضابط المدفعية الفرنسي من بين الذين وقع عليهم الاختيار للاشتراك في الحملة على درعا . في تلك الاثناء كان معسكرنا قد أصبح شبه خلية للنحل . وكانت كل الدلائل مطمئنة .

خلافاتنا الداخلية كانت مؤسفة ولكن لا بدّ منها . فالثورة العربية

تخطت الآن باتساعها تنظيمنا المحدّد . والعملية المقبلة قد تكون الأخيرة . مع قليل من الصبر يمكننا أن نجعلها مفيدة لمواردنا الحالية . لم تتخط المناقشات حلقتنا الثلاثية . وبفضل تجرد « جويس » احتفظنا بتضامننا ، تحاشياً لتفكك كامل .

وفضلاً عن ذلك كان لا يزال عندي ثقة بنفسي وكنت مستعداً الآن لأن أتحمل عند الحاجة المسؤولية كاملة وحدي .

٩٩

كنا آنذاك في أواخر تموز (يوليو) . وفي نهاية آب (اغسطس) يجب ان يبدأ التحرك على درعا . ومع ذلك كان يجب ارشاد فوج الهجانة في تنفيذ مخططه وانذار نوري الشعلان كي يبدأ استعداداته ودلّ السيارات المصفحة على طريق الازرق وايجاد أراضي صالحة لهبوط الطائرات . انه شهر زاخر بالعمل . ونوري الشعلان الاكثر بعداً كان أول ما شغل اهتمامنا . فطلبنا اليه أن يأتي لمقابلة فيصل في الجفر حوالى السابع من آب (اغسطس) . وبدت قضية « بوكستون » وهجانته ثانوية من حيث الالحاح . فأخبرت فيصل سراً عن قدوم هذه القوات الانكليزيـة . ولتحاشي كل خسارة يجب ان يتم هجومها على « المدوّرة » في جو من المفاجأة التامة . ولذلك سأتولى بنفسي قيادتها حتى وادي الرمّ ريثما تصبح بعيدة عن أعين الحويطات حول العقبة .

وهكذا رأيتني أتوجه إلى العقبة واستأذن « بوكستون » في اعطـاء التعليمات الواجبة لقواته فرقة فرقة مع التشديد بأنه يتوجب عليها خدمة للهدف الاعلى أن تتحاشى كل ما من شأنه الكشف عن حقيقتها . وبعد

ذلك بدأنا مسيرنا عبر وادي اثم وعمران وجزيل إلى وادي الرمّ . ثم تركت «بوكستون» يتابع وحده مع قواته وقفلت عائداً إلى «العقبة» يرافقني ستة من الحراس العرب الشجعان يتبعونني كظلي ويضحون بأرواحهم فداء لي . تفكيري في هذا الأمر آلمني جداً في ذلك اليوم ، وذلك لأنني كنت استغلّ أثمن ما عند العرب : حبهم للحرية كأداة من أجل نصرة انكلترة .

في «العقبة» وجدت باقي حراسي على اتمّ الاستعداد للسير نحـو النصر . كنت قـد وعدت الحوارنة منهم بأنهم سيحتفلون بهذه المناسبة الكبرى في قراهم المحررة وتاريخ هذا التحرير بات وشيكاً . وهكذا للمرة الاخيرة أحصينا الموجودين فبلغ عددهم الستين . ثم تحركنا باتجاه قويرة ، وما ان وصلنا إلى هناك حتى وجدت «سدونز» ينتظرني مع طائرته لأن فيصل ونوري الشعلان يريدانني معهم دون تأخر في الجفر . فركبنا الطائرة . وبعد لأي وصلنا إلى الجفر حيث وجدنا في استقبالنـا فيصل ونوري الشعلان وهما على أحسن حال دون ان يلمحا إلى الثمن المتوجب عليّ دفعه . فبدا من غير المعقول ان يكون هذا العجوز قد انضم الينا هكذا بحرية نحن الشباب لأن الشعلان كان هرماً شاحباً متهدماً حفرت في وجهه أخاديد التبكيت والالم .

تبادلنا المجاملات لدى هذا الزعيم القليل الكلام وهو محاط برجاله ورؤساء القبيلة يتهادون بأثوابهم الحريرية الفضفاضة التي هي مَن بعض هدايا فيصل وعلى رأسهم «فارس» كأنه هملت لا يغفر لنوري الشعلان الذي قتل أباه «سطاماً» . وكان «فارس» هذا شيخاً نحيـلاً أبيض البشرة إلى حدٍّ لا يصدق . وكان بـين البدو «طراد» و«سلطان» لهما أعين مستديرة ونظرات رصينة شريفة وعلى وجهيهما سمات الفروسية . وبالقرب من فيصل كان يقف «مجهم» الذي صالح عمه نوري على الرغم منه .

كان «مجهم» هذا رئيساً من الرؤساء وخصماً لطراد في قيـــادة الغزوات ، ولكنه ظالم لاخفاء ضعفه . وكان جالساً إلى جانب خـــالد شقيق طراد ، وهو فارس مغوار مشهود له بشدة المراس . وبعد ذلك دخل علينا درزي بن صغمي فحياني واتخذ لنفسه مجلساً . وكان بيننا كذلك الخفاجي الابن المدلل لنوري الشعلان الذي جاء يخطب ودّي استناداً إلى صداقتي لأبيه الشيخ .

وكان بندر ، الغلام المرح ورفيق الصبا لخفاجي ، قـد فاجأني في هذا الاجتماع ، وطلب الانضمام إلى حرسي الخاص . جذبه إلى ذلك حب المغامرة وركوب المخاطر بعد الذي سمعه عن ذلك من «رُحيّل» أخيه في الرضاع . اعترضت قدر ما استطعت على ذلك ، فألحّ ، فاستدرت وغمغمت قائلاً : «أنا لست ملكاً لاستخدم أبناء الشعلان .» وعندئذ التقى نظري بنظر نوري ، فقرأت فيه سطور استحسانه .

وبعد أن كثر الحشد دنا رحيّل مني ، وبدأ يهمس في أذني أسماء الرؤساء والزعماء . وفي الواقع كان هذا الاجتماع فريداً من نوعه فلم يتفق قط ان اجتمعنا قبل اليوم لمثل هذه المداولة الخطيرة ، ولذلك كنا نسند بعضنا ونقر آراءنا ونتناوب المداولات للعمل المشترك — نحن الذين جئنا كل من قطب مختلف كل الاختلاف عن الآخر — وكانت أعمالنا تنتهي دائماً إلى خير وتوفيق . وها هم أبناء الدولة يلينون تحت تأثير حماستنا ، وأصبحنا نهزهم بكلمة طيبة وإشارة موفقة . لأن أفكارهم قد اتجهت الينا ووقفت أنفاسهم على شخصيتنا . وسطعت عيونهم بأشعة ايمان جديد . وألهب فيصل روحهم الوطنية بكلماته السحرية ، ثم حدثهم عن أمجاد لغتهم العربية وأمتهم العريقة . وعلى الاثر فعلت كلماته فعلها في نفوسهم فدبّت فيهم الحماسة الوطنية وأعلن الجميع وراء نوري انضمامهم الطوعي الفوري للثورة العربية .

في دعوتنا هذه لم نترك شيئاً للاعصاب بل سعينا جهدنا لاستبعاد ذلك

كي يأتي الانضمام بعيداً عن كل تأثير خارجي نابعاً من جوهر النفس الذاتية . كنا نرفض ان نشتري أنصاراً لحركتنا بالمال لأنه مفسدة لكل شيء . وكنا نريد من أنصارنا أن يسيروا معنا في الطريق الوعرة لمجرد انهم يرغبون في ذلك . وحتى أنا الاجنبي المخاتل المنافق الذي كان ينفح في الآخرين الروح الوطنية كنت أحس بشيء من الانعتاق لدى توقفي عند هذه الفكرة . الانعتاق من الذات الممقوتة ومن قلقها الدائم . وهذا رغم انعدام خلوص النية وسلامة الطوية في لعبتي .

وذلك لأنني لم أتمكن بالطبع من ان اغشّ نفسي طويلاً . ولكنني كنت ألعب دوري بلباقة سَرَتْ على الجميع ما عدا « جويس » ونسيب ومحمد الضغلان . بالنسبة للانسان الغريزي كل أمرٍ يتشارك فيه أكثر من واحد يصبح أهلاً لأن تُضحّى النفس البشرية من أجله . وأما في نظر الانسان العاقل فالحروب الوطنية لا تقل خداعاً عن الحروب الدينية ، فما من شيء يستحق في هذا الوجود أن يموت الانسان من أجله . والمعركة نفسها في جوهرها لا تحتوي أي جزء من الفضيلة الجوهرية الاصلية ، وقد كانت الحياة دائماً قضية خاصة ، لذلك ما من شيء في الوجود يبرر تسلط انسان على آخر .

لقد وضعنا ايماننا تقريباً فوق الشبهات لأنه كان يؤدي إلى اعمال قد يخلط البشر فيها بين العمل والارادة ، وخطئي بل تعاميّ كزعيم (نهم لايجاد وسيلة للاقناع) كمن في كوني قد تركت المؤمنين غالباً يكتفون بصورة حسية محدودة لأهدافنا هي في الواقع سلسلة من الجهود المتواصلة في التطلع إلى حلم بعيد المنال . وجماهيرنا الباحثة عن النور في الاشياء الارضية كانت أشبه بقطيع من الكلاب الشامة عند أسفل مرآة عاكسة للنور . وحدي أنا وصيف المثال الاعلى كان عليّ الولوج إلى وراء صندوق الذخائر المقدس .

ومن سخرية القدر بالنسبة لي مع كوني مضطراً لأن أحبّ الاشياء

أكثر من الحياة أو الافكار مما حملني على ان اسفّ في الاستجابة إلى نداء العمل الذي يشدّد على تباين الاشياء ، انني كنت أجد صعوبة قصوى في البقاء هكذا مشدوداً بين الشعور والعمل . لم أكن أرغب في وجودي إلا في التمكن من التعبير عن الاشياء بصورة تخيلية . غير ان فكري المشوش لم يهتد مطلقاً إلى تكنيك ذلك ، وأخيراً رَمت بي الصدفُ في أحضان العمل ، وأفردتْ لي دوراً في الثورة العربية فاسحة أمامي المجال وسير الاحداث وحده كان يهمني . والميل إلى البطولات الملحمية كان غريباً عني كما هي الحال عند جميع أبناء هذا الجيل . وما من شيء في ذاكرتي كان يشدّني إلى الملحمة .

وبين العرب كنت الصاحي المتشكك وكنت أحسدهم على ايمانهم الرخيص الثمن . وبالرغم من انهم كانوا مخدوعين فقد كانوا يحاربون العدو بكل جوارحهم . وكانوا بالتالي أكثر شجاعة وبساطة وحبوراً من سائر البشر .

١٠٠

على اثر ذلك بدأ فكري يحيك نسيجه في مجاله الكثير الغبار ، بين شعاعات الافكار وجزئياتها المتراقصة . وعندئذ رأيت اننا لا نربح شيئاً بشرف من رفع « المجهول » هكذا إلى عرش الله ، بل على العكس يعني ذلك اختيار كبش المحرقة والتغني بسلام موهوم .

انه من البطولة ان يضحّي المرء بنفسه من أجل سبب لا يمكنني الاعتقاد به ، ولكن ارسال الآخرين إلى الموت باخلاص من أجل صورتي المنحوتة ليس سوى عمل لصوصي . لقد صدق هؤلاء العرب

رسالتنا وآمنوا بحقيقتها ، فارتضوا الموت لأنفسهم في سبيلها .

ان قصة الثورة العربية من أولها لآخرها ليست سوى قضية حياة أو موت بالنسبة للعرب . أما نحن فقد تبنيناها حباً بأنفسنا ، أو على الاقل طمعاً بكسب مستقبل ، ولم يكن في مقدورنا تحاشي ذلك إلا بخداع أنفسنا فيما نشعر ونحس به من دوافع .

إن الضحية المختارة باقدامها على التضحية تضع على حسابها موهبة نادرة للتضحية . وليس هنالك أسعد وأغنى من هذا الاختيار لتحمل آلام الغير في سبيل تنقية الذات وزيادتها رفعة . ومجرد القبول بالالم من أجل الآخرين يضفي إحساساً بالسمو والعظمة . والفداء لكي يكون شريفاً سامياً يجب أن يكون حراً مختاراً أملته نفس طاهرة طهارة نفس الطفل . أما إذا كان الفادي واعياً للدوافع السريعة لعمله فأن الفداء عند ذلك يفقد قيمته كلها ، بالنسبة لنا نحن القادة فأن الطريق المستقيمة لم تكن بادية لنا وسط هذه التعرجات الاخلاقية وتلك الحلقات المجهولة المتتابعة .

في فجر الثورة العربية لم يكن لي أي دور ولذلك لا أتحمل أية مسؤولية . أما عند نهايتها فقد كنت مسؤولاً عن الورطات التي سببتها لباعثيها . وذنبي الثانوي أصبح رئيسياً . ترى بأية صفة يجب أن أحاكم ؟.. لست أنا من عليه قول ذلك .

١٠٩

أعادني « سيدونز » في مساء اليوم ذاته بالطائرة إلى قويرة . وفي الليل اخبرت « داوني » (الذي وصل لتوه من العقبة) بأن الحياة مزعجة

يدون اصطدام . وفي صباح الغد التالي جاءت طائرة لتخبرنا كيف تصرف «بوكستون» في المدوّرة . وعلمنا انه كان قرر مهاجمة الموقع قبيل الفجر معتمداً على القنابل بصورة خاصة . وفي سبيل ذلك قسم قواته إلى ثلاث فرق : واحدة للمحطة والاثنتان الاخريان للاستحكامات الرئيسية .

قبل منتصف الليل اذن ، كان قد تم وضع علامات ليسترشد بها الرجال حتى نقطة الصفر . وكانت الساعة الرابعة إلا ربعاً صباحاً قد حددت لبدء العمليات العسكرية ضد المدورة . ولكن الجنود الانكليز وجدوا صعوبات في الاهتداء إلى الطريق أخرتهم عن الوصول إلى نقطة الصفر في الوقت المعين . كانت تباشير الصباح قد بدأت تلوح عندما بدأ الهجوم على المتراس الجنوبي . وبعد عملية قصف شديدة للمتراس استطاع الرجال ان يستولوا عليه بسهولة . وفي الوقت ذاته كانت الفرقة الأخرى قد نالت مأربها واستولت على المحطة . وبعد عشرين دقيقة أخرى استسلم الاتراك بعد مقاومة عنيفة عند المتراس الآخر في الوسط .

وأما المتراس الشمالي فكان يملك مدفعاً وبدا انه مصمم على المقاومة ، فراح يزرع باحة المحطة بالقنابل وقد أصبحت الآن في أيدينا . عندئذ صوب «بوكستون» كل حممه إلى الشمال . وعند الساعة السابعة صباحاً استسلمت البقية الباقية من الاتراك بهدوء . وأما نتائج تلك المعركة فكانت اربعة قتلى وعشرة جرحى من جانبنا وواحداً وعشرين قتيلاً ومائة وخمسين أسيراً من جانب العدو مع مدفعين وثلاثة رشاشات .

بعد ذلك انصرف الرجال في اتلاف الخطوط الحديدية وخزانات المياه . وعند الغسق أصدر «بوكستون» أوامره بالرحيل والتوجه إلى الجفر وقد ملأه البشر . وعرج «داوني» على ابو اللسن لتحية فيصل وابلاغه رسالة اللنبي التي توصيه بالحذر لعدم التأكد من قدرة جيشه على دحر الاتراك في فلسطين .

استقبل فيصل بابتسامة هادئة مبعوث «اللنبي» وأجابه بأنه مهما

كانت الظروف فأنه سيهاجم دمشق في فصل الخريف . وفي حالة عجز الانكليز عن احراز النصر من جانبهم فسيخلص شعبه من ويلات الحرب بعقد معاهدة منفردة للصلح مع تركيا .

منذ مدة طويلة وفيصل على اتصال ببعض العناصر التركية بمعرفة جمال باشا الذي كان يفتح كل الرسائل . وجمال باشا في كامل وعيه كان محمدياً لذلك كانت الثورة العربية تشكل حكماً بالنسبة له . وكان مستعداً لأن يفعل أي شيء كي يعوض عن تلك الخطيئة ضد المعتقد . ورسائله في هذا المجال أصدق دليل على ذلك .

مما لا شك فيه ان التفاهم مع جمال باشا كان أمراً مستحيلاً . فجمال باشا هو الذي أمر بشنق أصدقاء فيصل في سورية ولا يمكن لفيصل أن يتجاهل دماء أصدقائه وهو العربي الوفي . ولكن ابلاغ جمال باشا رفضاً لعرض السلام كان المقصود به زيادة الشق الوطني الديني في تركيا .

لقد عرض الاتراك على فيصل أولاً استقلالاً ذاتياً في الحجاز ، ثم الحقوا سورية بالحجاز واتبعوا العراق بهما . غير ان فيصل بقي غير راض ، فعرض مندوب جمال باشا عليه اعلان الشريف حسين ملكاً . وفي النهاية اعترف الاتراك بأن مطلب اسرة النبي في تزعم الاسلام روحياً لا ينقصه المنطق .

ومن الجدير بالذكر ان هذه العروض قد سببت انشقاقاً في الاركان العامة التركية . فبينما رأى الرجعيون في حركة الشريف حسين خروجاً على الطاعة لا يغتفر اعتبره التقدميون عملاً وطنياً مخلصاً ، ولكن الانكليز دفعوا الشريف في حبائلهم بوعودهم المعسولة ، وكانوا يرغبون في اعادته إلى جادة الصواب عن طريق المستندات بصرف النظر عن القوة العسكرية .

وأفضل ورقة في أيدي معارضي السياسة البريطانية كانت اتفاق سايكس – بيكو الذي قضى بأن تتقاسم كل من انكلترة وفرنسا وروسيا

القيصرية تركة الرجل المريض – تركيا . وهذا الاتفاق قد كشف عنه السوفيات بعد ثورتهم على النظام القيصري . وقرأ جمال باشا بنوده السرية في حفل عام دعا اليه في بيروت ، وبذلك سبب الكثير من المتاعب ولو إلى حين في وجه بريطانيا وفرنسا اللتين أرادتا اخفاء نواياهما الحقيقية بشأن البلاد العربية عن العرب .

لحسن حظي انني كنت قد كشفت لفيصل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية وأقنعته بأن افضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هي تقديم عون فعّال للانكليز . عندئذ سيكون من الصعب عليهم بعد النصر التضحية بحليف السلاح من أجل تنفيذ اتفاق ورقي . ولكن بما انني لم أكن واثقاً من حسن تصرف الانكليز فقد رجوت فيصل أن لا يعتمد كوالده على وعودنا بل على قوته هو دون غيره .

وفي الوقت المناسب عرفت الحكومة البريطانية كيف تستر وجهها ، وتلعب على عدة حبال لتقلّل من وقع معاهدة سايكس – بيكو على العرب . فوعدت لجنة من الزعماء العرب في القاهرة بمنحهم الاراضي التي يستطيعون ان ينتزعوها من الاتراك خلال الحرب . وسرعان ما سرى هذا الخبر في كل أنحاء سورية .

وأخيراً كي تنجد الاتراك المغلوبين وتبرهن لنا على انها قادرة على نثر الوعود في كل الاتجاهات وإلى كلَ الفرقاء بعد وعدها رقم (أ) للشريف حسين ، ووعدها رقم (ب) للحلفاء ، ووعدها رقم (ج) للجنة العربية طلعت الحكومة البريطانية بوعد جديد رقم (د) أطلقته للورد روتشيلد القوة الجديدة التي دغدغت أحلامها بمكاسب ممكنة في فلسطين . وفي أحد اجتماعاتنا استدار نوري الشعلان نحوي ، وفي يده مجموعة من المستندات المتناقضة الصادرة عن الحكومة البريطانية وسألني :

– « أياً من هذه المستندات يجب أن نصدق ؟ »

ولكي أتخلص بلباقة كما فعلت في الماضي أجبت :

— « آخرها من حيث التاريخ . »

وجمال باشا من جانبه لم يتقاعس عن تقديم العروض من أجل الصلح . وبعد اندحار « اللنبي » في السلط أرسل لنا مذكرة بهذا الشأن مع محمد سعيد شقيق عبد القادر الجزائري .

وكان جواب فيصل على تلك المذكرة انه سيأتي الوقت المناسب لعقد مثل تلك المعاهدة . وفي امكانه ضمان ولاء جيشه لجمال باشا إذا أخلى الاتراك عمان لحكومة عربية تشكل فيهـا على الاثر . وما ان وصلت هذه الاخبار إلى أذن مصطفى كمال الثائر على السلطات التركية حتى أرسل إلى فيصل يرجوه عدم الانصياع لرغبات جمال باشا وطغمته ، ويعد بالمساندة في حالة نجاحه في احتلال دمشق لاقامة دولة عربية مستقلة .

وفيما كانت هذه الاتصالات مستمرة بين فيصل والاتراك في معزل عن انكلترة كانت هذه من جانبها تتصل بالاتراك لأنهاء الحرب معهم في معزل عن فيصل حليفها .

١٠٢

بعد مفاوضات السلام كان في مقدورنا العودة إلى عملنا . فقررنا أنا و « جويس » ان نقوم على متن سيارة مصفحة بجولة أخرى استطلاعية في منطقة الازرق . وتوجهنا إلى الجفر لمقابلة فوج الهجانة المظفر ، وسمعنا على لسان « بوكستون » قائده ان الفوج مستعد الآن للقيام بأيـة غارة بعد نجاحه الساحق في المدوّرة . ومن الجفر قصدنا وادي « باير » ثم تابعنا إلى وادي الجنز ، بعد اتخاذ الترتيبات اللازمة لسلامة الهجـانة هناك . وسرنا بعد ذلك في محاذاة « ام خارق » لجهة الشرق ، إلى

«ضروى» ، ثم «جيشا» القريبة من «عمارة» ملجأنا الوحيد في حالة الفشل في وادي السرحان الذي قضينا فيه ليلتنا تلك . وفي صباح الغد التالي عن طريق الفدف وصلنا إلى السهل الموحل الممتد على طول سبعة أميال إلى جنوبي وشرقي قصر الازرق العتيق . ومن هناك توجهنا إلى ينابيع جبل مجابر التي وجدناها أفضل مكان وافر الماء والعشب لهجانتنا .

وبعد قضاء الليل أخذنا طريق العودة عبر وادي باير ورأس مهيور وجبل هادي ، وفي باير وجدنا ان «بوكستون» ومارشال قد وصلا اليها مع الهجانة بعد مرحلتين سهلتين من المسير . ولكنهم وجدوا صعوبة قصوى في التزود بالمياه ، لأن البئر الأولى كان يحتكرها بنو صخـر والحويطات لارواء قطعانهم القادمة من مراعي الجنوب . والبئر الثانية يتكدس حولها عدد كبير من اللاجئين الدروز والارمن والدمشقيين الذين يقصدون العقبة ، هذا إلى جانب نضوب المؤن والعلف .

على الاثر عقدنا اجتماعاً حربياً وقررنا ادخال بعض التعديلات على تجميع قواتنا ووجهة سيرها القادمة .

١٠٣

بكسل وتوانٍ ساعدت هجانتنا على رفع الماء من عمق ٤٠ قدماً . وكنت اطرب كثيراً لتبادل الحديث مع «بوكستون» الذي اتضح لي بأنه واسع الاطلاع . ولكن «بوكستون» كان مشغولاً جداً في الأعداد لمراحل عمله القادم ، الامر الذي أتاح لي أن أعود لنفسي مراراً وأخلو بهـا الساعات الطوال ، وقد أفدت من ذلك كي أحدد نقطة وجودي فوجدت انني أكملت الثلاثين من عمري منذ الخامس عشر من آب (اغسطس)

المنصرم . وفي هذه المناسبة حملتني الذاكرة مع احساس غريب إلى أربع سنوات خلت حيث كنت أحلم بأن أصبح جنرالاً من طبقة النبلاء لدى بلوغي سن الثلاثين . إن هذه الاستحقاقات الزمنية (إذا ما عشت بعد هذه الاسابيع الاربعة الحافلة) باتت في متناول يدي . ولكن شعوري بالذنب تجاه العرب كان قد عتقني من مثل هذه المطامح تاركاً لي فقط الامل في ان تكون سمعتي حسنة بين معارفي . غير ان وعيي لهذه الرغبة كان يجعل اخلاصي نحو نفسي موضع شبهة . والممثل البارع وحده فقط يستطيع هكذا ان يفرض رأياً مؤاتياً على حسابه . فالعرب يصدقونني واللنبي وكلايتون يثقان فيّ وحراسي يستميتون من أجل المحافظة على حياتي .. وقد قادني هذا إلى التساؤل عما إذا كانت كل سمعة تقوم كسمعتي وصيتي على الخداع والنفاق .

والمديح الذي كنت أتلقاه مقابل اعمالي كان عليّ ان اتقبله . وكل احتجاج صادق من جانبي كان يفسر على انه استكانة وضعة ان لم يكن تواضعاً بديعاً . فالناس يعجبهم دائماً الاعتقاد بالامور الخيالية .

وما كان يرفزني ويثير أعصابي هو هذا الخلط الاحمق بين الخجل الذي يصيب مسلك المرء والتواضع . فأنا لم أكن يوماً متواضعاً بل خجولاً من حماقتي .

في تلك الليلة في « باير » لكي أكون صادقاً مع نفسي أردت أن أشرح معتقداتي ودوافعي وأتلمس ذاتي الدفينة . وكان هذا الخجل وتلك الثقة المعدومة بالنفس قد البسا وجهي قناعاً – قناع عدم المبالاة أو الخفة – كثيراً ما ضيعني . وكانت أفكاري تنشب اظفارها في هذا الهدوء لعلمها بأنه هدوء مقنّع . وذلك لأنه رغم محاولاتي الحثيثة كي لا أحصر همي بالنقطة المفيدة كثيراً ما كانت شهواتي تنفلت من كل رقابة وتنفجر علناً وتخيفني .

كنت أدرك تماماً في ذاتي حزمة القوى والكيانات وأعيها ، إلا أن

وجهها المركزي كان لا يزال محجوباً . لقد كانت عندي رغبة في الارضاء قوية عصبية إلى درجة جعلتني أعجز دوماً عن الوثوق بأي كان . ورهبة الفشل في محاولة بهذه الاهمية كانت تغلي حتى قبل البدء في المحاولة .

ثم كانت عندي الرغبة في النصر والظفر والهلع من عدم تحقيق ذلك . وقد كنت متعلقاً باستقلالي تعلق البدوي باستقلاله وحريته . ولكن عجزي عن رؤية نفسي جعلني أجيد أكثر فهم شكلي في لوحة خارجية . والملاحظات الجانبية المعطاة لحسابي هي التي كانت تدلني على نفسي . وهذا النهم الغريب لرؤية الآخرين وسماعهم يتحدثون عني كان ردّي الوحيد على قلعتي الداخلية المنيعة .

كنت أتحاشى المخلوقات الدنيا التي كان يبدو انها تعطينا صورة عن فشلنا في معركتنا نحو الروح . وبما انها مفروضة عليّ ، فقد كنت أبغضها بشدة . ووضع اليد على شيء كنت أعتبره تدنيساً كما كنت ارتجف إذا ما لامسني احد من قريب .

إن المشاعر والاوهام لا تنفك تتصارع في داخلي . وقد كان العقل قوياً ما فيه الكفاية كي ينتصر ويربح ، ولكنه لم يصل إلى درجة تمكنه من القضاء عليها نهائياً أو من منعي عن تقديرها أكثر . وربما كان أعمق علم في حقل الحب هو ان تحب ما تكرهه في الواقع ، غير ان هذا لم يكن في امكاني سوى التطلع اليه .

كنت أحب الاشياء الدنيا ، وأبحث عن ملاذي ومغامراتي في كل ما هو دون . وذلك لأنه يوجد ظاهراً في التطلع إلى ما هو دون يقيناً . وضماناً نهائياً . فالانسان يمكنه أن يرتفع إلى أي مستوى بينما لا يستطيع أن يهبط إلى أدنى مستوى حيواني معين . وكنت أجد شيئاً من الراحة في هذا الرضاء .

كنت قد جمعت الكثير من الاشياء كي أتأملها وألهو بها ثم أرميها جانباً . وذلك لأن الاقتناع نفسه بالعمل كان ينقصني . وكان التصور يبدو لي

أكثر صلابة ومناعة من العمل . اطماح كثيرة مختلفة كانت تراودني ولكن لتتلاشى بعد ذلك بقليل . لأن روح النقد عندي كانت تدفعني إلى رفض ثمارها باستعلاء . وكنت أنجح دائماً في السيطرة على الظروف حيث ترميني الصدفة ولكنني كنت لا أقبل على ذلك مختاراً . وكنت أتبع ولا أخطط ، دون أن تكون لدي رغبة في الاتباع ، في الحقيقة . والضعف وحده كان يبعدني عن الانتحار العقلي . لقد عملت دائماً على تطبيق أفكار الآخرين دون أن أضطلع أنا نفسي بأية فكرة لتعذر قدرتي على الخلق . والخضوع إلى أمر كان بالنسبة لي توفيراً في التفكير . ولكن لسوء حظي لم أجد أبداً الآمر الذي يستطيع أن يستخدمني . وجميع الرؤساء الذين عرفتهم لضعفهم أو عطفهم أو عجزهم تركوا لي دائماً حرية العمل .

لقد كان فيصل شجاعاً ولكن بضعف ، جاهلاً ولكن ساع أبداً إلى تحقيق المعجزات وكأنه عبقري أو نبي . وقد خدمته رأفة به . وهذا الدافع حطّ من قيمتنا كلينا . واما « اللنبي » فقد كان أقرب إلى السيد الآمر الذي احتاجه . ولكنني كنت مضطراً لتحاشيه . كنت لا أتجاسر على الانحناء أمامه ، وأخاف كثيراً من أن أستفيق يوماً وأجدُ ان رجليه كانتا من طين . فتتلاشى معه كل آمالي .

١٠٤

فيما كنت غارقاً في تفكيري التحليلي هذا تهادت إلى مسمعي جلبة تلتها أصوات استغاثة . وبعد الاستقصاء السريع تبيّن لي ان جماعة من قبيلة « شمر » قد أغارت على الطوايحة أنصارنا ، وسلبت منهم ثمانين جملاً

بالقرب من سنيره . وفي الحال أصدرت الاوامر إلى رجالي للحاق بالغزاة واسترجاع السلائب .

وفي عصر ذلك اليوم شد بوكستون ورجاله رحالهم وتبعتهم أنا مع هبوط الليل قاصداً جبل هادي . وعند الصباح كان فوج الهجانة الامبراطوري يلف حول تلال الثلاث اخوات لكي يلج إلى « ضروى » المخضوضرة ، فشددنا في اثره . ولما شقّت الشمس كبد السماء كنا قد وصلنا إلى رأس مهيور فتوقفنا مدة ساعتين للاستراحة وتناول الطعام .

وبعد ان اجتزنا مرحلة ثانية ، قضينا تلك الليلة في الغدف . وأثناء توقفنا كانت السيارة المصفحة قد تخطتنا وقامت بجولة استكشافية لتعود وتنبئنا بعد ساعتين من الزمن ان كل شيء على ما يرام ...

١٠٥

لم يختلف غدنا عن الامس فقد قطعنا فيه مرحلة من اربعين ميلاً . وكان اليوم التالي هو الاخير قبل مهاجمة الجسر . فأخذت نصف رجالي وارسلتهم ككشافين للمراقبة من على كل قمة على التوالي . وقد تمّت العملية بنجاح ولكن دون أن نفيد منها بشيء . وذلك لأننا فيما كنا نتجه إلى « موقّر » نقطة تجمعنا كشفت أمرنا طائرة عدوة متجهة إلى عمّان .

عند الظهر دخلنا إلى « موقّر » منهوكي القوى . وسرعان ما قصدنا معبداً قديماً نحتجب فيه عن أنظار العدو فيما كان كشافتنا يراقبون الجوار والسهل الممتد حتى الخط الحجازي . ثم ارسلت بعضاً من القرويين إلى القرى المجاورة لتسقط الأخبار وانذار الاهالي بالبقاء في بيوتهم . فعادوا

ليقولوا لي بأن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن حيث ان الجنود الاتراك ينزلون في تلك القرى لمراقبة جني الغلال .

على الاثر عقدنا اجتماعاً عاجلاً للتداول ودرسنا اسوأ الاحتمالات ، فوجدنا ان النصر لا يزال شبه مؤكد بالنسبة لنا . غير ان ما كان يقلقني هو الخسائر في الارواح التي قد نتكبدها لانجاح المهمة . وتراءى لي انها قد ترتفع إلى الخمسين بينما نسف الجسر لا يستحق ان نضحّي له بأكثر من خمسة . ولماذا ننسفه ؟ لأخافة الاتراك وتضليلهم واقناعهم بوجوب عدم التعرض لنا حتّى الثلاثين من آب (اغسطس) التاريخ الذي ستتحرك القوات الشريفية فيه إلى الازرق . وكنا آنذاك في العشرين من آب ، والخطر الذي بدا محدقاً في تموز (يوليو) لم يعد كذلك اليوم .

كان « بوكستون » من رأيي . فقررنا ان نصدر الاوامر بالتراجع والتخلي عن المهمة ، وكانت الطائرات التركية ساعتئذ قد عادت للبحث عنا من جديد بين التلال الممتدة إلى الشمال من « موقّر » .

لدى اعلان النبأ سرت همهمة بين صفوف الرجال ، وكانوا قـد عقدوا العزم على القيام بأمر جلل أكثر من التجول كالسياح بين الاطلال العربية والرومانية . ورغماً عن ذلك ما ان لفّنا الظلام بوشاحه ، حتّى قفلنا عائدين ووجهتنا الازرق بعد ان دسسنا أخباراً مضخمة عن قواتنا في المنطقة بين القرويين على أمل ان يصل ذلك إلى مسامع العدو .

بعد ظهر اليوم التالي وصلنا إلى « قُصير العمرا » — استراحة الصيد خاصة الملك الحارث — حيث استلقينا في الظلال الوارفة حتّى هبـوط الليل . وفي اليوم التالي وصلنا إلى الازرق حيث أمضينا ليلتنا في لحف جبل هادئ حيث شعرنا وكأننا في ديارنا . وقصدنا « باير » في مرحلتنا التالية . وتابعت من هناك إلى « ابو اللسن » على متن سيارة مصفحة ، فوجدت ان الامور على خير ما يرام وقد تمّت الاستعدادات كلها .

وقرر « جويس » الذهاب إلى القاهرة لتطبيب أسنانه ، و « داوني » إلى مقر قيادة اللنبي لطمأنته .

١٠٦

وصلت السفينة التي كان عليها أن تقلّ « جويس » إلى مصر من جدة وعليها بريد مكة المكرمة . فض فيصل جريدة القبلة الناطقة باسم والده الشريف حسين . فتسمّر نظره حالاً على اعلان شريفي في الصفحة الأولى يقول بأن بعض البلهاء يعطون جعفراً لقب الضابط العام والقائد للجيش العربي في الشمال مع انه لا توجد في الجيش العربي وظيفة بهذه الرتبة والجيش العربي لا يحوي إلا ضباطاً من رتبة يوزباشي (كابتن) والشيخ جعفر في مهمته يقوم بواجباته ككل جندي آخر .

كان الشريف حسين قـد أصدر هذا المنشور دون مشورة فيصل على اثر انعام « اللنبي » على جعفر بوسام ليجرح بذلك شعور أبناء الشمال وضباط سورية والعراق الذين كان يحمل لهم الضغينة لتراخيهم في عقائدهم الدينية وتوجسه من نفوذهم . وقد أظهروا براعة فائقة في الحرب . وذلك لعلمه بأنهم يحاربون لخلاص أبناء وطنهم ونيل استقلالهم الأمر الذي لا يستطيع الشريف تصوّره بسبب نهمه للتسلط .

بعد ذيوع المنشور الشريفي قدّم جعفر استقالته لفيصل وتبعه في ذلك سائر ضباط الفرق والاركان فرجوتهم ان يتجاهلوا منشور الشيخ الطاعن الذي يعيش في مكة بعيداً عن سياسة الحرب في عزلة تامة عما يـدور حوله وفي جهل مطبق . وقد رفض فيصل من جانبه قبول الاستقالات معلناً انه وحده بعد اليوم يحقّ له اصدار الأوامر العليا ، ووحده مسؤول

عن الضباط الذين عينهم في خدمته .

كتب فيصل إلى مكة بهذا الخصوص فجاءه ردّ من الشريف يتهمه بالخيانة والخروج على القانون . فما كان منه إلا أن تنحّى عن قيادة جبهة العقبة . وكذلك فعل شقيقه الصغير زيد . وتوقفت العمليات الحربية حول « ابو اللسن » . وباتت الأمور كأنها على كف عفريت .

لمواجهة الموقف الدقيق كان علينا ان نتبنى واحداً من هذه الحلول الثلاثة : فأما ان نضغط على الشريف حسين ونحمله على سحب منشوره ، واما أن نتجاهل الشريف ونتابع عملنا وكأن المنشور لم يكن ، واما أن نُعلن على الملأ استقلال فيصل .

وكان لكل من هذه الحلول من يؤيده بين الانكليز والعرب على السواء فأبرقنا إلى « اللنبي » لعله يُوفق إلى الحل الافضل وينهي الخلاف العائلي المستعصي . وبما اننا كنا نعرف الشريف جيداً ونعلم حق العلم بأنه سيراوغ ويداور فقد قررنا مواصلة عملنا إذ كان علينا ان نقوم بهجومنا على درعا خلال ثلاثة أيام . فكتبت لنوري الشعلان اعتذر عن موافاته إلى « القاف » حيث ستتجمع قبائله على أمل ملاقاته في الازرق في أول الشهر القمري ، وذلك لأنه كان من المحتّم علينا البقاء في ابي اللسن لدرء الصدع وإعادة السكينة إلى النفوس .

وكان عليّ إلى جانب ذلك أن أراقب قيام الركب الذي ينقل المتاع والمؤن والذخائر إلى الازرق ، وان أخمد ثورة الضباط وأحملهم على القيام إلى الازرق في اليوم المعين . وبعد جهود طويلة وفقت لأن أحملهم على المسير وقد أعيدت المياه إلى مجاريها بينهم وبين فيصل وحاكيت حماستهم وحميتهم ووطنيتهم ، وقلت لهم ان دمشق هي قبلة أنظارهم القومية كما هي مكة قبلتهم الدينية .

هذا من جهتنا . أما الشريف حسين فقد تصرّف كما كنت انتظر منه داور وراوغ ، غضب وهدد . ثم لانت عبارته وانتهى به الامر إلى سحب

المنشور سبب الخلاف ، فعادت المياه إلى مجاريها . وفي أقل من ثلاث ساعات راجعنا كل خططنا للمرة الاخيرة . وتوجهت أنا إلى الازرق لموافاة نوري الشعلان الذي كان عليه ان ينضمّ الينا مع قبائل الرولا في هجومنا على درعا .

١٠٧

تحرير دمشق

تجمعت قواتنا كلها في الازرق (الطائرات والمصفحات والمدفعية ، والخيالة ، والهجانة ، والمشاة) كي تقطع الخطوط الحديدية الثلاثة التي تلتقي في درعا . فقُطع الخط الاول في المفرق (الجنوب) والثاني في عرّار (الشمال) والثالث في مزيريب (الغرب) . وبعد غارتنا على درعا استطعنا أن نعود إلى الصحراء سالمين رغم غارات طائرات العدو علينا .

في اليوم التالي شنّ اللنبي هجومه . وفي بضع ساعات استطاع ان يشتت قوات العدو بصورة نهائية .

عندئذ قصدت فلسطين لتلقي الأوامر الجديدة والحصول على مساندة جوية . وبعد ذلك طوقنا درعا لكي نجبر العدو على اخلائها بأسرع ما يمكن . وفي هذه الاثناء أتمّ الجنرال « بارّو » الربط بين قواته والقوات العربية . ثم تقدمت القوات البريطانية والعربية معاً إلى « الكسوة » حيث

كانت ترابط القوات الاسترالية . ومن هناك سرنا إلى دمشق دون مقاومة تذكر . واجهتنا بعض الصعوبات من جراء الفوضى في المدينة ، فجاء اللنبي ووضع حداً لكل صعوبة . وبعد ذلك اذن اللنبي إليّ بالذهاب وقد تمّت مهمتي .

* * *

شعرت بفرح داخلي عميق عندما خرجت من ذلك الجو الأربد ، وأحسست ان الصداقة تتسلل إلى أعماقنا نحن الثلاثة : «ونترتون» ، و «ناصر» و «أنا» . وقد كان لورد «ونترتون» الحديث العهد بيننا ضابطاً ذا خبرة وتجارب في فرقة «بوكستون» . أما «ناصر» الذي ظهرت مواهبه منذ الايام الاولى في المدينة فقد اخترناه مرة أخرى لقيادة حملتنا وتنظيم تحركاتنا المقبلة وانه لجدير بأن يكون أول الداخلين إلى دمشق ليضيف اكليلاً آخر من أكاليل الغار العديدة التي ضفر بها رأسه في المدينة والوجه والعقبة والطفيلة .

وكان الناس متجمهرين ينظرون الينا في ابتهاج ونحن سائرون في انتظام نحو الشمال عبر سهول الجفر التي لا نهاية لها . وفي «باير» أخبرنا بنو صخر بجزع ان الاتراك قد اندفعوا من «الحسا» إلى غرب الطفيلة ، فضحكت كثيراً لأن حيلتنا انطلت على العدو فأتاح لنا فرصة التقدم إلى الشمال حيث لم يعد يضيرنا لو استرجع منا كل الجنوب : ابي اللسن ، قويرة وحتى العقبة .

وفي الازرق لقينا بعض خدم نوري الشعلان وسيارة كروسلي وضابط طيران ومرشداً وبعض قطع بدل وخيمة من القماش حيث قضينا ليلتنا .

وما ان طلع الفجر علينا حتى هجرنا المكان وصعدنا إلى جبل « مجابر » طلباً للراحة والابتعاد عن المستنقعات . وحططنا رحالنا في برج علي بن الحسين الظليل . وعند المساء وصلتنا سيارة مصفحة لتضاف إلى وسائل دفاعنا وان يكن لا خوف علينا من العدو ، وسترشدنا ثلاث قبـائل ضاربة بيننا وبين الخطوط الحديدية . ولم يكن للاتراك آنذاك سوى اربعين فارساً في درعا ولا أحد في عمان . وكان العدو لا يزال يجهل أمرنا رغم المحاولة الاستكشافية القصيرة التي قامت بها في المنطقة إحدى طائرات العدو في التاسع من ايلول (سبتمبر) . وكان موقعنا فوق الجبل بديعاً نرقب منه الطرق بين درعا وعمان . وأثناء اويقات راحتنا وترقبنا هناك كنت أعود إلى نفسي فأشعر بأن قوة العرب كلها زاحفة ورائي إلى دمشق مطمئناً إلى اننا قد بلغنا النقطة البارزة في الدور الذي هيأنا له أنفسنا منذ سنين عديدة والعرب برمتهم يتحركون إلى احتلال عاصمتهم التاريخية بحماسة عارمة ورأي متحد ... كنت مسروراً بالسلاح الذي شحذته بنفسي متأكداً من كفاءته ليحقق الغاية العليا . وبلغ بي الاغراق في هذا الامل الاوحد إلى نسيان رفاقي الانكليز الذين لم يدركوا مثلي الاعلى فاضمحلوا في ظل حرب عادية .

وقد عرفت بعد حين ان « ونترتون » كان يستيقظ في فجر كل يوم ليستطلع الافق ، خوفاً من مفاجأة غير سعيدة سببها عدم الاكتراث . وكذلك اعتقد البريطانيون في « ام تايه » وشيخ سعد بأننا خسرنا قضيتنا . إلا انني شخصياً كنت واثقاً من النجاح في تنفيذ مخططي .

وكانت هذه الخطط تقضي أولاً بالتظاهر حول عمان وتقطيع الخط الحديدي الذي يصلها بدرعا . وقد نفذنا هذه المرحلة باقامتنا في الازرق فأوهمنا العدو بأننا نقصد عمان . وفي غضون ذلك دعا فيصل بني زين إلى حمل السلاح وكانوا قد اتجهوا نحو « باير » . كما تزيى « هورني » بالثوب العربي وراح يستعد للانقضاض على « مأدبا » حالما يبدأ اللنبي

هجومه على اريحا .

أما القسم المتعلق بدرعا من مخططنا فكان من الدقة بمكان . وكان علينا لانجاحه ان نبدأ في قطع الخطوط الحديدية من جهة عمان أولاً ومن جهة حوران ثانياً ، وكلفنا المصريين بالمهمة الأولى والجراكسة بالمهمة الثانية . واما المهمة الثالثة وهي الانقضاض على درعا مباشرة فكانت مجازفة لا يمكن القيام بها إلا بمعاونة الطائرات . وكان علينا انتظار « داوني » في ١١ يلول (سبتمبر) لمعرفة مدى العون الذي سيقدمه لنا سلاح الطيران .

وكان أول من وصل الينا من بين القوات التي ستنجدنا هجانة الحرس الذين قدموا من وادي السرحان حيث نعموا بشهر من الراحة عند بني الرولا . وأخبرونا بأن نوري الشعلان أكمل كل استعداداته . وفي ١٠ ايلول (سبتمبر) وصلت طائرتان من طائراتنا لتلحق بها في اليوم التالي السيارات المدرعة مع « جويس » و « استرلنغ » ثم وصل يونغ وبيك وسكوت وهايفنز مع المتاع وأصبحت الازرق تموج بالرجال .

وفي ١١ ايلول (سبتمبر) قدمت علينا طائرة من فلسطين وعلى متنها أحد ضباط الاركان . وقد حلّ محل « داوني » الذي أصيب بوعكة صحية . ومنه فهمنا انه طرأ بعض التعديل على خطط « اللنبي » وبات علينا أن نتكل على قوتنا وندور حول درعا لنقطع عنها الاتصال بدمشق .

وفي فجر اليوم التالي أطلّ علينا فيصل مصحوباً بمارشال تتبعه جيوشه ونوري السعيد الزاهي الزاهر دائماً وجميل الطويجي والجزائريون أتباع بيزاني . وعند الاصيل ظهر نوري الشعلان يصحبه طراد وخالد وفارس ودرزي والخفاجيون . وقدم الينا كذلك عودة ابو تايه ومحمد الضغلان وفهد وادهب ورؤساء بني زين وبني باني وزعماء السراحين ، وابن كنج السرديني ، ومجيد بن سلطان من قبيلة عدوان القريبة من السلط . وفي

المساء وصل طلال الحريديني يتبعه خمسون خيالاً من الفلاحين . وكذلك وفَدَ علينا سوريون ودروز قادمون من العيسوية وحوران ، وتدفّقت علينا المؤن من كل حدب وصوب ، وعمّ الفرح ، فيما اغتنمت أنا الفرصة ولجأت إلى عين الاسد طلباً للراحة طيلة يوم كامل . وكـــان « جويس » أثناء ذلك يكرس المسؤوليات التي طرحتها عن عاتقي ويحملها على منكبيه . فأمر « بيك » بأن يقود الفرقة المصرية المتحولة إلى مفرزة نسافين و « سكوت هايفنز » بأن يقود الجراكسة وكلفهما بقطع الخط الحديدي في جهة افدن .

ووفقاً لمخططنا كان على سكوت هايفنز ان يشن على رأس فرقـة هندية هجوماً ليلياً على أحد المواقع المحصنة ، فيما يكون « بيك » منصرفاً للنسف حتّى الفجر ، وفي الصباح تغطي السيارات المصفحة انسحابهما إلى الشرق عبر السهل . وعندئذ نتقدم من الازرق مع كامل القوات إلى « ام تايه » التي يجب أن تشكل قاعدتنا الأمامية .

١٠٨

وعند الصباح تحرك جيشنا . وكان رجال « ابي اللسن » يربي عددهم على الالف ، وخيالة نوري الشعلان ناهزوا الثلاثمائة ، هذا عدا الالفين من الجمال الذين طلبنا ابقاءهم موقتاً في وادي السرحان ريثما تحين ساعة الصفر للعمل الاجلّ .

استوقفتني المشاغل مع نوري وفيصل طول ذاك النهار . وفي اليوم التالي لحقت بالجيش على متن سيارة بلايموث ، فاستقبلني جويس بأخبار سيئة تقول بأن الاعراب الضاربين حول الخط الحديدي يقيمون العقبات

امام « بيك » ويحولون بينه وبين تنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه . وفي الحال تركت سيارتي وأخذت بعض المتفجرات وقصدت على بعيري السهل الذي تقوم فيه خرائب « ام جمال » . وكانت رؤية الخط الحديدي السليم من « ام جمال » كافية لأن تشغلني عن الالتفات إلى مورفي وهو يغير بطائراته الـ « بريستول » على موقعين للاعداء ليزرعهما بالقنابل قبل أن يصاب بعطل اضطره لأن يهرب بطائرته المعطوبة إلى فلسطين لاصلاحها. وهكذا لم يبق لدينا سوى طائرة واحدة من طراز « ب. أ. ١٢ » هزيلة لا تصلح حتى للاستكشاف .

وصلت إلى « ام تايه » عند غروب الشمس ، فيما كان باقي الجيش لا يزال يبعد عنها مسافة خمسة أو ستة أميال . وما ان روينا جمالنا حتى اندفعنا غرباً نحو الخط الحديدي مصممين على النسف بلا أقل تردد . وكان الليل يلفنا فلم نسمع أي صوت أو نداء ، وكم كانت بهجتنا عظيمة عندما عثرنا على جسر كبير يمكننا نسفه وقطع الاتصال بين درعا وعمان لعدة أيام على الاقل . فقضينا تلك الليلة في الاستكشاف على أمل العودة في الصباح مع السيارات لنسفه .

وفي الصباح بعد التشاور قررنا ارسال سيارتين مصفحتين إلى الجسر لهدمه . بينما يتابع الجيش سيره نحو تل عرّار المحطة المعترضة بين دمشق ودرعا على بعد اربعة أميال من هذه الاخيرة وبذلك يكون الجيش قد ملك زمام الخط فينزل عليه ويحط رحاله . ونحن نكون قد نسفنا الجسر ولحقنا به هناك في ١٧ ايلول (سبتمبر) .

وعند الساعة الثانية زوالية فيما كنا نتقدم نحو الجسر مرت من فوق رؤوسنا عدة طائرات من السلاح الجوي البريطاني في أول غارة لها على درعا ، فملأ هذا المشهد قلوبنا جذلاً . ولما وصلنا إلى مقربة من الجسر طلع علينا ثمانية جنود اتراك فحصدناهم بنارنا ، ثم برز اربعة آخرون قتل واحد منهم وجرح الآخر فاستسلم الاخران . وهكذا سقط الموقع

المحصن في أيدينا وبتنا نملك زمام الجسر وخطاً طويلاً من السكة الحديدية دون ان نخسر شيئاً . وكانت نتيجة عملنا موفقة للغاية .

وبعد ذلك أخذنا أنا وجويس نعد العدّة لنسف الجسر البديع الهندسة وما ان أنهينا عملنا حتى ظهرت على مقربة منا دورية تركية . فسارعنا إلى أخذ طريق الهرب . ولكن ما كدنا نبتعد قليلاً حتى حصل عطل في للسيارة أوقفها عن التقدم ، ولم يبق بيننا وبين الخطر الداهم سوى فترة عشر دقائق فقط . وبعد لأي توصّل « رولز » إلى اصلاح العطب فعاودنا المسير ، وقضينا ليلتنا تلك في « ام تايه » على أمل اللحاق بنوري السعيد في اليوم التالي على خط دمشق شمال عمان لكي نقول له بأن الخط الحديدي مخرب من جهة الجنوب وغير صالح للعمل لمدة اسبوع على الاقل بسبب نسفنا لجسر مهم عليه . وهكذا بات في امكان قواتنا أن تصل إلى درعا في الوقت المناسب لأن تخريب الجسر قد أمن مؤخرتها وصان الامير زيد المنعزل من ناحية ابي اللسن حيث كان الاتراك يحشدون جيوشهم في طفيلة ، ريثما يتم اصلاح خطوط مواصلات دمشق . وغزوتنا هذه كانت من سوانح الفرص .

١٠٩

حسب تقديراتنا بلغنا الطريق التي سلكتها سيارات استرلنغ عند انبثاق الصباح . وعند الساعة الثامنة لحقنا بالجيش العربي على منحدر خفيف متصل بالخط الحديدي ، حيث انتشر الجنود كي يهاجموا الاستحكام الصغير الذي يحرس الجسر الواقع بيننا وبين تل عرار الذي يشرف على المنطقة المحيطة بدرعا . وما هي إلا لحظات حتى اندفع الفرسان إلى

الخط الحديدي للسيطرة عليه فيما راحت مدفعيتنا تصب جام غضبها على الاستحكامات التركية . ولم تأزف الساعة التاسعة صباحاً إلا وكنا قد أصبحنا بسهولة لا تصدق أسياد عشرة اميال من الخط الحديدي جنوبي دمشق .

وتدحرج العرب جموعاً جموعاً من الجبل ثم تجمعوا على قنة تل عرار المستديرة وبات في مقدورهم أن يروا في الأفق المحطات الرئيسية الثلاث . درعا ، مزيريب والغزالة ، أما أنا فقد كنت أرى إلى أبعد من ذلك . كانت تتراءى لي دمشق قاعدة الترك في الشمال والصلة الوحيدة مع استنبول والمانيا قد انقطعت ، وتقطّعت كذلك خطوط المواصلات في جهات عمان ومعان والمدينة ، وفي الغرب تراءى لي « ليمان فون ساندرس » معزولاً في الناصرة وقد عزلت معه منطقة نابلس ووادي الاردن. كان ذلك في السابع عشر من ايلوم (سبتمبر) ولم يبق سوى ثماني واربعين ساعة لليوم المحدد للزحف العام وفقاً لمخطط « اللنبي » . وخلال هذه المدة الوجيزة قد يتمكن العدو من تغيير مواقعه ومواجهتنا في الشمال إلا انه كان من المستحيل عليه التحرك قبل هجوم اللنبي . وكان بارتولوميه قد قال : « اخبروني إذا كان الاتراك لا يزالون يسيطرون على خط العوجة ليلة هجومنا أقل لكم إذا كنا سنربح المعركة . » ولقد كان الاتراك في العوجة . إذن سنكون الظافرين ولكن إلى أي حد ؟ هنا بيت القصيد .

كنت أود لو يتم تخريب الخط دفعة واحدة غير ان كل شيء بدا كأنه قد توقف . صحيح ان القوات النظامية قد أدّت نصيبها ، وركز نوري السعيد مدفعيته فوق تل عرّار كي يمنع خروج أية قوات عدوة من درعا . ولكن فرق النسف والتخريب لماذا لم تبدأ عملها بعد ؟؟ أسرعت لاستطلاع السبب فوجدت الجميع يتناولون طعام الفطور ووقفت ازاءهم مشدوهاً .

وعلى كل حال في أقل من ساعة تمكنا من جمعهم ودفعهم إلى العمل مرة واحدة . وكانت المدفعية الفرنسية قد سبقتهم وبلغت الجسر القريب منا ونالت بعض النجاح في الجولة الثانية .

في هذه الاثناء انصرفت أنا من على رأس تل عرار إلى مراقبة جهة درعا بالمنظار المكبر لمعرفة ما كان يخبئه العدو لنا في ذلك النهار . فلم يكن ما وقع عليه نظرنا في البدء مشجعاً إذ ان ميدان الطيران كان يعج ويموج والجنود يخرجون صفوفاً مرصوفة . أما المشاهد الأخرى فكانت مألوفة وفي الحسبان : تحصنات وتركيز مدفعية . ومن جهة دمشق ومزيريب كان كل شيء هادئاً على العكس . وكنا لا نزال نمسك زمام المبادرة .

وعلى الاثر عمدت مع « بيك » إلى وضع ستمائة قذيفة من المقذوفات تحت الخط الحديدي وخربناه على مسافة ستة كيلومترات . الامر الذي كلّف الاتراك لاصلاحه مدة اسبوع على الاقل . وفيما أنا عائد إلى حيث تتجمع قواتنا حامت فوقنا طائرة عدوة كشافة ثم عادت أدراجها إلى درعا . وما هي إلا لحظات حتى عاد سرب كامل من طائرات العدو ينهب الفضاء نهباً في اتجاهنا ، ثم راح يقذفنا بالقنابل فصوبنا فوهات مدافعنا على الطائرات المغيرة ورددنا الكيل كيلين ثم أمرنا رفاقنا بالتفرق للتقليل من الضحايا . واستمرّت فرق التخريب تتابع عملها على الخط الحديدي ولم ترهبها غارات الطائرات .

ولما اجتمعت إلى نوري السعيد للتشاور في أمر الوسائل التي تمكّننا من بلوغ اليرموك ومواصلة تقطيع الخطوط رغم عداء الاهلين لنا في تلك المنطقة . في هذا الظرف الحرج بالذات خطر لـ « جونور » قائد طائراتنا الوحيدة في الازرق ان يشغل الطائرات العدوة عنا ريثما نتمكن من التسلل مع بعض القوات إلى اليرموك . فأكبرنا فيه هذا الاقدام ونجحت خطته في إلهاء العدو عنا فدفع نوري السعيد بثلاثمائة رجل

نظامي مع مدفعي بيزاني في معبر وراء تل عرار أول مرحلة لهم في طريقهم إلى مزيريب . ثم ارسلنا القرويين في اثر الجنود وصممت أنا مع حرسي الخاص على التوجه إلى مزيريب وبلوغها قبل وصول الحملة الا انني سمعت ازيز محرك « جونور » ثم اقترابه وطلبه النجدة للنزول الاضطراري . فسارعنا إلى اعداد المكان اللازم للهبوط السليم . ونجحت العملية ولم يصب « جونور » بأذى . ولذلك رأيناه بعد خمس دقائق فقط يطلب تكليفه بمهمة جديدة فسلمه « جويس » سيارة فورد اندفع بها وحده على الخط الحديدي إلى مقربة من درعا ونسف الخط هناك ثم عاد سالماً وسط ذهول العدو من جرأته المتناهية .

١١٠

وفيما نحن نتجه نحو خط فلسطين لتخريبه في منطقة مكشوفة عادت طائرات العدو إلى التحليق فوقنا وقذفتنا بالقنابل فحثثنا المطايا ونحن نعلن للقرويين بأن غرضنا هو المزيريب فنراهم يتدافعون للسير معنا ومشاركتنا في حصد ثمار النصر .

ولما بلغنا المزيريب قدم الينا درزي بن ضغمي وأخبرنا بأن نوري السعيد وجيشه هم منا على مسافة ميلين إلى الوراء . فسقنا جمالنا وارتوينا بدورنا . وبعد أن تمركزنا وراء الحصن القديم استطلعت حركة في المحطة الفرنسية ، ثم علمت من الأهالي ان الاتراك قد استولوا عليها عنوة . وكانت الشهوة إلى الاغارة عليها بالغة الحد ، وتطوع عبد الله لتنفيـذ المهمة ، بعد أن آثرت انا عدم القيام بها رغبة مني في البقاء حياً حتى بلوغ دمشق . ونجح عبد الله في مهمته وكسب الكثير من الغنائم فدبت

الحماسة في نفوس الرجال واجتزنا النهر إلى الضفة الأخرى كي نسير على المحطة التركية التي تبعد عنا مسافة ثلاثمائة متر فيما كان طلال يشد في اثرنا وذلك لنستولي عليها قبل بلوغنا جسر تل الشهاب هدفنا الرئيسي .

وما ان اقتربنا من المحطة حتى أمطرنا العدو بوابل من الرصاص اضطرنا لأن نحكم خطتنا ونستخدم كل اسلحتنا . وبعد معركة يسيرة استسلمت المحطة فتزاحم الاهالي عليها ينهبون ما فيها فيما انصرفت مع « يونغ » لاتلاف محطة التلغراف وهي هامة لأنها نقطة الاتصال بين جيش فلسطين وشمال الامبراطورية العثمانية . وهكذا تم لنا بعد تقطيع الخطوط الحديدية واسلاك البرق تمزيق أوصال الجيش التركي الذي أصبح معزولاً في مواقعه . ومع هبوط الليل انتهت عمليات السلب والنهب وانكفأ الرجال لتناول طعام العشاء فيما اشعلنا النيران في حطام المحطة . ونتيجة لمرأى النيران توافد علينا زوار كثيرون من المنطقة .

وكان عليّ أن أحسن وفادتهم لأنهم عيوننا المبثوثة هنا وهناك ، ووفدت علينا موجات متتالية من رجال الشمال في تلك الليلة ، وهم على أحر من الجمر في ترقب فجر الحرية الذي بات وشيكاً . ومن بين الوافدين كان أعيان درعا الذين جاءوا يعرضون علينا فتح ابواب مدينتهم لنا فطيّبنا خواطرهم ووعدناهم بأن الفرج بات قريباً ، فعادوا إلى مدينتهم ينتظرون بفارغ الصبر قدومنا اليها .

١١١

ما كدنا ننتهي من امر الوافدين من درعا حتى برز أمامنا وافد جديد

هو زعيم قرية تل الشهاب الشاب الذي وصف لنا موقع الجسر ومخفره ومواقف حراسه . خالجنا شك في صدق نية هذا الزعيم الشاب في أول الامر لعلمنا بأن والده المتوفى حديثاً كان من ألدّ أعدائنا والمناهضين لحركتنا ، ولكنه استطاع أن يقنعنا باخلاصه في النهاية ، وعرض علينا ان يقدم لنا صديقه الضابط التركي قائد المخفر . فأرسلناه ليعود بصاحبه وأومأنا للركب بالتوقف .

وبعد وقت قصير عاد الشاب وبصحبته ضابط ارمني يتطير غضباً على اسياده الاتراك . وصف لنا الموقف بكل دقائقه . وبعد التداول قر الرأي على ان يرابط رجالنا عند مشارف القرية في الساعة الحادية عشرة تماماً ومن ثم يأتي شيخ القرية الشاب ويقود نفراً من رجالنا الشجعان إلى غرفة الضابط الارمني الذي سيتولى استدعاء معاونيه واحداً واحداً ليتولى رجالنا من شد وثاقهم ليخلو لنا الجو للعمل .

وفيما كان حراسي يعدّون المتفجرات التي سأستخدمها في نسف الجسر كان ناصر يحذّر الرجال ويطلب منهم السهر والتيقظ خوفاً من أن تكون هناك مكيدة ما . وفي الوقت المحدد تحرك جيشنا لتنفيذ المهمة الجديدة . وأثناء سيرنا تقدّم مني رُحيل وأمسك بذراعي اليسرى وأراني في الظلمة عموداً من الدخان الابيض يصعد من الاعماق ، وسرعان ما تبادر إلى أذهاننا انه القطار في تلك النواحي فأصدرنا أمراً بالتوقف خوفاً من الكمين المزعوم . وبعد انتظار قلق في أماكننا وفَدَ علينا الشاب ليخبرنا بأن الخطة قد فشلت بسبب وصول قطار للمحطة يحمل جنوداً من الالمان والاتراك أرسلهم « ليمان فون ساندرس » من العفولة لنجدة درعا المعزولة . ثم أخبرنا بأن الكولونيل الالماني الوافد أوقف الضابط الارمني لاهماله ثم بثّ الرجال في الجوار للمراقبة . بعد سماع هذه الاخبار لم يخطر ببالي سوى الضحك حيث أصبحنا على مسافة مائة متر فقط من مراكز العدو .

عرض نوري السعيد ساعتئذ أن نشن هجوماً مباشراً على العدو وقد يكتب لنا النصر بسبب عنصر المفاجأة . ولكنني رأيت ان ذلك قد يكبدنا الكثير من الخسائر وأقنعت نوري السعيد بعدم جدوى عرضه ، ثم اعتذرنا للزعيم الشاب المتفاني في خدمة القضية العربية وأعطينا أوامر الانكفاء إلى الوراء . وأبقينا سرية صغيرة ترقب المكان ثم خطرت لنا فكرة اقلاق العدو وقذفه ببعض القنابل . ولكن سرعان ما تبينا سخافة الفكرة وقفلنا عائدين إلى مزيريب . وهناك عاودنا الحنين من جديد إلى عمل شيء نعوض به فشل خطتنا في نسف الجسر فأرسلنا كتيبتين لنسف الخط الحديدي من على جانبيه .

وفي الفجر وصلت باقي القوات من تل عرار ومعها مدافع «بيزاني» وبعثنا رسولاً إلى «جويس» نعلنه بأننا سنعود غداً إلى الجنوب بطريق نيزيب كي نتم الاحاطة بدرعا . وعرضت عليه أن يعود إلى ام تايه أفضل نقطة لتجمعنا نستطيع منها تخريب الخط الحديدي كلما عاود العدو اصلاحه . وذلك بانتظار تلقف أخبار اللنبي .

١١٢

وسواء رضينا أم أبينا كان علينا ان نفعل ذلك . فدعونا الجيش إلى التحرك عبر محطة مزيريب فيما انصرفت مع «يونغ» إلى نسف أماكن جديدة من الخط ريثما يصل رجالنا إلى رمثا ويتوارون عن درعا ومزيريب معاً . وما هي إلا لحظات حتى سمعنا ازيز الطائرات العدوة تقترب من مكاننا وتكشف وجودنا فعمدنا إلى إعادة القرويين إلى قراهم لتخفيف عددنا الذي ناهز تسعة آلاف . ولإقلاق العدو نسفنا برج ماء محطة

مزيريب . فسبب دوي الانفجار ذعراً شديداً في صفوف العدو المتقدم إلى درعا ، وأرغمه على الحذر والبطء في الحركة . وخلال ذلك تابعنا نحن سيرنا إلى نيزيب . فوصلنا تلتها حوالى الساعة الرابعة زوالية . وبعد تمركزنا صوبنا فوهات مدافعنا على المحطة البعيدة كيلومترين عنا وقذفنا بالقنابل فرد علينا العدو بالمثل ، ولكننا لم نتكبد أية خسائر لأننا كنا محصنين والقضية كانت برمتها مجرد ألعوبة ، لأن همنا كان محصوراً في الجسر الكبير غربي القرية . وما ان هبط الليل علينا حتى تسللت مع نفر من الرجال إلى الجسر المذكور ونسفته ، وكانت مرتبته التاسعة والسبعين بين الجسور التي هدمتها . وما ان تم لنا ذلك بنجاح حتى تقدمنا في العراء ثلاثة أميال لجهة ام تايه . ثم قضينا ليلتنا بأمان هناك .

١١٣

يبدو اننا الآن ، ناصر وأنا ، قد فقدنا عادة النوم . لقد دلت علينا الانفجارات في نيزيب والحرائق في مزيريب ، فما كدنا نحط الرحال ونستلقي حتى توافد علينا الرجال من ثلاث جهات مختلفة جماعات جماعات . واستمر ذلك طول الليل ونحن نجامل ونطيب الخواطر لكسب الأصدقاء . ومن الاحاديث المتبادلة تبين لنا ان القلق بدأ يساور الاهالي حيث سرت اشاعات بأننا سنغزو غزوتنا ونعود من حيث أتينا كما فعل البريطانيون في السلط ونترك أصحابنا وأهل البلاد ليسددوا الحساب مع الاتراك . فسارعت مع عزيز إلى « الطيبة » ودخلنا فجأة على القوم وهم يتداولون في بيت الشيخ عمن يكون رسول السلام إلى الاتراك لطلب الرحمة والرأفة ، فأخذتهم الدهشة لهذا النزول غير المنتظر واحتاروا فيما يفعلون

فلا هم ارسلوا رسولهم للاتراك ، ولا نحن راضون عن تآمرهم علينا . وبعد أن شربنا القهوة وتبادلنا بعض الاحاديث العابرة ، قفلنا عــائدين وتركناهم مشدوهين كي يطلع الصباح عليهم مع وابل من قنابلنا قصاصاً لهم على تآمرهم وعنادهم .

بعد ذلك حاولت ان أسرق بعض الوقت وانام . ولكن ما هي إلا لحظات حتى جلجلت جلبة قطار على الخط ، وفوجئنا بقنبلة تنفجر في قلب معسكرنا النائم ... وكان القطار مصفحاً ومجهزاً بالمدافع ، فدبّ الرعب في النفوس وسارعنا إلى اخلاء المكان والابتعاد عن مكمن الخطر. ومما زاد الوضع حراجة ان طائرة عدوة حلقت فوقنا وبدأت تقذف باستمرار القنابل لتشتتنا أي تشتت .

صحا جويس في ام تايه على صوت القنابل فأسرع إلى نجدتنــا ووراءه حشود من البشر غريبة الاشكال مختلفة الألوان انتقوها من كل قرية ومن كل قبيلة في حوران . وقد قدموا الينا لأعلان الولاء والعزم على المؤازرة ولو بالكلام . فتركت لناصر مهمة استقبالهم ومجــاملتهم وسافرت مع جويس وونترتون بعد أن تناولنا طعام الافطار للبحث عن الطائرة العدوة التي هبطت في مكان ما قريب . وفي هذه الاثناء ظهرت في الجو طائرتان أخريان . ثم اتجهتا للهبوط في الوادي . فشددنا في الاثر . وبعد طواف خمسة أميال أحست الطائرات بمقدمنا فهربت اثنتان منها ونجتا من نيراننا بينما توقفت الثالثة فأمطرناها بوابل من الرصــاص وعطلناها ، الامر الذي حمل ربانها على اشعال النار فيها . وفيما نحن عائدون رجعت الطائرتان بعد أن تزودتا من « درعا » بالوقود والذخائر للاقتصاص منــا . ولكننا نجونا باعجوبــة ووصلنــا إلى ام تايه سالمين وغفوت غفوة طويــلة بسبب حاجتي الماسة للراحة بعد عناء طويل .

من الناحية الاستراتيجية كان علينا ان نبقى في أم تايه التي تؤمن لنا زمام السيطرة على الخطوط الحديدية المؤدية إلى درعا . وبثباتنا فيها لمدة

أسبوع نتمكن من خنق العدو من جانبنا كما يخنقه اللنبي من جانبه .
واما من الناحية التكنيكية الفنية فقد كان من الخطر البالغ علينا البقاء في ام تايه . وكان من المستحيل على فريق ضئيل من النظاميين العرب ان يثبتوا في مكانهم مطمئنين دون مناوشات تسترهم . وهذا ما سنواجهه قريباً إذا بقينا بدون مؤازرة جوية .

في ذلك الوقت كان الاتراك يملكون تسع طائرات على الاقل وكنا نحن على اثني عشر ميلاً من محطتهم في قلب الصحراء وعلى أرض مكشوفة تماماً على مقربة من مورد ماء واحد . ومعنا من الجمال والخيل عدد كبير . وكانت القنابل الاولى كافية لأن تشتت الرجال غير النظاميين من حولنا وتجعل مقامنا في ام تايه عبثاً لا فائدة منه . كما ان أول قرية تسترنا من ناحية ليس لها مُدافع يدافع عنها وكانت تحيا حياة هلع من جراء غارات الاتراك المتواصلة عليها . فاذا كنا نبغي البقاء في ام تايه وجب علينا ان ندافع عن الطيبة .

وهكذا تركز تفكيري على أول مهمة يتوجب علينا القيام بها ، طلب نجدات جوية من اللنبي . وبما ان طائرة البريد كانت ستنقل الينا أخباره في الغد . فقد رأيت من المناسب ان أطير اليه على متنها وأطلب النجدة بنفسي وأعود في الثاني والعشرين . فلعل ام تايه تصمد إلى ذلك التاريخ إذا لجأنا إلى الحيلة وتظاهرنا بالانتقال إلى ام السراب البلدة القريبة حيث تكثر الخرائب الرومانية .

ولم يكن عندنا فرق بين ام تايه وام السراب اذ المهم بالنسبة لنا كان الاحتفاظ بروح المبادرة . سُدّت طريق درعا مؤقتاً في وجهنا لعدم ثقة القرويين المحيطين بنا . وشكهم في نجاحنا .

إلا ان خط الحجاز كان لا يزال أمامنا وبات علينا نسفه من جديد بعد أن تمّ اصلاح ما خربناه منه . وبعد عملية استكشاف قام بها «ونترتون» تبين لنا ان هدم الجسر الكائن عند الكيلومتر رقم (١٤٩)

لا يتم إلا بالرجال والمدافع بينما نسف جسر آخر إلى الجنوب منه لا يحتاج إلا إلى مفرزة واحدة حسنة التدريب .

فعرضت على « جويس » أن يعيد المصريين والجراكسة إلى العقبة ويعيرني سيارة مصفحة فأرافقهم إلى الخط الحديدي وأنسفه بمساعدتهم ، ثم قمنا إلى ناصر ونوري السعيد لنطلعهما على رحلتنا وعلى عودتنا يوم ٢٢ ايلول (سبتمبر) مصحوبين بطائرات حربية تمكنها اقتناص طائرات العدو . ومتى عدنا إلى ام تايه تمكننا ان نعوض الخسارة التي يكون العدو قد ألحقها بنا في فترة غيابنا ويكون جويس قد مهد لنا ارضاً تصلح لهبوط طائراتنا العتيدة .

ومع غروب الشمس بدأنا التحرك في الوادي باتجاه الخط الحديدي . ووقفت أنا مع جونور نراقب العدو الذي قد يفسد علينا خطتنا من جهة محطة المفرق ، بينما تابع المصريون تقدمهم نحو الجسر ونسفوه كما هو مقرر .

أما أنا فقد ضللت الطريق وقضيت ثلاث ساعات تائهاً بين الوديان دون أن أعثر على الخط الحديدي ولا على المصريين ولا حتى على نقطة انطلاقنا . وتراءى لي أخيراً نور فقصدته لأجد نفسي أمام المفرق ، وفيما انا أتراجع سمعت صفير قاطرة ، وإذا بقطار يخرج من المحطة متجهاً إلى الشمال ، فتبعته سيارتنا لعلها تبلغه قبل وصوله إلى الجسر المنسوف وبينما كنا نحاول عبثاً اللحاق به سمعنا انفجاراً هائلاً أمامه . فكانت متفجرات « بيك » قد فعلت فعلها في الخط الحديدي .

ومر بنا خيالة متجهون إلى الجنوب بأقصى سرعة ، ففتحنا عليهم نيران مدافعنا الرشاشة . وما هي إلا لحظات حتى انكفأ القطار إلى الوراء هرباً من متفجرات « بيك » فصببنا عليه جام غضب مدافعنا وتهادت إلى أسماعنا أصوات الاتراك الهادرة خوفاً والتياعاً من هذا الهجوم الصاعق .

وبعد انتهاء المهمة حاولنا العثور على أصدقائنا فلم نفلح . فابتعدنا عن الخط الملتوية قضبانه إلى مسافة ميل وتوقفنا لقضاء الساعات الاخيرة من الليل في النوم الذي كنا في أمسّ الحاجة اليه . وعند الفجر استيقظت نشيطاً واهتديت على الطريق ، فوصلت الازرق بعد الظهر قبل المصريين والجركس واطلعت فيصل ونوزي الشعلان على أخبارنا .

وفي صباح اليوم التالي أطل « جويس » علينا فجأة وقد اغتنم فرصة الهدنة السريعة ليتوجه إلى « ابي اللسن » ويعاون زيداً وجعفراً المشتبكين مع العدو في معان ، ويتقدم مع « هورنبي » إلى قلب منطقة بني صخر . وبعد برهة وجيزة وصلت طائرة فلسطين حاملة لنا أخبار النصر الساحق الذي أحرزه اللنبي على قوات العدو هناك . وبعد ساعة من الزمن وصلت سالماً إلى فلسطين على متن تلك الطائرة .

ومن الرملة استقللت سيارة أوصلتني إلى مقر القيادة العامة ، وقابلت بطلنا الحربي العظيم فكان ساكناً رزيناً لا تظهر عليه علامات التأثر إلا عندما يجيئه « بولز » كل ربع ساعة ويبشره بنجاح جديد .

وأثناء مقابلتي له لخص « اللنبي » لي مقاصده وشرح لي خططه المقبلة التي تقضي بأن يسير « شايتور » على رأس الزيلانديين إلى عمان ، و « بارو » مع فرقته الهندية على درعا ، و « شوفيل » مع الاستراليين على القنيطرة . وبعد انتهاء الاخيرين من مهمتهما الاولى يسيران معاً إلى دمشق . واما واجبنا نحن في هذه العمليات الجديدة فقد كان مؤازرة الجميع وانتظار القوات الحليفة كي تدخل دمشق معاً .

بعد أن أكمل « اللنبي » كلامه شرحت له ان افتقارنا إلى قوة جوية تغطي تحركاتنا يخيب آمالنا ويضعف قوتنا وفعاليتنا فضغط على زر الجرس . وما هي إلاّ لحظات حتى دخل علينا « سلموند » و « بورتون » للاشتراك في المشاورات . وقد أسهما بقسط وافر من النجاح في معارك فلسطين وانتهى دورهما هناك بعد أن قضي على قوة العدو الجوية . وبعد

التداول قر الرأي على تزويدنا بطائرتين من طراز « بريستول » وبطائرة من طراز (د. ه. — ١٢) وأخرى من طراز (هندلي باج) . ثم انصرفت لتناول الطعام ونيل قسطي من الراحة .

١١٤

قبل طلوع الفجر كانت الطائرات مستعدة للتحليق . وقد دعي « روص سميث » مرشدي القديم لقيادة طائرة هندلي باج الجديدة . وبعد ساعة من الزمن كنا نحلق فوق ام تايه ، ولما لم نجد أثراً لرجالنا هناك اشرت بالتوجه إلى ام السراب حيث انكفأت قواتنا . وما ان هبطت بنا الطائرة حتى علمت بأن العدو يمطر ام تايه بقنابله منذ يومين لاعتقاده بأننا لا نزال فيها . ثم أطلعني ناصر على كل شاردة وواردة حصلت أثناء غيابي . واخبرني « ونترتون » بأنه نسف الخط الحديدي مرة أخرى . وكان من نتيجة قدوم الطائرات ان قويت معنويات رجالنا واستعادوا حماستهم وحميتهم .

وبعد استراحة قصيرة نقلت للجميع أخبار انتصارات « اللنبي » المذهلة في فلسطين حيث سقطت نابلس والعفولة وبيسان وسمخ وحيفا . فتملكتهم النخوة والحماسة وارتجت المضارب ثقة وجذلاً وتعالت الاصوات مطالبة بالزحف الفوري على دمشق . فقررت ان أستقدم فيصلاً ونوري الشعلان ليشاهدا بأم عينهما النصر الاخير .

وفيما نحن نتناول طعام الفطور صرخ الحارس : ها هي طائرة عدوة تقوم من درعا باتجاهنا . وفي الحال سارع طيارونا إلى طائراتهم وأداروا محركاتها لاستقبال الزائر الثقيل كما يجب . وفي أقل من خمس

دقائق عادت طائراتنا سالمة بعد أن اسقطت الطائرة العدوة . وكنا لا نزال نتناول الفطور عندما أعلن الحارس مرة ثانية عن مقدم طائرة عدوة أخرى فهبّ لها طيارونا واسقطوها في جهة تل عرار . ثم تركنا « روص سميث » ليعود الينا على متن الطائرة الجديدة « هندلي باج » فيما توجهت أنا لاحضار فيصل ونوري الشعلان من الازرق .

وما ان وصلت هذه الطائرة العجيبة إلى ام السراب حتى ذاع الخبر بأسرع من البرق في كل المنطقة ، ومالت كفة النجاح لصالح فيصل . وانصرفنا بعد التداول مع « بورتون » الذي قدم على متنها إلى إعادة تخريب الخطوط ، تحمينا في هذه المرة قوتنا الجوية الجبارة وتساندنا قوات نوري الشعلان غير النظامية التي أمدّنا بها فيصل ، وقد استقدمها من الازرق . وفي اليوم التالي قام نوري السعيد تؤازره المدفعية والسيارات المصفحة وخيالة الرولا بقيادة نوري الشعلان نفسه مسافة طويلة من الخط الحديدي .

١١٥

كانت غزوة نوري السعيد هذه المرة هي الضربة القاضية على الاتراك فلم يحاولوا بعد ذلك اليوم اصلاح الخط بين درعا وعمان مطلقاً . إلا اننا كنا نجهل هذا الامر ، وتابعنا تنفيذ مخططنا التخريبي على الخط الممتد أمامنا كالشبح المشؤوم . وتقدمت في اليوم التالي عند الفجر في سيارة مع جميل و « ونترتون » كي نتفقد الخط جنوب محطة المفرق ، فاستقبلتنا الرشاشات بحماسة لا عهد لنا بمثلها من قبل .

فتراجعنا مضطرين لننتقم من جسر قريب وندكه دكاً . ولكن نيران

العدو تبعتنا . ومما زاد في الطين بلة انقضاض جنود كانوا يختبئون عند الخط علينا ورمينا بالقنابل اليدوية ، فتراجعنا مرة ثانية حانقين وصببنا جام غضبنا على طرف ضئيل من هذا الخط . إلا ان دفاع العدو المستميت عن هذا الجُسيْر بعد غطيطه شهوراً كان موضع هزئنا وسخريتنا .

وعند عودتنا إلى ام السراب علمنا بأن ناصراً يريد أن يعود ويعسكر في ام تايه . وبما ان ذلك يعد اولى مراحلنا في الطريق إلى دمشق فقد هللت للفكرة وسافرنا سعداء معتذرين إلى الخط الحديدي الذي أخلفنا بوعدنا معه في تلك الليلة . وتحلقنا وتحادثنا منتظرين قدوم منتصف الليل موعد ضرب « هندلي باج » لمحطة المفرق الحصينة بالقنابل . وفي الموعد المحدد قامت الطائرة بمهمتها على أكمل وجه واستمرت تمطر المكان بقنابلها من زنة مائة رطل ، حتى أضرمت النار في الشاحنات الواقفة هناك وتوقفت مراكز العدو عن الضرب .

واحتدمت النيران طول الليل والنهار وكتبت في الفضاء بأحرف من لهب نهاية الاتراك ، فقرأها العرب وأذاعوها في طول البلاد وعرضها. ثم وردتنا أخبار بأن الجيش التركي الرابع قد أخلى عمان يجرّ ذيول العار وبأن بني حسن يتولون ملاحقة الهاربين كالمشردين .

وتداولنا ، وقد انتهت مهمتنا مع الجيش الرابع ، في أمر « درعا » التي ستكون ملاذ الناجين من الهاربين من الجيش الرابع . وقر الرأي على وجوب حمل العدو على اخلائها بأسرع ما يمكن . فاقترحت لذلك أن نتقدم شمالاً ونجتاز تل عرار ونعبر الخط الحديدي عند فجر اليوم التالي ونحتل قرية « شيخ سعد » التي نعرفها جيداً والتي يمكنها أن تشكل لنا حصناً طبيعياً إذا هوجمنا فيما بعد . فعضدني طلال متحمساً وأقرني على ذلك نوري السعيد وناصر ونوري الشعلان . وتأهبنا للرحيل على أن تبقى السيارات المصفحة في الازرق لتساندنا في اقتحام دمشق فيما بعد ، وعلى أن تعود الطائرات إلى فلسطين وقد أنهت مهمتها ونظفت لنا الجو من

الاتراك فنبلغ القيادة عن تقدمنا حتى « الشيخ سعد » .

وفيما نحن نستعد للرحيل عادت إحدى الطائرات وألقت علينا قصاصة ورق جاء فيها ان مفرزة قوية من الخيالة دارت حول الخط واتجهت نحونا . تبلبلت الافكار لهذا الخبر غير المنتظر ، فركضت لالحق بنوري السعيد وكان واقفاً مع ناصر على قمة الجبل لمراقبة تحرك قواتنا . وبعد التداول في أمر التراجع ، قر الرأي على الانسحاب نظراً لأن « الشيخ سعد » ملائمة لتوقفنا وأرسلنا النظاميين أمامنا اليها .

إلا انه لم يكن بالامكان ترك الامور على غاربها ، فأمر نوري الشعلان وطلال خيالة الرولا وحوران بالبقاء لمواجهة العدو وتأخير تقدمه ولحاقه بقواتنا النظامية . وفيما هم ينتظرون مقدمه وفد عليهم حليف لنا وأخبرهم بأن العدو لا يقصدنا وإنما هي شتات تسعى للوصول إلى درعا من أقرب السبل ، فانقضضنا عليها وشتتنا شملها ونشرنا الرعب بين صفوفها وأسرنا العديد منها .

وكان هذا الحادث العارض قد أخرنا ليلة كاملة عن تنفيذ مخططنا . لأنه لم يكن من الممكن تسيير مفرزة ترتدي الكاكي وتجتاز حوران ليلاً مع جيش من الهجانة النظاميين الا إذا تقدمها فرسان من أهل البلاد ليسكنوا روع الاهالي ويفهموهم بأننا لسنا أتراكاً . وتوقفنا عند الاصيل ننتظر طلالاً وناصراً ونوري الشعلان ليلحقوا بنا .

وقد أتاح هذا التوقف للبعض فرصة التفكير بعملياتنا . وجرى التساؤل فيما إذا كان من الحكمة اجتياز الخط الحديدي لاحتلال موقع الشيخ سعد المحفوف بالمخاطر والكائن على الطريق التي ستسلكها القوات التركية المنسحبة إلى الشمال . وحوالى منتصف الليل جاءني « سابين » ليقول لي بأننا فعلنا أكثر مما طلب منا . فقد طلب منا « اللنبي » أن نراقب الجيش التركي الرابع وها نحن نشرف على تقهقره الذليل . وبما أن مهمتنا قد انتهت فيمكننا ان نتجه شرقاً إلى « بسرى » الآمنة حيث

يحشد نسيب البكري الدروز لمؤازرتنا . وهناك يمكننا أن ننتظر سقوط درعا في يد الانكليز ومكافأتنا في نهاية هذه الحملة المظفرة .

هذا المسلك لم يعجبني لأننا في حالة انسحابنا إلى جبل الدروز نكون قد تخلينا عن الخدمة الفعلية قبل إحراز النصر . واتحنا للجنرال اللنبي فرصة التفرد بالالتحام الاخير الذي سيكتب لنا النصر النهائي . وبما انني كنت متمسكاً جداً بالكرامة العربية ، فقد كنت مستعداً لخدمتها ان أتقدم مهما كان الثمن . وكان العرب قد دخلوا الحرب لاستعادة حريتهم . ان استرجاعهم لعاصمتهم التقليدية بقوة سلاحهم سيكون المعنى الذي سيفهمونه بصورة أفضل لحريتهم وسيادتهم .

كان هذا الواجب أمراً سهلاً كالاشخاص الذين ليس عندهم من مهمة سوى التشدق بهذه الكلمة . وبالطبع بانقضاضنا على « الشيخ سعد » وراء درعا نضيق على الاتراك أكثر من أية قوة انكليزية ، لأننا نستطيع أن نسد عليهم طريق دمشق . وهذا الربح لا يكلفنا الكثير من الارواح . كما ان احتلال دمشق كان يعني في رأيي انتهاء الحرب في الشرق وربما في سائر أنحاء العالم لأن قوات المحور كانت مرتبطة ببعضها البعض كالحلقات ويكفي أن تنهار حلقة واحدة لتتلاشى الحلقات الأخرى الواحدة بعد الأخرى . ولذلك من أجل كل الاسباب المعقولة الستراتيجية والتكنيكية والسياسية بل المعنوية والأخلاقية أيضاً كان علينا أن نتابع .

١١٦

كنا قد توقفنا لانتظار طلال وناصر ونوري الشعلان . ولكنهم اخطأوا الطريق وتخطونا . وما ان تجمع شملنا من جديد حتى تابعنا السير شمالاً

بين القرى . ولدى مرورنا أمام إحداها تراكض نسوة الينا وهن يقلن بأصوات عالية بأن طائرة تحمل الشارة الشريفية قد حطت لتوها على مقربة من القرية . فهرع « بيك » إلى المكان الذي قيل ان الطائرة قد هبطت فيه فوجدها وعلى متنها طياران استراليان وقد أصيبت طائرتهما في عملية استكشاف فوق درعا فهبطا في هذا المكان اضطراراً وهما يشكران النعمة الالهية لأنهما قد هبطا بين أصدقاء . وبعد اصلاح العطب عادت الطائرة إلى قاعدتها سالمة .

وأثناء مسيرنا كان الفرسان والهجانة ينضمون الينا من كل حدب وصوب وكذلك الشبان المتحمسون الذين كانوا يسيرون في ركابنا على الاقدام . وبعد الظهر وصلنا إلى الخط الحديدي فساءنا ان يكون العدو قد تمكن من اصلاحه وعمدنا فوراً إلى اتلاف كيلومترين من الخطوط .

وكانت عودتنا السريعة هذه إلى التفجير قد أذهلت العدو بالطبع وأرعبته ، فقررنا أن نفيد من ذلك كل الافادة واقتربت من نوري الشعلان وطلال وعودة وطلبت اليهم القيام بالعمل الذي يحلو لهم ويتفق مع وسائلهم . فعزم طلال المقدام على مهاجمة « اذرع » المستودع العظيم للحبوب في الشمال ، واختار « عودة » محطة « خربة الغزالة » المواجهة لاذرع هدفاً له . وأما نوري الشعلان فقرر أن يحتل طريق درعا الرئيسي لكي يصد كل مفرزة تركية قد تخرج لشن غارة علينا .

أحلام عذبة هزت وهدهدت الابطال الثلاثة ... وانصرف كل منهم إلى تنظيم برنامج غزوته . بينما تقدمنا نحن مع باقي أفراد الجيش على الطريق الذي يمر أمام خرائب مزرعة الشيخ مسكين التي بدت مقفرة موحشة تحت ضوء القمر . فتوقفنا هناك حتى طلوع الفجر . ومع خيوطه الاولى أيقظت حرسي الخاص ومشينا بخطى حثيثة كي نصل إلى الشيخ سعد في ساعات الصباح الأولى . وكانت مفرزاتنا قد عادت من غزواتها الليلية بنصيب وافر من الغنائم . فعبد القادر الجزائري لم يحسن الدفاع عن

اذرع التي استسلمت بدون مقاومة تذكر بعد ان انضم المتطوعون إلى صفوفنا . وهرب الجنود الاتراك وتبعهم عبد القادر ورجاله . فدخل طلال إلى القرية وأخذ كل ما استطاع حمله .

أما « عودة » فقد أطلّ علينا يختال بفعاله . وقد استولى على « خربة الغزالة » عنوة وعلى قطار مهجور وعلى مدافع وأسر مائتي رجل بينهم بعض الالمان . ورجع نوري الشعلان يسوق أمامه اربعمائة أسير مع قطيع كبير من البغال وعدد من الرشاشات ، وكي لا نثقل كاهلنا اعتقنا صغار الاسرى وأرسلناهم إلى القرى ليكسبوا عيشهم بالاشتغال عند الاهالي الموسرين .

في هذه الاثناء حوّمت فوق رؤوسنا طائرة حليفة ثم قذفت لنا برسالة تنبئنا باستسلام بلغاريا ، فسادتنا موجة من الحبور والغبطة رغم اننا لم نكن نعلم بوجود جبهة في البلقان . والتف حولنا سكان قرية شيخ سعد يدفعهم إلى ذلك شوقهم إلى رؤية جيش فيصل ، هذا الجيش الذي كان عندهم وهماً وسراباً ، فإذا به يصبح حقيقة واقعة يدب في أرضهم ويقوده أبطال يلقي اسمهم الرعب في كل مكان أمثال طلال وناصر وعودة .

وبينما كان الرجال يتمطون على الارض بعد طول الركوب صعدت مع ستة من المرافقين إلى أعلى الخرائب لكشف السهول الجنوبية . وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما أبصرنا مفرزة صغيرة من النظاميين يرتدون الازياء التركية والنمساوية والالمانية ومعهم ثماني رشاشات محملة على البغال . وكان اولئك البائسون قادمين من الجليل ويحاولون الوصول إلى دمشق بمشقة بعد اندحار الجيش التركي أمام قوات « اللنبي » في فلسطين ، فقررنا أن لا نطاردهم حباً براحة جنودنا . إلا ان « درزي بن ضغمي » امتطى فرسه بهدوء فتبعه بعض الشبان الخفاجيين من أقاربه وهبط عليهم فجأة . ولما أراد الضباط المقاومة أجهز عليهم بسرعة فاستسلم الجنود واقتيدوا أسرى

إلى خربة في شيخ سعد .

ما كدنا ننتهي من أمر هؤلاء حتى تراءى لنا في الافق من جهة الشرق ثلاث أو اربع جماعات يتجهون نحو الشمال فأرسلنا اليهم بني الحويطات . وبعد ساعة من الزمن عاد هؤلاء فرحين وكل منهم يقود فرساً أو بغلاً : حيوانات يائسة مهشمة مثخنة بالجروح تدل على شقاء أصحابها وعلى هول الصدمة في فلسطين . وأما أصحابها فلم يشأ بنو تايه اسرهم بل أوكلوا أمر ذلك إلى غلمان القرية وبناتها كما قال لنا « زعل » مازحاً .

وجاءتنا أخبار من الغرب تقول بأن جماعات من الترك ينسلون بين القرى هرباً من مطاردة « شوفيل » فأرسلنا اليهم على جناح السرعة مفرزات من قبيلة « نعيم » الحسنة السلاح التي انضمت الينا حديثاً وكان الشوق إلى القتال لا يزال يعتمر في صدور أبنائها .

وفيما نحن منصرفون إلى تسوية بعض الامور واعداد العدة لليوم الكبير بعد ان ناهز عدد جيشنا ستين الفاً تعالت في الافق الذي يحجبنا عن درعا سحب من الدخان الكثيف ثم هبط علينا رسول لينبيء طلالاً بان الألمان قد اضرموا النار في الطائرات والمخازن واستعدوا لأخلاء المدينة . وحومت فوقنا طائرة بريطانية تركت لنا رسالة تقول بأن قوات « بارو » تقترب من الرمثا ، وبأن فرقتين تركيتين قويتين احداهما من اربعة آلاف رجل والثانية من الفين ، تتقهقران نحونا من جهتي درعا ومزيريب .

تراءى لي ان هؤلاء الستة آلاف جندي هي كل ما تبقى من الجيش الرابع في درعا ومن الجيش السابع الذي كان يقاوم « بارو » في الجليل . فاذا تمكنا من تشتيتها نكون قد انهينا مهمتنا في هذه المنطقة . ولكن لم يكن في امكاننا اخلاء الشيخ سعد قبل التأكد من هذا الامر . ولذلك تركنا القوة الكبرى تمرّ على ان يتولى خالد وفرسان الرولا وبعض الفلاحين انهاكها والفتك بجناحيها وساقيها .

١١٧

أما الفرقة الثانية المؤلفة من الفي جندي فقررنا أن نجابهها بنصف قواتنا النظامية مدعومة بمدفعين من مدافع « بيزاني » إلا ان طلالاً ساوره قلق شديد على بلدته « طفس » التي قد تمر تلك الفرقة منها وتخربها ، فطلب الينا أن نعجل في احتلال المرتفع جنوب البلدة لحمايتها . ولكن لسوء الحظ لم يكن في مقدوري تنفيذ رغبته بالسرعة التي يريد نظراً للانهاك الذي أصيب به رجالنا . وكل ما استطعت فعله هو التقدم مع حرسي نحو طفس ومحاولة الاشتباك مع العدو وعرقلة تقدمه ريثما تصل قواتنـا وتجهز عليه . وفي الطريق التقينا بفرسان من العرب يقودون قطيعاً من الاسرى المسلوبين نحو شيـخ سعد . وكانوا يعاملونهم بقسوة ولم أشأ التدخل للتخفيف عنهم لأنهم كانوا اتراكاً من رجال شرطة درعا الذين طالما ظلموا واستبدوا وعاثوا فساداً في المنطقة .

واخبرنا الاعراب بأن فرقة رماحة جمال باشا قد دخلت طفس . وما كدنا نطل على القرية حتى تأكدت لنا صحة ذلك من رؤية النيران والحرائق ومن سماع الطلقات النارية بين الفينة والأخرى . وما هي إلا لحظات حتى بدأت تتجه نحونا جماعات بائسة من الشيوخ والنساء والاطفال لتروي لنا الكثير عن فظائع المجتاحين الذين أحرقوا القرية وفتكوا بكل حيّ تمكنوا منه .

ومن مكان عال شاهدنا العدو يتجمع خلف البيوت ويتجه نحو قرية « الشيـخ مسكين » فما أن أصبح خارج القرية حتى فتحنا عليه نيران مدافعنا . وما كدنا نفعل حتى انضم الينا « نوري السعيد » و « بيزاني » و « عودة » على رأس سائر القوات . وكان طلال ثائراً يرغي ويزبد لما فعله اولئك الاوباش في أبناء قريته . وبسرعة فائقة امطرنا العـدو

وابلاً من الرصاص والقنابل وشتتنا شمله . ثم ساد المكان جو من السكون الرهيب .

تقدمنا بحذر فيما كان الدخان يتصاعد من القرية وبين الاعشاب وقعت أنظارنا على ما تقشعر له الابدان هولاً : قتلى وجرحى من نساء ورجال وشيوخ وأطفال ، خراب ودمار أهوال وفظائع كان أبشعها رؤية جسد امرأة ملقى على حائط حظيرة بشكل مرعب ، الجذع إلى أعلى والرأس إلى اسفل وقد سمرت تلك المنكودة على حائط من الطين بحربة غائصة حتى النصاب بين فخذيها العاريتين . وكان يبدو من شكل بطنها انها حبلى . لم تكن هذه المرأة وحدها هناك فقد وجدنا حولها جثث عشرين أخرى تفنن الاوغاد في التفظيع بها .

لدى رؤية هذه الفظائع تكدرت ايما تكدر وأطلقت ضحكة وحشية كأنها ناقوس الهول يدق في السكون العجيب على تلك الهضاب العالية . فصرخت : يا للرجال ، ويا لهذا الهول ان أشجعكم عندي من يأتيني بأكبر عدد من جثث هؤلاء الاتراك الاوغاد . فهبّ الرجال كالاسود الغاضبة يشدون في أثر العدو المتناثر في المعارج والمسالك يصبون عليه جام غضبهم قصاصاً له على وحشيته .

أما طلال الذي رأت عيناه ما حل بأبناء بلده فقد كان يئن كالنمر الجريح ويرفض أن يكلم أحداً منا . وبعد أن ألقى نظرة فيها كل الغضب والثورة والألم على الجوار كأنه يبحث عن المجرمين أسدل كوفيته على وجهه وضغط على عنان فرسه فراحت تعدو به كالسهم المارق إلى السهل نحو العدو .

انحدر طلال عن قمة الجبل وتخطى قاعاً عميقاً فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم . وجمد الكون من حولنا وصمتت الطبيعة فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه . وتوقف اطلاق الرصاص من الجانبين وراح الجميع ينظرون إلى طلال الذي ما كاد

يقترب من العدو حتى صرخ صرخة الحرب :

« طلال .. طلال .. » فتساقط عليه زخ من رصاص العدو مزّق أحشاءه فخر صريعاً مع فرسه .

تابع « عودة » هذه المأساة حانقاً مزمجراً ثم قال : « رحمة الله عليه. سيدفعون غالياً ثمن قتلك يا طلال . » وهزّ اللجام وتقدم بتؤدة نحو العدو فيما دفعنا الفلاحين إلى تقطيع جناحي الاتراك .

استيقظ اسد القتال في نفس « عودة » ساعتئذ . فأصبح بحكم الواقع والقدر رئيسنا جميعاً وتمكن بمناورة بارعة ان يجرّ العدو إلى أرض رديئة ويقطع أوصاله إلى ثلاث قطع . تولينا أمر تلك القطع الواحدة بعد الأخرى وأفنيناها عن بكرة أبيها انتقاماً لمذبحة طفس ولمقتل طلال أحد قادتنا الشجعان .

التقيت أثناء عمليات التنظيف والتعقيب بخالد فطلبت منه أن يدع هذا الامر للفلاحين ويأخذ بني الرولا ويلحق بأخيه طرّاد الذي ذهب مع طائفة من رجال قبيلة عنزة إلى مشارف درعا ليتحقق من صحة الاشاعة القائلة بأن العدو قد أخلى المدينة ، وذلك خوفاً من ان يقع طرّاد في كمين هناك . وفي أقل من ساعة حشد خالد قوة كافية من الفرسان والهجانة وشدّ في اثر أخيه لمؤازرته . ولما بلغ المكان وجد ان اخاه قد تمكن من ضرب الحامية واحتلال المحطة عند الغروب . فهرع الرجال اليها ينهبون كل ما وصلت اليه أيديهم . وعند منتصف نهار اليوم التالي وصلت رسل طراد ينبئوننا بسقوط درعا فتقدّم ناصر وتبعناه جميعنا للانضمام إلى قواتنا الضاربة في درعا فبلغناها عند شروق الشمس .

احتل ناصر دار الحكومة واهتّم بتنظيم ادارة عسكرية لحفظ الامن . ومراقبة المواقع مراقبة دقيقة . وفي أقل من ساعة وضعنا معاً برنامجاً كاملاً للعمل يثبت أقدامنا في درعا .

ولما سألت عن أخبار الجنرال « باور » قيل لي بأن رجاله ينتشرون

الآن للاحاطة بدرعا فسارعت إلى قمة البويب ومنها إلى حيث يتخذ باور استعداداته لمهاجمة درعا كي أبلغه نبأ سقوطها في أيدينا وأوفّر عليه عناء المعركة .

بعد التحية والسلام أخبرت « باور » بواقع الحال ، فدهش للخبر وقال :

— « على كل حال سأذهب إلى درعا كما تشير التعليمات المعطاة لي لأشكل قوة حرس للمحافظة على الامن . »

فأجبته بأن العرب قد سبقوه إلى ذلك ونظموا حكومة عسكرية في المدينة . ولما تقدمنا من الآبار عرض أن يتولى رجاله حراسة الآلات الرافعة للمياه ، فنزلتُ عند رغبته وقلت له بأن رجالة سيكونون موضع احترام العرب . فنظر إليّ شزراً وقال :

— « يظهر لي انكم تتصرفون في درعا كأنكم في منازلكم ولذلك لن أتعرض لكم ، وكل ما هنالك انني سأتولى أمر المحطة . »

فاشترطت عليه لذلك أن لا يتعرض حراسها لشؤوننا وان لا يعترضوا على استخدامنا للخط .

لم يكن « باور » قد تلقى تعليمات بكيفية التعامل مع العرب . كان يظن بأنه سيدخل المدينة فاتحاً فإذا به يحلّ على أهليها ضيفاً . وكنت أنا قد عقدت العزم آنئذ على ان أضع الحق في نصابه وأسعى جهدي إلى تثبيت أقدام العرب في ديارهم الحرة المستقلة مفوتاً على أبناء بلدي الانكليز فرصة المناورة والمداورة اعتقاداً مني بأن هذا المسلك سيكلفنا غالياً في المستقبل .

وفي النهاية أذعن « باور » للامر الواقع وحلّ مع قواته ضيفاً علينا في درعا . وفي اليوم التالي وصل الشريف فيصل من الازرق وكانت قد وصلته أخبار انتصاراتنا في درعا . فهرعنا إلى استقباله رسمياً في المحطة بين التهليل والتصفيق حيث قدمت له تقريراً عاجلاً عن منجزاتنا.

١١٨

بعد أن تزود « باور » بالمؤن والعلف بات عليه أن ينضم إلى « شوفيل » بالقرب من دمشق ليدخلا معاً . وقبل ذهابه طلب « باور » الينا أن نشكل جناحه الايمن في تقدمنا معه ، فهللت لهذا الطلب الذي يعني بأن يتولى تلك المهمة جيش الحجاز بقيادة ناصر الذي ما انفك يطارد الاتراك ويقطع أوصالهم ويبدد قواهم ليلاً ونهاراً دون انقطاع . وبما انه كان أمامي عمل كثير فقد قررت قضاء ليلة أخرى هادئة في درعا بعد ذهاب القوات ، وذلك لأن المحطة كانت خارج البلدة في قلب السهل الخالي على أبواب الصحراء وقد شوش الجنود الهنود عليها وحدتها وعزلتها وصمتها . كما ان وجود اولئك الجنود الهنود هناك مع ضباط بريطانيين ومعاملة هؤلاء لأولئك معاملة فيها كل التمييز والتفريق والمفاضلة العنصرية قد أثار حفيظة العرب الذين لا يألفون مثل هذا التمييز .

حاولت بعد العشاء ان أنام بيد ان الفكر شرد بعيداً . فقد مثل أمامنا الآن الفوز المؤكد والغرض الأسمى . كما قرأت في مخيلتي ذكريات سنتين مملوءتين بالشقاء والامجاد وترددت اسماء كثيرة ، الرم الفخمة ، البتراء الزاهرة ، بترا النظيفة ، الازرق القصي البعيد ، الا ان الرجال تبدلوا . فقد صرعت يد المنون أفضلهم ، وما زالت خشونة الاحياء تصدمني .

وقبل انبلاج الفجر أيقظت « استرلنغ » واثنين من معاوني وتوجهنا إلى دمشق على طريق كثيرة الاخاديد ثم عبر الحقول وصلنا إلى الخط الحديدي الفرنسي وسرنا في محاذاته . وعند الظهيرة أبصرنا راية « باور » مرفوعة فوق معسكره الذي أقامه عند جدول هناك . فقصدت اليه وأعلمته وسط دهشته المتزايدة بأننا نقصد دمشق وسنترك في كل قرية كلمة لطليعة البريطانيين ترشدهم إلى مكان وجودنا وتذكر لهم المسافة التي بينهم وبين العدو .

لم يكن أمامنا ما يعوقنا عن الوصول إلى الكسوة حيث يجب أن نلتقي «بشوفيل» وحيث يدنو الخط الحديدي من الطريق الذي نسلكه. وعلى ذلك الخط بعينه كان يوجد ناصر ونوري الشعلان وعودة مع رجـالهم يشدون في اثر الاربعة الالايات التركية التي ارشدتنا إلى وجودها إحدى طائرات الحلفاء في الشيخ سعد قبل ثلاثة أيام.

ولدى اقترابنا من الاتراك تهادت إلى سمعنا أصوات الرصاص والقنابل من وراء تلة تفصلنا عن الخط الحديدي. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت طلائع فوج تركي من حوالى الفين جندي يمشون متجمعين ولا يتوقفون إلا ليطلقوا بعض القنابل من مدافعهم الجبلية ثم يعاودون الهرب. فأسرعنا للحاق بهم على متن سيارتنا «الرولز» فانكفأ بعض الفرسان العرب عن العدو واتجهوا نحونا، وسرعان ما عرفنا منهم ناصر ونوري الشعلان ومعهما حوالى ستين من رجالهما. ولما وصلا أخبرانا بأن ما نراه الآن هو البقية الباقية من السبعة آلاف تركي الذين قدرتهم طائرتنا بأربعة آلاف. وما زال «عودة» يجهز عليهم ليفنيهم تماماً وقد تحصن مع رجاله عند جبل معين. واستطاع «عودة» فعلاً ان يكتب نهاية الجيش التركي الرابع في ذلك المكان قبل أن يُرخي ليل ذلك النهار سدوله.

أما نحن فقد تابعنا طريقنا إلى الكسوة التي بلغناها قبل منتصف الليل وقد غصت بالآلاف من الناس الذين قدموا اليها.

١١٩

الآن انتهت حربنا. غير اننا لا نزال مع ذلك نقضي الليل في الكسوة. لأن الاعراب أشاروا علينا بالحذر مما قد تخبئه لنا الطرقات غير الآمنة،

ولأننا كنا لا نرغب في ان نموت بلهاء وعلى أبواب دمشق محط آمالنا .
كان الاستراليون يرون في عملياتنا العسكرية نوعاً من السباق الذي تشكل
دمشق نقطته النهائية . ولكننا في الواقع كنا جميعنا قد أصبحنا تحت امرة
« اللنبي » والنصر لم يكن سوى ثمرة عبقريته وجهود « بارتولوميه » ووفقاً
للمخطط التكتيكي الذي وضعناه . كان على الفرسان الاستراليين احتلال
مشارف دمشق الشمالية والغربية بين الخطوط الحديدية قبل وصول القوات
الحليفة إلى المدينة من جهة الجنوب . وأما نحن في الغرب فقد كان علينا
انتظار تقدم البريطانيين البطيء لأن « اللنبي » كان يرغب في أن نكون
حاضرين عند دخوله إلى المدينة لعلمه اليقين بما تمثله دمشق في عيون
العرب ، وليقينه بأن وجود العرب إلى جانبه يوفر عليه الكثير من العناء
مع الاهالي الذين التفّوا بمجموعهم حول حركة الشريف فيصل . وأعطانا
« اللنبي » فرصة ليلة كاملة كي نقنع الدمشقيين باستقبال الجيش البريطاني
كحليف لهم في مدينتهم .

وكان هذا الطلب يعني بلا ريب ثورة في المسلك ان لم يكن في الرأي .
إلا ان لجنة فيصل في دمشق كانت منذ عدة شهور على اتم الاستعداد
لاستلام زمام الامور في المدينة بمجرد انهيار الحكم التركي . وكان يكفينا
الاتصال بتلك اللجنة لشرح نوايا الحلفاء لها وكل شيء يتم على ما يرام .
فما ان أرخى الليل سدوله حتى أرسل ناصر عدداً من فرسان الرولا إلى
دمشق في محاولة للاتصال بعلي رضا رئيس لجنة فيصل هناك أو بشكري
باشا الايوبي لأفهامهما بأن المساعدات ستصل اليهم مع الصباح إذا تمكنوا
من تشكيل حكومة في أثناء الليل . غير ان الحكومة في الحقيقة كانت
قد تشكلت منذ الساعة الرابعة بعد الظهر قبل أن نفكر نحن في الامر .
لم يكن علي رضا موجوداً في دمشق آنذاك وقد عينه الاتراك أخيراً
قائداً لجيشهم المتقهقر من الجليل أمام قوات « شوفيل » . إلا ان شكري
باشا كان قد وجد عوناً غير منتظر له في الاخوين الجزائريين محمد سعيد

وعبد القادر ، وبمساعدة الانصار تمكّن من رفع العلم العربي على مبنى البلدية قبل غروب الشمس فيما كانت الصفوف الاخيرة من الجنود الاتراك والالمان تُخلي المدينة وتمر كسيفة أمام دار البلدية .

رغب ناصر في دخول المدينة تحت جنح الظلام فأثنيته عن عزمه وأقنعته بأن من الأليق لمقامه دخولها في الصباح . واكتفينا بأن أرسلنا اليها أنصارنا بأربعة آلاف من رجالنا ثم حاولنا النوم وسط دوي الانفجارات التي خلفها المنسحبون وراءهم وأيدينا على قلوبنا خوفاً من أن تكون المدينة العظيمة قد كُتب لها ان تقدم رمادها ثمناً لحريتها .

ومع انبلاج الفجر سارعنا بالسيارة إلى قمة الجبل الذي يشرف على ساحة دمشق ظانين اننا لن نرى سوى أنقاض وخرائب . غير انه لم يكن هناك شيء مما خشيناه بل كانت المدينة بين الخمائل الخضراء كعادتها دائماً جوهرة متلألئة تداعبها أشعة الشمس فتقدمنا في الطريق المسور فيما كان يسرع نحونا أحد الفرسان ويقدم لنا عنقوداً من العنب وهو يقول : « ان دمشق تحييكم وترحب بكم . » وكان هذا الفارس مبعوث شكري باشا الينا .

كان ناصر منتحياً عنا قليلاً فأطلعناه على الحوادث ليكون على علم بها ويدخل دمشق دخولاً جديراً بخمسين معركة نازل فيها العدو . وكان نوري الشعلان إلى جانبه فخبت فرسه الخبب الاخير وتوارى في غيمة من الغبار فتركناه يتقدم بأبهة وملت مع « استرلنغ » إلى جدول قريب طلباً لقسط من الراحة .

ولما ازفت ساعة اللحاق بناصر تقدمنا في الشارع الذي أوصلنا إلى سراي الحكومة على ضفاف بردى . وكان الشارع آنذاك غاصاً بالجموع المحتشدة كما كانت الجماهير تحتل الشرفات والسطوح والنوافذ والابواب . بعضهم يذرفون دموع الفرح والبعض الآخر يحيون بوجل وينادوننا بأسمائنا دون ان يملوا النظر الينا .

وفي سراي الحكومة كانت المعالم قد تبدلت فغصّت السلالم والمدارج والدهاليز والباحات بالناس يغنون ويهزجون ويرقصون ويتعانقون ، واصطفت الجماهير لمرورنا تفسح لنا حتّى بلغنا الردهة الداخلية حيث لقيت ناصراً البهي الطلعة جالساً وإلى جانبه نوري الشعلان يحيط بهما الأخوان الجزائريان محمد سعيد وعبد القادر علوي القديم ، فوقفت مشدوهاً متعجباً لا أصدق ما يقع عليه نظري فيما تقدم مني محمد سعيد صارخاً : « لقد ألّفنا بالامس أنا وأخي أحفاد عبد القادر الجزائري مع شكري باشا الايوبي سليل صلاح الدين حكومة وطنية وناديناً بالحسين ملكاً على العرب على مسمع ومرأى من الاتراك والالمان المدحورين . »

التفتُّ إلى شكري باشا الايوبي أستوضحُه الخبر فأسرَّ إليَّ بأن الاخوين الجزائريين عضدا الاتراك حتّى آخر لحظة . ولما قطعا الامل من بقائهم في دمشق فرضا نفسيهما بقوة السلاح على لجنة فيصل المجتمعة اجتماعاً سرياً وتولّيا مراقبتها بعنف يعضدهما رجالهما المسلحون.

وقد كان الجزائريان مشهورين بتعصبهما الديني وبقصر نظرهما وتصلب رأيهما ، لذلك تطلعت إلى ناصر أريد أن أدفعه لوضع اللجام فوراً لمثل هذه الوقاحة ، وإذ بحادث طارئ يلهيني عنهما ، وقد زمجر الجمهور وتدافع بالمناكب وانشق القوم إلى شطرين وانقشع الازدحام عن فتحة ظهر فيها « عودة ابو تايه » و« سلطان الاطرش » عميد الدروز يتشاجران ويزمجران وأتباعهما من حولهما يتراكضون من كل ناحية فأسرعت لحسم الخلاف مستعيناً لذلك بمحمد الضغلان ووفقت إلى وضع حد لنزاعهما .

ولما عادت الامور إلى نصابها فتشت عن ناصر وعبد القادر للعمل على تنظيم الحكومة الجديدة فلم أجدهما بل قيل لي بأنهما قد توجها إلى بيت عبد القادر لتناول شيء من المرطبات . سررت لهذا النبأ وانصرفت إلى ما هو أهم واجدى . حاولت اظهار شكري باشا على انه حاكم فعلي للمدينة يستمد قوته من قوتنا ويمثل الشريف فيصل أصدق تمثيل . وكان

يكفي لذلك ان نظهر معاً على الجماهير . ففعلنا وركبنا سيارتنا الزرقاء فما كدنا نخرج من السراي حتى طغت علينا الجماهير تحيينا وترحب بنا . وقد خرجت دمشق عن بكرة أبيها في ذلك اليوم لتعبّر عن فرحتها بزوال كابوس الطغيان والاحتلال عنها . ولما وصلنا في تطوافنا إلى الناحية الجنوبية قيل لي بأن «شوفيل» قد وصل إلى طرف المدينة فقصدته وطلبت اليه البقاء خارج الاسوار مدة يومين ريثما تهدأ حالة المدينة وعندها أقصد إلى مكتبه للبحث في حاجاته وحاجتنا معاً . وتعهدت له بأن أتحمل مسؤولية الامن العام في غضون ذلك .

١٢٠

عدنا بصعوبة إلى دار الحكومة لتصفية قضية عبد القادر الجزائري . ولكنني لم أجده ، فأرسلت في طلبه مع أخيه . غير ان الجواب جاء بأنهما لا يزالان نائمين . افهمت الرسول مقاصدي دون مواربة . وانصرف وما هي إلا برهة وجيزة حتى أطل علينا حيث كنا نتناول شيئاً من الطعام أحد أقارب الاخوين الجزائريين مهرولاً ليخبرنا بأنهما قادمان الينا . ومن ارتباكه تنبأت انه يكذب . إلا انني تحاملت على نفسي وتظاهرت بتصديق ما يقول ثم اردفت :

— « إذا مضى نصف ساعة دون أن يحضرا فسأرسل جنوداً بريطانيين للبحث عنهما واعتقالهما . »

فما كاد الرجل يسمع هذا الكلام حتى انصرف عائداً اليهما كالبرق بينما سألني نوري الشعلان عن حقيقة ما أنوي عمله .

قلت عندئذ :

– « اني اسقط عبد القادر ومحمد سعيد واقيم شكري مؤقتاً ريثما يصل فيصل . »

قلت ذلك بلطف لأنني كنت آنف من ان أجرح شعور ناصر ، ولأنني كنت لا أملك قوة السلاح في حالة حصول مقاومة . سألني نوري الشعلان متعجباً :

– « ولكن ألا يأتي البريطانيون لنصرتك ؟ »

فأجبته بعد اطراقة قصيرة :

– « حتماً سيتدخلون ، ولكنهم للأسف لن يخرجوا من المدينـة بعد ذلك . »

وبعد تفكير أردف نوري الشعلان قائلاً :

– « إن رجال الرولا في خدمتك فيما لو قررت أن تفعل شيئاً . وبسرعة فائقة إذا شئت أستطيع أن أحشدهم ليكونوا تحت امرتك . »

وخرج الشيخ فوراً ليجمع قبيلته لنصرتي . وبعد قليل قدم الجزائريان متبوعين بحرسهما الخاص والشرر يتطاير من عيونهما ، إلا أنهما التقيا عند مرورهما برجال نوري الشعلان على اتم الاستعداد لتلقينهما الدرس الذي يستحقان ، كما صادفا قوات نوري السعيد النظامية تحتل الحديقة ، وحرسي الخاص داخل السراي ، وكنت أنا أتمشى في الردهة المعترضة غير مبال فتأكد لهما بأننا قد ربحنا المعركة سلفاً ، ولكن الاجتماع كان مع ذلك عاصفاً .

بصفتي مندوباً لفيصل فاجأت الحاضرين باعلان عزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الجزائريان في الامس وبتعيين شكري باشا الايوبي حاكماً عسكرياً ونوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة وعزمي نائباً له وجميل مديراً للامن العام . نزل هذا الاعلان نزول الصاعقة على رأس الاخوين الجزائريين فهبّ محمد سعيد يشتمني ويتهمني بأنني مسيحي انكليزي ويدعو ناصراً لنصرته عليّ وهو ابن عنصره ودينه وأوقعه في

مأزق حرج بينما هبّ عبد القادر شاهراً خنجراً ومنقضاً عليّ والشتائم والسباب تنهمر كالسيل من فمه المرتجف من حدة الغضب ، إلا ان « عودة » الصديق القديم سارع إلى الانقضاض عليه وحال دون وصوله ثم تدخل نوري الشعلان في الامر وأعلن ان قبيلة الرولا القوية تقف إلى جانبي . ولذلك لم يبق أمام الشقيقين سوى الانسحاب مغلوبين على امرهما . ورغم اقتناعي بامكانية القبض عليهما في الحال والفتك بهما فلم أرغب في اللجوء إلى ذلك حتى لا يتخذ العرب في المستقبل تعرّضي هذا مثلاً يحتذى في تنفيذ سياستهم .

وانصرفنا عن ذلك إلى العمل . وكان هدفنا اقامة حكومة عربية ثابتة على قواعد متينة ووطنية تصلح لأن تستخدم لأهداف سلمية حماسة الثورة وتجردها . وكان علينا في ذلك الظرف ان نحافظ ما أمكن على الروح الاسلامية العريقة ونأخذ بعين الاعتبار ان ٩٩ بالمئة من الشعب الذي ستسند اليه دعائم الحكم الجديد يدينون بالولاء الصادق لتلك الروح .

ومما لا مجال لانكاره ان الثوار والمظفرين منهم بنوع خاص لا يحسنون الولاء كما لا يحسنون الادارة والحكم . ولذلك رأى فيصل نفسه مضطراً لأن يبعد عنه رفاق السلاح ويقرب اليه تلك العناصر التي اظهرت كفاءة ودراية أثناء خدمتها في ظل الحكم التركي . لم يكن ناصر متعمقاً كفاية في منعرجات علم السياسة ليدرك ذلك . أما نوري السعيد ونوري الشعلان فقد كانا على العكس يجيدان الألاعيب السياسية . وهكذا انصرف الاثنان بحماسة ودهاء إلى تشكيل هيئة اركان حرب على جناح السرعة . ثم إلى ملء المراكز المتعددة في الخدمات والادارات التي لا بدّ منها لتسيير عجلة الحكم في كل بلد .

ونجحت المهمة ، ونمنا في تلك الليلة قريري العين وقد تحقق للعرب بعد ثورة عارمة قيـام حكومة وطنية في دمشق عاصمتهم التاريخية .

١٢١

في صباح اليوم التالي جاء لايقاظي مواطن يرتجف من الخوف . وابلغني بأن عبد القادر قد أعلن الثورة على الحكم الذي أقمناه في الامس . فاستدعيت نوري السعيد على جناح السرعة موقناً بأن هذا الجزائري الاحمق إنما يحفر قبره بيده . وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلناً بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانية ودعا إلى القضاء على حكمهم في المهد خدمة للدين وللخلافة . وبما ان أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبّوا لمحاربتنا .

والدروز الذين كنت في الامس قد رفضت اغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة ادّوها لنا ، تبع عدد منهم عبد القادر ، ليس حباً به ، أو غيرة على الدين والخلافة ، أو ولاء للاتراك المقهورين ، بل حباً بالسلب والنهب طالما ان الفرصة مؤاتية . ويثبت صحة ذلك انهم قد انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضاً عن التوجه الينا ومحاربتنا .

في هذه الاثناء كان نوري السعيد قد وزع قواتنا على النقاط الحساسة في المدينة وبدأت عملية تمشيط الشوارع وحصر العصاة . ولم تصل الشمس إلى كبد السماء إلا وكل شيء قد انتهى . الدروز تركوا كل شيء سلبوه في الشوارع ولاذوا بالفرار ، محمد سعيد وقع في قبضة قواتنا واقتيد إلى سجن دار البلدية وعبد القادر تخلى عن أنصاره ولجأ إلى الريف . وأسفرت عمليات القمع السريعة عن مقتل خمسة اشخاص وجرح عشرة آخرين . وقد أبرقت للجنرال اللنبي مطمئناً بعد الاخبار المضخمة التي نسجتها مخيلات الصحفيين عن الاحداث في ذلك الصباح .

١٢٢

في صباح اليوم التالي كانت دمشق هادئة . المحلات والحوانيت مفتوحة ، التجار في متاجرهم ، حركة المرور ناشطة والحافلات الكهربائية عادت إلى سيرها الطبيعي ، كما بدأت أحمال الخضار والفواكه والحبوب ترد بكثرة إلى الاسواق .

هذا وقد بدأت فرقة التنظيفات في عملية غسل الشوارع وتنظيفها بعد الذي تراكم فيها خلال سنوات الحرب الاربع . كما أعيد وصل خطوط الهاتف مع فلسطين وبيروت التي استولت عليها القوات العربية أثناء الليل . وقد كنت منذ أيام الوجه قد حذرت العرب من ارتكاب مثل هذا الخطأ ناصحاً إياهم بأن يتركوا لبنان للفرنسيين تملقاً لهم . والاستعاضة عنه بطرابلس ، لأن طرابلس كمرفأ هي أفضل من بيروت بكثير . ويمكن لانكلترة ان تقر لهم ذلك في ميثاق السلام . ولذلك غضبت لتصرفهم الخاطئ هذا . ولكنني في الوقت نفسه كنت مغتبطاً لكونهم قد أصبحوا كباراً لا يستمعون إلى نصائحي والعمل بآرائي .

قمت في ذلك النهار بجولة في المدينة وقصدت المستشفى في محاولة لتنظيم الامور فيه ، ولما عدت إلى الفندق وجدته محاطاً بجماهير غفيرة وأمامه سيارة « رولز » طحينية اللون سرعان ما تعرفت عليها بأنها سيارة الجنرال اللنبي . فأسرعت إلى الداخل لأجده في انتظاري مع كلايتون وكورنواليس وغيرهم . وبكلمات قليلة ، أعلن اللنبي موافقته على ما اتخذته من اجراءات في درعا ودمشق وأقرني على تعيين شكري باشا الايوبي حاكماً عسكرياً لدمشق تحت امرة فيصل القائد العام للقوات العربية . ثم حدد الدائرة العربية ، ودائرة نفوذ « شوفيل » ، كما وافق على أن يأخذ على عاتقه مهمة تسيير سكة الحديد وادارة

المستشفى . وفي لحظات معدودات ذلّلت كل العقبات التي كانت تقلقني فقرت عيني أخيراً بالنجاح الذي أحرزته رغم كل الصعوبات .

وفيما نحن نتجاذب أطراف الحديث قيل لنا بأن القطار الذي يقل فيصل من درعا قد وصل إلى المحطة ، فكلفنا «يونج» بالذهاب اليه واستقباله باسمنا في المحطة . وبعد برهة من الوقت ووسط هتافات الجماهير المدوية وصل فيصل ليجتمع بالجنرال اللنبي لأول مرة وكلاهما في قمة النصر والمجد .

وكانت مهمتي في هذا الاجتماع ان أقدم كلاهما للآخر وأتولى عملية الترجمة بينهما . وبعد ذهاب فيصل التمستُ من اللنبي السماح لي بالعودة إلى بلادي . فأجابني مصراً بالرفض . ولكنني نجحت في اقناعه بأن الامور تسير أحسن بدوني ، وسيشعر العرب حقيقة بأنهم أصبحوا أحراراً مستقلين ، فوافق على ذهابي . وعندئذ شعرت بالحزن يتملكني .

انتهى



فهرست

صفحة